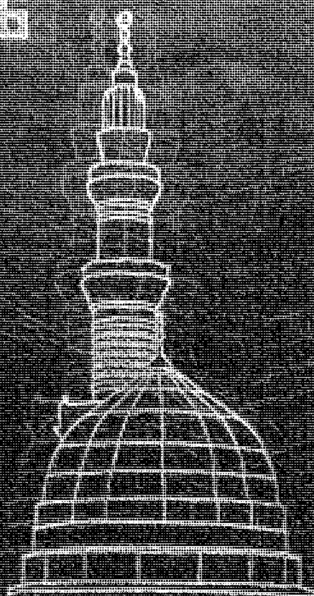
الدكتور
عبد الباسط بدر



التاريخ الشامل للمدينة المنورة

الجزء الثاني

التاريخ الشامل للمدينة المنورة

د/ عبد الباسط بدر

الجزء الثاني

بسم الله الرحمن الرحيم

المدينة المنورة - ص.ب ٣٦٦٢

الطبعة الأولى

١٤١٤هـ - ١٩٩٣م

المدينة في عهد العباسيين

إمارة داود بن عيسى:

وصل داود إلى المدينة أميراً عليها فأصبحت المدينة عاصمة لإمارة واسعة تضم معظم شبه الجزيرة العربية، فقد أضيفت إليه مناطق مكة والطائف واليمن واليمامة، واشتغل بترتيب أمور إمارته وبالتجهيز لموسم الحج، ورتب أمر شرطته وعزل من ظن به الولاء أو الميل للأمويين، واستقبل الذين وفدوا يسلمون عليه بالإمارة، وكان فيهم عدد من الأمويين الذين بقوا في المدينة، ولم تكن لهم مشاركة في الأمور السياسية... فلم يبد لهم شيئا.. وخرج إلى الحج، فلما وصل إلى مكة أظهر التسامح والعفو، ووقف الى جوار الكعبة وخطب بالناس وذكر ما فضل الله بني العباس من قرابة إلى رسول الله ﷺ ومكانتهم في الجاهلية والإسلام، وظلم بني أمية لهم، ثم انتصار العباسيين عليهم، وختم الخطبة معلناً العفو عما سلف، ومما قاله: إنما كانت لنا فيكم تبعات وطلبات، وقد تركنا ذلك كله، وأنتم آمنون بأمان الله، أحمركم وأسودكم وصغيركم وكبيركم، وقد غفرنا التبعات ووهبنا الظلامات. وضرب بيده إلى الكعبة قائلاً: فلا ورب هذه البنية لا نهيج أحدا..(١).

فاطمأن الناس وانصرفوا إلى شعائر الحج.. فلما مضت أيام الحج عاد داود بن عيسى إلى المدينة، وأظهر لأهلها الحزم وهدد من تحدثه نفسه بالفتنة، وخطب فيهم قائلاً: أيها الناس: حتام يهتف بكم صريخكم، أما آن لراقدكم أن يهب من نومه، كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون. أغركم الإمهال حتى حسبتموه الإهمال؟ هيهات منكم، وكيف بكم والسوط فيكفي

---

١) الوثائق ٨٨

والسيف مشهر، وتمثل بالبيتين:(١).

حتى يبيد قبيلة فقبيلـــــــة ويعض كل مثقف بالهـــــــام

ويقمن ربات الخدور حواسراً يمسحن عــرض ذوائب الأيتام

ثم أمر بالقبض على جميع الأمويين، وكان بعضهم قد فر من المدينة أو اختبأ في بعض بيوتها عند مجيء داود.. حتى إذا مرت الأيام الأولى ولم يعاقب داود أحداً منهم اطمأن وعاد إلى بيته وحياته العادية، فأخذ مع من أخذ وأسرع عبدالله بن الحسن إلى داود بن علي يتشفع فيهم ويسأله ألا يقتلهم، ولكن داود أبى وأمر بقتلهم.. وشهدت المدينة، بعد شهر من دخولها في طاعة العباسيين، مذبحة عدد من أبنائها الأمويين، ولم يبق منهم إلا الفتيان والنساء.. وصودرت قصورهم، كقصر عنبسة بن سعيد بن العاص.

ومع أن عددا من أهل المدينة كانوا متضايقين من الأمويين إلا أن هذه المأساة حزت في نفوسهم. ولم يمكث داود بن علي بعدها سوى شهر حيث داهمته علة شديدة وقضت عليه خلال أيام قليلة، فتوفى في ربيع الأول عام ١٣٣هـ، وعندما أحس بدنو أجله استخلف ابنه موسى، أملا في أن يكون الأمير عليها من بعده. وعندما بلغ الخبر الخليفة السفاح عقد الولاية لخاله زياد بن عبدالله الحارثي وكان السفاح شديد الاعتماد على أخواله وأعمامه، وكأنما عز عليه أن تكون تلك الإمارة الواسعة في غير أيديهم.. وربما يكون وراء ذلك سبب آخر هو القلق من الهاشميين الموجودين في المدينة.. ولا سيما محمد بن عبدالله بن الحسن بن الحسن..

وصل زياد بن عبدالله الحارثي إلى المدينة بعد توليته بقليل.. فاراد أن يوثق إمارته ويدخل هيبتها في قلوب الناس.. فأمر بإعداد حملة من أهل المدينة وما حولها لتسير إلى اليمامة.. وكان معظم أهل المدينة يميلون إلى السلم والراحة، غير أن دماء الأمويين التى سفكت قبل قليل جعلت أهل المدينة

---

١) الوثائق ٨٩

يستجيبون لطلب الأمير الجديد.. فاكتتب الشباب في الحملة، وولى زياد قيادتها إبراهيم بن حسان السلمي، أحد أبناء المدينة، وأمره أن يسير إلى المثنى بن يزيد بن عمر بن هبيرة في اليمامة.. وكان المثنى متحكماً في أمورها، وقد عرف آل هبيرة بولائهم السابق للأمويين وتولوا عدة ولايات لهم في خراسان وأطارف العراق واليمامة وحاربوا في صفوفهم ضد العباسيين، وبعد هزيمة الأمويين بايعوا للعباسيين، ولكن العباسيين لم يطمئنوا لولائهم وقتلوا عدداً منهم.

سارت الحملة إلى اليمامة واستطاعت أن تفاجيء المثنى وجيشه القليل.. وتتغلب عليهم.. فقتل المثنى وعدد كبير من صحبه.. وعادت الحملة إلى المدينة بالأسرى والغنائم.

تغييرات في حياة المدينة:

بدأت معالم التغير بطيئة في حياة المدينة، فانتقال الحكم إلى العباسيين لم يغير من أمورها الكثير أول الأمر.. اللهم إلا إخلاء المدينة من كبار الأمويين وتطامن من بقي منهم على قيد الحياة، وفقدهم التميز الذي كانوا يشعرون به، والثروة التى كانوا يتمتعون بها، وانخراطهم في تيار الحياة اليومية مع سائر أهل المدينة.

أما الهاشميون فقد تحسنت أوضاعهم أول الأمر.. وأكرمهم أبناء عمومتهم العباسيون، وكان مقدمهم في المدينة عبدالله بن الحسن بن الحسن. وقد سافر عبدالله مع ابنه الحسن وبعض أقاربه إلى الخليفة في العراق، فأكرمه إكراماً بالغاً، ولكنه لم يخف عنه قلقه من ولده محمد بن عبدالله بن الحسن، الملقب بذي النفس الذكية. وكانت ذكريات تحريض محمد على الثورة زمن مروان بن محمد ومبايعة عدد من الهاشميين والعباسيين له، ومن بينهم أبو العباس نفسه وأخوه أبو جعفر المنصور، كانت تلك الذكريات تقلق السفاح.

أدرك السفاح أن الهاشمين أصيبوا بخيبة أمل كبيرة عندما انتقلت الخلافة إلى العباسيين، فهم الذين كانوا مضطهدين أيام الأمويين.. وبدمائهم أطفئتت ثورات عدة شارك فيها آلاف الناس، لذلك آثر السفاح أن يتألفهم ويحول دون انفجارهم، وعندما وجد استجابة عبدالله بن الحسن بن الحسن لمعاملته الرقيقة فرح بها، وحاوره في أمر ابنه محمد (النفس الذكية) وتغيبه عن بيعته، فأكد له عبدالله أن محمداً لن يخرج عليه، وأنه يكنّ له المودة والطاعة.. وعاد إلى المدينة ليوطد ولاء الأسرة الهاشمية للعباسيين، ويحول دون شقاق ابنه.. ونجح في ذلك.. وكان أبو العباس قد أوصى أميره على المدينة زياد بن عبد الله خيراً بالهاشميين فأحسن إليهم زياد، ولم يضايق أحداً منهم.. ولكنه لم يأل جهداً في مراقبة تحركاتهم، وخاصة محمد بن عبدالله بن الحسن، وكان زياد يكتب بكل ما يصله من أخبار عنهم إلى الخليفة.. وقد حرص الخليفة على أن يُبقي الجسور قائمة مع عبد الله بن الحسن، فكان يرسل إليه ما يأتيه من روايات وشكوك، ويعاتبه على ما ينقل عنه وعن أبنائه، ويذكره بعهوده، فيجيبه عبد الله بن الحسن إجابات رقيقة ويؤكد له ولاء أسرته له، وقد كتب السفاح لعبد الله بن الحسن بأنه بلغه أن ابنيه محمد وإبراهيم يعدان للثورة عليه. وتمثل في ختام الرسالة ببيت له مغزى كبير يقول:

أريد حياته ويريد قتلي   عذيرك من خليلك من مراد

فأجابه عبدالله بن الحسن برسالة لبقة ينفي فيها ما بلغ الخليفة من وشايات ويؤكد ولاء أبنائه له وتمثل في ختامها بقول الشاعر:

وكيف يريد ذاك وأنت منه   بمنزلة النياط من الفــؤاد

وكيف يريد ذاك وأنت منه   وزندك حين يقدح من زناد

وكيف يريد ذاك وأنت منه   وأنت لهاشم رأس وهــــاد

وقد نجحت سياسة أبي العباس السفاح وسياسة أميره على المدينة(١) في تألف الأسرة الهاشمية وحفظ طاعتها وولائها ومنع تفجر الثورة، ومضت سنتان والمدينة في حياتها اليومية الهادئه يزداد فيها شأن الحركة العلمية التي يقودها مالك بن أنس رضي الله عنه في دروسه بالمسجد النبوي، ويزيدها توهجاً ونوراً عدد من الشيوخ والتلاميذ وطلاب العلم الآخرون، ويخفت صوت السياسة وحديث الخلافة.. إلا من حكايات قليلة تنتشر بين الحين والآخر عن تحركات محمد بن عبدالله بن الحسن وأخيه إبراهيم.. فقد تغيب هذان عن الحياة العامة.. وغادرا المدينة إلى بعض القرى التي لهم فيها أملاك أو أشياع.. وكانا يترددان على المدينة خفية وقلما يظهران فيها..

وفي عام خمسة وثلاثين ومائة أقبل الحجيج من العراق ومعهم أبو جعفر المنصور ولي العهد، وأبو مسلم الخراساني قائد العباسيين المشهور، وحرص أبو جعفر على لقاء الهاشميين.. وكأنه يتحسس درجة ولائهم، ويفتش عن أية بذور للثورة فيهم.. فكان يجالسهم ويحادثهم، ويخص عبدالله بن الحسن بن الحسن بالاهتمام ويسأله عن ولديه الغائبين محمد وإبراهيم، وعبد الله بن الحسن يظهر له كل المودة والولاء ويعتذر لابنيه بأنهما عند بعض أقاربهما في القرى ولا يمكنه أن يوصل إليهما الرسائل، وليس في نفسيهما شيىء ضد الخلافة وخرج أبو جعفر إلى مكة ومعه أمير المدينة زياد بن عبيد الله الحارثي وعدد من الهاشميين وأدى المناسك.. وعاد إلى المدينة ليخرج منها إلى العراق.. فوافاه في الطريق محمد بن الحصين العيدي رسولاً من عمه عيسى بن علي في الكوفة ينعى إليه الخليفة أبا العباس السفاح الذي

---

١) د. محمد ماهر حمادة. الوثائق السياسية والإدارية العائدة للعصر العباسي الأول ٤/٢٩.

توفى في الثاني عشر من ذي الحجة(١)، ويخبره بتحول الخلافة إليه، وأنه أخذ البيعة من الناس في الكوفة، وأرسل إلى الأمصار ليأخذوا له البيعة.. فحط أبو جعفر رحاله قبل أن يصل المدينة وأسرع إليه أبو مسلم الخراساني يعزيه بأخيه وهنأه بالخلافة وبايعه عليها.(٢) وحرص أبو جعفر على أن يأخذ بيعة الهاشميين الذين صحبوه، فأقبل الهاشميون ومن معهم من أهل المدينة فبايعوه.. فأقر أبو جعفر زياد بن عبيد الله على إمارة المدينة ومكة والطائف، وأمره بالتوجه إلى المدينة ليأخذ بنفسه بيعة الهاشميين المقيمين فيها وبقية أهلها، وأن يكلف نوابه في مكة والطائف بأخذ البيعة من أهلها.. فعاد زياد إلى المدينة وجمع الناس في المسجد وحرص على حضور الهاشميين، ثم خطبهم وأخبرهم بوفاة الخليفة أبي العباس وتولي أبي جعفر المنصور، ومبايعة الناس له، وطلب منهم أن يعطوا البيعة.. فما تخلف من الحاضرين أحد.. وما لبث أن جاء خطاب من المنصور يأمر زياداً أن يوزع العطاء على أهل المدينة، وأن يسلمهم أرزاقهم بأيديهم، ويحصي من يتخلف.. وأن يراقب الهاشميين وبخاصة عبدالله بن الحسن بن الحسن وابنيه محمد وابراهيم مراقبة دقيقة.. فشرع زياد يوزع العطاء واستعرض الهاشميين فرداً فرداً.. فلم يتغيب أحد سوى محمد وإبراهيم ابني عبدالله بن الحسن بن الحسن.. فأحضر زياد أباهما عبدالله وسأله عنهما فكرر ما كان يقوله: ما أعرف أين هما.. فكتب زياد بذلك إلى الخليفة.

كان الخليفة أبو جعفر مشغولاً بمن حوله: عمه عبدالله بن علي الذي خرج عليه، وأبو مسلم الخراساني الذي تعاظم نفوذه.. ولكنه على ما عرف عنه من حذر وحزم أدلك خطورة تغيب محمد وابراهيم ابني عبد الله بن الحسن.. فهما لم يبايعا ولم يحضرا لأخذ العطية.. ومحمد بن عبدالله الذي هادن السفاح مدة

---

١) الطبري ٧/ ٤٧٠

٢) اليعقوبي ٢/ ٣٦٤.

خلافته قد لا يهادنه. لذا كتب إلى زياد يأمره بتشديد المراقبة وبث العيون للوصول إلى أخبار محمد وابراهيم، ومراقبة بيت أبيهما عبد الله بن الحسن بن الحسن، ورصد الرجال الذين يلقونه لضبط أي اتصال بينه وبين أبنائه.. وكان زياد بن عبيد الله على حزمه وشدته يرق للهاشميين ويرى أن التشديد عليهم ربما يدفعهم إلى خلع الطاعة.. وكان معجبا بشخصية عبدالله بن الحسن بن الحسن وأبنائه.. لذلك حرص على أن ينفذ أوامر الخليفة بطريقة لينة.. فكان يستزير عبدالله دائما ويجالسه، وكان عبدالله حسن الحديث والمسامرة، ذا علم وافر ودراية بمجالسة الأمراء.. وقد نجح زياد في تألفه والمحافظة على ولائه وعلى العهود التي أعطاها بألا يخرج ابناه على الخلافة، وعلم أبو جعفر بتصرفات زياد، فأرسل يلومه ويعنفه.. ويأمره برصد الداخلين إلى المدينة والخارجين منها، والذين يقصدونه أو يزورونه.. ولم يكن زياد بن عبدالله يحس بما في نفس أبي جعفر المنصور.. وكان يرى أن الأمر لا يزيد عن توجس مبالغ فيه، ولم تكن لزياد أية خصومة مع الهاشميين.. ثم إنه ((حارثي)) وليس ((قرشياً)) ولم يدخل في منافسات على السلطة أوالتفكير فيها رغم كونه خال الخليفة السابق أبي العباس، لذا لم يأخذ عبدالله بن الحسن بالشدة التي طلبها المنصور، وربما كان يرى أن التشديد المبالغ فيه سيحول الولاء الذي يبديه عبدالله بن الحسن - ولو لم يكن مخلصا فيه - إلى خصومة علنية، وربما يكون هناك سبب آخر هو نصائح كاتبه حفص بن عمر، وكان حفص يتشيع سراً لمحمد بن عبدالله.. وينتهز الفرص المناسبة لسرد الأخبار عما لاقاه الهاشميون من معاناة والتأثير على زياد، وقد أثر حفص في زياد وجعله يصم أذنيه عما تنقله إليه العيون أحياناً، وقد نقلوا له عدة مرات أن محمد بن عبدالله بن الحسن مختبىء في المدينة أو أنه شوهد يصلي في المسجد النبوي، فلا يرسل من يتحرى الأمر أو يقبض عليه إلا بعد أن يتأكد من خروجه من المكان أو تحوله عن المكان الذي وشي به فيه.. وتناقل الناس

في المدينة أخبار محمد بن عبدالله، وتحدثوا عن جرأته وبراعته في التنكر ودخول المدينة والتجول في أحيائها وحضور الصلاة في المسجد النبوي أحياناً، وتواترت الروايات، وذكر بعضهم أنه شاهده يطرق الباب على أبيه ويدخل بيته رغم وجود الشرطة في طرف الشارع.. وأخذت هذه الأخبار تنتشر وتزداد في الانتقال من راو إلى راو، وتتخذ سمة بطولية وعاطفية تزرع في الناس الإعجاب بمحمد بن عبدالله بن الحسن، وكما توقع أمير المدينة صار أمر محمد بن عبدالله قضية تشغل جزءاً من مجالس الناس، وتستميل إليها بعض القلوب، وقد وصلت بعض الحكايات إلى الخليفة، فاشتد قلقه. فلما كان موسم الحج التالي جاء الخليفة يقود وفد الحجيج.. وخرج وجوه أهل المدينة لاستقباله، وفيهم عبدالله بن الحسن فهش له الخليفة وأدناه من مجلسه وأقبل عليه يحادثه، ثم دعا بالطعام وجلس يأكل معه.. حتى إذا فرغا واستأنس كل منهما بالآخر سأله أبو جعفر عن ابنيه، فأخبره عبدالله بن الحسن أنه لا يعرف مكانهما.. فألح عليه، فأكد له الكلام نفسه، وأخذ أبو جعفر يذكره بالعهود والمواثيق، ويحذره أن ينقضها، وعبدالله يؤكد الولاء والطاعة. واستدعى المنصور عدداً من أهل المدينة يسأل كل واحد منهم على حده عن رأيه في محمد بن عبدالله بن الحسن وسر اختفائه، فكان كل واحد يجيب بمثل ما أجاب عبدالله بن الحسن، واستدعى الهاشميين فأجابوه بالجواب نفسه أيضاً، غير رجل واحد كانت بينه وبين محمد بن الحسن ضغينة، هو ابن عمه الحسن بن زيد بن الحسن بن علي بن أبي طالب..(١) فقد حذر أبا جعفر من ابن عمه، وأكد له أنه يطلب الخلافة وأنه يتحين الفرصة للخروج عليه ومحاربته، فوقع كلام الحسن بن زيد في نفس أبي جعفر موقعاً عظيماً واهتم له، وأحضر عبدالله بن الحسن وطلب منه أن يتصل بابنيه بأية وسيلة ويحضرهما، ووعده الوعود القاطعة أن يقربهما ويوليهما

---

١) الطبري ٥١٨/٧. والكامل ٣٧٠/٤.

بعض الإمارات، فأقسم عبدالله أنه لا يعرف مكانهما.. فغضب الخليفة وكاد أن يبطش بعبدالله، فقام زياد بن عبدالله وألقى عباءته على عبدالله بن الحسن واستأمن له من الخليفة، ووعده أن يكفيه أمر محمد وإبراهيم ابني عبدالله بن الحسن فهدأت نفس الخليفة، وسمح لعبدالله بالإنصراف سالماً..

انتشر الخبر في أطراف المدينة فضخم قضية محمد بن عبدالله، وجعلها حديث المجالس، وانقسم الناس إلى كاره متخوف من أن تتكرر مأساة الهاشميين، فيصيب المدينة شيىء من أوضارها، وناقم على أبي جعفر المنصور والعباسيين.. لسيرهم على نهج الأمويين في الحذر من الهاشميين والضغط عليهم..

وهكذا عاد القلق إلى المدينة ليصبح جزءاً من حياتها اليومية، ينتقل مع الحكايات المتواترة عن عبدالله بن الحسن وأبنائه ولا سيما محمد بن عبدالله، ولا شك أن هذه الحكاية ستسهم في صنع صورة بطولية له.. ومحمد يملك عناصرها: الشجاعة والتقوى والإصرار على عدم البيعة.. وإشاعة خبر مبايعة العباسيين له، وفيهم أبو جعفر نفسه أيام مروان بن محمد، وتتطور الحكايات، ويزيد عليها بعضهم ما سمعه من هنا وهناك، وما يضيفه الخيال، وتصبح هذه الحكايات دعاية ناجحة تستميل إليه بعض القلوب وتهيؤها للاستجابة لدعوته.

ولم تكن هذه الأحداث هي الشغل الشاغل لأهل المدينة.. بل كانت جانباً منه، تأخذ قسطاً من أحاديث السمر والأخبار التي يتناقلها الأصحاب كلما التقوا، وكانت الجوانب الأخرى حلقات العلم في المسجد النبوي، بخاصة بعد أن نبغ مالك بن أنس وأصبح مقصد طلاب وفقهاء كثيرين، وصارت حلقته تتسع وتتسع، وكان مالك محور حركة علمية واسعة يشكل أهل الحديث جانباً آخر فيها، وأهل التفسير جانباً ثالثاً، فضلاً عن أهل اللغة ورواة الأدب والأخبار، وكان للهاشميين قسط وافر في حلقات العلم، محدثين ومستمعين،

وكان عبدالله بن الحسن واحداً منهم.. وقد أقلقه اهتمام المنصور الشديد بأبنائه والتضييق عليه.. ولولا ما يحسه من عطف الأمير زياد بن عبيدالله وتساهله معهم لكانت محنته أشد بكثير، وقد بلغ من الضيق مرة أن فكر بالاستجابة للمنصور وإحضار ولديه إليه، لتخرج الأسرة من ذلك القلق، وينهي ابناه تشردهما، وقلقهما وهم أن يكتب إليهما ليحضرا إليه فيصحبهما بنفسه الى الخليفة قبل أن يقفل عائداً من الموسم.. وقام في نفسه صراع بين هذه الرغبة التي يجد فيها حلاً لمشاكل الأسرة وربما تحسيناً لوضع المدينة كلها، وبين خوفه من أن ينكث المنصور بوعوده فيقتل ابنيه.. وأخيراً قرر أن يستشير سليمان بن علي بن عبدالله عم الخليفة وأحد أفراد حاشيته، وكان بين عبدالله بن الحسن وسليمان مودة.. فجاءه واستوثقه بما بينهما من مودة وقرابة، وسأله النصيحة الصادقة، فخوفه سليمان، وذكر له ما فعله المنصور بعمه حين خرج عليه، حيث أنه قتله بعد أن أعطاه الأمان، فتأثر عبدالله بن الحسن بقول سليمان، وعاد إلى رأيه الأول، وعدل عن تسليم ابنيه للمنصور..

عاد المنصور إلى الكوفة، فأرسل بعض عيونه إلى المدينة ليتحسسوا له الأخبار، فقد بدأ يشك في واليه زياد بن عبيدالله ويظن فيه التساهل في أمر محمد بن عبدالله بن الحسن، وترصدت العيون أخبار محمد، وسمعوا الحكايات عن قدومه المدينة متنكراً وتجوله في أحيائها وصلاته في المسجد وزيارته لوالده وبعض أقاربه، فكتبوا بما يسمعون إلى الخليفة، وقد أعجزهم أن يروا محمداً بأنفسهم، ولكن الخليفة لم يتعجل، وأراد أن يستوثق الأخبار التي وصلته، فأرسل عدداً من مهرة شرطته وأمرهم بتشديد المراقبة وضبط أية رسائل أخرى، وعمد إلى حيلة أشد مكراً ودهاء ليوقع بعبدالله بن الحسن: كلف رجلاً من المقيمين في خراسان، هو عقبة بن مسلم بن نافع الأزدي، أن يسافر إلى المدينة ويدعى بأنه شيعة آل الحسن وينظر ما يفعلونه ويخبره، ووفد عقبة بن مسلم إلى المدينة وسأل عن عبدالله بن الحسن فدل عليه، فلما

رآه اختلا به وأخبره أنه موفد من القرية الخراسانية التي تراسله، وأنه يحمل إليه أموالاً وهدايا قيمة ليتقوى بها آل الحسن ويستعدوا للخروج على الخليفة.. فشك عبدالله بن الحسن به ونهره وانصرف عنه.. ولكن عقبة - كما أوصاه جعفر - عاود الكرة مرة ومرة.. وهو يحلف الأيمان على صدقه، ويعرض المال على عبدالله.. فلما رأى عبدالله إلحاحه الشديد وأيمانه المتوالية وثق به وأخذه إلى داره وقبل منه المال والهدايا، وطلب منه عقبة أن يكتب كتابا لأهل القرية الخراسانيه فأبى عبدالله، وحمله رسالة شفوية تبين عزمهم على الثورة وتحدد موعد تقريبياً لخروج ابنه محمد، فعاد عقبة بهذه الأخبار إلى المنصور، واستيقن المنصور بأن آل الحسن ليسوا في طاعته، وأنهم يجمعون الأنصار ويترقبون الفرصة السانحة للثورة..(١)،

كان عبدالله يظن أنه محتاط أشد الحيطة في تصرفاته واتصاله بابنيه وأشياعه.. ورغم كثرة العيون وشدة المراقبة فإن ابنه محمداً كان يأتي المدينة متنكراً ويمكث فيها قليلاً ويخرج منها، وتبقى وراءه همسات تدور بين عدد من أهل المدينة.. ثم تنتشر وتصل إلى العيون والرصد.. وتنتقل إلى الأمير الذي لا يبالي بالأمر، وتنتقل إلى الخليفة لتقضي مضجعه.

أعاد الخليفة الكرة، وقابل حيطة آل الحسن وتكتمهم الشديد بالحيلة والدهاء، فقد وصل إلى المدينة رجل آخر يزعم أنه من خراسان، ويحمل رسائل مختومة إلى عبدالله بن الحسن من بعض أهل خراسان يذكرون فيها طاعتهم ومبايعتهم لآل الحسن، ويرفقونها بأموال ولطائف قيمة.. ولم يكتف الخراساني بلقاء عبدالله بن الحسن بل طلب منه أن يوصله إلى ابنه محمد ليسلمه رسائل وأموالاً أخرى تخصه.. فأرسله عبدالله إلى علي بن الحسن (الرجل الصالح الذي يدعى الأغر) في منطقة ذي الإبر. فرحل الخراساني إليه، فأوصله علي إلى محمد بن الحسن في مخبئه.. وبينما كان الخراساني يقابل

---

١) الطبري ٥٢٥/٧

محمد بن الحسن وصل إلى المدينة رجل من العراق وسلم عبدالله بن الحسن رسالة من أحد كتاب المنصور - وكان يتشيع لآل الحسن - يخبره فيها أن المنصور قد دس إليه الخراساني ليزعم أنه رسول بعض شيعته، ومهمته الحقيقية التجسس عليه وعلى ابنه والإيقاع بهما.. ففزع عبدالله بن الحسن، وأسرع إلى أحد أعوانه المخلصين (أبو هبار) وأمره أن يسرع للقاء ابنه محمد ويحذره من الخراساني.. فأسرع أبو هبار ووصل إلى محمد فوجد الخراساني في مجلسه يشارك في الحديث بحيوية وحرارة، وفي المجلس عدد من كبار المبايعين لمحمد.. فجلس أبو هبار قليلاً.. ثم انتحى بمحمد وأخبره عن حقيقة الرجل.. فارتاع محمد لذلك ورفض مشورة أبي هبار في قتله، وقرر اعتقاله.. غير أن الخراساني لاحظ قدوم أبي هبار وشك في انفراده به، فتظاهر أنه خارج للوضوء واختفى في الشعاب.. وجد وراءه رجال محمد بن عبدالله.. ولكنه أفلت منهم ولقي قافلة فاختبأ في بعض أحمالها، حتى وصل إلى أبي جعفر فأخبره الخبر كله..(١) ولم يعد لدى أبي جعفر أي شك في تمرد الحسن وقرب الثورة، لذلك قرر أن يبادر آل الحسن بضربة قوية قبل أن يشتد أمرهم ويكثر أتباعهم.. وكان موسم الحج قد اقترب فأمر بإعداد أحماله ليؤدي فريضة الحج.. وقبل نهاية ذي القعدة من عام ١٤٠هـ.. جاءت الأخبار بقرب وصول موكب الخليفة.. فخرج أمير المدينة زياد بن عبيدالله الحارثي ومعه وجوه أهل المدينة.. وفيهم عبدالله بن الحسن وعدد من الهاشميين.. ورغم توجس عبدالله.. إلا أنه آثر الخروج لاستقبال الخليفه وسلم عليه فيمن سلم.. فلم يلحظ عليه شيئاً يكرهه.. وبالعكس ما لبث الخليفة أن أدنى عبدالله وحادثه طويلاً.. وطلب منه أن يتردد عليه في إقامته في المدينة فوعده عبدالله بذلك.. احتار عبدالله بن الحسن في أمر أبي جعفر وأخذ يدافع ظنونه القاتمة لما رأى من بشاشته.. فأكثر التردد عليه وهو يراقب كل انفعال فيه.. وعزم

---

١) أنظر الطبري ٥٣٨/٧.

على الذهاب إلى الحج معه.. وفي المشاعر التقى عبدالله بولديه وبعض أشياعه سراً، وتداولوا في قضية الخراساني واحتمال أن يكون قد وصل إلى أبي جعفر وأخبره بما رآه وسمعه، وتحمس بعض أتباع محمد لاغتيال أبي جعفر في الموسم ورسموا - بقيادة الأشتر عبدالله بن محمد بن عبدالله - خطة دقيقة لذلك..(١) واستعانوا بأحد قادة أبي جعفر - وكان خراسانياً متشيعاً - غير أن محمداً رفض مبدأ القتل غيلة، وقال لهم: لا والله لا أقتله أبدا غيلة حتى أدعوه. وحذرهم عبدالله بن الحسن من إراقة الدماء في المشاعر المقدسة فأمسكوا على مضض.. وانتهت مناسك الحج، وعاد أبو جعفر إلى المدينة وكان رجاله لا يهدؤون عن العمل والمراقبة.. وتسربت خطة الاغتيال ووصلت إلى الخليفة.. فأرسل الخليفة رجاله للقبض على المتآمرين.. فظفروا ببعضهم ونجا بعضهم الآخر، فاشتد غضب الخليفة ونفد صبره، وقرر أن يبطش بآل الحسن في المدينة.. ويروي أمير المدينة زياد بن عبيدالله أن أبا جعفر أرسل إليه في منتصف الليل رجاله فطرقوا عليه طرقاً شديداً فلم يجبهم، ولكنهم عاودوا الطرق عليه عدة مرات حتى أخذوه إلى أبي جعفر في قصر الإمارة، إذا أبو جعفر محتبٍ بحمائل سيفه على بساط ليس تحته وسادة ولا مصلى، وهو منكس رأسه ينقر بجرز في يده، فما زلت واقفا، فما يكلمني ولا أكلمه، ثم رفع رأسه إلي فقال: يابن الفاعلة أين محمد وابراهيم قتلني الله إن لم أقتله. قلت: اسمع مني ودعني أكلمك. قال: قل: قلت: أنت نفرتهما عنك. بعثت رسولاً بالمال الذي أمرت بقسمه على بني هاشم، فنزل القادسية ثم أخرج سكينا يحده وقال: بعثني أمير المؤمنين لأذبح محمداً وإبراهيم، فجاءتهما

---

١) انظر الطبري ٥٢٥/٧.

هذه الأخبار فهربا.. قال: فصدقني فانصرفت.(١) وقبل أن يغادر المنصور المدينة جمع آل الحسن وعدداً كبيراً من الهاشميين في مجلسه وأجلس عبدالله إلى جواره وحادثهم طويلاً ثم أمر بالطعام وتغذى معهم.. ثم عاد لمحادثتهم والتفت إلى عبدالله بن الحسن وقال له: أعطني العهود والمواثيق ألا تبنني بسوء ولا تكيد لي سلطاناً. فقال عبدالله: أنا على ذلك يا أمير المؤمنين.. والتفت أبوجعفر إلى ناحية يجلس فيها عدد من رجاله وأشار خفية أحدهم وعاد إلى حديثه.. فقام الرجل وجاء من وراء عبدالله وغمزه بإصبعه.. فلم يلتفت إليه عبدالله بن الحسن، فوقف الرجل خلفه وغمزه باصبعه في ظهره فرفع عبدالله إليه رأسه.. وفوجىء بأن الرجل الواقف فوقه هو الخراساني الذي جاءه برسالة ومال من أشياعه في خراسان، وحمل إليهم منه رسالة شفهية، وأدرك عبدالله أن هذا الرجل دسيسة من أبي جعفر ليكشف أمره، وأن أبا جعفر قد اطلع على كل شيء، وأسقط في يده، ولم يجد مخرجا.. فوثب إلى ما بين يدي الخليفة وأخذ يستعطفه قائلاً: أقلني يا أمير المؤمنين أقالك الله، فقال أبو جعفر.. لاأقالني الله إن لم أقتلك(٢) وأمر حرسه أن يقبضوا عليه ويسوقوه إلى السجن.. وأخذ يتحدث عن كيد عبدالله وابنيه له.. فاضطرب المجلس.. وتغيرت نفوس أهله، وخرجوا بين مشفق على عبدالله وآله، ولائم له، ومتعجب من دهاء المنصور ومكره(٣).

ومع نهاية عام أربعين ومائة خرج المنصور من المدينة وقد خلف فيها عبدالله بن الحسن وبعض آله في السجن.. وخلف في أهل المدينة أحاديث متناقضة عن قضية الهاشميين ومواقف متباينة منها.. بعضها يتعاطف مع الهاشميين.. وبعضها يحذر من تكرار التجارب المؤلمة السابقة.. وانتقلت

---

١) الطبري ٥٢٧/٧.

٢) الطبري ٥٢٣/٧.

٣) انظر ابن خلدون ٢٣٧/٣.

القضية من الهمس إلى الحديث العلني في المجالس واللقاءات، وأحس كثير من الهاشميين بنذر الفتنة والمصائب.

كانت غاية المنصور من حبس عبدالله معاقبته على نكثه بالعهود التي قطعها من قبل، وإرهاب ابنيه ومنعهما من الثورة، وإرهاب المتعاطفين مع آل الحسن والمستعدين لمبايعتهم على الخلافة.. وحرص على أن يواصل رجاله المبثوثين في المدينة مراقبة الهاشميين وتسقط أخبار محمد بن عبدالله.

وسجن عبدالله بن الحسن في غرفة من غرف الإمارة، وشددت الحراسة عليه، غير أن الأمير زياد بن عبيدالله كان رفيقا به، وكان يسمح لعائلته بزيارته بين الحين والحين، وكانت عائلته تنقل إليه أخبار ابنيه وتنقل إلى الإبنين وصايا أبيهما في أن يزيدا الحيطة ولا يتعجلا بالثورة لئلا يفشلا.. ولم يغب عن رجال المنصور معاملة الأمير الشفيقة لآل الحسن وزيارات عائلة عبدالله بن الحسن في السجن واستمرار حضور ابنيه إلى المدينة دون أن يقبض عليهما، فقرر الخليفة عزل الأمير ومعاقبته.

أمير مؤقت:

وفي الثالث والعشرين من جمادي الآخرة عام ١٤١هـ وصل مع البريد أحد رجال الخليفة إلى المدينة يدعى أبو الأزهر، وكان الأمير قد خرج لتفقد بعض الأمور، فأرسل إليه أبو الأزهر فجاءه على عجل ورحب به فدفع إليه كتاباً من الخليفة يأمره فيه أن يسمع لأبي الأزهر ويطيع، فلما قرأه قال: سمعاً وطاعة يا أبا الأزهر، فمر بما أحببت فقال أبو الأزهر: ابعث إلى عبدالعزيز بن عبد المطلب - قاضي المدينة - فبعث إليه من أحضره، فدفع إليه أبو الأزهر خطابا من الخليفة يأمره فيه بتسلم الإمارة من زياد، والقبض على زياد وتقييده بالحديد ودفعه مع كبار موظفيه لأبي الأزهر كي يمضي بهم إلى الخليفة، فنفذ عبدالعزيز أمر الخليفة، ووضع زياد بن عبيدالله الحارثي وكبار موظفيه في القيود، ورأى أهل المدينة أميرهم المعزول يحمل على الجمال في

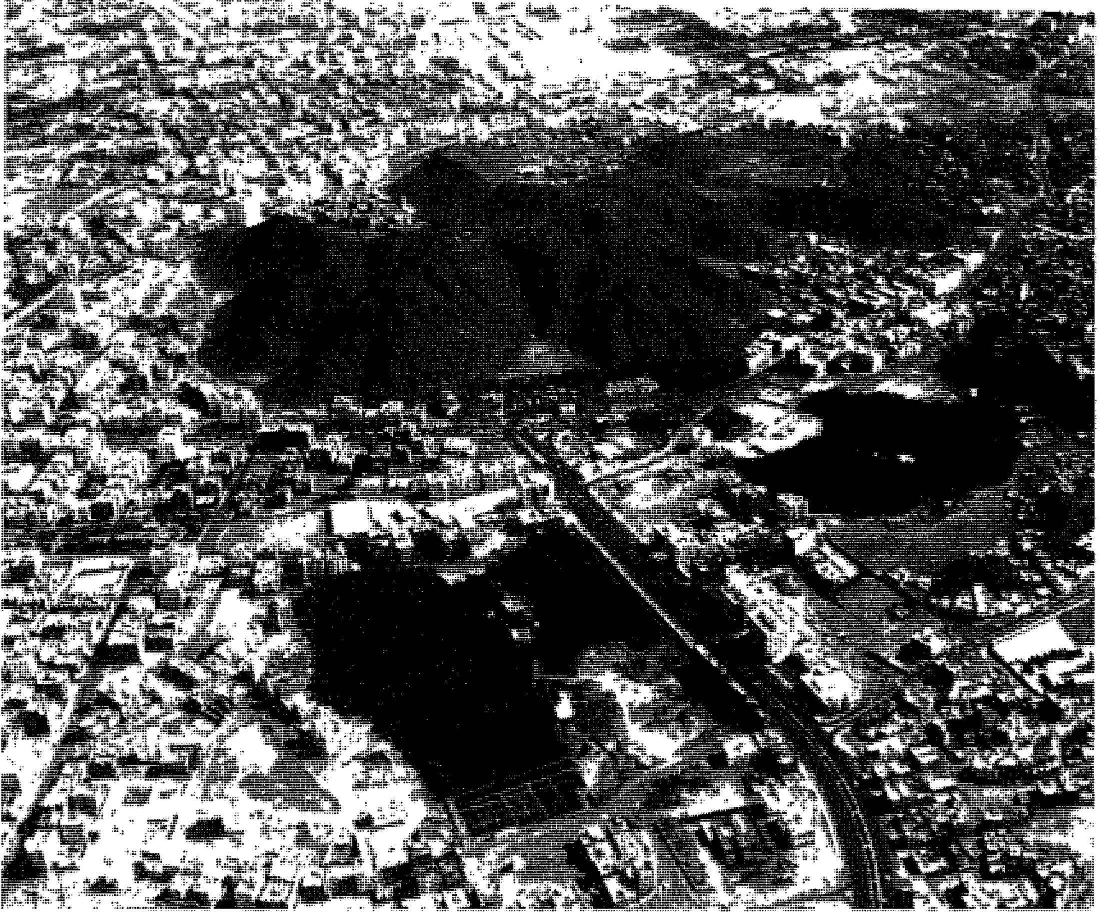
حالة سيئة من الذل والمهانة، وسار بعضهم يشيعونه إلى ظاهر المدينة، ويوصونه بالصبر والدعاء، وأقسم لهم زياد أنه لم يقترف ذنبا، وأن غضب الخليفة عليه كان بسبب آل الحسن.

محمد بن خالد القسري في المدينة:

لم تطل إمارة عبدالعزيز بن المطلب على المدينة سوى سبعة أيام، بعدها وصل محمد بن خالد القسري يحمل أمراً من الخليفة بتوليه إمارة المدينة.. فسلمه عبدالعزيز الإمارة، ومضى محمد بن خالد إلى الديوان وأحصى ما فيه من أموال فوجد سبعين ألف دينار وألف ألف درهم فتحفظ عليها وأعلن أن الخليفة أوصاه بانفاقها على تتبع ابني عبدالله بن الحسن والقبض عليهما.

كان محمد بن خالد مدركا أن المنصور لم يعينه بالإمارة إلا لإنهاء قضية آل الحسن وإحباط ثورة محمد بن عبدالله المنتظرة، لذلك جد في تتبع محمد بن عبدالله وأخيه ابراهيم.. وعين عددا أكبر من الرجال للبحث عنهما وبذل لهم الأموال الكثيرة، وأصبحت قضية القبض على ابني عبدالله بن الحسن الحديث الأول لأهل المدينة والهاجس الأكبر لأميرها وأعوانه.. وقد اجتهد بعض رجاله في تتبع محمد بن عبدالله وكاد أن يوقع به، ولكن محمداً أفلت منهم مرة تلو مرة.. ثم خرج مع أخيه من المنطقة إلى عدن فالعراق فالهند.. وأخذ ينتقل بين شيعته، يحشد التأييد ويستكثر من الرجال تمهيداً لإعلان الثورة وأبوه ما يزال في سجنه.. وكان محمد بن خالد لا يتمكن من بغيته، ورغم تشديده كان بعض المتعاطفين مع آل الحسن من عمال الإمارة وغيرهم ينقل الأخبار بين السجين وأهله.. وكانت بعض تلك التصرفات تصل إلى الأمير فيغضب ويعاقب من يوصل أمرهم إليه ويهدد ويتوعد.. ولكنه لم يستطع أن يوقف تسرب الأخبار.. وما لبث محمد بن خالد القسري أن قبض على عدد آخر من أقارب عبدالله بن الحسن وفيهم محمد بن عبدالله بن عمرو بن عثمان بن عفان الملقب بالديباج، ونمى إليه أن محمداً قد عاد إلى المنطقة وشوهد غير بعيد عن

عن المدينة.. فأرسل عدداً كبيراً من الرجال لتفتيش المنطقة قرية قرية وجبلا جبلا، ولكن رجاله لم يظفروا بشيء.



منع التجول والتمشيط :

مرت على إمارة محمد بن خالد القسري ثلاث سنوات وهو لايألو جهداً في إرسال الرجال للبحث عن محمد وابراهيم حتى أنفق في ذلك أمولاً كثيرة.. واستبطأ الخليفة عمل القسري فأرسل إليه يأمره بالبحث عنهما في المنطقة بشدة، وكانت عيونه ترسل له بأنهما يتنقلان بين المدينة وقراها القريبة فعمد محمد بن خالد إلى أمر يعد فريدا من نوعه في عصره.. وهو مانسميه في عصرنا بمنع التجول وتمشيط المنطقة.. يقول الطبري ((وأمر القسري أهل المدينة فلزموا بيوتهم سبعة أيام، وطافت رسله والجند ببيوت الناس يكشفونها ، لايحسون شيئا ، وكتب القسري لأعوانه صكاكا يتعززون بها لئلا يعرض لهم أحد))(١) ثم خرج رجاله إلى أعراض المدينة أيضا واشتدوا في البحث.. ولكنهم لم يظفروا بشيء.

غضب الخليفة لفشل محمد بن خالد.. وقرر عزله ومعاقبته.. فقد وصل إلى المدينة في الثاني والعشرين من شهر رمضان عام أربع وأربعين ومئة رياح بن عثمان بن حيان المري.. ومعه بعض الرجال وتوجه إلى دار الإمارة وأبرز أمرا من الخليفة بعزل محمد بن خالد ومحاسبته، وتنصيب رياح بن عثمان أميرا على المدينة . فأخذ رياح سلفه أخذاً شديداً.. وقيده بالأغلال، وصادر أمواله، وسجن عدداً من رجاله وعذبهم، وقرر أن يعالج أمر ابني عبد الله بن الحسن بالعنف.. فذهب إلى أبيهما في السجن وهدده بكلام قاس.. ولكن عبد الله بن الحسن رد عليه بثبات وتوقع له أن ينتهي أمره بالقتل، فعين رياح عدداً من الرجال الأشداء للبحث عن محمد بن عبد الله، واستعان

---

١) الطبري ٥٣١/٧ -.

برجال من القبائل المجاورة، وكاد بعضهم أن يقبض عليه(١) ولكن محمداً نجا في اللحظات الأخيرة، وتوجه محمد إلى المدينة متنكراً واختفى في بعض بيوتها.. وكان يتنقل من بيت إلى بيت، وصادف في بعض المرات رياحا ورجاله، فلم يعرفوه ونجا منهم..(٢).

أخذ رياح يتصرف كمن فقد أعصابه، فقبض على أبناء عم محمد وأبناء خاله وأبناء خالاته وأبناء عماته.. وأخذ يشتمهم في خطبة الجمعة، ونال منه ومن أخيه إبراهيم مرة نيلاً شديداً، وذكر أمهما وأفحش لها.. فأنكر الناس عليه أقواله ورفعوا أصواتهم بالتسبيح.. فهددهم بأن يكتب للخليفة بأنهم يغشونه ويعصونه، فرماه الناس بالحصى وشتموه وهموا بأذيته.. فنزل من على المنبر وهرب إلى دار الإمارة..

واضطربت الأمور في المدينة لقسوة رياح وسوء معاملته..(٣) وراح أعوانه يجوبون الأحياء في شئ من الفظاظة، فاستاء الناس من الأمير الجديد وأعوانه.. ومالت قلوبهم أكثر وأكثر إلى آل الحسن، وأخذوا يتحدثون عن المعاناة التي يلاقيها المسجونون ظلما.. فهذا العدد الكبير من أقارب محمد بن عبد الله لاذنب لهم، ولم يظهر أحد قط مخالفة للخليفة أو الأمير، ومع ذلك سجنوا وأهينوا وعذبوا.

وجاء موسم الحج لعام أربع وأربعين ومائة، وعلم الناس أن الخليفة المنصور قادم للحج، واستعد بعضهم للقائه، واستعطافه على المظلومين.. ولكن الخليفة لم يمر بالمدينة لافي مجيئه ولافي إيابه.. وعندما خرج من مكة سار في طريق مكة ونزل في الربذة، وأرسل يأمر رياحا بإخراج آل الحسن وتسييرهم بأغلالهم الثقيلة إليه في الربذة.. وشهدت المدينة يوما حزينا..

---

١) الطبري ٧/٥٣٥ -.
٢) الطبري ٧/٥٣٦ -.
٣) الطبري ٧/٥٣٧ -.

رأت فيه مظاهر القسوة البشعة.. فقد أخرج من السجن عبد الله بن الحسن متغير اللون وقد صدئ الحديد في يديه ورجليه.. وأخرج معه بقية المسجونين من الهاشميين مغلولين، وحملوا على جمال بلا هوادج..

وجاءت نسوة من آل هاشم ليروا ذويهم.. فلم يتمالكوا أنفسهم من النحيب والصراخ.. ودمعت عيون الناس ووقف عبد الله بن جعفر وراء ستر من شعر يرقب هذا المشهد المؤلم فانهمرت دموعه غزيرة.. لكنه لم يكن يملك شيئا، وسار بعض أهل المدينة يشايعون آل الحسن ويدعون لهم(١).

وخرج الركب من المدينة وعاد المشايعون وصدورهم تغلي.. فقد نجح رياح بتصرفاته الهوجاء في تأليب الناس عليه، وتهيئتهم للانضمام إلى أية ثورة قادمة.

وعلم محمد وابراهيم بالأمر.. فتنكرا في زي الأعراب وأدركا الركب في الطريق، واستطاعا أن يصلا إلى أبيهما ويحادثاه، فاستأذناه في إعلان الثورة فاستمهلهما حتى يتمكنا من الأمر، وكانت آخر وصية أوصاهما بها هي: إن منعكما أبو جعفر أن تعيشا كريمين فلا يمنعكما أن تموتا كريمين.. ومضى الركب إلى أبي جعفر في الربذة.. وطلب عبد الله بن الحسن مقابلته فرفض وأدخل محمد بن عبد الله بن عمرو بن عثمان (الديباج) فأغلظ له القول ثم أمر بجلده وجلد عدد آخر معه.. ومضى أبو جعفر في قافلته إلى الكوفة، وسار وراءهم موكب المسجونين في عذاب كبير.. وبعد مدة جاءت الأخبار إلى المدينة أن آل الحسن الذين رحلوا إلى الكوفة قد سجنوا في سجن بالهاشمية..

ملحمة المدينة الثانية:

تواردت الأخبار عن تعذيب المسجونين وقتل بعضهم بقسوة.. وبخاصة محمد بن عبد الله بن عمرو بن عثمان (الديباج) ولا ذنب له في الأمر على الاطلاق. وجاءت الأخبار بقتل عبد الله بن الحسن وبلغت ابنيه.. فاشتد الأمر

---

١) الطبري ٧ / ٥٤١ -

عليهما.. وجاءهما أشياعهما يستعجلانهما الثورة.. فلم يعد مجال للصبر.. ونمت الأخبار إلى أمير المدينة رياح فاشتد في طلب محمد بن عبد الله وأخيه. وحوصر محمد عدة مرات، وتدلى في الآبار، وسقط طفل له من بعض الشعاب في إحدى مطارداته فمات. وعجت المدينة برجال رياح يراقبون ويفتشون، وكان رياح يقود دوريات البحث بنفسه في مرات كثيرة..

ونتيجة لهذه الحالة توقع أهل المدينة انفجار الثورة قبل أن تحدث.. وسرت الشائعات بذلك، وأسرع الناس في شراء الطعام حتى باع بعضهم حلي نسائه (١) وفي مساء اليوم الأول من شهر رجب عام ١٤٥ هـ. شاهد أحد رجال رياح محمد بن عبد الله يدخل منطقة المزاد، قرب جبل سلع، فأسرع بالخبر إلى الأمير، فخرج الأمير بنفسه على رأس مجموعة من رجاله وداهم المنطقة، واشتد في تفتيشها، ولكن محمدا نجح في التخفي وأفلت من الحملة، وعاد رياح إلى الإمارة غاضبا، وأرسل إلى من بقي من أقارب محمد وهددهم بالقتل إن لم يسلموه، فأنكروا جميعا أن يكون مختبئاً عندهم.

عندئذ ألح أنصار محمد بن عبد الله عليه أن يعلن الثورة، فقد اشتد الخناق عليهم وامتلأ السجن بأقاربه وكل من شك الأمير في مشايعته، ولم يعد مجال للصبر، فقد يأخذهم رياح في أي وقت..

فاقتنع محمد بن عبد الله وأخوه ابراهيم بذلك، وقررا بدء الثورة في اليوم نفسه. واتصل أنصاره ببعضهم بسرعة وسرية، وتحرك مائتان وخمسون رجلاً منهم في وقت واحد ، فهاجموا السجن ، وأخرجوا كل من فيه، وكان من بينهم أمير المدينة السابق محمد بن خالد القسري وأعوانه.. ثم تحرك الجمع الثائر إلى الإمارة وهم يكبرون، ولما سمع رياح أصواتهم أدرك أن محمداً قد خرج.. وأشار عليه بعض أعوانه أن يقتل أقارب محمد الذين مازالوا عنده فتردد، ثم حاول الهرب ولكن رجال محمد دهموه وقبضوا عليه

---

١) الطبري السابق نفسه -

وعلى أعوانه جميعاً، وأنقذوا من عنده من أقاربهم.. وكان فيمن قبض عليه مسلم بن عقبة.. الذي تنكر في هيئة الخراساني وأوقع بعبد الله بن الحسن، وأودعوا في السجن..

كان تحرك رجال محمد بن عبد الله سريعاً.. غطى أطراف المدينة كلها، فقبضوا على عدد كبير من أعوان رياح.. وهرب الباقون، ولم يمض شطر من الليل حتى كانت المدينة كلها تدين لمحمد بن عبد الله. وارتفع التكبير في المسجد النبوي.. واتجه محمد ورجاله لصلاة الصبح فيه، وقرأ سورة الفتح تيمنا بانتصاره، وخطب في الحاضرين خطبة قوية ذكر فيها ظلم المنصور ولقبه بالطاغية، ودعا الناس إلى خلع طاعته ومبايعته بالخلافة، وتلقب بالمهدي فأقبلوا عليه وبايعوه..

وتردد بعض أهل المدينة في مبايعة محمد.. ففي عنقهم بيعة للمنصور، فذهب عدد منهم إلى الإمام مالك واستفتوه في خلع بيعة المنصور وتحويلها إلى محمد بن عبد الله.. فأفتاهم بذلك مجتهدا بأن بيعتهم للمنصور كانت بالإكراه، فذهبوا إلى محمد بن عبد الله وبايعوه.. ولم يتخلف سوى عدد قليل من وجوه المدينة، فقد رأى هؤلاء أن ثورة محمد لامسوغ لها، وأنها غير مجدية، وستفشل كما فشلت ثورة الحرة من قبل، وستكون ملحمة دامية. وكان الممتنعون من القرشيين كإسماعيل بن عبد الله بن جعفر(١) والضحاك بن عثمان بن عبد الله وعبد الله بن منذر وأبو سلمة بن عبيد الله وخبيب بن ثابت بن عبد الله بن الزبير(٢).

المدينة في ظل محمد ذي النفس الزكية:

أصبحت المدينة تدين لمحمد بن عبد الله بن الحسن ليس بالإمارة وحسب بل بالخلافة، وأصبح بطل حكايات الاختباء والهرب من رجال العباسيين

---

١) الطبري ٧/ ٥٦٠ -

٢) الطبري ٧ / ٥٧٧ -

وعيونهم صاحب الأمر والنهي في دار مروان بن الحكم.. مقر إمارة المدينة المنورة.. وتوافد أصحاب محمد ومشايعوه ومن يميل إليه إلى الإمارة، وجاءت أعداد كبيرة تبايعه بعد أن أفتاهم الإمام مالك بجواز التحرر من بيعة أبي جعفر، وبخاصة آل الزبير وآل الخطاب وبعض المخزوميين وآل زهرة والهاشميين.

بدأ محمد بن عبد الله يتصرف من موقع الخلافة، ويرتب أموره في المدينة وخارجها، فقد شغرت المناصب الكبيرة بعد أن ألقي رياح ورجاله بالسجن.. وهرب الباقون أو اعتزلوا في بيوتهم.. لذلك عين عثمان بن محمد بن خالد بن الزبير أميراً على المدينة وعبد العزيز بن المطلب بن عبد العزيز المخزومي قاضياً فيها، وعثمان بن عبد الله بن عمر بن الخطاب رئيساً للشرطة وعبد العزيز الداروردي على السلاح، وعبد الله بن جعفر بن عبد الله بن مسور بن مخرمة على العطاء،(١) وتطلع محمد بن عبد الله إلى الأمصار الأخرى، وكان بعض أهلها قد راسلوه أيام اختفائه فطمع في أن يدخلوا في طاعته بمجرد إعلان ثورته.. فأرسل أخاه إبراهيم إلى البصرة لتدبير أمر العراق.. وأرسل أخاه موسى بن عبد الله إلى الشام ليتولى إمارتها ويعزل واليها العباسي. وأرسل الحسن بن معاوية إلى مكة لينتزعها من السري بن عبد الله أميرها من قبل العباسيين، وأرسل القاسم بن اسحاق إلى اليمن ليتولاها.. وأرسل ابنه عبد الله بن محمد الملقب بالأشتر إلى السند حيث واليها عمر بن حفص ممن كاتبوه ووعدوه بالبيعة(٢) والعجيب أنه لم يرسل أحداً إلى خراسان، رغم وجود شيعة له فيها، وربما كان يفكر في ترك أمرها إلى أخيه إبراهيم الذي توجه إلى البصرة.. كما أنه لم يزود أحدا من بعوثه بقوة تدعمه في استلام السلطة إلا الحسن بن معاوية الذي وجهه إلى مكة فقد

---

١) البداية ١٠/٨٦ -.

٢) الطبري ٨/٣٣ -.

أرسل معه سبعين رجلا وعشرة فرسان.. وكان لهذه القوة الصغيرة فائدة كبيرة لأن أمير مكة العباسي رفض تسليمها للحسن.. فهاجمته القوة الصغيرة وأرغمته على الهرب بعد أن قتلت سبعة من رجاله.. وتسلم الحسن بن معاوية إمارة مكة داعيا لمحمد بن الحسن.. فكانت الإمارة الوحيدة التي دانت ودخلت في طاعته، أما الشام فإن موسى بن عبد الله ذهب إليها دون قوة ترافقه.. ولقي بعض وجوه أهل الشام فلم يستجيبوا له، وكان أحسنهم قولاً الذي قال: والله لقد مللنا البلاء، وضقنا به ذرعا، حتى مافينا لهذا الأمر موضع ولالنا به حاجة..(١) فقد لقي أهل الشام من سيوف العباسيين مرارت كثيرة جعلتهم يرغبون عن قضايا الخلافة وصراعاتها، لذلك هدد بعض الشوام موسى بن عبد الله بأن يرفع أمره إلى العباسيين ويدل عليه رجالهم.. (٢) فنزح موسى بن عبد الله من الشام وتوارى..

لم يطل الهدوء في المدينة ولم يصف الأمر لمحمد بن عبد الله، فبعض أهلها أمسك عن البيعة وبعضهم كان يحس أن الأمر لايعنيه، فالصراع بين العباسيين والهاشميين، والمدينة قد نسيت الخلافة منذ جيلين أو ثلاثة وأصبحت مجرد إمارة.. غير أن بعض الطامعين في الجوائز رأى في الأحداث فرصة ذهبية يستفيد منها، ففي اليوم التالي لاستيلاء محمد بن عبد الله على المدينة خرج رجل من من بني سرح مسرعا إلى الخليفة ليحمل له الأخبار وينال بسبقه إليه جائزته.. واجتهد في المسير فقطع المسافة بين المدينة والكوفة (وهي تزيد على ألف وخمسمائة كيلومتر) في تسعة أيام(٣) - وفي

---

١) الطبري ٥٧٢/٧ -.

٢) السابق -.

٣) الطبري ٥٦٥/٧-.

رواية أخرى في سبعة أيام -(١) ودخل على أبي جعفر المنصور بالخبر، وتروي كتب الأخبار عدة روايات لاستقباله الخبر.. وهي جميعها تظهر أن شعوره كان مزيجا من الانزعاج والفرحة.. حتى أنه هتف - حسب رواية الطبري - أنا أبو جعفر.. استخرجت الثعلب من جحره..(٢) ولاشك أن المنصور كان ينتظر هذه الفرصة.. فقد أعياه اختباء محمد وأخوه سنوات طويلة.. وأقلقه ما كان يصل إليه من أخبار مراسلاته واتصالاته مع الأمصار والقبائل والعساكر.. وكان لايعرف حقيقة قوته ولا يستطيع الوصول إليه، أما وقد خرج وتولى الحكم في منطقة فقد ظهر أمره وبانت قوته، وأصبح من الميسور معرفة رجاله... كما أصبحت المواجهة مكشوفة.. وعندما تتم المواجهة تكون الغلبة للأقوى.. وشتان مابين قوة محمد في المدينة وقوة أبي جعفر سيد الدولة العباسية وصاحب جيوشها الكبيرة.. ولقد أجزل المنصور العطاء لمن جاءه بالخبر بعد أن استوثق من صحته.. وبدأ يرتب أموره بكل مالديه من دهاء وبراعة: استشار عدداً كبيراً ممن حوله فيما يفعله إزاء ثورة محمد بن عبد الله، حتى أنه استشار عمه المسجون عبد الله بن علي، وقد أجمعت أراء الذين استشارهم بأن الثورة عقيمة وأن عليه أن يسرع في مواجهتها قبل أن يتمكن أمرها.. وأن يقطع الطريق على امتدادها في المواطن التي يمكن أن تؤيدها.. وبالذات الكوفة والبصرة.. ثم يرسل قوة عسكرية يقودها رجل محنك لمواجهة الثورة في المدينة المنورة.. وكان أبو جعفر في بغداد يشهد عمارتها عندما جاءه خبر الثورة.. وأخذ بنصيحة عمه فسارع إلى الكوفة خوفا من أن يشايع الثورة أحد فيها، ففي الكوفة من شيعة آل البيت غير قليل، ووزع رجاله المسلحين في أحيائها كلها يرصدون تحركات الناس ويستبقون أي عمل مسلح.. وأرسل إلى البصرة جندا أيضا، وأرسل

---

١) البداية والنهاية ٨٦/١٠ -.

٢) الطبري ٥٦٤/٧ -.

إلى الشام يطلب المدد.. وبذل للجند أموالا لم يبذلها من قبل، وأرسل إلى واليه في مصر أن يقطع الميرة التي ترسل من مصر إلي الحجاز بحراً كي لايتقوى بها محمد بن عبد الله، وليفرض عليه حصارا اقتصادياً يضعف شأنه ويصرف الناس عنه(١).

وفي الوقت نفسه سلك المنصور طريق السلم والمفاوضة، فأرسل رسالة مسهبة إلى محمد بن عبد الله الحسن، قال فيها: بسم الله الرحمن الرحيم من عبد الله بن عبد الله أمير المؤمنين إلى محمد بن عبد الله (إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الأرض فساداً أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من الأرض ذلك لهم خزي في الدنيا ولهم في الآخرة عذاب عظيم. إلا الذين تابوا من قبل أن تقدروا عليهم فاعلموا أن الله غفور رحيم).

ولك علي عهد الله وميثاقه وذمته وذمة رسوله ﷺ إن تبت ورجعت من قبل أن أقدر عليك أن أؤمنك وجميع ولدك وإخوتك وأهل بيتك ومن اتبعك على دمائكم وأموالكم، وأسوغك ماأصبت من دم ومال، وأعطيك ألف ألف درهم، وماسألت من حوائج، وأنزلك من البلاد حيث شئت، وأن أطلق من في حبسي من أهل بيتك وأن أؤمن من جاءك وبايعك واتبعك أو دخل معك في شيء من أمرك ثم لاأتبع أحداً منهم بشيء كان منه أبدا. فإن أردت أن تتوثق لنفسك فوجه إلي من أحببت يأخذ لك من الأمان والعهد والميثاق ماتثق به).

كان عرض أبي جعفر مغرياً إلى حد كبير لمن في نفسه أمر الثروة أو الجاه.. وكان من الممكن لمحمد بن عبد الله أن يفاوض المنصور على ولاية كبيرة وأموال طائلة ويأخذها.. ويأخذ لأصحابه أموالاً كثيرة أيضا.. ولو فعل ذلك لسقطت دعوتهُ وانقلبت السيوف التي ارتفعت من أجله.. إيمانا بأنه على الحق وأن المنصور على الباطل.. لانقلبت تلك السيوف عليه.. كما أن محمد

---

١) الطبري ٧/ ٦٢٠ -.

بن عبد الله الذي عانى سنوات طويلة من التشرد والهرب وتسبب في سجن والده وعدد من أقاربه وقتلهم لايمكن أن يقبل بأقل من الخلافة.. لذلك كتب إلى أبي جعفر رسالة طويلة يتهمه فيها بالطغيان والاعتداء على حقوق الهاشميين، واغتصاب الخلافة منهم، فهم أحق بها منه ومن العباسيين، لأنهم أبناء علي وهم الذين تحملوا عسفاً كبيراً خلال السنوات الماضية، ورد على عرضه الأمان بأن عهوده لايوثق بها، فقد سبق أن أعطى الأمان لابن هبيرة وأبي مسلم ثم قتلهما ولعمه عبد الله بن علي ثم سجنه، وعرض عليه أن يعطيه الأمان إن ترك الخلافة ودخل في طاعته، وأكد أنه لاينكث بعهده.. وكانت رسالته قوية ومثيرة، جعلت المنصور يرد عليه برسالة أطول ينقض فيها حججه في الخلاف، ويستند إلى قواعد الميراث في الإسلام.. فإن كان الهاشميون يطلبون إرث رسول الله صلى الله عليه وسلم في الحكم فإن العباسيين أولى به، لأنهم أقرباء الرسول صلى الله عليه وسلم من جهة الرجال، بينما الهاشميون أقرباؤه من جهة النساء وإرث الرجال مقدم على إرث النساء.. وأكد أبو جعفر أن الله سبحانه لم يشأ للهاشمين تولي الحكم.. فجميع مطالباتهم بالخلافة كانت تنتهي بالقتل وذكر فضل العباسيين منذ الجاهلية إلى نهاية العصر الأموي..(١) والحقيقة أن هذه الرسائل المتبادلة كانت مناقشات عميقة في نظرية الخلافة وصاحبها.. وهي تكرار لما كان يتبادله العباسيون والهاشميون منذ عهد أبي العباس السفاح، لذلك لم تصل إلى نتيجة، وأدرك كل من المنصور ومحمد بن عبد الله أن المواجهة قادمة لامحالة..

وبينما كان المنصور منهمكا بالإعداد للمواجهة كان محمد بن عبد الله منشغلا بالأمور اليومية في المدينة، وبانتظار الأخبار من اليمن والشام والعراق.. ولم يقم بأية تعبئة عسكرية تكافئ طموحه الكبير في إنهاء خلافة

---

١) انظر نص الرسالتين في الطبري ٥٦٨/٧

العباسيين وانفراده بالحكم، كما أن طبيعة المدينة المنورة وقلة رجالها ومواردها تقتضي جهوداً مضنية لتعبئة تكافئ الأمر الكبير الذي طلبه محمد بن عبد الله.

والحق أن محمداً بدأ الإعداد.. ولكنه لم يتصرف بالقدر المطلوب.. بدأ فنظم ديوان العطاء وسجل فيه أسماء مبايعيه وفرض لهم فروضا مالية على أنهم جنده حين اللزوم.. واستعانَ برجاله الذين خرجوا معه.. وجعلهم القوة المسلحة.. ولكنهم لم يزيدوا على الثلاثمئة.. وجاء أبوبكر عبد الله بن محمد بن أبي سبرة بأموال كثيرة من صدقات بني أسد وطيء(١)، فسر محمد بذلك وعينه على ديوان العطاء. وبدأت الأيام تمر بسرعة ومحمد بن عبد الله في إمارة المدينة ينتظر أن تأتيه أخبار الانتصارات من العراق أو الشام أو اليمن.. دون جدوى.. وعلى العكس من ذلك، وردت الأخبار بما لايسر.. فالقاسم بن محمد الذي وجهه إلى اليمن لم يتمكن من الوصول إليها ولم يغلب على أمرها وعاد إلى مكة مع الحسين بن معاوية، وأخوه الذي أرسله إلى الشام لم ينصره الشاميون بل هددوه بتسليمه للعباسيين ، وأخوه إبراهيم في البصرة مع فئة من أهلها وعلمائها ولكنه لايملك الجيش القوي الذي يخرج الى الكوفة ويواجه المنصور.. وبدأ بعض أصحاب محمد يشعرون بصعوبة الموقف وخطورته.. وعجز المدينة المنوره عن أن تواجه الحرب وحدها (فليس فيها كراع ولا سلاح)(٢).

أمام هذا السكون (الهاشمي) كان المنصور يحشد قواه.. وجاءت الأخبار بأن المنصور يعبئ عسكره، وأنه ولى عليه واحدا من أمهر قواده.. هو ابن أخيه عيسى بن موسى.. وأنه سيخرج وشيكا إلى المدينة، وجاء محمداً من ينصحه بأن يفعل شيئا.. أن يخرج من المدينة فليست دار حرب وليس في

---

١) الطبري ٦٠٩/٧ -

٢) الطبري ٧ / ٥٧٣ -

أهلها من يصمد للجيش العباسي.. وكان محمد بن خالد القسري عندما أطلق سراحه من السجن قد بايعه، وأخلص له النصيحة، فنصحه أن يتوجه إلى مصر ففيها رجال وسلاح وأهلها قادرون على مواجهة الجيش العباسي، ولكنه أبى(١) وعند ذلك رأى محمد بن خالد أن محمد بن عبد الله ليس رجل دولة وخلافة فنكص بيعته، وراسل أبا جعفر المنصور يخبره بضعف أمر محمد بن عبد الله وقلة رجاله، ويعلن ولاءه له.. ونمى خبر الرسالة إلى محمد بن عبد الله فأمر بالقبض على محمد بن خالد فقبض عليه وأودع السجن.. ونجح محمد بن عبد الله في استقطاب عدد من وجوه المدينة وفقهائها كابن هرمز والإمام مالك والقاسم بن اسحاق بن عبد الله بن جعفر وعلي بن زيد بن علي وأخوه حسين وأبناء معاوية بن عبد الله بن جعفر ومحمد بن عبد الله بن عمر بن سعد بن العاص ومحمد بن عمر بن حفص بن عاصم وأبو الأخيضر عيسى بن الحصين.. وكان من رجاله المخلصين وقادته الشجعان، ولكن محمدا لم يشكل جيشا من أهل المدينة..

وعندما وصلت الأخبار بتحرك جيش المنصور بقيادة عيسى بن موسى بدأ محمد بن عبد الله عملاً جديا.. فجمع أصحابه واستشارهم فيما يفعله؟ هل يستنفر الناس للخروج وملاقاة الجيش القادم خارج المدينة، أم ينتظره في المدينة؟؟ واختلف أصحابه في الرأي فتحمس بعضهم للخروج، ورأى بعضهم البقاء في المدينة.. واحتج أصحاب الرأي الثاني بفعل رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزوة الخندق.. وحرضوا محمداً على حفر الخندق من جديد وتفاءلوا بأنهم سينتصرون باتباع سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم في ذلك.. ويبدو أن استثارتهم العاطفية هذه أثرت فيه وفي عدد كبير من أصحابه فغلب هذا الرأي عليهم.. وأدرك آخرون من أصحابه ضيق هذا الرأي.. لأن الظروف قد تغيرت والبقاء داخل المدينة لايكفي للانتصار على

---

١) الطبري ٧/ ٥٦١ -

الجيش القادم.. ولا بد من المناجزة.. لذلك جاء بنو سليم إلى محمد بن عبد الله - وكانوا قد بايعوه - فقال متكلمهم جابر بن أنس الرياحي: ياأمير المؤمنين نحن أخوالك وجيرانك، وفينا السلاح والكراع، والله قد جاء الإسلام والخيل في بني سليم أكثر منها في الحجاز، ولقد بقي فيها منها ماإن بقي مثله عند عربي تسكن إليه البادية، فلا تخندق الخندق، فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم خندقه لما الله أعلم به، فإنك إن خندقته لم يحسن القتال رجاله، ولن توجه لنا الخيل بين الأزقة، وان الذين يقاتلون دونهم هم الذين يقاتلون فيها، وإن الذين يخندق عليهم يحول الخندق دونهم(١) وكاد محمد بن عبد الله أن يقتنع برأيه، ولكن واحدا من أصحاب الرأي الثاني قال: أتريد أنت أن ندع رأي رسول الله ﷺ؟؟ فتأثر محمد بقوله وقال: إنما اتبعنا في الخندق أثر رسول الله صلى الله عليه وسلم، فلا يردني عنه أحد، فلست بتاركه(٢).

خندق المدينة مرة ثانية :

وخرج محمد بأصحابه إلى موقع الخندق وبدءوا بحفره ثانية فقد طمر بعد موقعة الحرة.. وبدأ محمد الحفر بيده ليشجع أصحابه ويزيل آثار المعترضين عليه في ذلك.. وحفر فظهرت له لبنة من خندق الرسول صلى الله عليه وسلم فكبر.. وكبر الناس معه، وقالوا: أبشر بالنصر هذا خندق جدك رسول الله صلى الله عليه وسلم(٣). وأخذت الجميع موجة من الحماسة واستسلموا لصوت العاطفة.

أثار حفر الخندق اضطرابا في أهل المدينة.. وبدءوا يشعرون بجدية الموقف وخطورته.. وأسرع بعضهم للإسهام في الحفر.. وذهب بعضهم إلى

---

١) الطبري ٧ / ٥٨١ -

٢) السابق نفسه

٣) الطبري ٧ / ٥٨٢ -

دار السلاح في الإمارة فاكتتب في المقاتلين وأخذ السلاح والعطاء، وبدأ بعضهم الآخر يعد العدة للاعتزال في بيته أو بستانه وتهيئة المؤونة اللازمة لذلك.. بينما أخذ بعضهم يعد للرحيل خارج المدينة بعداً عن الحرب وويلاتها.. وبينما المدينة في شغلها هذا كان عيسى بن موسى قد فرغ من تعبئة جيش زاد عدده على أربعة آلاف مقاتل.. وجهزه بعدة لم ير مثلها(١) . وجاءه المنصور فأوصاه أن يبذل كل جهده في مفاوضة محمد بن عبد الله قبل حربه.. وأن يدعوه ثلاثة أيام إلى إلقاء السلاح والدخول في طاعة المنصور.. وأن يؤمنه وأصحابه ويكرمهم إذا استجابوا.. وإلا فالقتال.. وقد شدد عليه أن يهتم بأهل المدينة وأن يحاول جهده عزلهم عن محمد بن عبد الله.. وألا يقتل منهم أحدا إذا استجاب له أو استسلم.. وخلافا لما كان يزيد قد أوصى قائده مسلم بن عقبة فإن المنصور كان حريصا إلى أبعد حد على سلامة المدينة وأهلها.. وسار عيسى بن موسى بالجيش إلى المدينة.

حرب نفسية لتحييد أهل المدينة:

بدأ عيسى بن موسى حربه مع محمد بعمل يعد من أعمال الحرب النفسية البارعة، وهو العمل على تفريق جماعة خصمه، بصرفهم عنه، سواء باستعادة ولائهم، أو بتحييدهم، ودفعهم إلى عدم المشاركة في المواجهة المرتقبة، فعندما أنزل الجيش للاستراحة في منتصف الطريق تقريبا، استقدم بعض الأعراب الحجازيين، وأغراهم بمال كثير ليحملوا رسائل إلى المدينة المنورة، وبينما أهل المدينة مشغولون بخندقهم وبالإعداد للمواجهة كان الأعراب الوافدون يقصدون بيوت عدد من وجوه المدينة، وقد خبئوا رسائل خطيرة في نعالهم.. فلا يراها أحد ولو فتشوه، وكانت هذه الرسائل تدعو الناس إلى عدم المشاركة في الحرب وتحذرهم من عواقبها وتحضهم على الخروج من المدينة ولهم الأمان على أنفسهم وأموالهم.. بل ولهم المكافآت.. وتوالت الرسائل على

---

١) البداية والنهاية ١٠ / ٩١ -

عدد كبير من أهل المدينة.. وكان الأعرابي يسلم الرسالة ويغيب مسرعا .. وقد أثرت الرسائل في عدد ممن تسلموها، وبدأ بعضهم يفكر بالخروج حقيقة بينما حمل بعض المخلصين الرسائل إلى محمد بن عبد الله وحذره من خطورة آثارها .. فأمر محمد شرطته برصد القادمين وتفتيشهم.. ولاسيما الأعراب، ونجحت شرطته في القبض على عدد من الرسل بعد ذلك.. ووجدوا مع احدهم مخاطبات لبعض أهل المدينة تثير شبهة تواطئهم مع العباسيين.. فأمر محمد بالقبض عليهم وحقق معهم وضربهم وأمر بحبسهم(١). وانتشر أمر الرسائل في المدينة وانتشر معها خبر الأمان الذي وعد به عيسى بن موسى لمن يخرج أو يعتزل.. وبدأ بعضهم ينسل بأهله إلى المزارع والشعاب..(٢)، وعلم محمد بذلك فتضايق من الخبر ولكنه أنف أن يجبرهم على البقاء.. بل أخذته الحمية والأنفة ووقع في خطأ لم يكن لمثله أن يقع فيه، فقد خطب الناس يوم الجمعة وحدثهم عن يقينه المطلق بحقه وبنصر الله له.. وانطلاقا من هذه الثقة الكبيرة أعلن لهم أنه لايمسك من أراد الخروج من المدينة ولا يحمل أحدا على نصرته، بل ذهب أبعد من ذلك فأباح لهم التحلل من بيعته.. وكانت غلطة كبيرة(٣).

---

١) الطبري ٧/٥٨١ -
٢) الطبري ٧/٥٨١ -
٣) الطبري ٧/٥٨١ -

سارع عدد كبير من الناس بعد تلك الخطبة إلى الخروج من المدينة، يحملون معهم أهليهم وزادا يكفيهم مدة من الوقت، وانتشروا في الشعاب والقرى المجاورة، والتقى بعضهم بطلائع الجيش العباسي القادم ونال من قائده الأمان والعطاء. وأقبل بعض أصحاب محمد يلومونه على تعجله، وأحس محمد بأنه قد أخطأ، فطلب من رجاله أن يردوا من يستطيعون رده.. ولكن الأمر أفلت من أيديهم فلم يعد بمقدور أحد أن يتبع الذين خرجوا وضربوا بعيدا، واكتفى رجال محمد بأن منعوا من بقي من الخروج.. وقد أظهر خروج ذلك العدد الكبير من المدينة قلة من بقي للقتال مع محمد، وشعر محمد بضعف جيشه وقلة عدده، فكتب إلى أخيه في مكة أن يجمع ما يستطيع جمعه ويلحق به على وجه السرعة لمواجهة عيسى بن موسى وجيشه الكبير.. وبدأ الوقت يمضي مسرعاً، وخرج عدد من أصحاب محمد يستطلعون أخبار الجيش القادم.. وعادوا إلى المدينة مسرعين فقد أصبح جيش عيسى بن موسى على مشارف المدينة..

وبدأ محمد بن عبد الله يرتب رجاله ويوزعهم على امتداد الخندق المحفور، ورأى عددهم قليلاً جداً وأقل بكثير مماسجل في ديوان العطاء، بل ومما كان معه قبل أيام عندما بدأ حفر الخندق.. وأدرك أن رسائل عيسى بن موسى قد نفذت إلى عدد منهم واستجرتهم، وأن غلطته التي وقع فيها عندما أباح لمن يريدالخروج من المدينة والتحلل من بيعته قد فعلت فعلها وأن بعض القبائل التي كان يعتمد عليها قد تخلفت عنه (١) فلم يبق معه إلا القليل.. وأحصى الرجال الذين معه على أطراف الخندق وثغور المدينة الأخرى فوجدهم يزيدون على الثلاثمائة قليلاً، واغتم محمد.. ولكن صديقه أبا القلمس بشره بأن هذا العدد هو نفس عدد المسلمين يوم بدر وأن الله سينصره كما نصر أهل بدر.. فانفرجت أساريره وواصل استعداداته.

---

١) الطبري ٧/٥٨١ -.

حصار ومفاوضات:

وفي يوم الجمعة الحادي عشر من رمضان ظهرت للعيان حشود الجيش القادم على بعد من المدينة.. ووصلت الطليعة التي تقوم باستكشاف الطريق مساء إلى الخندق وعادت إلى حيث عسكر الجند.. فسهر رجال محمد الليل كله على الخندق والثغور يحرسونها..

ولما أقبل الصباح زحفت الحشود إلى منطقة قريبة من الخندق ثم توقفت بأمر قائدها.. وجاءت رسل الجيش فوقفت غير بعيد عن الخندق.. وكان فيهم عيسى بن موسى وحميد بن قحطبة وأمر عيسى بن قحطبة فنادى محمد بن عبد الله وأبلغه أن أبا جعفر المنصور أمرهم بإعطاء الأمان له ولمن معه إذا ألقى السلاح ودخل في الطاعة، وأنه يمهله للتفكير في ذلك.. (١). فأمر محمد بن عبد الله مناديه بأن يرد عليه بالرفض.. فانصرف عيسى ومن معه إلى معسكرهم.. وبات كل من حرس العسكرين يرقب الطرف الآخر ولكن لايبدي أي تحرك.. ومضى النهار في الترقب.. وتبعه الليل دونما أية بادرة قتال، وجاء أحد قادة عيسى بن موسى إليه فأشار عليه أن يرسل مجموعة من الجيش إلى طريق مكة لتمنع وصول أي مدد منها ولتقطع الطريق على محمد بن عبد الله إذا فكر بالهرب.. فأعجب عيسى بالفكرة وأمر أحد الهاشميين الذين يرافقونه وهو محمد بن أبي الكرام مع خمسمائة جندي أن يلتفوا من حول المدينة وينزلوا جنوبيها على طريق مكة عند الشجرة.. فتحركت المجموعة واتجهت جنوبا من خلف جبال الحرة لايراها أحد من أهل المدينة، حتى إذا ابتعدت عن مسافة الرؤية انحرفت غربا.. ونزلت عند الشجرة

---

١) الطبري ٧ / ٥٨٦ -

ولم يشعر محمد ورجاله بذلك (١). وفي صباح اليوم التالي الأحد الثالث عشر من رمضان عادت كوكبة الفرسان ثانية وكررت النداء وأعطت المواثيق والعهود وألحت في طلبها تجنب الحرب، فكان الجواب أشد من جواب اليوم السابق.. فتحركت المجموعة إلى جهة أخرى من الخندق وأخذت تنادي بعض وجوه أهل المدينة من الهاشميين وتسألهم أن يكفوا عن الحرب ولهم الأمان، وأن يقنعوا صاحبهم بذلك.. ولكن الهاشميين رفضوا واحتجوا بهاشميتهم، فخرج إليهم من المجموعة رجل هاشمي وخاطب القاسم بن الحسن بن زيد وأعلمه أنه هاشمي مثله وأنه يسأله بالله وصلة القرابة ألا يدع الدماء تجري فرفض، الهاشميون ثانية.. ولكن القاسم بن الحسن تأثر بالنداء وبدأ يعد العدة للاستجابة..

وتحركت المجموعة إلى آخر الخندق فأعادت النداء.. ولكنها لقيت إجابات منكرة. فعادت إلى المعسكر..

ومر اليوم الثاني دون قتال أيضا.. فقد كانت أوامر المنصور أن يمهل الناس ثلاثاً..

لذلك عندما طلع نهار اليوم الثالث أقبل حميد بن قحطبة في جند كثيرين.. وكرر النداء.. فسمع إجابات شديدة مليئة بالسباب والشتائم.. فلما استيأس من استجابتهم أمر جنده ببدء الهجوم..

الملحمه الداميه:

تحرك رجال ابن قحطبة وحاولوا أن يجتازوا الخندق بخيولهم فقابلتهم رشقات غزيرة من السهام من طرف الخندق الآخر. فارتدت الخيول.. وتحركت الحشود على امتداد الخندق بعيداً عن رمي السهام لتحيط به إحاطة تامة. وأمر عيسى بن موسى الجند أن يتوزعوا على أطراف المدينة كلها وأن يتركوا ثغرة واحدة عند مسجد أبي الجراح ليخرج منها من يريد الهرب من

---

١) الطبري ٧ / ٥٨٤ -

جند محمد بن عبد الله.. وحاولت مجموعة أخرى عبور الخندق ، ووردت على أعقابها..(١).

فأمر ابن قحطبة مجموعة من رجاله أن يحضروا مامعهم من الأحمال والهوادج والمتاع، وتقدمت مجموعة تحمل التروس لتمنع عنها النبال، حتى إذا وصلت طرف الخندق ألقى الرجال مايحملونه وتكدس المتاع بعضه فوق بعض فردم جزأ من الخندق.. وهجمت مجموعة واقتحمت الخندق من فوقها، وبدأت تجالد رجال محمد.. فيما مضى عدد آخر من جيش عيسى فأحضروا المزيد من المتاع واستغلوا فرصة انشغال خصومهم بالطليعة التي اقتحمت عليهم فردموا جزءاً آخر من الخندق واجتازوه..

ورأى ابن قحطبة في جهة قريبة جداراً يطل على الخندق فأمر رجاله بهدمه على الخندق ليكون ردما له. فاتجهوا إليه بالفؤوس والرماح وعمد الخيام، ونقضوه على الخندق..

وبلغت أخبار الثغرة محمد بن عبد الله فأسرع إليها ومعه عدد من رجاله المقربين.. فحمل حملة شديدة، وبدأ يرد المقتحمين إلى طرف الخندق الآخر واستبسل هو ومن معه، وسقط عدد كبير من خصومه تحت ضربات سيفه وتراجع المهاجمون حتى جازوا الخندق عائدين إلى عسكرهم..

ورجع محمد وقد أصابته بعض الجراح وشد من عزم الرجال. وجاءه الخبر بأن الجيش العباسي قد أحدث ثغرة أخرى فانطلق إليها أيضاً، وجمع عدداً ممن وجدهم في طريقه وذهب يقاتل بنفسه.. وشهد مصرع بعض أصحابه فاشتد في القتال حتى تقهقر الخصوم..

وانتصف النهار والقتال يشتد في طرف ويهدأ في طرف. ونجحت مجموعات من جيش عيسى بن موسى في اجتياز جزء مردوم من الخندق ثانية، وانتشرت في طرق المدينة تقاتل من تواجهها.. بينما جاء إلى الموقع

---

١) الطبري ٥٨٥/٧

الذي يقاتل فيه محمد بن عبد الله رجل من آل طالب كان مع جيش عيسى فناداه ورجاه أن يكف عن القتال ويدخل في الطاعة، فلم يستجب له محمد، وكر عليهم فقتل بعضهم وهرب الباقون.. وجاءه من يخبره بأن ثغرة أخرى قد تدفق منها بعض الخيالة والرماة وأنهم كثروا.. ثم جاءه خبر آخر بثغرة في الشرق ، فأسرع إلى أقرب الثغرتين ووجه صديقه ابن خضير إلى الثانية، وتجالد الطرفان.. وكان محمد يكشف خصومه ويردهم في الجهة التي يواجههم فيها.. ولكنهم سرعان مايدخلون من جهة أخرى ويقتلون بعض أصحابه فيتناقص العدد القليل . وبدأ أصحاب محمد يشعرون بحرج الموقف ، فجاءه ابن خضير وأخذ يناشده الله أن يترك المعركة ويتجه إلى البصرة أو غيرها، ولكن محمداً أبى أن يترك القتال..

وتناقص عدد أصحاب محمد إلى حد كبير وأصبحت مناطق كثيرة دون حراسة، واستطاع أحد قادة عيسى بن موسى أن ينفذ إلى موقع يسكن فيه بنو غفار، وكان يمت إليهم بصلة، فحادثهم ومناهم بالأعطيات وطلب منهم أن يفتحوا لرجاله طريقا إلى المدينة فاستجابوا له، وفتحوا له طريقا اندفعت منه أعداد كبيرة من الفرسان ودخلت المدينة، وفاجأت رجال محمد من خلفهم وأعملت فيهم السيوف فسقط بعضهم ولاذ بعضهم الآخر بالفرار..

واقترب العصر وتضاعف عدد العباسيين الذين اجتازوا الخندق، واقترب بعضهم من البيوت دون مقاومة، وعاد ابن خضير يحض محمدا على الانسحاب ومحمد يأبى وأخيرا قال له: والله لاتبتلون بي مرتين، ولكن اذهب حيث شئت فأنت في حل.. فقال ابن خضير وأين المذهب عنك..

أدرك ابن خضير أن محمدا قد بلغ مرحلة التضحية والفداء، وأنه سيقاتل حتى الموت، وهذه مرحلة لاينفع فيها الجدال.. وسرت هذه الروح إليه، فصمم على أن يقوم بعمل كبير ويضرب الخصوم بكل ماأوتي من قوة.

لذا استأذن محمداً بدخول المدينة لبعض الوقت فأذن له، فاتجه إلى

السجن، حيث أمير المدينة العباسي رياح وكبار موظفي، فدخل عليهم وأخذ يقتلهم واحداً واحداً، وبدأ برياح فصب عليه كل غيظه وضربه بالسيف ضربا فظيعاً، وثنى بابن عقبة بن مسلم، ثم ببقية رجال الإمارة العباسية السابقة. وكان محمد بن خالد القسري أمير المدينة الأسبق في غرفة قصية من السجن، فسمع الجلبة، وعلم من بعض الحراس مايفعله ابن خضير وأدرك أنه لابد قاتله، فنادى من معه في الغرفة وسدوا الباب بكل ماوجدوه، فلما جاء ابن خضير لم يتمكن من الدخول عليه، فتركه وانطلق إلى ديوان الإمارة وكانت فيه سجلات تحوي أسماء الجنود، وأسماء الذين بايعوا محمداً، وأوراقاً أخرى ستؤذي بعض أهل المدينة إن سقطت في أيدي العباسيين، لذلك حمل ابن خضير جذوة من النار وألقاها في الديوان، ولم يغادره حتى رأى النار تلتهم كل ما فيه من أوراق ورسائل فعادإلى صاحبه محمد.

وكان محمد قد فرغ لتوه من صد مجموعة من جيش ابن قحطبة، وسقط معظم من معه من المقاتلين، وأدرك أن الشهادة قادمة لامحالة، فقرر أن يواجهها بشجاعة، ومضى إلى دار مروان بن محمد، فاغتسل وتحنط وصلى صلاة استقبال الموت وخرج، فلقيه عبد الله بن جعفر فقال له مشفقا: بأبي أنت، والله مالك بما رأيت طاقة، ومامعك أحد يصدق القتال، فاخرج الساعة حتى تلحق بالحسن بن معاوية في مكة، فإن معه جلة أصحابه. فأجابه محمد: ياأبا جعفر، والله لوخرجت لقتل أهل المدينة، والله لاأرجع حتى أَقتل أو أُقتل. وأنت مني في سعة..(١) فتأثر عبد الله بن جعفر ومضى معه حتى إذا

---

١) الطبري ٥٩١/٧

وصل إلى منطقة الزياتين(١)٠ قرب ثنية الوداع، سمع الصريخ يطلب النجدة فانطلق عبد الله بن جعفر ومضى محمد بن عبد الله إلى ثنية الوداع ولحقه عدد من الرجال فشدوا على من وجدوه من جيش عيسى وهزموهم، وانطلق صوت المؤذن من مسجد خلفهم لبني الديل، فرجع محمد إلى المسجد ودخل فصلى ثم خرج، واستسقى فسقته ربيعة بنت أبي شاكر القرشية، ثم قالت له: جعلت فداك، انج بنفسك فقال لها: إذاً لايبقى في المدينة ديك يصرخ . (٢) • ومضى إلى الثنية فوجد عندها مجموعة من بني شجاع صامدين، فسر بهم محمد بن عبد الله، ونزل عن دابته وعرقبها، ثم رمى غمد سيفه وكسره وقال لهم: قد بايعتموني ولست بارحاً حتى أقتل، فمن أحب أن ينصرف فقد أذنت له، فلم ينصرف منهم أحد، بل أقبلوا عليه وكسر كل منهم غمد سيفه،

---

١) يبدو أنها منطقة كان بائعو الزيت قديماً يبيعون زيوتهم فيها - وهي امتداد لمنطقة سوق المناخه وقد أخبرني الدكتور محمد الوكيل أن فيها «حجارة الزيت» وهي حجارة مشبعة بالزيت كان الزياتون يصفون بضائعهم عليها• وقد ورد في صحيح ابن ماجه -كتاب الفتن- حديث يشير الى وقوع فتنة تراق فيها الدماء حتى تغطي حجارة الزيت «عن ابي ذر••• قال: قال رسول الله ﷺ : كيف انت وقتلاً يصيب الناس حتى تُغرق حجارة الزيت بالدم• قلت: ماخار الله لي ورسوله • قال إلحق بمن أنت منه• قال: قلت يارسول الله أفلا آخذ بسيفي فأضرب به من فعل ذلك؟ قال: شاركت القوم إذن• ولكن ادخل بيتك (سنن ابن ماجه ١٣٠٨/٢ رقم الحديث ٣٩٥٧ دار إحياء التراث العربي • بيروت) وقد شرح محقق سنن ابن ماجه محمد فؤاد عبد الباقي حجارة الزيت بأنه موضع بالمدينة المنوره في الحره سمي بها لسواد الحجارة كأنها طليت بالزيت ويقول معقباً: وهذا إشارة الى وقعة الحرة التيْ كانت زمن يزيد»•

وأنا أرجح ماذهب اليه الدكتور محمد الوكيل، وقد سألت عدداً من أهل المدينة المسنين عن حجارة الزيت فقرروا أنها في منطقة الزياتين، وهو الموضع الذي ذكره الطبري

٢) الطبري ٥٩٢/٧ -

وعرقب دابته واستعدوا بما استعد له.

وفتحت ثغرة كبيرة عند جبل سلع، وكان عنده عدد من أعراب بني جهينة الذين ثبتوا مع محمد بن عبد الله ثباتاً كبيراً. فعمد أحد الجنود الخراسانيين في الجيش العباسي إلى حيلة فظيعة، جاء إلى جثة أحد القتلى فاقتلع الرأس والحلقوم والكبد والأمعاء، وعلق الرأس أعلى الرمح وترك بقية الأشلاء تتدلى على طرفي الرمح، واعتلى طرف سلع من جهته الأخرى وأطلع هذا المنظر المخيف أمام الجهنيين، فأجفلوا، ونزلوا من على صخرات سلع إلى السهل فصرخ الخراساني بالفارسية (كوهبان) فصعد إليه أصحابه حتى بلغوا القمة ونصبوا عليها راية سوداء كبيرة، فلما رآها الناس من بعيد ظنوا أن المعركة قد انتهت.

وقرب المسجد النبوي كانت تسكن امرأة عباسية هي أسماء بنت حسن بن عبدالله، فأرسلت مولى لها بخمار أسود كبير وأمرته أن يعلو مئذنة المسجد النبوي وينصبه عليها، ولم يكن أحد من رجال محمد عند المسجد النبوي، ففعل المولى ماأمرته سيدته، وفوجئ الناس من بعيد برؤية الراية السوداء على مئذنة المسجد النبوي فتنادوا: دخلت المدينة، وأخذ من بقي من رجال محمد بالهرب، (١).

ووصل ابن خضير إلى محمد بن عبد الله فأخبره بما فعله، فسر محمد بحرق الديوان وأثنى على فعله، وفجأة علت الأصوات وظهرت جلبة كبيرة، فقد أقبلت مجموعة كبيرة من فرسان العباسيين وعليها ابن قحطبة، فاندفع إليهم الرجال يضربون خيولهم، واقتحمت الخيل، وتقدم ابن خضير فنادى ابن قحطبة لمبارزته، ولكن ابن قحطبة أخذ يدعوه إلى الطاعة والأمان، ويستكثر عليه القتل، والتحم الفريقان وهجم ابن خضير يريد الوصول إلى ابن قحطبة، وصرع عددا من الرجال أمامه.. ولكن أحد الفرسان أصابه بضربة في اليته

---

١) الطبري ٥٩٣/٧



جبل سلع: الثغرة الأخيرة التي اقتحم منها لجيش العباسي ونفذ الخراساني حيلته المرعبة وقد تحولت قاعدته في العصر الحاضر إلى مزار للمساجد الستة فيها

فأحدث فيها جرحاً كبيراً، فخرج ابن خضير إلى أصحابه وشق ثوبا فعصبها إلى ظهره وعاد إلى القتال فأصاب عدداً آخر من خصومه، وتمكن منه أحد الفرسان فضربه على وجهه فخر على الأرض صريعا، وأقبل أحد الجنود الخراسانيين فاحتز رأسه وبدأ يصرخ بالفارسية (خضير آمد خضير آمد) (١) ورأى محمد بن عبد الله مصرع صديقه ابن خضير فاهتز جسمه وراح يضرب بعنف شديد، وتقهقر الرجال أمامه وشقوا له طريقا كي يدخل فيه، بينما أخذوا يحيطون به من جانبه، وهو لشدة انفعاله لايدري بما حوله، وأخيرا تمكن أحد الجنود أن يضربه من خلفه فخر على ركبتيه، وتجمع الجنود عليه فصاح حميد بن قحطبة: كفوا كفوا لاتقتلوه، ولم يكن حميد يريد أن ينقذه بل كان يريد أن يجهز عليه بنفسه، فأسرع إليه وهو يتهاوى وأجهز عليه، ثم احتز رأسه ومضى به إلى قائده عيسى بن موسى.

وسقط البطل الكبير بعد أن صرع بيده أكثر من سبعين رجلا، سقط بعد أن فتحت الثغرات في المدينة كلها، وسقط أتباعه، ولم يبق معه أحد.

وقبل أن تغيب شمس ذلك اليوم، كانت المدينة تطوي صفحة ثاني ملحمة دامية في تاريخها، سالت فيها دماء كريمة في طاحونة الصراع المرير على الخلافة، وقتل عدد من أحفاد المهاجرين والأنصار، في فتنة ما كان أغنى المدينة عنها.

وشاء الله أن تتلبد السماء بالغيوم ثم تتفجر بمطر غزير، كأنها تبكي الدماء التي سالت، ويقول أحد شهود العيان (انخرقت السماء بالمطر بما لم

---

١) الطبري ٥٩٤/٧ -.

أر مثله انخرق قط منها) (١) فأمر عيسى بن موسى مناديه بأن ينادي بالجند كي يخرجوا جميعا من المدينة ويتجهوا إلى الجرف حيث معسكرهم، ولايبقى فيها إلا مجموعة صغيرة يقودها كثير بن حصين، فخرج الجنود تحت المطر من المدينة وتقاطروا إلى الجرف فباتوا ليلتهم فيه.

بعد المعركه:

وأشرقت شمس الخامس عشر من رمضان عام مائة وخمسة وأربعين للهجرة وكأن السماء بمطرها قد أتمت إغلاق ذلك الفصل الدموي، وسالت مياهها لتمسح الدماء المراقة، وأحس الناس بالسكينة وخرجوا إلى أسواقهم، وفي نهاية المدينة عند سلع إلى طريق أُحد انتصب صفان من الجثث المصلوبة لعدد من رجال محمد بن عبد الله ، لتكون درساً قاسياً لمن يشق عصا الطاعة، وتحرك بعض الجنود الذين باتوا في المدينة إلى بيوت عدد قليل من وجوه المدينة طلبهم عيسى بن موسى كانوا مشايعين لمحمد بن عبد الله ولكنهم لم يقاتلوا معه، ولم يزد عيسى على أن وبخهم ثم عفا عنهم وردهم إلى بيوتهم آمنين، وكانت العقوبة الكبيرة منصبة على آل الحسن ثم من شايعهم من آل الزبير وآل الخطاب، فقد جمع الجنود من قدروا عليه وساقوهم أسارى إلى عيسى، الذي قرر اصطحابهم معه إلى الخليفة، وكذلك مصادرة أموال آل الحسن جميعا باستثناء أموال الحسن بن الزبير الذي بقي على ولائه للعباسيين، وبعد يومين أنزلت الجثث المصلوبة ودفنت في خندق عند جبل ذباب (٢) وظل الجيش في معسكره بالجرف خارج المدينة، وقائده عيسى بن موسى يتردد على المسجد النبوي، يصلي فيه ويعود ليبيت مع الجند.

وفي اليوم التاسع عشر من رمضان، أي بعد الملحمة بخمسة أيام، عزم عيسى بن موسى السفر إلى مكة لأداء العمرة، فاستخلف كثير بن حصين على

---

١) الطبري ٧/٥٩٩ -.

٢) الكامل ٥/١١ -.

إمارة المدينة وخرج بعدد من جنوده وحرسه، وما أن وصل مكة حتى جاءه أمر المنصور بالتوجه إلى العراق استعداداً لمواجهة ابراهيم بن عبد الله الذي تحصن بالبصرة وأخذ يعد العدة للثورة فيها، فأسرع بالعودة إلى المدينة وسحب الجيش المرابط في ضاحيتها، وحمل معه أسراه من آل الحسن وآل الزبير وآل الخطاب، وترك الباقين في سجن المدينة وترك تدبير شؤون المدينة لكثير بن حصين إلى أن يرسل الخليفة أميراً جديدا لها.

وانصرفت جهود كثير بن حصين إلى إعادة تنظيم الدواوين بعد احتراق السجلات القديمة، والحفاظ على الأمن في المدينة، ولم يكن الأمر الثاني يكلفه جهدا كبيرا، فآثار الملحمة كفيلة بدفع الناس إلى السكينة والاعتبار بما حدث، ورجاله الذين بقوا معه يجوبون أحياء المدينة وأسواقها زيادة في الحيطة والحذر، وجاءت الأخبار بأن الخليفة المنصور قد قتل عثمان بن محمد من آل الزبير وأطلق محمد بن عبد العزيز من آل الخطاب وحبس الباقين، واشتغل بأمر ابراهيم بن عبد الله الذي أشعل الثورة في البصرة وبدأ الناس يبايعونه في الأهواز وواسط وأطراف خراسان، ولكن لم يكن في المدينة أحد يجرؤ على إذاعة أمر إبراهيم أو الانتصار له، ومن أراد مشايعته خرج إليه.

موازنة بين الملحمتين:

كانت ملحمة محمد بن عبد الله بن الحسن ثاني ملحمة دموية في تاريخ المدينة وشتان مابين هذه الملحمة والملحمة التي سبقتها، ملحمة الحرة. ففي ملحمة الحرة كان المستهدف هو: أهل المدينة، وكانت القضية جماعية والعقوبة عامة فاحشة ، تصيب من لا ناقة له فيها ولا جمل، وفي هذه الملحمة كان المستهدف رجلا واحداً، ثار على الخليفة وشايعه في ثورته عدد من الناس، ومهما كان عدد الذين بايعوه، فإن الذين قاتلوا معه وأصبحوا مستهدفين لايتجاوزون ثلاثمائة، لذا فالقضية محدودة أيضا، والعقوبة لاتمتد خارج إطارها، ولعل التشابه الواضح في سطور الملحمتين هو حرص كل من

الخليفتين على تحكيم العقول قبل السيوف، وإنهاء القضية سلماً وليس حرباً، فكماعرض يزيد على أهل المدينة عروضا مغرية، عرض أبو جعفر على الثائرين عروضاً تلغي كل ماقيل عن بخله الشديد..

وفي كل من الملحمتين جاء القائد العسكري للحملة الغازية يحمل آخر فرصة من فرص السلام، ومنح الثائرين ثلاثة أيام يراجعون فيها أنفسهم، ولكن العاطفة طفت على العقل..

وفي الملحمتين كان عدد من عقلاء المدينة ومن أقارب زعماء الثورة ينصحون الثائرين بالتعقل والعودة إلى طاعة الخليفة، ويحذرونهم من مغبة المواجهة مع جيش الخليفة، ويتوقعون لهم النهاية الدامية، ولكن أصواتهم كانت تضيع أمام ضجيج الأصوات المندفعـــــة(١).

وفي الملحمتين أبدى الثائرون شجاعة نادرة وصمدوا واستبسلوا، وآثر القادة الموت على الاستسلام أو الفرار..

وفي الملحمتين كان عمل القادة أشبه بالعمل الانتحاري، فالمدينة لاتملك إمكانات المقاومة الطويلة ولاتكافئ القوة المهاجمة..

وفي الملحمتين حفر خندق رسول الله صلى الله عليه وسلم..

وفي الملحمتين لم يدم القتال أكثر من بياض نهار واحد.

غير أن ماأعقب كلا من الملحمتين مختلف عن الآخر، فمسلم بن عقبة صب غضب يزيد على أهل المدينة، وكانت الغلطة التاريخية الكبرى، أن تستباح أموال المدينة وأرواح أهلها ثلاثة أيام متوالية، وأن يقتل مسلم بعد انتهاء المعركة عدداً من الناس في مجلسه، أما عيسى بن موسى فما إن جاءه رأس محمد بن عبد الله حتى أرسل المنادين ينادون بالأمان، ومنع الجنود من الاعتداء على أحد من أهل المدينة، ومن النهب والسلب. ولم تحدث أية

---

١) كان في الأولى النعمان بن بشير الأنصاري رضي الله عنه وفي الثانيه الرجل الهاشمي الذي كان مع جيش العباسيين وخاطب القاسم بن حسن بن زيد

تجاوزات، سوى واقعة واحدة في بني فزارة: فعندما دخلت خيل عيسى شعب بنو فزارة لتلتف على محمد بن عبد الله في الثنية التي قتل فيها، اقتحم نفر من الجند بيت أبي الشدائد، فقتلوه وأخذوا رأسه فصرخت ابنته: وارجالاه، فقال لها أحد الجند: ومن رجالك ؟ قالت بنو فزارة، فقال والله لو علمت مادخلت بيتك، فلا بأس عليك. وأعطاها قطعة من عمامته السوداء فعلقتها على بابها كي لايقتحمه أحد، وحمل الجند رأس أبي الشدائد إلى عيسى بن موسى، وعنده رجلان من قريش، ورجل من بني فزارة كفيف البصر ، فاسترجع القرشيان وقالا والله مابقي من أهل المدينة أحد، هذا رأس أبي الشدائد، فاهتز الفزاري وأقبل على عيسى بن موسى يسأله بإلحاح شديد أن يحجز جنده . فأرسل عيسى مناديا فنادى: من جاء برأس ضربنا رأسه (١) وأرسل عيسى بن موسى عدة رايات نصبت أمام بيوت بعض أهل المدينة من العباسيين والقرشيين وأحفاد المهاجرين والأنصار وصاح المنادي: من دخل تحت لواء منها أو دخل دارا من هذه الدور فهو آمن، (٢) بعدها لم تحدث أية تجاوزات، ولم يرتكب الجنود العباسيون أية جرائر.. وأرسلت زينب بنت عبد الله أخت محمد وابنته فاطمة إلى عيسى تسألانه أن يسمح لهما بدفن جثة محمد، فأجابهما إجابة رقيقة، وسمح لهما بالدفن، فأرسلتا بعض مواليهما فحملوا الجثة ودفنوها في البقيع ولم يمثل بجثة أحد، (٣).

تجديد الإمارة العباسية في المدينة :

في الخامس والعشرين من شهر شوال وصل إلى المدينة عبد الله بن الربيع الحارثي ومعه عدد من الرجال، يحمل كتابا من الخليفة بتوليته إمارة المدينة، فتسلم الإمارة من كثير بن حصين، وواصل تنظيم دواوينها وعني

---

١) الطبري ٧/٥٩٩ -.

٢) الطبري ٧/٦٠٠ -.

٣) السابق نفسه

عناية خاصة بديوان المسلحة (الشرطة) وأمر رجاله بمراقبة الأحياء والأسواق بحرص شديد.

تجاوزات الجنــود:

كان معظم جنود ابن الربيع من الخراسانيين الذين شاركوا في مقاومة العديد من الفتن في أطراف العراق، وكانت أجواء الاضطرابات قد أثرت في سلوكهم، وجعلتهم يعاملون الناس بخشونة واستعلاء، فتضايق أهل المدينة من أفعالهم ولكنهم صبروا عليها. ثم تطور الأمر عندما نزل بعض الجنود إلى السوق وأخذوا بضائع من التجار ولم يدفعوا ثمنها، وانتشر الخبر في المدينة فازدادت نقمة الناس عليم، وأبلغ بعض المترددين على الإمارة الأمير عبد الله بن الربيع بذلك فلم يفعل الأمير شيئاً، وطمع الجنود في سكوت الأمير فازدادت تصرفاتهم سوءاً، وأصبح التجار يتحاشونهم ويعتذرون عن مبايعتهم ما أمكن ذلك، وإن أخذوا شيئاً بسيطاً تركوه لهم تجنبا للفتنة، وفي أحد أيام ذي الحجة ارتفعت في السوق أصوات أحد التجار يستغيث من حوله، فهرع إليه جيرانه والمارة، فوجدوه متعلقا بجندي، والجندي قد سلبه كيس نقوده وشهر عليه السيف، فاجتمع الناس على الجندي وجردوه من سيفه وخلصوا منه كيس النقود وأعادوه إلى التاجر المذعور، واقتادوا الجندي إلى دار الإمارة وسلموه لرئيس الشرطة وهم في غاية السخط، ولم يكن الأمير موجوداً في دار الإمارة آنئذ، فطلبوا من رئيس الشرطة أن يبلغه بالأمر وأن يضع حداً لمثل هذه التصرفات، ومالبثت الحادثة أن صارت حكاية تنتقل من بيت إلى بيت، وتملأ الناس بالسخط والتذمر من أولئك الجنود الوافدين، وتجعل التجار أشد ضيقا وحذرا منهم، وتوقع أهل المدينة أن يعاقب ابن الربيع الجندي علنا، أو أن يهدئ خواطر الناس بطريقة ما، ولكن ابن الربيع لم يفعل شيئاً من ذلك تألفا لجنده، فهم رجاله في المدينة التي سالت في أطرافها الدماء قبل شهور قليلة، ولم يفعل أهل المدينة شيئاً سوى الغضب

الصامت.

ثورة السـودان:

في ضحى يوم الجمعة الثالث والعشرين من شهر ذي الحجة دخل أحد الجنود دكان جزار، وكان الجزار عبداً أسود يدعى (معقل)، وطلب بعض اللحم، فأعده معقل له، فأخذه الجندي ولم يدفع الثمن، فلما طالبه به الجزار أغلظ الجندي له القول، وتحرك لينصرف من الدكان فلم يملك معقل نفسه وهجم على الجندي وضربه بسكينه الكبيرة في خاصرته، فصرخ الجندي مستغيثا بزملائه وخر صريعا على الأرض، وهرع الجنود الموجودون في السوق إلى دكان معقل فاستغاث معقل بزملائه وجيرانه. وكان معظمهم من السودان والموالي، فهاجموا بسكاكينهم الحادة الجنود، وأصابوا عدداً منهم، وفر الباقون وأخرج أحد السودان من دكانه بوقا، ووقف على مرتفع من الأرض ونفخ فيه بقوة، فبلغت أصوات البوق الأحياء المحيطة بالسوق، وأجابته أصوات أبواق أخرى من عالية المدينة وسافلتها، وكانت هذه الأصوات بمثابة أجراس الإنذار، هب لتلبيتها كل من سمعها من السودان، وتجمع عدد كبير منهم في السوق، وحدثهم معقل بما فعله الجندي، وكيف قتله، فتحمس له زملاؤه وباركوا فعله، وخرج من الصفوف رجل ضخم منهم يدعى وثيق، وحدثهم عن إساءات الجنود وسكوت أهل المدينة عنهم خوفا من أذاهم وضرورة التصدي لهم، وتبعه آخر يدعى زمعة (١) فاشتعلت نفوس الحاضرين بالثورة. وتصايحوا للانتقام منهم لجميع أهل المدينة وتحول الصراخ إلى حركة، واتجهت جموعهم خارج السوق، وحملوا ماوجدوه في طريقهم من أعمدة وعصى غليظة، واختاروا كلا من وثيق وأبي قيس وزمعة ومعقل قادة لهم، وانطلقوا إلى الطريق العام فوجدوا بعض الجنود فقتلوهم، وتوزعوا إلى فرق، كل فرقة يقودها واحد من القادة المختارين، وانطلقوا في أحياء المدينة

---

١) الطبري ٦١٠/٧ . الكامل ١٣/٥ البداية والنهاية ٩٣/١٠ -.

يفتشون عن الجنود، ومن وجدوه انهالوا عليه بالعمد والعصي حتى يقتلوه ويأخذوا سلاحه، وعلت أصواتهم وهم يصيحون غضبا وتهديدا، وفرحا بمن يظفرون به، وانتشر الخبر في أحياء المدينة ، وكان الناس متجهين إلى المسجد النبوي لصلاة الجمعة، ففزعوا، ورجع معظمهم إلى بيته، ووصلت طائفة من السودان الثائرين إلى قرب المسجد النبوي وقتلوا عددا من الجنود المتوجهين إلى المسجد، وهرب بعضهم إلى دار الإمارة وأخبروا الأمير وصاحب الشرطة، وجاء جنود ناجون من أحياء أخرى بأخبار مماثلة، ففزع الأمير، وكان يستعد للذهاب إلى صلاة الجمعة أيضا، فجمع من عنده من الجنود وخرج بهم لملاقاة السودان، ولقوا مجموعة صغيرة منهم فهجموا عليهم، لكن السودان هربوا منهم واتجهوا إلى السوق ليجتمعوا بأصحابهم، ورأى الجنود خمسة رجال عليهم أسمال بالية - وكانوا من السائلين الذين يقفون في طريق المسجد - فظنوهم من الثائرين، وقتلوهم ولم يلتفتوا إلى أيمانهم بأنهم شحاذون، وواصل الجند تحركهم، ووجدوا فتياناً على سطح أحد الدور، فاستنزلوهم وقتلوهم أيضاً، ومضوا في طريقهم إلى السوق، وعلا صراخ الناس، ووصل الخبر إلى السودان فاتجهوا نحو السوق ووجدوا إخوانهم الهاربين من الجنود، ثم التقوا بالأمير وجنوده، عند دكاكين تجار القمح فشدوا عليهم وأصابوا عدداً منهم، وأخذ الأمير وجنوده يتراجعون، والسودان يتبعونهم حتى وصلوا إلى البقيع، وخشي الأمير أن يصلوا إليه ويقتلوه، فأخرج صرة كبيرة من المال ونثرها، فأقبل السودان عليها يلتقطون الدراهم المنثورة، وهرب ابن الربيع وجنوده، وخرج من المدينة إلى جبل أحد، ثم اجتازه إلى وادي نخل فنزل فيه، وعلم الناس أن ابن الربيع قد هرب مع رجاله فتعطلت صلاة الجمعة، وصلى الناس الظهر وخرجوا من المسجد، ومضى السودان إلى دار الإمارة ودخلوها فلم يجدوا أحدا من الجند، ورأوا في مخازنها أكداسا من الدقيق والزيت وغير ذلك من الطعام المعد للجند

ورجال الإمارة، فنهبوها، واتجهوا بها إلى السوق فكدسوها وأخذوا يبيعونها بأي ثمن، حتى بيع كيس الدقيق بدرهمين، وراوية الزيت بأربعة دراهم (١) وخلت المدينة من الجنود، وهرب القائمون على المرافق، وأصبح السجن بلا حراس، وعلم المساجين بما حدث في المدينة فخرجوا بقيودهم، ولم يجرؤ أحد من موظفي الإمارة على أن يفعل شيئاً خشية أن يبطش به السودان الثائرون. وبدت المدينة بلا سلطة تدير أمورها، واشتغل السودان بما نهبوه من دار الإمارة، ورغم وجود قادة لهم فانهم كانوا غير منظمين البته، وتجمعوا في السوق يتبادلون الأحاديث عما فعله كل منهم في سرور ونشوة،

تناقل أهل المدينة أخبار السودان، وهرب ابن الربيع، وكان بعضهم مغتبطا بالثورة، وبعضهم الآخر متخوفا من عواقبها، فما زالت آثار ثورة محمد بن عبد الله ماثلة في أذهانهم، واشتدت خشيتهم عندما علموا أن أحد رجال الإمارة خرج بخبر الثورة إلى المنصور، ولكنهم لم يفعلوا شيئاً لتدارك الأمر.

---

١) الطبري ٧ / ٦١١ -

ســجين يطفىء الثورة:

كان في سجن الإمارة رجل خالط الأمراء وعمل لهم هو أبو بكر بن أبي سبرة، الذي أرسله أمير المدينة الأسبق رياح لجمع زكاة طيئ وأسد، فقدم بها وقد خرج محمد بن عبد الله فدفعها له، وعندما قتل محمد بن عبد الله قبض عليه وسجن.

أدرك ابن سبرة خطورة ثورة السودان، وتوجس من عواقبها، فنفس المنصور ماتزال تغلي من ثورة محمد ثم أخيه ابراهيم، ومن المشكلات التي يواجهها في الأهواز وخراسان، ولئن تسامح مع أهل المدينة إثر إخماد ثورة محمد بن عبد الله، فإنه لن يسكت عن إخراج أميره ابن الربيع منها ونهب مخازن الإمارة، ثم إن هذه الثورة ليست إلا ثورة غضب أصابت بعض الدماء، وليس فيها من يطالب بالخروج على الخليفة، ولا من يطمع بتغيير الحكم، وقد تحولت إلى النهب والسرقة، ولم يعد في المدينة من يحمي أمنها وأموال الناس فيها، ولئن تركت الأمور على عواهنها فربما تتطور إلى الأسوأ، وربما تكون معاقبة الخليفة جماعية تشمل أهل المدينة كلهم، لذا لابد من تدارك الأمور.

خرج ابن سبرة من السجن يجر قيوده في رجليه، واتجه إلى المسجد، فلم ير فيه إلا عدداً قليلاً من الناس، فأرسل إلى بعض وجوه المدينة من أبناء المهاجرين والأنصار، فجاؤوا إليه، فحدثهم عن خطورة الأمر، والخوف من عقوبة الخليفة وتكرار إراقة الدماء في المدينة الطاهرة، وحثهم على سرعة التحرك والتصرف، واستقر الرأي على أن تتوزع الجهود في جهتين: جهة السودان الثائرين، بإنهاء ثورتهم وإعادتهم إلى سواء الحياة اليومية، وجهة الأمير الذي نزل ببطن نخل، لإقناعه بضبط جنوده والعودة إلى المدينة وإدارة أمورها وتجاوز الفتنة، كأن شيئاً لم يكن، قبل أن يأمر الخليفة بشيئ.

وشرع الحاضرون بتنفيذ ما اتفقوا عليه، فذهب بعض الهاشميين إلى

السوق وخاطبوا قائد السودان (وثيق) وطلبوا منه أن يفرق جماعته وينهي حشدهم، ورحب وثيق والسودان بمن جاؤوهم، وأبلغوهم أنهم ثاروا حمية وفعلوا ما فعلوه ثأراً لما أصابهم من ظلم، وعرضوا عليهم أن يستمروا في ثورتهم حتى يتشفوا من ظالميهم، فأبى محاوروهم ذلك وبدؤوا يشرحون لهم عواقب الأمور إن استمرت على هذا الحال، ويطلبون منهم الاستجابة لهم، فأبدى الثائرون استجابة كبيرة، واتجه قادتهم إلى المسجد، واجتمعوا بابن سبرة، وحاورهم وأقنعهم بإنهاء ثورتهم. وعودة كل رجل إلى مولاه وعمله، وإعادة مانهب من الإمارة، وكانت نفوس الثائرين غاية في الإستجابه لمواليهم من أهل المدينة، فانصاعوا لهم بطواعية مدهشة، ومضى قادة الثورة إلى زملائهم فأقنعوهم بعدم التصدي للجنود بعد ذلك، والعودة إلى مواليهم وأعمالهم، فأطاعهم زملاؤهم طاعة كاملة، وأنهوا ثورتهم.

ودخل وقت العشاء وتجمع المصلون في المسجد ينتظرون من يؤمهم، فلم يتقدم أحد، ذلك أن الإمامة هي إحدى مظاهر الإمارة، ومن يتقدم في مثل هذه الحالة فربما يتهم بأنه من دعاة الثورة أو أنصارها، وأقام المؤذن الصلاة واستوت الصفوف، وتلفت ينظر من يتقدم للإمامة فلم يتقدم أحد، فطلب من بعض الحاضرين أن يؤم المصلين فاعتذر، وأعاد الكرة فلم يستجب له أحد، وكادت الجماعة أن تتفرق، فخرج من بين الصفوف أحد الأمويين الباقين في المدينة وهو الأصبغ بن سفيان بن عاصم بن عبد العزيز بن مروان، ونادى: أنا أصلي بالناس على طاعة أبي جعفر المنصور، وكرر ذلك ثلاثة وكبر، فصلى الناس وراءه.

وأما الفريق الثاني من وجوه أهل المدينة فقد توجهوا إلى بطن نخل للقاء الأمير ابن الربيع وإقناعه بالعودة إلى المدينة، وكان جلهم من القرشيين -وابن الربيع قرشي- والتقوا به فوجدوه غاضبا، وعازما على مواصلة السفر إلى الخليفة لمعاقبة الثائرين وأهل المدينة، فأخذوا يهدئون غضبه ويحاورونه

في الأحداث التي جرت، ويربطون بينها وبين تصرفات بعض جنوده، ومازالوا يلحون عليه أن يرجع إلى المدينة فيتأبى عليهم، حتى اختلى به محمد بن عبد العزيز وأقنعه بالعدول عن السفر إلى الخليفة لأن الخليفة سيحاسبه هو أيضا لتقصيره في معاقبة جنوده المسيئين، والذين كانوا السبب في الثورة، فاقتنع برأيه.

وقبل أن يصل ابن الربيع إلى المدينة، قام ابن سبرة بعمل آخر يثبت فيه بعد نظره وحسن تصرفه، فقد حث أهل المدينة على إصلاح ما أفسدته الثورة الغاضبة بإعادة المنهوبات أو مابقي منها، وأرسل منادياً يطوف بالأحياء ويخبرهم أنه كلف الحكم بن عبد الله بن المغيرة بالجلوس في الإمارة واستلام ما يرده الناس من أموالها وأرزاقها، وحث موالي السودان أن يعيدوا كل ما يجدونه لديهم من منهوبات، واستجاب لهم عدد كبير من السودان ومواليهم،(١) وتسلم الحكم بن عبد الله قدراً كبيراً من الأموال والأمتعة المنهوبة، أما الطعام فلم يعد منه إلا القليل.

ولم ينقض شهر ذي الحجة، حتى عاد عبد الله بن ربيع الحارثي إلى المدينة مع من بقي من جنوده، ودخلها لايعترضه أحد، ومضى إلى دار الإمارة والتقى فيها بعدد من وجوه المدينة، وبخاصة أولئك الذين كان لهم أثر كبير في إنهاء الفتنة.. وأفرج عن ابن سبرة وأكرمه شكراً له على صنيعه، غير أنه أصر على معاقبة قادة الثورة والقصاص منهم لجنوده الذين قتلوا، وبعضهم قتل غيلة في الشوارع، ولم يكن له ذنب فيما حدث، غير أن جلساءه أقنعوه بأن الفتنة كانت عامة في الثائرين ولا موضع للقصاص فيها، فاكتفى بتوقيع عقوبة السرقة والنهب على رؤساء الثائرين، وأمر بالقبض عليهم، فقبض على القادة ونفذت فيهم العقوبة، وكتب ابن الربيع إلى المنصور يخبره بإنتهاء الفتنة واستتباب الأمور ومعاقبة الجناة، فاكتفى المنصور بتلك

---

١) الطبري ٦١٣/٧ -.

العقوبات ولم يأمر بشئ أخر.

نتائــــج وآثار:

وهكذا مضت سنة خمس وأربعين ومائة حاملة معها أحداثها الكبيرة وتاركة آثاراً وعبراً في نفوس أهل المدينة، فقد كانت نتائج ثورة محمد بن عبد الله بن الحسن درسا قاسياً، تعلم منه الكثيرون في المدينة، وبدت آثار هذا الدرس في موقفهم الحكيم من ثورة السودان، فقد سارعوا لإطفائها وتفادي آثارها، ولا سيما وأنها أسرفت في الانتقام من الجنود وقتلت بلا تمييز، ثم تحولت إلى النهب وسرقة الأموال العامة. وكانت أحداث ثورة السودان درسا للأمير ابن الربيع، تعلم منه أن يكبح جنوده، ويراقب تصرفاتهم، فلم يتكرر عدوانهم على أحد، ولم تبد منهم بعد ذلك أية تجاوزات. وكانت أيضا تنبيها للخليفة المنصور بأن أميره لايناسب المدينة المنورة، ولا يحسن التصرف، لذا لم يلبث أن استدعى ابن عمه جعفر بن سليمان بن علي بن عبد الله بن العباس وعقد له الإمارة على المدينة المنورة، وأمره بالتوجه إليها وتسلمها من ابن الربيع، فرحل جعفرإلى المدينة ووصل إليها في ربيع الأول عام ١٤٦هـ أي بعد شهرين من إنتهاء ثورة السودان، فتسلم الإمارة من ابن الربيع وبدل جنود الإمارة فاستغنى عن رجال ابن الربيع (١) ولا سيما الخراسانيون، وعادت السكينة إلى نفوس أهل المدينة ، واشتغلوا بأمور حياتهم اليومية مطمئنين، وعادت حلقات العلم في المسجد إلى ما كانت عليه قبل الفتنة، وكان نجمها الكبير الإمام مالك بن أنس، ومن نجومها الآخرين جعفر بن محمد وعبد الملك بن عبد العزيز بن جريج، الذي يرحل إليه طلاب العلم من الآفاق، وقد شجع الاستقرار والأمن المزيد من طلاب العلم على الرحيل إلى المدينة والإقامة فيها مدة من الزمن، والتتلمذ على علمائها.

---

١) الطبري ٦٥٦/٧. الكامل ٢٢/٥ -.

ولا شك أن التصرف الحسن الذي أبداه أهل المدينة في ثورة السودان قد جعلت العباسيين يطمئنون إلى طاعتهم، وجعلت جعفر بن سليمان أميرها الجديد يحسن إليهم مدة ولايته، وقد دامت خمس سنوات متوالية، فلم يسجل التاريخ خلال تلك المدة أية أحداث تعكر حياة المدينة، ولم يشهد على جعفر أنه ظلم الناس فيها، ويبدو أن الأمور الاقتصادية قد استقرت في هذه السنوات وكثر اعتماد الناس على الزراعة ليعوضوا فيها ماحرمته المدينة من القمح الذي كان يرد إليها من مصر، فما زال أمر المنصور بوقف تصدير الميرة من مصر إلى الحجاز نافذاً، غير أن أمر المنصور كان مقتصراً على طريق البحر، وكانت تجارة مصر تأتي عن طريق البحر، أما تجارة الشام واليمن فتأتي عن طريق البر، ولم تحرم المدينة من ميرة الشام، وقد أفادها ذلك النقص في تنشيط الزراعة والاستكثار من زراعة الحبوب، ولم يسجل المؤرخون ضائقة أو نقصاً في طعام الناس والحجيج خلال تلك المدة، بل نجد في بعض الأخبار أن مزارع المدينة كانت تغل غلة حسنة، وكان المنصور يملك بعضها، وقد كتب مرة إلى عامله يأمره أن يبيعها بسعر جيد إلى من يملك المال الوافر ولا يبيعها إلى من قل ماله، وهذا يدل ـ إضافة إلى ماعرف من حرص المنصور وبخله ـ على وفرة غلال مزارع المدينة آنئذ (١).

طالبيّ في إمارة المدينة:

بعد خمس سنوات من إمارة جعفر بن سليمان، رأى أبو جعفر المنصور أن يستقدمه من المدينة، فأرسل عام ١٥٠ أمراً بعزله عنها، وولاها لرجل طالبي أثبت ولاءه للمنصور في أوقات الشدة، هذاالرجل هو الحسن بن زيد بن الحسن بن علي بن أبي طالب، وهو ابن عم كل من محمد وابراهيم ابني عم عبد الله بن الحسن. ولكنه كان ضدهما، وعندما ثار محمد بن عبد الله أعلن ولاءه للمنصور، ولما بلغه أن ابنيه تبعا محمد بن عبد الله تبرأ منهما، لذلك

---

١) أنظر الطبري ٨/٨٧ -.

رأى المنصور أن يكافئه على ولائه بإمارة المدينة بعد ابن عمه، وقدم الحسن بن زيد إلى المدينة بعد مرور خمس سنوات على ملحمة محمد بن عبد الله، وكان هذا الفاصل الزمني كفيلا بمسح أثارتلك الملحمة وتضميد جراحات الهاشميين، ولو جاء الحسن بن زيد بعد مقتل محمد بن عبد الله مباشرة لكانت إمارته مثيرة للضغائن.. ومعمقة للانشقاق بين بني هاشم، وربما تكون مثيرة لأحداث دامية وفتن.. غير أن إمارة جعفر بن سليمان التي سبقته، وحسن سياسة جعفر مع أهل المدينة قد مهدا السبيل للحسن بن زيد لاستلام الإمارة وإدارتها دون حساسية من أهلها.

كان الحسن بن زيد أول هاشمي من أحفاد علي بن أبي طالب يستلم إمارة المدينة، بل وأول (طالبي) بعد علي بن أبي طالب يقوم بأمرها، غير أن الطالبية لم تكن عند الحسن بن زيد تعني شيئاً سوى النسب الكريم، أما قضية الخلافة ومنازعة الخلفاء العباسيين فيها فقد طويت في نفسه تماماً منذ قيام الدولة العباسية، لذا سارت الحياة في المدينة المنورة في عهده على الوتيرة نفسهاالتي كانت عليها زمن جعفر بن سليمان، وربما زاد فيها تآلف الهاشميين في المدينة وترددهم على ابن عمهم الأمير.

ويبدو أن المنصور رغب في مسح آثار محنة آل الحسن، بعد أن قتل من قتل ومات من مات منهم في السجن، فأطلق سراح الباقين.

وفي السنة التالية لولايه الحسن بن زيد وصل إلى المدينة حفيد محمد بن عبد الله، وكان أبوه عبد الله بن محمد الملقب بالأشتر، قد ذهب إلى السند عندما قام محمد بن عبد الله بثورته وأخذ البيعة من أميرها عمر بن حفص لوالده، وقبل أن يفعل عمر شيئاً وردت الأخبار بمقتل محمد بن عبد الله فعاد عمر بن حفص إلى طاعة المنصور ونصح الأشتر بالخروج إلى مملكة مجاورة يحكمها رجل سندي وثني، فخرج إليه الأشتر فأكرمه الملك السندي، وبعد مدة عزل المنصور عمر بن حفص وولى هشام بن عمرو، فاستطاع أخو هشام

ـويدعى سفنجةـ أن يظفر بالأشتر وهو في نزهة صيد فقتله وأرسل زوجته السنديه وابنها الصغير إلى المنصور ، فأكرمهما المنصور ووجههما إلى الهاشميين في المدينة وبعث معهما كتابا يشهد فيه بصحة نسب الصغير إلى آل الحسن، (١).

ولم تشهد المدينة في زمن الحسن بن زيد أحداثا فاقعة، ويبدو أن الخليفة آثر أن يتركها تعيش حياتها العادية في الظل، حتى إنه عندما حج عام اثنين وخمسين ومائة لم يمر بها، جاء من الكوفة إلى مكة ورجع من الطريق ذاته، وربما كان من حسن حظ المدينة أن تستمر فيها سنوات الهدوء بعيدا عن مشكلات السياسة والولاء والخارجين.. فقد حظيت من هم الخليفة وكيده وتدبيره، قبل ذلك ما أتعبها وأتعب أهلها، ومازالت تحمل شيئاً يسيراً من آثارها، وهي منع الميرة المصرية عنها.

وهكذا تتجه أضواء التاريخ إلى بلاد أخرى لتظهر ما كان فيها من مشكلات سياسية وفكرية ومن ثائرين ومفسدين وزنادقة، ويكرم الله المدينة المنورة بالبراءة والتطهر من ذلك كله، فما زالت المدينة تعيش على إرث رسول الله ﷺ القرآن والسنة والفقه والعلوم الإسلامية الأخرى، ومازالت الرئة الذي تأوي إليها الدماء لتنتقى فيها من الشوائب، ومازال كثير من رجالها يتناقلون حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ويروونه ويدونونه، وكذا يدونون أخباره وسيرته.

عزل الأمير الطالبي:

ومضت خمس سنوات أخرى من الحياة الهادئة المطمئنة في المدينة المنورة، نمت فيها ثروة الأمير نمواً واسعاً، والتف حوله الهاشميون وانتهت شقاقاتهم، وكان للمنصور في كل إمارة عيون تكتب له عن أمرائه، فكتبوا له بذلك، وشعر المنصور بأن الحسن بن زيد قد نال أكثر من المكافأة التي يريد

---

١) أنظر الطبري ٣٦/٨ -.

أن يعطيه إياها، وخشي إن استمرت إمارته في المدينة أن تنمو شوكة الهاشميين فيها، أو أن يدخل في نفس الحسن بن زيد شئ، وأثاره ما بلغه عن ثروته الكبيرة، فقرر عزله وتولية عمه عبد الصمد بن علي مكانه.

ولاشك أن إسناد الإمارة إلى عم الخليفة مظهر من مظاهر اهتمام الخليفة بالمدينة، واعتبار إمارتها تكريما لمن يتولاها، كما فعل السفاح، وقبله معظم الخلفاء الأمويين.

المدينة في إمارة عبد الصمد بن علي:

ومثلما تسلم الحسن بن زيد الإمارة بهدوء و سكينة، جاء عبد الصمد بن علي مع رجاله القليلين وتسلم الإمارة من الحسن بن زيد عام ١٥٥هـ، وسافر الحسن إلى بغداد بناء على أمر الخليفة، فوجد الخليفة قد تغير عليه وواجهه بالتهم التي وصلته، ثم صادر أمواله وحبسه، وظل في سجنه حتى مات المنصور وتسلم الخلافة المهدي، فأطلقه ورد عليه أمواله(١)واستمرت الحياة في المدينة المنورة على النسق ذاته، وادعة، مطمئنة شحيحة الغلال أحياناً، ووافرة الغلال أحياناً أخرى، فما زالت الميرة المصرية ممنوعة عنها، وقد عوض الله أهلها بعض السنوات خيراً مما حرموه، فهطلت أمطار غزيزة، وسالت الأودية، ونشط المزارعون لتعويض النقص فزرعوا الحبوب بكثرة، وجاء الموسم طيباً.

سيل يهدد المسجد النبوي:

وفي سنة ١٥٦ هـ هطلت الأمطار أياما متوالية، وسالت جميع أودية المدينة، وطغا وادي مهزور وانتشر في منطقة العالية والبطحاء واقترب من المسجد النبوي، ففزع الناس إلى الأمير عبد الصمد، فخرج الأمير والقاضي عبد الله بن أبي سلمة العمري وبعض الحاشية للبحث عن مصرف للمياه، لتتحول عن المسجد النبوي، وخرج جمع غفير من أهل المدينة بالمساحي والفؤوس، فوجدوا المياه قد غطت المنطقة ووصلت إلى بساتين (صدقات الرسول صلى الله عليه وسلم) وجاءت عجوز من العالية فأخبرت القاضي أنها سمعت منذ سنوات طويلة بوجود مصرف للمياه في أحد البساتين، فدخل الناس بستانا يدعى ((برقة)) وحفروا فيه، فظهرت لهم حجارة منقوشة يرجع

---

١) أنظر الكامل ٥/٧ -.

عهدها إلى ماقبل الإسلام، فأزاحوا الحجارة فظهرت فتحة تؤدي إلى نفق طويل، فحولوا الماء إليه، ودخل الماء في النفق، وجرى فيه متجاوزاً منطقة المسجد النبوي حتى اتصل بوادي بطحان وجرى فيه، ففرح الناس بذلك فرحا شديدا(١).

سنوات هادئه:

ونقلب صفحات التاريخ بقية عهد أبي جعفر ومدة إمارة عمه عبد الصمد بن على فلا نعثر على شيء يثير الإنتباه وكل مايمكن أن نقوله هو:إن الحياة كانت تجري في تيارها الطبيعي الهادىء تلك المدة وإن أهل المدينة استغرقوا في شؤونهم اليوميه:التجاره والزراعه والحرف الأخرى، وحلقات العلم في المسجد النبوي التي أخذت تزداد يوماً بعد يوم.

وفي موسم الحج عام ثمان وخمسين ومئة، جاءت الأخبار بأن أبا جعفر المنصور قادم لأداء مناسك الحج رغم مرضه، وكما فعل المنصور في حجه السابق فعل هذه المرة، فلم يمّر بالمدينة، وعندما إنتهت شعائر الحج وقدم الناس إلى المدينة حملوا معهم خبر وفاة المنصور في مكة، وقام أمير المدينة خطيباً في الناس، وطلب البيعة للخليفة الجديد (المهدي).

ولم يكن أهل المدينة يولون أمر البيعة أهمية كبيرة، لذا بايعوا على الفور، وكان أول من بايع هم الهاشميين..

غير أن المدينة بدأت تشهد شيئاً من التغيير في عهد الخليفة الجديد، أوله: تغيير أميرها عبد الصمد بن على، فعندما استقر الأمر للمهدي في بغداد غيرّ عدداً من الولاة الذين عينهم المنصور، ومنهم أمير المدينة، حيث استدعاه

---

١) أنظر ابن شبه ١٦٩/١. وفاء الوفاء ١٠٧٨/٣ -

ليوليه بعد ذلك على مكة والطائف، وولى على المدينة مكانه عبد الله بن صفوان الجمحي.

ولكن الجمحي لم يمكث سوى شهور قليلة فمات خلال عام ١٦٠هـ، وولى الخليفة بعده زفر بن عاصم الهلالي.

المهدي يزور المدينة:

وفي عهد زفر هذا انحسر الظلم من المدينة إلى حد ما، ونعم أهلها بالراحة وبعطاءات وافرة، فعندما اقترب موسم الحج عام ١٦٠هـ جاءت الأخبار أن الخليفة المهدي سيفد حاجا وسيزور المدينة المنورة قبل عودته إلى بغداد، فقد أراد المهدي أن يزيل آخر آثار الجفوة التي نشأت بسبب ملحمة محمد بن عبد الله قبل خمسة عشر عاما، لذلك حمل معه إلى المدينة، مثل ماحمل معه إلى مكة، أموالا كثيرة ليوزعها على الناس.

أقبل المهدي بعد أن أدى شعائر الحج في أواخر ذي الحجة عام ١٦٠هـ، وخرج لاستقباله وجوه أهل المدينة، وفي مقدمتهم الإمام مالك بن أنس رضي الله عنه، فلما بصر به المهدي انحرف إليه ونزل عن دابته وعانقه وسايره، وهش له الإمام مالك، ونصحه أن يحسن إلى أهل المدينة، وكان مما قاله له: ياأمير المؤمنين، إنك تدخل الآن المدينة فتمر بقوم عن يمينك ويسارك، وهم أولاد المهاجرين والأنصار، فسلم عليهم. فامتثل المهدي لذلك، ومضى فدخل دار الإمارة واستقبل الناس وأمرلهم بالعطاءات، وطلب من الإمام مالك أن يتردد عليه، وفرح أهل المدينة بما وجدوه من لين المهدي واحترامه لمدينة

رسول الله صلى الله عليه وسلم واكرامه لأهلها (١). ودخل المهدي المسجدالنبوي، ورأى المقصورة التي يصلي فيهاالأمراء عالية فأمر بهدمها، وأراد أن ينزع المنبر ويعيده إلى ما كان عليه زمن الرسول صلى الله عليه وسلم، فيهدم الزيادة التي زيدت زمن معاوية والوليد بن عبد الملك، فأشار عليه الإمام مالك ألايفعل ذلك وأن يترك المنبر كما هو، خشية أن يتكسر المنبر الأصلي إذا زعزع أو حركت بعض مساميره، فاقتنع برأي الإمام مالك وترك المنبر على حاله(٢).

مشاريع وعطاءات:

رأى المهدي ازدحام الناس في المسجد النبوي فعزم على توسعته، وشاور أهل المدينة في الأمر فوافقوه عليه، واختار اثنين منهم ليكونوا قائمين على البناء، وهم عبد الله بن عاصم بن عمر بن عبد العزيز، حفيد عمر بن عبد العزيز الذي وسع المسجد على يديه زمن الوليد، وعبد الملك بن شبيب، وأوصى أن يبدأ الهدم بعد رحيل القادمين إلى موسم الحج، وأن يضم للمسجد عدد من الدور في جهته الشمالية، ووعد بإرسال الأموال اللازمة لذلك.

مكث المهدي في المدينة أكثر مما يمكث فيها الزائرون القادمون للحج والعمرة، وأنس به أهلها، ورغب في أن يصهر إليهم، فتزوج احدى حفيدات عثمان بن عفان رضي الله عنه وهي رقية بنت عمرو، وكانت هذه المصاهرة من مظاهر رضى المهدي عن المدينة وأهلها.(٣) ويذكرالمؤرخون أنه صرف ما وصله من خراج مصر واليمن ذلك العام في الحرمين الشريفين، فذكر الطبري أنه جاءته من مصر ثلاثمئة ألف دينار، ومن اليمن مائتا ألف دينار وأضاف

---

١) التحفة اللطيفة ٣/ ٦١٠ -

٢) الطبري ٨/١٣٣-

٣) الطبري ٨/ ١٣٤

إليهما ألف ألف درهم من خزينته في بغداد (١) إضافة إلى مائة وخمسين ألف ثوب، ولو كان نصيب المدينة منها النصف أو مايقاربه، فسيكون عطاء ضخماً لم يرد إلى المدينة عطاء مثله منذ سنوات كثيرة.

كما طلب أن يرافقه عدد من أهلها إلى بغداد ليكونوا من رجاله وحرسه الخاص، وشاعت رغبة الخليفة بين أهل المدينة، فأقبل عدد من رجالها إلى ديوان الإمارة ليكتتبوا في الوظائف المطلوبة، وعرضوا على المهدي فأمر بإثبات خمسمئة رجل منهم ليرحلوا معه إلى العراق، وأمر لهم بأعطيات عاجلة، وبأعطيات أخرى دائمة، وبإجراء بعض الأرزاق الأخرى عليهم(٢) وقد سأله أهل المدينة أن ينهي الحظر البحري الذي كان المنصور قد فرضه على المدينة المنورة فاستجاب لهم، وأمر كاتبه أن يكتب إلى واليه في مصر بإعادة تسيير الميرة عن طريق البحر إلى الحجاز، ففرح أهل المدينة بذلك فرحا كبيراً.

ودخل عليه الإمام مالك رضي الله عنه قبل رحيله، فقال له المهدي: أوصني، فقال مالك: أوصيك بتقوى الله وحده، والعطف على أهل بلد رسول الله صلى الله عليه وسلم وجيرانه، فإنه بلغنا أنه صلى الله عليه وسلم قال: المدينة مهاجري، ومنها مبعثي، وبها قبري، وأهلها جيراني.. فتأثر المهدي بذلك تأثراً شديداً(٣)، ووعد بأن يستمر على ماهو عليه من رعاية المدينة وأهلها، وخرج الناس يودعونه بعد إقامته الطويلة في المدينة، فودعوا فيه صهرا باراً، وودعوا معه خمسمئة رجل من أهل المدينة سيكونون من حرسه ورجاله في الجيش وبعض المناصب الإدارية.

---

١) الطبري ١٣٣/٨.

٢) الطبري ٨ / ١٣٣ -

٣) التحفة اللطيفة ٦١١/٣

وكان المهدي وفياً بما وعد، فما إن استقر في بغداد حتى أكرم رجاله الجدد من أهل المدينة، وأقطعهم قطيعة خاصة عرفت بهم، فبنوا في بعضها البيوت واستثمروا بعضها الآخر(١) واستدعى ابن عم أبيه جعفر بن سليمان الذي ولي المدينة من عام (١٤٦ - ١٥٠هـ)، وأمره بالعودة إليها واستلام إمارتها من زفر بن عاصم الهلالي،وأرسل معه أموالا كثيرة للبدء في توسعة المسجد النبوي وشراء الدور المجاورة له.

المدينة في إمارة جعفر بن سليمان ثانية:

جاء جعفر بن سليمان إلى المدينة يحمل وصية المهدي بالإحسان إلى أهلها والاجتهاد في تحسين مرافقها والإشراف العام على توسعة المسجد النبوي، ووجد أن عبد الله بن عاصم بن عبد العزيز أحد المكلفين بأمر التوسعة قد توفي، فكتب للخليفة بذلك، فأرسل له الخليفة عبد الله بن موسى الحمصي (٢) وهو أحد العارفين في البناء ليقوم مقامه، وبدأ العمل في التوسعة، واشترى القائمون عليها أربعة دور شمالي المسجد وهدموها، ليدخلوها في المسجد، وهدموا السور الشمالي والمنطقة التي زادها الوليد بن عبد الملك وخططوا لبنائها من جديد، وتواردت عليهم الأموال متوالية، وكانوا كلما أنجزوا جزءاً كتبوا بخبره للمهدي فسر به وأرسل لهم مزيداً من المال، وقد استمر العمل في التوسعة خمس سنوات كاملة، وكان الناس خلالها يصلون في الجزء القديم من المسجد وفي ساحاته الخارجية.

وقد عني المشرفون على البناء بتحسين التوسعة الجديدة وتزيينها بالحجارة المنقوشة، واختاروا للسقف خشب الساج الثمين والقوي، وكسيت

---

١) الطبري ١١٣/٨

٢) وفاء الوفاء٥٣٨/٢ -.

أطراف من الجدار بالفسيفساء وزينت بكتابة بعض الآيات القرآنية، فجاءت التوسعة مضاهية في جمالها ومتانتها للبناء الأموي السابق، وانتهت التوسعة وشهد الوافدون في موسم حج عام مئة وخمسة وستين المسجد النبوي في حلة قشيبة.

خــدمة بريدية عامة لأهل المدينة:

كسبت المدينة خدمة جديدة أمر بها المهدي، هذه الخدمة هي البريد المنتظم الذي ينقل المراسلات بينها وبين مكة واليمن، فقد كان البريد مقتصراً من قبل على بغداد، يحمل أوامر الخليفة وتوجيهاته ويعود بخطابات الإمارة وأخبارها وحساباتها، ورغم أن المدينة قد أصبحت عاصمة لمنطقة كبيرة تشمل مكة والطائف واليمن في مرات عدة، فإن البريد لم يتنظم بين هذه الأجزاء قط، ولم يكن خدمة عامة للناس، وكان يقتصر على مبعوث يجهز حين الطلب ليحمل أوامر الأمير إلى نواب الأمير في تلك المناطق، وقد أحس المهدي بالحاجة إلى وجود صلة مستمرة بين الحرمين، وبالصلة المتواصلة مع اليمن، رغم أنها غدت إمارة مستقلة لها أمير يدير شؤونها، فأمر بإقامة محطات ثابتة للبريد على امتداد الطريق من المدينة إلى مكة واليمن، وصارت الأخبار تنتقل بين هذه المناطق بسهولة ويسر، وكانت إقامة البريد آنئذ تعني إقامة مبان كل عدة أميال، يرابط فيها موظفون معهم بغال أو جمال قوية سريعة ليتناوبوا السفر وليستريح حامل البريد ويستبدل بغله أو بعيره بين

المحطة والمحطة، وقد أقيم هذا البريد عام ١٦٦هـ(١).

أمـــير عباســـي جديـــد :

بينما المدينة تفرح بمكاسبها الجديدة، جاء أمر الخليفة بتغيير أميرها الذي تقدم في السن، وتكررت إمارته مرتين، وجاء الأمير الجديد وكان ابن عم الخليفة أيضا، هو إبراهيم بن يحيى بن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس، وتسلم الإمارة من سلفه جعفر، فبقيت إمارة المدينة في يد أقرباء الخليفة تأكيداً لمكانتها في نفوسهم، ولحرصهم على ضبط أمورها ومداراة العلويين فيها خشية من فتنة تعكر صفاءها وصفاء الخلافة العباسية.

غير أن إمارة ابراهيم بن يحيى لم تطل، فما إن حج بالناس في موسم ذلك العام وعاد إلى المدينة حتى اشتدت به العلة ومات في الأيام الأولى من عام ١٦٧هـ، وذهب البريد بنعيه إلى الخليقة في بغداد، فأرسل الخليفة رجلا أخر من أبناء عمه ليخلفه في الإمارة وهو إسحاق بن عيسى بن علي العباسي، فجاء إسحق وواصل سيرة أسلافه العباسيين في إدارة المدينة، غير أنه على ما يبدو كان أكثرمن سلفيه حساسية من الهاشميين، وكان ينظر إلى بعض العلويين نظرة قلق وحذر، وقد نقل إليه الناقلون أن الحديث عن أحقية الهاشميين بالخلافة بدأ يظهر على بعض الألسنة، وأن رجلاً منهم هو الحسين بن علي بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب على رأس أولئك المتحدثين. وأنه أكثرهم تأثيراً، وأن بعض الهاشميين قد التفوا حوله، والحسين هذا هو ابن عم محمد بن عبد الله بن الحسن صاحب الثورة المشهورة قبل خمسة عشر عاماً، لذا بدأ الأمير يشدد المراقبة عليهم..

وكان بعض شيعة العراق يفدون إلى المدينة بحجة الزيارة ويلتقون

---

١) الطبري ٨ / ١٦٨ -.

بالحسين بن علي ويشجعونه على الخروج والمطالبة بالخلافة ويعدونه بالنصرة، وحملوا إليه أموالا يستعين بها، وكانوا ينجحون دائما في التخفي عن عيون المراقبين، وقد أثرت هذه الوفادات على الحسين بن علي وجعلته يفكر بالثورة، ويراسل بعض القبائل في الحجاز التي شايعت من قبل ابن عمه محمد بن عبد الله فيجد عند بعضهم التأييد وعند بعضهم الآخر الحذر والتردد.

كان المهدي متسامحا مع الهاشميين رغم مايبلغه من أخبارهم. وكان يكرم من يفد عليه منهم، وقد وفد الحسين هذا عليه في بغداد فبالغ في إكرامه وأعطاه أربعين ألف دينار (١) ففرقها الحسين قبل أن يخرج من العراق، ويبدو أن الحسين لم يفكر بالخروج أيام المهدي أو لم تتوافر له الأسباب الكاملة، ولكن تردد العراقيين عليه ومراسلاته التي تسرب شئ منها قد لفت أنظار أمير المدينة إسحاق بن عيسى إليه. ولم يكتف إسحاق بمراقبة الحسين بن علي بل أخذ يشدد على عدد آخر من الهاشميين وبخاصة الذين يلتقون بالحسين كثيراً من إخوته وأبناء عمومته..

وفي شهر صفر من عام ١٦٩هـ للهجرة وصل الخبر إلى المدينة المنورة أن الخليفة المهدي قد توفي في الأسبوع الآخير من محرم، وبويع ابنه موسى الهادي بالخلافة، وكالعادة تلقى الأمير العباسي التعزية بالخليفة الراحل وأخذ من وجوه أهل المدينة البيعة للخليفة الجديد.

ويبدو أن الأمير إسحق بن عيسى الذي لم يمض على إمارته للمدينة سوى سنة واحدة توجس من الهاشميين فيها، وتأمل أن يجد في بغداد فرصة أكبر، فكتب إلى الخليفة الجديد يستأذنه في ترك إمارة المدينة واللحاق به إلى

---

١) الكامل ٥ / ٧٦ -.

بغداد، واقترح عليه أن يتولى إمارة المدينة رجل من أهلها من أحفاد عمر بن الخطاب رضي الله عنه وهو عمر بن عبد العزيز بن عبد الله بن عبد الله بن عمربن الخطاب، فوافق الخليفة على طلبه، وسلم إسحاق بن عيسى الإمارة للعمري وأوصاه أن يتنبه لأمر الهاشميين ويشدد المراقبة عليهم ويتفقدهم فلا يغيبون عن عيونه ومراقبيه، ومن يشتبه في أمرهم يفرض عليهم أن يثبتوا وجودهم كل يوم..

المدينة في إمارة عمر الخطابي : عودة الأزمة:

أخذ الأمير الجديد عمر بن عبد العزيز العمري بوصيه إسحاق بن عيسى وبالغ في تطبيقها، فشدد المراقبة على الهاشميين، وجمعهم، وحذرهم، وهددهم، وجعل بعضهم يضمن بعضاً(١) أي أن يكفل أحدهم الآخر بألا يأتي بعمل يغضب الأمير وألا يتخلف عن إثبات وجوده في المدينة كل يوم، فإن تخلف أو جاء بشئ أخذ الكفيل به حتى يحضر الجاني أو المتأخر فينال عقابه. وكانت في عمر بن عبد العزيز شدة لم تكن فيمن قبله من أمراء المدينة العباسيين، لذا تضايق الهاشميون من شدته هذه، وتضايقوا من المراقبة الصارمة التي فرضها عليهم، وإزداد احساسهم بالظلم وأخذوا يفكرون بالثورة والخروج على العباسيين، وبدأ الحسين بن على يحضر لهذه الثورة بجدية بالغة وحذر شديد، وكاتب شيعته في الكوفة فأرسلوا له عدداً من الرجال كان فيهم عذافر الصيرفي وعلي بن السابق القلاس ومعهم أموال وافرة، وأعد الحسين لهم بيتا بعيدا عن المراقبة فنزلوا فيه.

وكاتب بعض من شايعه وشجعه على الخروج في القرى المجاورة واستوثق من مبايعتهم له والنهوض معه عندما يعلن الثورة، وبحذر شديد

---

١) الكامل ٥ / ٧٥ -.

استطاع أن يتصل بعدد من مشايعيه في العراق والقبائل الحجازية المجاورة، واتفق معهم على التجمع في موسم الحج وإعلان الثورة والدعوة لنفسه بحضور حجاج المسلمين من كل فج لأخذ البيعة منهم وخلع البيعة العباسية، ومواجهة العباسيين، ومكث في المدينة يعد العدة لهذا التاريخ المحدد.

الثورة المتعجـــلة:

غير أن الأمور جرت بغير ماخطط له الحسين، وجعلته يضطر إلى أن يعدل خطته في الثورة ويغير الزمان والمكان، فيستعجل الخروج، ويبدؤه في المدينة وليس في منى.

فقد حدث أن قبض على الحسن بن محمد بن عبد الله الملقب بأبي الزفت - لشدة سواده - وهو ابن محمد بن عبد الله بن الحسن صاحب الملحمة الدامية أيام المنصور - قبض عليه مع اثنين من أصحابه هما: مسلم بن جندب الشاعر وعمر بن سلام مولى آل عمر، بتهمة شرب النبيذ، فلما عرضوا على الأمير بالغ في عقوبتهم وأمر بجلدهم والطواف بهم في شوارع المدينة مغلولين مهانين..

وأحس الهاشميون بالظلم، وذهب رئيسهم الحسين بن علي إلى الأمير واعترض عليه فيما فعله، واحتج أن فقهاء العراق لا يرون إقامة الحد في شرب النبيذ، حتى وإن استحقوا إقامة الحد عليهم، فإنهم لايستحقون أن يطاف بهم في المدينة والحبال في أعناقهم، وطلب من الأمير أن يوقف هذه الإهانة، فاستجاب له الأمير وأمر بوقف الطواف بالحسن بن محمد وصحبه وردهم إلى السجن وحبسهم.

ثم عاد الحسين وطلب إطلاق سراح الحسن بن محمد فأطلق الأمير سراحه شريطة أن يكفله رجلان فكفله الحسين وعمه يحيى بن عبد الله بن الحسن، والتزم الحسن بأمر العرض فكان يحضر كل يوم إلى نائب الأمير

فيثبت وجوده عنده ثم ينصرف، غير أن الحسن بن محمد ذهب بعد مدة إلى إحدى زوجاته في إحدى ضواحي المدينة وبقي عندها ولم يحضر العرض ثلاثة أيام متوالية ، فيما كان الحسين ويحيى يحضران العرض المقرر ولا يعلمان شيئاً عنه...

وفي اليوم الثالث سأل نائب الأمير عن الحسن بن محمد وألح على كفيليه أن يحضراه، وأغلظ لهما القول فتضايقا ولكنهما وعداه خيراً، فذهب النائب إلى الأمير وأخبره بغياب الحسن بن محمد ثلاثة أيام، فطلب الأمير الكفيلين وشدد عليهما أن يحضراه، وأغلظ لهما القول أيضاً، فتأثر لذلك يحيى بن عبد الله تأثراً شديداً وحلف للأمير ألاينام هذه الليلة حتى يحضر له الحسن بن محمد وأنه سيأتيه في الليل ويضرب عليه باب داره ليعلمه بأنه قد أحضره، فلما خرجا من مجلس الأمير أخذ الحسين يعاتب عمه يحيى على يمينه، ويتعجب من تعهده بإحضار الحسن وهما لايعرفان مكانه، فكشف له يحيى أنه قصد بكلامه ذاك توعد الأمير بالهجوم عليه في هذه الليلة، وأنه ينوي فعلا جمع الرجال ومهاجمة الإمارة والتعجيل بالثورة، وراجعه الحسين بن علي وذكره بالموعد المتفق عليه مع شيعتهم -وهو أيام منى- ولكن يحيى أصر على تنفيذ وعيده وبدء الثورة في هذه الليلة بالذات.

وكان الغضب قد أخذ منه كل مأخذ، فلم يراجعه الحسين في الأمر. وكان ذلك اليوم هو يوم الجمعة الخامس عشر من ذي القعدة، وكانت طلائع القادمين إلى الحج قد وصلت إلى المدينة المنورة للزيارة ثم مواصلة الطريق إلى مكة، وكان فيهم عدد آخر من شيعة الحسين والراغبين في المشاركة في الثورة.

لذلك انطلق الحسين ويحيى وقد أخذتهم الحمية الى المنازل التي ينزل فيها أشياعهم، وحدثاهم عن قرارهم ببدء الثورة هذه الليلة، وطلبا منهم أن يستعدوا وينتظروا إشارة البدء، ثم طافا على بيوت الهاشميين من أشياعهم

وطلبا منهم الاستعداد أيضا، وبينما كان الليل يسدل أستاره كانت الحركة دائبة بين أنصار الحسين، يستعدون بالعدة والسلاح للخروج.

ومضى الهزيع الأكبر من الليل، وقبل أن يستيقظ النائمون لصلاة الفجر، تحرك الحسين ورجاله إلى منطقة المسجد النبوي، وهاجموا دار الإمارة. واقتحموها مفتشين عن الأمير عمر بن عبد العزيز العمري، ولكنهم لم يعثروا عليه، وتسلل أحد الحراس إلى الأمير في منزله فأخبره بالهجوم على الإمارة، وحذره بأن عدد المهاجمين أكبر من أن تقاومهم شرطة الإمارة، فهرب الأمير وعائلته من الدار إلى بيت قصي لأحد أقربائه.

وعلت جلبة الثائرين وارتفعت أصواتهم بالتكبير وسط هدوء الليل الساكن، ووصلوا إلى دار الأمير فلم يجدوه فيها، فانتهبوا محتوياتها الثمينة، وعادوا إلى الإمارة وكسروا أبواب ديوان العطاء، فوجدوا فيه سبعين ألف دينار فأخذوها، وأذن الفجر، فاتجه الحسين ورجاله إلى المسجد، وجلس الحسين على المنبر ينتظر تجمع الناس للصلاة، ليعلن لهم عن ثورته، وليأخذ البيعة منهم..

ولكن الجلبة التي حدثت أثناء مهاجمة دار الإمارة ومسكن الأمير أيقظت كثيراً من الناس، وأشعرتهم أن الأمر غير طبيعي، لذلك أحجم بعضهم عن الخروج إلى المسجد النبوي، وجاء عدد آخر، فرأوا رجال الحسين بن محمد وقد رفعوا رايات بيضاء على مقدمة المسجد ومآذنه، دلالة على خلعهم لراية العباسيين السوداء، ورأوا الحسين بن علي على منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم متوشحا بالسيف وعليه عمامة بيضاء فأدركوا أنه بدأ الثورة ورجع بعضهم إلى بيته بمجرد أن رأى ذلك المنظر، ودخل الآخرون المسجد، وصلى الحسين بالناس الفجر ثم قام إلى المنبر فحمد الله وأثنى عليه وتهجم على العباسيين وظلمهم وذكر أحقية أحفاد رسول الله صلى الله عليه وسلم

بالخلافة وطلب منهم البيعة.. فتقدم أنصاره فبايعوه ثم بايعه عدد من الحاضرين، وسرى الخبر إلى بيوت العباسيين المقيمين في المدينة فوقع عليهم وقعاً شديداً وأرسل إليهم الأمير المتواري بعض رجاله ليجتمع بهم بعيداً عن الثائرين ليعالجوا الأمر، وأرسل إلى الجند وأمرهم أن يجتمعوا في ظاهر المدينة في مزرعة من مزارع الإمارة (الصوافي) وبعث رسولا إلى الخليفة ليخبره بخروج الهاشمي، وتجمع مائتان من الجنود، وتولى خالد البربري ـ المسؤول عن الصوافي ـ قيادتهم، واتجه بهم إلى قلب المدينة حيث الحسين ورجاله..

معارك في ساحات المسجد النبوي:

كان رجال الحسين منتشرين في المسجد والساحات المحيطة به (البلاط) ودار الإمارة، ولم يتوقعوا مواجهة مباشرة من جنود الإمارة، فلما رأوهم أسرعوا يخبرون الحسين، وطلعت مجموعة أخرى من العباسيين يقودهم الأمير عمر بن عبد العزيز العمري، واستعد رجال الحسين بن علي لمواجهتهم، واقتحم خالد البربري المسجد يلبس درعين ويحمي رأسه ببيضة فولاذية، فاعترضه يحيى بن عبد الله بن الحسن وأخوه ادريس فقتلاه وجراه إلى البلاط خارج المسجد..

وتصدى رجال الحسين للجنود الذين هالهم قتل قائدهم بهذه السرعة فهاجموهم بعنف، كما هاجموا الأمير عمر بن عبد العزيز ورجاله، ودارت في الساحة المجاورة للمسجد معركة سريعة سيطر الذعر فيها على حملة الراية السوداء.. فانكشفوا وولوا هاربين ، ورجع الحسين ورجاله إلى المسجد النبوي ليرتبوا أمورهم ويكملوا سيطرتهم على المدينة.

كان لهذه الموقعة أثر سيئ في نفوس أهل المدينة، فالاقتتال داخل المسجد النبوي وفي ساحاته أمر لم يحدث قط من قبل.. والمسجد الذي يأتيه الناس للعبادة قد تحول إلى معسكر لرجال الحسين، فعلى الرغم من أن دار الإمارة مجاورة للمسجد فإن رجال الحسين قد آثروا الإقامة في المسجد النبوي بأسلحتهم، يتحدثون ويتناولون الطعام، ويطلبون البيعة من كل من يدخل المسجد.. لذلك انصرف الناس إلى بيوتهم وأغلقوا عليهم أبوابهم..

أما العباسيون فقد تجمعوا في منطقة بعيدة عن المسجد يمسحون جراحاتهم ويخطّطون لإعادة الكرة والقضاء على الثائرين..

ويبدو أن الحسين ورجاله قد أخذتهم نشوة النصر فلم يفكروا في تعقب العباسيين، ولا في إخراجهم من المدينة أو حتى منع تجمعهم، واكتفوا بما

حققوه من مكاسب أولية..

واجتمع العباسيون وقرروا أن يعيدوا الكرة في اليوم التالي، ويحرروا الإمارة والمسجد من الثائرين..

وفي صباح اليوم الثاني توجهوا إلى منطقة المسجد النبوي حاملين الرايات السوداء، فوجدوا أصحاب الحسين في الساحة الخارجية للمسجد النبوي، وقد رفعوا الريات البيضاء، فالتحموا معهم في قتال عنيف.. وفشت الجراحات بين الطرفين وسقط عدد من القتلى على بلاط الساحة، واستمر الصدام إلى وقت الظهر دون أن يحقق أحد الفريقين نصراً حاسماً، فتحاجز الفريقان وحمل العباسيون جرحاهم وانسحبوا إلى موقع تجمعهم، بينما انتشر رجال الحسين في محيط المسجد ومنطقة الإمارة إلى الزوراء، وأمضى كل فريق بقية يومه في شؤونه الخاصة لايهاجم خصمه.

وفي صباح اليوم التالي وصل راكب إلى المدينة وأخبر العباسيين أن أحد قادة الخليفة - وهو مبارك التركي - قادم إلى المدينة ومعه عدد من جنوده، كان قد اصطحبهم لتأديب قطاع الطرق الذين يعترضون قوافل الحجاج والمسافرين، فأرسل إليه الأمير يستعجله الحضور ليساعده في إطفاء الثورة، وخرج إليه عدد من العباسيين المقيمين في المدينة فكلموه أيضاً فوعدهم أن يسير إليهم في الليل وأن يلقاهم عند ثنية الوداع صباح اليوم التالي، وفي صباح اليوم التالي وصل مبارك ومعه جنوده، واجتمع إليه العباسيون وبقية جنود الإمارة وتوجه الجميع إلى منطقة البلاط في قلب المدينة حيث التحموا مع رجال الحسن في معركة جديدة، ولم تكن هذه المعركة بأفضل من سابقتها، فرجال مبارك التركي متعبون من السفر، ومبارك نفسه غير جاد في قتال الحسين تحرجا من أن يقتل رجلا من أحفاد رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقيل إنه أرسل إليه سراً من أخبره بحقيقة موقفه، ووعده بأن ينهزم

أمامه.

وعلى أية حال فقد اشتد القتال إلى منتصف النهار أيضاً، وسقط عدد من القتلى والجرحى من الفريقين، واستطاع رجال الحسين أن يردوا المهاجمين إلى الوراء، ولما انتصف النهار تحاجز الفريقان، ورجع العباسيون إلى موقع تجمعهم، ومكث رجال الحسين في منطقتهم. وهكذا أصبحت منطقة المسجد النبوي ميدانا للمعركة، وأعرض أهل المدينة عن الذهاب إلى المسجد النبوي خشية أن يصيبهم شئ من آثار القتال، ولم يحضر المؤذنون للأذان في منارات المسجد النبوي، فتوقف لأول مرة الأذان فيها، وامتلأت قلوب الذين لم يتورطوا في هذا الصراع بالغم والحزن.

تكررت المعركة للمرة الثالثة دون نتيجة حاسمة، وغاب عنها مبارك التركي، ويروى أنه استغل فرصة انشغال الفريقين بالاستراحة فهرب على جمل سريع، ويروى أن الحسين نفذ شن غارة مفاجئة على معسكره فانسحب مع رجاله بعيدا، وتركوا أمير المدينة والعباسيين يواجهون الحسين ورجاله(١) ومر بقية الأسبوع والمعركة سجال من الفريقين، يحمل العباسييون على رجال الحسين حتى يلجئوهم إلى باب المسجد النبوي، ويكر هؤلاء على العباسيين حتى يبلغوا بهم الزوراء عند سوق المدينة.. وأخيرا كف العباسيون عن مقاتلتهم، وغادروا المدينة.

أحس الحسين بن علي أن أهل المدينة لم يلتفوا حوله، ولم يباركوا ثورته، وأدرك أن مقامه في المدينة غير مجد.. فالعباسيون الذين انهزموا أمامه في المواجهات الأولى لن يلبثوا أن يجمعوا جموعهم ويكروا عليه، والخليفة في بغداد لن يسكت عن ثورته عندما يصله الخبر.. والمدينة ليست

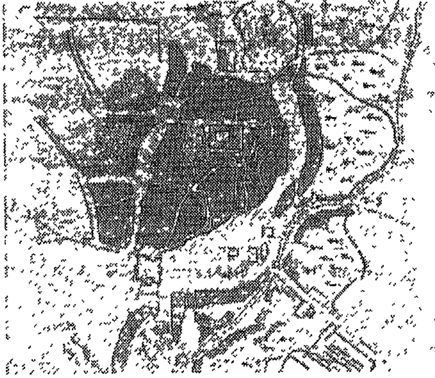
---

١) الطبري ١٩٥/٨

موقعا للمجابهة والقتال، لذا أمر رجاله بالتجهيز للخروج منها والتوجه إلى مكة حيث الموعد أن يؤ، إليه أنصاره من قرى الحجاز ومن العراق لتبدأ حركته الواسعة في منى.

خرج الناس من بيوتهم عندما رأوا توقف القتال، وفتحت الأسواق وعادت الحياة اليومية الى مجراها الطبيعي، وغدا رجال الحسين إلى الأسواق يتجهزون ويشترون الطعام والعدة، وأبدى أهل المدينة إعراضاً واضحاً عنهم.. فلم يذهبوا إلى المسجد النبوي، ولكنهم اضطروا إلى بيعهم ما يطلبونه خوفا من قوتهم.. ولم يستطع الحسين أن يتألف أهل المدينة، وحمل في نفسه عليهم لإعراضهم عنه.

فلما كان يوم الرابع والعشرين من شهر ذي القعدة، أي بعد أحد عشر يوما من بدء الثورة، أمر الحسين رجاله بالخروج من المدينة والتوجه إلى مكة، وروى الطبري أن الحسين لما خرج من المدينة مر بالسوق فوبخ الناس لتخلفهم عن نصرته، وقال لهم لاخلف الله عليكم بخير.. فقال الناس وأهل السوق، لا بل أنت لاخلف الله عليك، ولا ردك(١).



ساحة المعارك بين الحسين بن علي ورجاله من جهة والعباسيين من جهة أخرى لم تشهد هذه المنطقة معارك من قبل

---

١) الطبري ١٩٥/٨.

نهايـة العاصفة

خرج الحسين بن علي من المدينة المنورة بعد أغرب صراع تشهده في تاريخها.. صراع يدور في قلبها، في الساحات الخارجية للمسجد النبوي، ومع ذلك يقف معظم أهلها منه على الحياد، صراع يشهد عدة جولات من المعارك دونما نتيجة حاسمة، وصراع يحجب أهل المدينة عن مسجدهم النبوي أحد عشر يوما فتتأذى النفوس وتمتلئ القلوب بالمرارة، وتنقم على الذين حولوا المسجد إلى معسكر يبيتون فيه ويأكلون الطعام وينشرون فيه الأوساخ.

لذا ما إن خرج الثائرون حتى سارع أهل المدينة إلى المسجد النبوي، وراعهم مارأوه فيه من مخلفات المقيمين، فقد تركت بقايا الطعام هنا وهناك، وألقيت العظام في عدد من الأطراف، وانتشرت الأوساخ في جهات المسجد كلها، فاشتغلوا في تنظيفه وهم يدعون عليهم أن يفعل الله بهم ويفعل(١).

فلما كان وقت الظهر ارتقى المؤذنون المنائر وعلت أصواتهم الشجية بالأذان، فكبر الناس وفرحوا، وخرج بعضهم إلى الأمير عمر بن عبد العزيز العمري الذي يعسكر مع العباسيين على مسافة من المدينة، وبشره بخروج الثائرين، فعاد الأمير ورجاله إلى المدينة ليصلحوا ما فسد من دار الإمارة وشؤونها، وعادت الرايات السوداء إلى الساحات، وانتشر رجال الأمير في السوق وبعض الأحياء، وعادت الحياة إلى مجراها الطبيعي في المدينة، وأخذ الناس يتناقلون الحكايات عما رأوه وسمعوه في تلك الأيام المعدودة وينتظرون الأخبار عن الفصول القادمة لهذه الثورة..

ولم يطل الانتظار، فقد وصل جنود الخليفة يقودهم محمد بن سليمان، وواصلوا سيرهم إلى مكة، وتوقع الناس أن تأتيهم أنباء المواجهة بين رجال الحسين بن علي الذين تجمعوا في فخ على بعد عشرة أميال من مكة ورجال

---

١)الطبري ١٩٥/٨ و الكامل ٧٥/٥ و البداية والنهاية ١٦٢/١٠-

الخلافة الذين تجمعوا من أطراف مكة، وانضموا إلى القادمين من بغداد،

ومرت أيام التشريق، وعاد الحجيج من أهل المدينة يحملون معهم أخبار ملحمة دامية وقعت في (فخ) يوم التروية -الثامن من ذي الحجة- ويروون فصلا آخر من فصول الصراع الدموي بين الهاشميين المطالبين بالخلافة والعباسيين. وروى القادمون كيف التحم الفريقان في فخ، وكيف تساقط عدد من رجال الحسين صرعى، ثم قتل الحسين نفسه والحسن بن محمد أبو الزفت، وهرب بقية رجاله، واختلطوا بالحجيج في منى وعرفات، وانسلوا معهم إلى الآفاق.

ورغم أن أهل المدينة لم يتعاطفوا مع الحسين في ثورته، بل نقموا عليه وعلى رجاله لعدم مراعاتهم حرمة المسجد النبوي، فإن القلوب قد حملت آلاماً كثيرة لمصرع بعض أبنائهم، وانطوت على حزن دفين لهذه الحلقة من سلسلة مأساة الصراع على الحكم، ولتكرر الأخطاء ، وسقوط نفوس مؤمنة يضن بها المرء على هذه النهاية....

ولئن أخطأ الأمير عمر بن عبد العزيز العمري، ومن قبله إسحاق بن عيسى في تضييقهم على الهاشميين، فقد أخطأ الحسين في ثورته أيضا، وأخطأ رجاله في بعض تصرفاتهم.. وكأن الخطأ قدر مقدور، ليكون عبرة للأجيال...

والعجيب أن بعض الذين نجوا من هذه الملحمة كان لهم شأن في صفحات أخرى من التاريخ، فإدريس بن عبد الله نجح في التوجه إلى المغرب وتأسيس دولة الأدارسة، ويحيى بن عبد الله نجح في التوجه إلى أرض الديلم، وأقام فيها إمارة هاشمية.

ولا نعدم في فصول هذه الملحمة مواقف مشرقة، فقد حاول العباسيون -كما تروي كتب التاريخ - جهدهم لمنع الصدام في فخ، وطلبوا من الحسين الكف عن الثورة وبذلوا له الأمان والعطاء فرفض.. وعندما هزم الحسين أعلن

القائد العباسي الأمان للجميع، ومنع تعقب الهاربين، وغضب لقتل أبي الزفت، كما غضب الخليفة الهادي وحرم الذين حملوا إليه رأس الحسين من عطائهم(١)

بعـــد العاصـفة:

ومثلما تعقب العواصف فترات هدوء طويلة، اعتادت المدينة أن تخلو إلى السكينة سنوات كثيرة بعد كل عاصفة تمر بها، ورغم أن عاصفة عام ١٦٩ هـ لم تكن عارمة، فإن السكينة التي أعقبتها كانت طويلة...

ففي أواخر ربيع الأول وصل الخبر من بغداد بوفاة موسى الهادي وتولى هارون الرشيد الخلافة، وشرع الرشيد يغير بعض الولاة وبخاصة الذين شهدت مناطقهم أحداثاً قاتمة، ولم يحسنوا التصرف فيها، وكان عمر بن عبد العزيز العمري واحداً من هؤلاء، فعزله الرشيد وولى مكانه إسحاق بن سليمان بن علي بن عبد الله بن العباس، فعادت إمارة المدينة المنورة إلى حظيرة العباسيين، وجاء الأمير الجديد ليدير شؤونها على نحو ما كان أسلافه..

وجاء الخليفة هارون الرشيد بعد موسم الحج إلى المدينة، وأقام فيها عدة أيام ، ووزع أموالاً كثيرة، يتألف بها قلوب الناس ويتودد إليهم(٢). ورغم أن المدينة قد شهدت خروج عدد من الطالبيين، آخرهم الحسين بن علي، فان الرشيد لم يتخوف من إقامتهم في المدينة، وربما كان موقف أهل المدينة من ثورة الحسين وعدم مناصرتهم له، سبباً من أسباب إطمئنانه للمدينة، لذلك وخلافاً لما يمكن أن يتوقعه المرء، أمر الرشيد بعد عودته من الحج بإعادة جميع الطالبيين الموجودين في بغداد إلى المدينة باستثناء شخص واحد هو العباس بن الحسن بن عبد الله، وقدم الطالبيون إلى المدينة المنورة ليعيشوا مع أقاربهم بعيداً عن مركز الثقل السياسي، لتنصرف طائفة

---

١) الكامل ٧٦/٥

٢) الطبري ٢٣٤/٨-

كبيرة منهم إلى العلم، وتشتغل طائفة بتنمية ثروتها من المزارع والممتلكات والأعطيات، التي لم يبخل بها الرشيد عليهم..

وقد تحقق ما تأمله الرشيد، إذ أن تيار الحياة الهادئ(١) في المدينة مالبث أن طوى الطالبيين في ثناياه، وجعلهم ينسون المطالبة بالخلافة، فخلال خلافة الرشيد التي امتدت قرابة ربع قرن لم يثر طالبي واحد في المدينة، ولم يحدث منهم أي شغب في الأمصار الأخرى.

وعندما حج الرشيد سنة مائة وثلاث وثمانين اغتاظ من موسى الكاظم لأنه تعمد أن يفخر عليه عند السلام على رسول الله صلى الله عليه وسلم، فاصطحبه إلى بغداد، وفرض عليه ما يشبه الإقامة الجبرية في أحد القصور حتى مات، وكان موسى الكاظم هو المرشح من أبناء الحسين لزعامة الهاشميين والمطالبة بالخلافة(٢).

ولا شك أن إحدى مهمات أمير المدينة كانت مراقبة الطالبيين غير أن أمراء المدينة اللاحقين استفادوا من الدرس المؤلم الذي خلفته إمارة عمر بن عبد العزيز العمري، وتعلموا أن التضييق على الطالبين دون وجه حق سيدفعهم إلى التمرد، وسيخرج منهم من يقود الثورة، لذلك تغيرت معاملتهم لهم، فأحسنوا إليهم، وراعوا الرحم التي تصلهم بهم، فسكن الطالبيون وعاشوا حياتهم في المدينة المنورة بطمأنينة كاملة.

وقد تمتعت المدينة أيام الرشيد بعطاءات كثيرة، فقد زارها الرشيد بعد توليه سنة ١٧٠هـ ثماني مرات، وهو ذاهب إلى الحج أو عائد منه، وكان في

---

١) الطبري ٨/٢٣٥-

٢) الكامل ٥/١٠٩-

كل مرة يفرق أعطيات كثيرة على أهلها جميعا(١)٠

وفي عام ١٨٦هـ زار المدينة ومعه ولداه الأمين والمأمون.. فوزع كل منهم عطاء على أهل المدينة، فكان لكل رجل في المدينة ثلاث أعطيات(٢) وطبيعي أن هذا التردد على المدينة ولقاءه بالطالبيين سيزيد من سكينة الحياة فيها وطمأنينتها، مثلما زاد في مكاسب أهلها وعطاءاتهم.

ويذكر ابن الأثير أسماء أحد عشر أميرا تولوا إمارة المدينة في خلافة هرون الرشيد دون أن يحدد مدة إمارة كل منهم.. وهم على التوالي:

١ - إسحاق بن سليمان بن علي.

٢ - عبد الملك بن صالح بن علي.

٣ - محمد بن عبد الله.

٤ - موسى بن عيسى بن موسى.

٥ - إبراهيم بن محمد بن إبراهيم.

٦ - علي بن موسى بن عيسى.

٧ - محمد بن ابراهيم.

٨ - عبد الله بن مصعب.

٩ - بكار بن عبد الله بن مصعب.

١٠- أبو البختري وهب بن وهب.

ومعظم هؤلاء من العباسيين، وفيهم اثنان من الزبيريين هما عبد الله بن مصعب وابنه بكار بن عبد الله، ويروى صاحب كتاب نسب قريش أن بكاراً

---

١) الطبري ٢٣٩/٨-

٢) الكامل ١١٢/٥-

هذا تولى إمارة المدينة ثلاثة عشر عاماً(١)، ولا شك أن تعاقب هذا العدد الكبير من الأمراء على المدينة أمر لافت للنظر، خاصة وأن المدينة لم تشهد في عهودهم أية فتن تستدعي تغييرهم، والتفسير الأقوى لهذه الظاهرة هو سياسة الرشيد في قضية الولاة ، فقد دأب على تغييرهم في جميع الأمصار، ولو نظرنا إلى عدد الولاة في الإمارات الأخرى لوجدنا الظاهرة نفسها، فقد تولى إمارة مكة في عهده ١٦ أميراً والبصرة ١٥ أميراً والكوفة ٩ أمراء وخراسان ١٢ أميراً(٢)ومن اللافت للنظر أمام هذه السياسة أيضاً أن تستمر إمارة عبد الله بن مصعب ثلاثة عشر عاماً، أي أكثر من نصف مدة خلافة الرشيد، ويبدو أن عبد الله بن مصعب كسب ثقة الرشيد أو كانت له علاقة خاصة به فتركه في الإمارة تلك المدة الطويلة، ورغم طول مدة إمارته لانجد في كتب التاريخ أحداثاً مهمة وقعت في المدينة المنورة، الأمر الذي يجعلنا نقول إن الحياة في المدينة المنورة طوال عهد الرشيد، بل وإلى نهاية القرن الهجري الثاني، كانت هادئه ناعمة تتميز بالحركة العلمية في المسجد النبوي، وبالعطاءات والرزق الكريم.

سنوات أخرى من الهدوء:

ظلت المدينة المنورة إمارة مستقلة إلى آخر عهد الرشيد وأول عهد الأمين عام ١٩٣ للهجرة حيث كان أبو البختري آخر أمرائها، وما نعرفه عن هذا الرجل يزيد من اقتناعنا بأن الحياة في المدينة المنورة كانت آنئذ هادئة مطمئنة محافظة على طابعها (المديني) الخاص، فأبو البختري رجل قرشي اشتغل بالفقه والقضاء ولم يشارك في شئ من الفتن والشقاقات، وكان قريبا من الرشيد فولاه قضاء عسكره بضع سنين، ثم ولاه المدينة المنورة، فسير الأمور بعقليتة القضائية العادلة، ولم يجد المؤرخون في تلك الفترة أحداثاً

---

١) نسب قريش ص٢٤٢

٢) أنظر الطبري ٣٤٦/٨ - ٣٤٧ -.

متميزة يسجلونها، لا أحداثاً مفرحة ولا أحداثاً مؤلمة، وبصعوبة نعثر على اسمه في الطبري عام ١٩٣ للهجرة ضمن اشارة عابرة إلى أنه كان على ولايته (١) ولا نعرف متى بدأت تلك الولاية، ولكننا نقرأ عبارة أخرى في المصدر نفسه تقرر أنه كان على المدينة عام ١٩٤ للهجرة إسماعيل بن عباس بن محمد، والحقيقة أن قلة اهتمام المؤرخين بإمارة المدينة وأحداث الحياة فيها آنئذ يرجع إلى حالة السكينة والهدوء التي كانت تسودها مقابل الأحداث الفاقعة في أمصار أخرى، فقد حفظ الله المدينة من اضطرابات الخوارج المتوالية التي ظهرت في الجزيرة(٢) وحركات الطالبيين بعد معركة فخ، وثورات بعض المتمردين والمغامرين والزنادقة(٣) وقد استمرت هذه السكينة عدة سنوات أخرى رغم ظهور بعض الأحداث السياسية التي كان للمدينة موقف متميز فيها، ولكن عناية الله جعلت الموقف يمر بسلام ولايصيب أهلها بأذى، وعلى العكس من ذلك يأتيهم شئ من الخير، فقد ضمت إمارة المدينة إلى إمارة مكة بعد ذلك، وكان الخليفة الأمين قد عين داود بن عيسى بن موسى بن محمد العباسي أميراً على مكة منذ عام ١٩٣ للهجرة، ونفهم من عبارات الطبري التي أشرنا إليها آنفاً أن إمارة المدينة كانت مستقلة في عام ١٩٤هـ وأميرها إسماعيل بن العباس بن محمد، ولانجد مايشير إلى أنه كان نائباً لداود، ولكننا نجد في أخبار عام ١٩٦هـ أن سليمان بن داود كان نائباً عن أبيه في إمارة المدينة، ولا يهتم الطبري ولا غيره من المؤرخين ببيان التاريخ الذي انتهت فيه إمارة إسماعيل بن العباس، وضمت المدينة إلى داود بن عيسى في مكة، وربما حدث ذلك أواخر عام ١٩٥- أو مطلع عام ١٩٦هـ، وكل مايمكن أن نقطع به هو أن المدينة كانت عام ١٩٦هـ تابعة لمكة، وكان

---

١) الطبري ٤٩٨/٨-.

٢) انظر التاريخ الإسلامي ١٦٨/٥-.

٣) أنظر السابق ١٧٥/٥ - ١٦٧-.

يدير شئونها سليمان بن داود بن عيسى ابن أمير مكة نائباً عن أبيه، ولعل هذا من حسن حظ المدينة المنورة، فقد أفادتها هذه الإدارة في الفتنة التي قامت بعد حين بين الأمين والمأمون .

المدينة والفتنة بين الأمين والمأمون:

اشتدت الفتنة في تلك السنة بين الأمين والمأمون وامتدت آثارها من خراسان إلى الإمارات الأخرى، وانقسم القادة العباسيون إلى فئتين: فئة حافظت على ولائها للأمين وفئة حولته إلى المأمون، وشهدت المدينة منذ عام ١٩٤هـ أثارا بسيطة لبداية هذه الفتنة، إذ أرسل الأمين إلى أمرائه كي يخطبوا لولده على المنابر ويذكروا اسمه في الدعاء بعد اسم الخليفة وولى عهده المأمون والقاسم، فكان هذا الأمر نذيراً مبكراً من نذر الفتنة ودليلا على رغبة الأمين في تحويل ولاية العهد من أخويه إلى ولده٠

وفي شهر رجب من عام ١٩٦ للهجرة جاء أمر الخليفة الأمين بقطع الدعاء في الخطبة لأخويه المأمون والقاسم، وكان الأمر موجهاً إلى داود بن عيسى باعتباره أميراً على مكة والمدينة، وكان داود قد شهد مع طائفة من العباسيين والهاشميين البيعة التي أقامها الرشيد للأمين ومن بعده أخويه المأمون والقاسم، وشهد كتابة وثيقة بذلك أودعت في جوف الكعبة، وغضب داود عندما علم أن الأمين أرسل من استل الوثيقة من الكعبة ومزقها، تمهيداً لتحويل ولاية العهد إلى ابنه، فقام داود بحركة جريئة تنم عن قوة شخصيته ووفائه بالمواثيق، فقد جمع العباسيين والهاشميين في مكة وأطلعهم على الأمر، وأقنعهم بخطأ الأمين، وبضرورة المحافظة على العهد الذي قطعوه للرشيد في حياته، وكان من بين نصوص ذلك العهد نص يأمر بمواجهة من ينقض العهد أويخالفه والتصدي له ومحاربته، فاقتنع العباسيون والهاشميون بذلك، بعدها جمع داود عامة الناس في الحرم وخطب فيهم خطبة مؤثرة بين فيها غدر الأمين بأخويه، وأعلن أنه وسائر العباسيين والهاشميين في مكة

يتمسكون بالعهد الذي أخذه الرشيد من الناس جميعاً، وأنهم قد خلعوا طاعة الأمين وتحولوا إلى طاعة المأمون، وطلب داود منهم أن يبايعوا للمأمون، فقام الناس وبايعوا.

وحدث في المدينة ماحدث في مكة، فقد أرسل داود بن عيسى إلى ابنه سليمان نائبه على المدينة أن يعلم الناس بحقيقة الأمر ويأخذ منهم البيعة للمأمون، فاستدعى سليمان وجوه العباسيين والهاشميين أول الأمر وعرض عليهم خطاب أبيه وما حدث في مكة، وأقنعهم باعطاء البيعة للمأمون وخلع بيعة الأمين، وكان عدد من هؤلاء العباسيين والطالبيين قد حضروا كتابة الوثيقة في مكة، وأعطوا البيعة مع من أعطى، كما أن الأمير أيام الرشيد أخذ البيعة من أهل المدينة بعد ذلك، لذا لم يجد سليمان صعوبة في إقناعهم بما طلبه فأجابوه جميعاً، ثم جمع الناس في المسجد النبوي، وخطبهم وحدثهم عن غدر الأمين، وطلب منهم إعطاء البيعة للمأمون، فأعطوها جميعاً، فأرسل سليمان البريد إلى أبيه يخبره بما حدث.

أصاب المدينة من هذه البيعة خير وفير، إذ أن المأمون فرح ببيعة أهل الحرمين فرحاً شديداً، وكانت أول بيعة ترد عليه من الأمصار بعد أن خلعه الأمين، فأقر المأمون إمارة داود على الحرمين وأرسل إليه مالا كثيراً وأمره بتوزيعه على أهاليهما (١) وواصلت المدينة حياتها الهادئة، بينما الأحداث تعصف بالفتنة بين الأمين والمأمون، والجيوش تقتتل أعنف اقتتال في الشام وخراسان والعراق، وأخيراً حوصرت بغداد حصاراً شديداً ولقي أهلها من عناء الحصار واضطراب الأمن وفتك اللصوص والعيارين الأهوال الشديدة، إلى أن قتل الأمين في شهر صفر سنة ثمان وتسعين ومائة، فبدأت الأمور تعود

---

١) الطبري ٥٣٨/٨ -.

إلى مجراها الطبيعي شيئاً فشيئاً..(١)،

وكان من فضل الله على المدينة أن نعمت طوال تلك المدة بالأمن والسكينة، بل إن بعض الهاربين من لهيب الأحداث في بغداد والبصرة، قد شد الرحال إليها لينعم بالطمأنينة في جنباتها، وظلت الأمور على هذا المنوال إلى السنة الأخيرة من القرن الثاني، وبالتحديد إلى الأشهر الأخيرة منه، شهر شوال عام ١٩٩ للهجرة، حيث تطايرت بعض شظايا الفتنة من الكوفة ووصلت إلى المدينة المنورة لتغير شيئاً ما في حياتها ولتنهي سنوات من السكينة، تزيد على نصف قرن، وتحمل بعض القلق إلى أهلها..

المدينة وفتـنة أبي السـرايا:

لكي نستوعب ما حدث في المدينة في نهاية القرن الثاني الهجري لابد أن نطل إطلالة بسيطة على المصدر الذي جاءت منه الشظية..

ففي هذا العام خرج مغامر يدعى أبو السرايا على المأمون، وأبو السرايا هو السري بن مقصود، وينتهي نسبه إلى هانئ بن قبيصة الشيباني، كان في أول حياته فقيراً يكري الحمير، والتحق ببعض قطاع الطرق وصار زعيم عصابة، ثم التحق بالقائد يزيد بن مزيد الشيباني واشتغل معه ببعض الفتوحات وصار من قادته المشهورين. وعندما اشتعلت الفتنة بين الأمين والمأمون التحق مع رجاله بجيش المأمون وانضم إلى القائد المشهور هرثمة بن أعين ولقب بالأمير، وعندما قتل الأمين واستتب الأمر للمأمون، أنقص هرثمة أرزاقه وأرزاق أصحابه، فغضب أبو السرايا وانفصل بعدد من رجاله عن هرثمة واحتل مدينة عين التمر، وأخذ مافيها من أموال فوزعها على أصحابه، ثم استولى على الأنبار وقويت شوكته ، ولقي في الرقة محمد بن إبراهيم العلوي الملقب بابن طباطبا، وكان العلوي قد أعلن الثورة على العباسيين وطالب بالخلافة لنفسه، فبايعه أبو السرايا وصار قائداً لجيوشه،

---

١) انظر المصدر السابق

وتوجه إلى الكوفة فاستولى عليها وسير الجيوش إلى البصرة وبغداد والمدائن وواسط، وما لبث أن مات ابن طباطبا، ويقال إن أبا السرايا سمه، فنصب أبو السرايا أحد الفتيان الطالبيين في الخلافة وهو محمد بن محمد بن زيد بن علي بن الحسن بن علي بن أبي طالب، وصار يسير الأمور بنفسه، فضرب الدراهم باسمه وأرسل الأمراء إلى الأمصار ليخلع منها الخلافة العباسية ويقيم خلافة هاشمية، وقد أرسل إلى المدينة محمد بن سليمان بن داود بن الحسن بن علي بن أبي طالب، فجاءها محمد مع مجموعة من مواليه وأقاربه، ومع أن كتب التاريخ لم تحدد تاريخ وصوله إلى المدينة المنورة فإن القرائن تشير إلى أنه وصلها في أواخر شهر شوال أو ذي القعدة..

وعندما بلغ أمير المدينة سليمان بن داود قرب وصول محمد بن سليمان الطالبي، لم يفكر في مواجهته ولم يعمل شيئاً للدفاع عن السلطة العباسية، وربما يكون السبب في ذلك النجاح السريع الذي حققه أبو السرايا في العراق والأهواز، وهزيمة الكتائب التي تصدت له أول الأمر، إضافة إلى وجود عدد من الطالبيين في المدينة المنورة، لذا آثر أن يجنب المدينة شرور المصادمة والقتال ، فانسحب مع رجاله وخرج من المدينة، وربما يكون خروجه بإيعاز من والده داود بن عيسى بن موسى، لأن داود قد واجه الموقف نفسه واتخذ الإجراء ذاته، فقد وجه أبو السرايا طالبياً أخر إلى مكة ليتولى إمارتها هو حسين بن حسن الأفطس بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب، ونزل الطالبي خارج مكة، فرفض داود قتاله لقرب موسم الحج، وترك له مكة فدخلها

الطالبي بعد الحج،(١)،

ولاشك أن تصرف سليمان بن داود العباسي قد حقن دماء كثيرة في المدينة، ومنع مجابهة بين العباسيين والطالبيين، فالمدينة معقل كبير للطالبيين، ويبدو أن الأمير الطالبي الذي أخذ المدينة دون حرب لم يؤذ العباسيين الموجودين فيها، خاصة وأن موظفي الإمارة قد خرجوا مع سليمان بن داود بن عيسى، لذلك كان المظهر الأكبر لهذا التحول هو إنزال الراية السوداء عن المنائر ودار الإمارة، وخلع السواد ولبس العمائم الخضر شعار الطالبيين، ولم يسجل المؤرخون أية أحداث فاقعة في هذا التحول، ولم يذكروا شيئاً عن وقوع عمليات انتقام من العباسيين أو نهب أو تحريق لدورهم على نحو ماحدث في مدن أخرى،(٢) وكأنما السكينة التي قدرها الله للمدينة منذ أكثر من نصف قرن قد تركت بصماتها على كل شئ، فشملت هذا التحول الخطير من الولاء للعباسيين إلى الولاء للطالبيين، بل لقد كان حظ المدينة أوفر من حظ جارتها مكة في الإمارة الطالبية، فقد شهدت مكة ويلات عدة على يد الحسين بن الحسن الأفطس طوال ستة أشهر متوالية(٣) وكان من فضل الله على المدينة أن أميرها الطالبي استقل بها تماماً عن أمير مكة وسار في الناس سيراً حسناً، وقد استمرت هذه الإمارة الطالبية إلى منتصف عام مائتين للهجرة، ويبدو أن عدم وقوع صدام مسلح بين الطالبيين والعباسيين قد جعل الإمارة الطالبية مغموسة بشؤون الحياة اليومية ليس أكثر، اللهم إلا المكاسب التي يحققها من يتولى الإمارة في ذلك العهد، مكاسب الديوان والأموال المجباة من الأسواق... وغيرها من موارد الدولة.

---

1) الطبري ٥٣٣/٨ -.

2) في البصرة مثلا ، أحرق الأمير الطالبي دوراً كثيرة للعباسيين، حتى سمي زيد النار. أنظر الكامل : ٧٧/٥ -.

٣) أنظر تفصيل ذلك في الطبري ٥٣٦/٨ - ٥٤٠ -.

ومثلما بدأت الإمارة الطالبية بهدوء وسكينة، انتهت بهدوء وسكينة أيضاً..

ففي ربيع الأول من عام مئتين انتهت ثورة أبي السرايا في العراق، إذ هزمت جيوشه وقتل أبو السرايا صبراً، وأرسل القائد العباسي علي بن أبي السعيد عدداً من قادته لإخراج الطالبيين من الأمصار التي غلبوا عليها، وقدم أربعة من مشاهيرهم إلى المدينة ومكة، وهم عيسى بن زيد الجلودي وورقاء بن جميل وحمدون بن علي وهارون بن المسيب، وكانت معهم قوة كبيرة، وقد سبقت أخبارهم إلى المدينة، وعلم بها أميرها الطالبي، وأحس بعجزه عن مواجهة القوة القادمة، فآثر أن يفعل مافعله سلفه العباسي فيفوز بالسلامة، لذلك جمع رجاله وأعوانه، وحمل معه ما حمله من متاع وأموال، وانسحب من المدينة إلى بعض النواحي التي انتشر فيها الطالبيون، ففاز بالنجاة، وفازت المدينة المنورة بالأمن والأمان، ووصل الجيش العباسي في جمادى الأولى، فدخلها ورفع الراية السوداء على المنائر ودار الإمارة، ولزم الناس في المدينة بيوتهم، فأعلن القادة الأمان، ولم يمكث الجيش في المدينة، لأنه كان مكلفاً بإخراج الطالبيين من مكة أيضاً، وكانت مكة قد شهدت أحداثاً مؤلمة على يد أميرها حسين الأفطس، وقد تحول الأمر فيها من الإمارة إلى الخلافة، اذ بايع حسين الأفطس طالبيا آخر اسمه محمد بن جعفر بالخلافة وأخذ له البيعة من الناس، وجمع الأعوان وحفر الخنادق وقاتل الجيش العباسي الذي جاءهم من اليمن، لذلك خرج الجيش من المدينة متوجهاً إلى مكة، وبقي في المدينة القائد هارون بن المسيب أميراً عليها ومعه عدد من الجنود لحماية الإمارة ورجالها، ونجح الأمير الجديد هارون بن المسيب في السير بأمور المدينة سيراً حسناً، واستمر تيار الحياة الهادئة فيها، ولم ينتصر أحد للطالبيين، ولم يبايعوا لمحمد بن جعفر الذي نصب خليفة في مكة، ومع أن التنصيب جرى قبل وصول العباسيين إلى المدينة فاننا لانجد في كتب التاريخ أية

إشارة إلى استجابة الأمير الطالبي في المدينة أنئذ إلى ذلك التنصيب أو أخذه البيعة من الناس، وربما تكون الأخبار السيئة التي تطايرت عن حسين الأفطس قد وصلت المدينة فجعلت أميرها الطالبي يأنف من البيعة لتلك الخلافة، فقد أساء الأفطس وبعض رجاله إساءات بالغة تجاوزت نهب الأموال إلى خطف بعض النساء حتى كاد أهل مكة أن يبطشوا بهم.

محمـد بن جعفر يهدد المديـنة:

أثرت أحداث مكة في أهل المدينة، لذلك تحول ولاؤهم إلى العباسيين بمجرد دخولهم إليها تحولا كاملا، فبعد ثلاثة أشهر من ولاية هارون بن المسيب هدد الطالبيون المدينة المنورة، فقد توجه إليها محمد بن جعفر الذي نصب في مكة بعد أن هزمته الجيوش العباسية، فخرج منها إلى بعض بلاد جهينة وجمع عدداً من أتباعه وتوجه إلى المدينة المنورة ليقيم ملكه فيها، وجاء الخبر إلى هارون بن المسيب، فجمع رجاله وعبأ جنده، وطلب من أهل المدينة أن يشاركوا في الدفاع عنها فلبوه، وجاءه عدد من أبنائها فخرجوا للقاء محمد بن جعفر ورجاله قبل أن يقتحموا المدينة، فلقوه في ذي الحليفة عند الشجرة، واقتتل الفريقان قتالا شديداً، ونجح أهل المدينة في صد خصومهم، وتراجع رجال محمد بن جعفر حتى غابوا عن الأنظار، ومكث أهل المدينة قليلا يستريحون من عناء المعركة ثم قفلوا عائدين، وأرسل هارون بن المسيب عدداً من رجاله ليقتفوا أثر محمد بن جعفر ويقبضوا عليه، ولكن رجال هارون لم يتمكنوا منه، إذ أنه تحصن في بني جهينة، فرجعوا عنه، وغضب محمد بن جعفر وقرر أن يعيد الكرة ويهاجم المدينة المنورة، وأخذ يراسل بعض القبائل المحيطة به يطلب منها النصرة، فوعده بعضهم بالنصرة ولم يجبه أخرون، ثم بدأ يجمع رجاله من بني جهينة ومن بايعه من الأعراب، وحاول رجال هارون بن المسيب الإيقاع به ثانية فاصطدم معهم وهزمهم وتحرك بمن اجتمع معه من الرجال إلى المدينة المنورة ثانية.

علم هارون بن المسيب بتحرك محمد بن جعفر، فأمر بالنداء في المدينة بالنفير، واجتمع إليه مع جنده عدد من أهل المدينة وخرجوا مسرعين إلى طريق مكة، ونزلوا في ذي الحليفة عند الشجرة أيضاً، وأعد رجاله للقاء الجموع القادمة، وأوقف مجموعة من الرماة خلف المقاتلين، ووصلت جموع محمد بن جعفر، وكانت هذه المرة أكثر عدداً، فالتحم الفريقان واشتد القتال، واستبسل أهل المدينة وأبلوا بلاء حسناً، وسقط عدد كبير من أصحاب محمد بن جعفر تحت ضربات سيوفهم، ونجح الرماة في كشف الفرسان المهاجمين وردهم على أعقابهم، وتواصل الكر والفر، وبدأت موازين المعركة تميل لصالح أهل المدينة، واستطاع أحد الرماة أن يوجه نباله إلى قائد المهاجمين محمد بن جعفر فأصابه بنشابة في عينه ففقئت، واشتغل به من حوله، ودب الذعر في عدد من مقاتليه(١) فبدءوا بالإنسحاب، ثم تحول الإنسحاب إلى هزيمة كاملة.

كانت نتيجة المعركة درساً قاسياً لمحمد بن جعفر، فقد قر في نفسه أنه لايستطيع دخولها، وأن أهل المدينة لن ينتصروا له، لذلك أقلع عن العودة إليها نهائياً، وعاد إلى مكانه في بني جهينة يداوي جراحاته البليغة، وكانت هذه الهزيمة بداية تحول كبير في ثورته، إذ أنه لم يحارب بعدها قط، وطلب الأمان من أمير مكة، وذهب إليها بعد موسم الحج ووقف في المسجد الحرام في الموقع الذي نصب فيه خليفة من قبل وأعلن اعتزاله الخلافة، واعتذر عما حدث من قبل ودخل في طاعة المأمون، ثم لحق به في خراسان،(٢) وكان لمجالدة أهل المدينة الفضل في هذا التحول الكبير...

---

١) الطبري ٨/٥٣٩ -.

٢) الطبري ٨/٥٤٠ -.

المدينة في القرن الثالث الهجري

تغيرات خطيرة:

كان هارون بن المسيب من القادة العسكريين الذين يولون على المدن التي يفتحونها أو يخمدون فيها فتنة مدة من الزمن، مكافأة لهم على جهودهم وانتصارهم، وقد نجح هارون في ضبط أمور المدينة وسط القلاقل التي أثارها بعض الطالبيين، وحال دون ظهور مؤيدين لهم بين الأسر الهاشمية الكثيرة المستوطنة في المدينة، ونجح في تأليب أهل المدينة على محمد بن جعفر وحشدهم للوقوف ضده ومحاربته، وعندما هدأت الأمور وعادت الحياة إلى مجراها الطبيعي أدار هارون شؤون الإمارة أربع سنوات متوالية، غير أن الحياة في المدينة تأثرت إلى حد ما بتغير خطير طرأ على الخليفة العباسي المأمون وهو في عاصمته الأولى مرو.

ففي السنة الأولى من القرن الثالث الهجري، اتخذ المأمون قراراً خطيراً ينعطف بالدولة أغرب انعطاف، اتخذه بعد مرحلة تأمل عميقة، هذا القرار هو تحويل ولاية العهد إلى أحد الطالبيين من أحفاد علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، وهو أيضاً أحد أبناء المدينة المنورة، ولد فيها ونما وترعرع، وعلت شهرته العلمية في أرجائها، وهو علي بن موسى بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنه، والملقب بعلي الرضا. ويروي المؤرخون أن المأمون نظر في بني العباس، وفي بني علي فلم يجد أحداً أفضل ولا أورع ولا أعلم منه، وأنه سماه الرضا من آل محمد ، وجعله

ولي عهده، (١) وذلك في الثاني من رمضان سنة ٢٠١ للهجرة، واستقدمه إليه وزوجه ابنته أم حبيب، وزوج ابنته الأخرى أم الفضل لمحمد بن علي الرضا، ونتيجة لذلك أمر المأمون بطرح السواد -شعار العباسيين- ولبس الخضرة، وبدأ بنفسه فاتخذ عمامة خضراء وجبة خضراء، وأمر قادته بذلك ففعلوا، وكتب إلى عماله في الأمصار أن يتخذوا الخضرة شعارهم.

غضب العباسيون لذلك، وخرج عمه إبراهيم بن المهدي فخلع الخليفة، وبايعه عدد كبير من العباسيين، وأهل بغداد، أما المدينة المنورة فأغلب الظن أن عاملها قد نفذ أمر الخليفة، فلم يعرف عن القادة غير العباسيين أنهم لم يستجيبوا لأمر الخليفة المأمون، ولم تذكر المدينة ضمن الأمصار التي عصت أمره أو أحدثت حدثاً بسببه، ولا نملك الدليل القاطع على تغيير الشعار فيها من السواد إلى الخضرة، ولكننا نرجح ذلك، لأن المؤرخين ذكروا الأمصار التي رفضت التغيير ولم يذكروا المدينة المنورة ضمنها، ولا شك أن هذا التغيير قد أحدث تغييراً في معاملة الطالبيين في المدينة المنورة، فأصبحوا من المقربين من السلطة، خاصة وأن ولي العهد غدا واحداً منهم، وغدا صهراً للمأمون. ومما يرجح هذا الرأي عندي أن الخليفة قد ولى المدينة بعد هارون بن المسيب واحداً من الطالبيين هو عبد الله بن الحسن بن عبد الله بن العباس بن علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وضم إليه إمارة مكة المكرمة أيضاً وذلك عام ٢٠٤ للهجرة(٢) فعادت المدينة عاصمة الإمارة الحجازية..

كاد التحول الخطير الذي بدأه المأمون أن ينهي الدولة العباسية ويقيم دولة طالبية جديدة، ولكن شاء الله أن يموت علي الرضا في السنة التالية، وأن يراجع العباسيون المأمون ويلحوا عليه للرجوع عن رأيه في الخضرة، وأن تقوم عدة ثورات تهدد خلافة المأمون، لذلك لم يلبث المأمون أن رجع عن

---

١) الكامل ١٨٣/٥ -.

٢) الطبري ٥٧٦/٨ -.

قراره السابق وطرح الخضرة، وأعاد السواد شعاراً للدولة والخلافة، وذلك بعد أن دخل بغداد عام ٢٠٤ للهجرة،(١) وأمر الطالبين جميعاً بارتداء السواد عام ٢٠٧ للهجرة،(٢) غير أنه لم يعاد الطالبيين قط، وظل يكرمهم، وبخاصة أولي العلم والفضل منهم.

وقد أفاد الطالبيون في المدينة بعد ذلك فوائد مادية ومعنوية كثيرة، ويروي ابن الأثير أن محمد بن علي بن موسى الرضا خرج من المدينة للقاء المأمون سنة ٢١٥ للهجرة، فلقيه في تكريت، فأكرمه المأمون إكراماً بالغاً وأدخله على ابنته أم الفضل، وكان قد عقد له عليها وهي صغيرة قبل ثلاث عشرة سنة، عندما زوج أباه من ابنته الأخرى أم حبيب، فتزوجها محمد بن علي ثم انصرف بها إلى المدينة المنورة وأقام فيها،(٣) ولاشك أن مصاهرة المأمون للطالبيين قد قربته منهم وقربتهم منه، فلم نعد نسمع بخروج أحد منهم على الخلافة، وهذا دليل آخر على استقرار الحياة في المدينة وتلاحم الطالبيين مع بقية سكانها في نسيج واحد.

المدينة وثورة محمد بن القاسم:

كان محمد بن القاسم بن عمر بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنه من وجوه الطالبيين في المدينة، اشتهر بعلمه وزهده، وكان ملازماً للمسجد النبوي. وكان في المدينة رجل من خراسان مجاور، فأعجب به، ورأى أنه أصلح الناس للخلافة، فأخذ يغريه بها، وكلما وفد زائرون من خراسان أخذهم إليه فكلموه مثل ما كلمه، حتى اقتنع برأيهم وأخذ البيعة منهم لنفسه، ثم راسلوه من خراسان وأرسلوا له بيعات كثيرة، وقد نجح هذا الخراساني في حشد مبايعين كثيرين حتى ليسميه ابن خلدون: (شيطان من

---

١) الطبري ٥٧٤/٨ -.

٢) الطبري ٥٩٣/٨ -.

٣) الكامل ٢١٩/٥ -.

أهل خراسان)(١) غير أن محمد بن القاسم كان موقناً بأن المدينة المنورة ليست المكان المناسب لدعوته ولقضيته، ورغم توافد عدد كبير من المؤيدين عليه فإنه لم يدعُ لنفسه بين أهلها، ولم يستنصر أقاربه الطالبيين، ولولا اقتناعه بأنه لن يجد لديهم النصرة لما أمسك عن ذلك، فقد قرت نفوس الناس للحياة الآمنة وكرهوا الشغب وشق عصا الطاعة، لذلك اضطر محمد بن القاسم الى أن يخرج بأصحابه إلى الجوزجان، ولم يخرج معه من أهل المدينة أحد، وكانت ثورته كبقية الثورات الطالبية محدودة الزمان والمكان، إذ سرعان ما أخمدها قادة عبد الله بن الطاهر بعد وقعات عدة في الطالقان، وأسر محمد بن القاسم وأرسل إلى بغداد(٢) حيث سجن في بيت مسرور الخادم، ثم نجح أنصاره في تهريبه من سجنه ليلة عيد الفطر عام ٢١٩ للهجرة واختفى عن الأعين وغاب عن سطور التاريخ، وربما يكون قد عاش بقية حياته في إحدى مناطق أتباعه بصمت كامل.

كان محمد بن القاسم قبل خروجه من المدينة نموذجا لكثير من الطالبيين الذين اشتغلوا بالعلم والعبادة، ولولا (شيطان خراسان) لما فكر بالثورة، وعندما اقتنع بها لم يجعل المدينة ميدانها، فقد أثبتت التجارب السابقة أنها لا تصلح لذلك، وجاءت حالة الاستقرار فزادتها سكينة وأمناً.

مظاهر أخرى للسكينة:

ومن مظاهر السكينة التي عاشتها المدينة في ذلك الوقت: طول إمارة أمرائها، فبعد عبد الله بن الحسن، تولى إمارتها صالح بن العباس بن محمد العباسي سنة ٢٠٩هـ، وظل عليها خمس عشرة سنة، فلا نجد ذكراً لأمراء آخرين قبل سنة ٢٢٤ هـ حيث نعثر على اسم سليمان بن عبد الله بن سليمان الذي تولى إمارتها خمس سنوات أخرى، تسلم بعدها الإمارة محمد بن صالح

---

١) ابن خلدون ٣٢١/٣ -.

٢) الطبري ٩٠/٧ - الكامل ٢٣١/٥ -.

ابن العباس بن محمد علي العباسي عام ٢٩٩ للهجرة.

وبينما كانت الأحداث تتدافع في العراق وخراسان بعد موت المأمون عام ٢١٨ للهجرة وتولي المعتصم، كانت المدينة وادعة آمنة من شغب الجند وثورات الطامحين.

آثار سلبية للسكينة : بداية مشكلة تاريخية مستعصية:

غير أن هذه السكينة تحولت إلى ركود يدب فيه الضعف وينذر بأخطار قادمة، خاصة وأن قوة الدولة محتشدة في العراق، وجنود الإمارة لايقدرون على مواجهة أي تجمع مسلح، وقد بدأت هذه النذر عندما انشغلت الخلافة عن شبه الجزيرة العربية وقبائلها، وعندما أصبحت سلطة الإمارة قوية في حدود المدن التي توجد فيها فقط، لاتصل إلى القبائل التي تعيش خارج المدن وفي أطراف الجبال والبوادي، فقد شعرت هذه القبائل ببعد سلطان الدولة عنها، وبدأت شؤون الحياة البدوية والريفية تشغل الناس عن العلم والتفقه في الدين والوقوف على الحلال والحرام، وتربطهم بمنطق الواقع والقوة وتلبية الحاجة الآنية، لافرق في ذلك بين حلال و حرام، وبين مال يكسبونه بعرقهم -وما أقله- ومال يغيرون على أصحابه فينهبونه.

ومع أن بعض الأعراب قاموا بعمليات غزو ونهب وسلب قبل أكثر من نصف قرن، إلا أن هذه العمليات كانت محدودة جداً، لايذكرها المؤرخون لقلتها وقلة تأثيرها على الحياة العامة في المدينة المنورة آنئذ، ولكن الأمر بدأ يتغير مع فترة الركود الطويلة هذه، ففي أطراف المدينة تسكن عدة قبائل أهمها : بنو سليم وبنو هلال وتمتد فروع هذه القبائل في الحجاز ونجد، وتمر بمناطقها طرق الحجاج القادمين من العراق واليمن والشام، وعندما انشغلت الخلافة العباسية بالفتن المتوالية في العراق وخراسان صرفت معظم قوتها العسكرية إلى تلك الأماكن، وأصبحت سلطتها على القبائل تقوم على الولاء الذي يقدمه رؤساؤها مقابل أعطيات ينالونها من الخليفة أو أمرائه كلما وفدوا





قوافل الحجاج تقطع الطريق من وإلى المدينة وتعاني فوق مشاق السفر في الصحراء والحرارة الشديدة غارات الأعراب

إليهم، ولم يكن للدولة أي وجود مسلح بينهم، وبالعكس كانت تستعين بالمتطوعين من رجالهم لتعزيز جيوش الفتوحات ومكافحة الفتن، ولكن عندما بدأ الخلفاء العباسيون يقدمون الفرس ثم الأتراك على العنصر العربي في جيوشهم قلت الإستعانة بهم وربما انعدمت، ولم تعد خيوط الارتباط وثيقة بين القبائل والخلافة، وربما يكون للظروف الإقتصادية الصعبة في البادية والريف أثر في سلوك بعض القبائل وشغبها، فقد كانت تمر سنوات من القحط تهلك فيها كثير من مواشيهم، وهي المصدر الأول لثروتهم، وتقل الغلال وترتفع الأسعار، فتتحرك بعض القبائل أو أفخاذها لتأمين موارد ميسورة، وكانوا من قبل يفدون على الخلفاء والأمراء فيحصلون منهم على أعطيات سخية، فلما قلت وفادتهم وقلت عطاءاتهم أصبح هذا المورد لايغنيهم شيئاً، ولم تكن تنقصهم روح التمرد واستشعار القوة والجهل أو قلة المبالاة بالحلال والحرام، لذلك استحلوا العودة إلى الغزو الجاهلي والإغارة على الطرق والقرى والمدن وأخذ الأموال في هجمة خاطفة ثم العودة إلى المعاقل الحصينة في البادية أو الجبال.

ظهرت بوادر هذه الغارات في تصرفات محدودة لبعض الأعراب وأفراد من بني سليم وبني هلال، فقد أخذ بعضهم يجترئ على الناس في السوق، يأخذون أكثر من حقهم ويساومون في بعض السلع ويفرضون لها سعراً دون سعرها الحقيقي في السوق، فاذا رفض صاحبها بيعها اشتدوا عليه، وربما ضربوه وأخذوها قسراً، وقد تدخل رجال الإمارة في عدد من الحالات، ولكنهم لم يفلحوا في وقف هذه التعديات ومنع تكرارها، ثم غدت الأسواق تشهد مجموعات منهم تشتبك مع الشرطة وتخرجهم من السوق وتغصب بعض السلع وتخرج من المدينة، وقد ضج التجار من هذه التصرفات وشكوا أمرهم إلى الأمير، فعزز الأمير محمد بن صالح بن العباس رجاله في السوق، وحدثت عدة مصادمات بين بني سليم وبعض تجار المدينة، كما حدثت مصادمات بينهم

وبين بعض بني كنانة وبني باهلة، وتطورت الصدامات إلى قتال، وقتل السلميون عدداً من الكنانيين والباهليين وفروا، ولم تقدر الإمارة عليهم.

قوة من بغداد تحمي المدينة:

كان الأمير محمد بن صالح حديث عهد بالمدينة، فعمل جهده لضبط الأمور والتصدي للمشاغبين ولكنه لم يستطع وُقف هجماتهم، فكتب إلى الخليفة في بغداد، وكان الخليفة آنئذ الواثق بن المعتصم، فأرسل إليه الواثق قوة مسلحة قوامها مائتا رجل من الشاكرية عليهم حماد بن جرير الطبري، ووصلوا المدينة أواخر عام ٢٢٩ للهجرة، وتوزعوا في أنحائها، واهتموا بالسوق وقت انعقادها، وأخذوا يتربصون بالمشاغبين ليعاقبوهم ويجعلوهم عبرة لمن خلفهم.

كان لوصول هذه القوة أثر معنوي طيب، فقد اطمأن أهل المدينة لوجود من يواجه المشاغبين، وبالفعل قلت حوادث السلميين والهلاليين، ولكنها لم تنقطع، كانت قوة السلميين تتركز في قرى خارج المدينة، أهمها السوارقية، وهي قرية محصنة بين مكة والمدينة، والرويثة، منطقة دونهما، وكان عدد منهم قد استوطن المدينة قرب البقيع في حرة سميت باسمهم ((حرة بني سليم)) ولكن هؤلاء المستوطنين لم يشاركوا أقرباءهم في الشغب، وإن كانوا ينزلونهم عندهم في بعض الأحيان. ويبدو أن وصول القوة المسلحة قد أحدث ردة فعل عند السلميين بالذات، فقد جمعوا قوتهم حول قائدهم عُزَيْزَة بن قطاب السلمي، وأخذوا يتحركون في مجموعات كبيرة، ويغيرون على خصومهم الكنانيين والباهليين، وينزلون بعض أسواق الحجاز، ويتحكمون بأسعارها كيف شاؤوا.

حملة خاسرة:

خشي أمير المدينة أن يشتد أمرالسلميين ويهاجموا المدينة رغم وجود القوة المسلحة فيها، لذا قرر أن يمسك زمام المبادرة ويضربهم ضربة تأديبية

توقفهم عند حدهم وتعيدهم إلى سلطة الدولة، فأخذ يحرض أهل المدينة على الخروج إليهم، وعبأ مالديه من قوة مسلحة، وفتح باب التطوع فتطوع عدد من القرشيين والأنصار والموالي، وجاء معهم عدد كبير من عبيدهم ولاسيما السودان، وتجمعوا في معسكر الجرف، وجاءهم الأمير وعين حماد بن جرير قائداً للحملة، وأمرها بالمسير إلى بني سليم وقتالهم، سارت الحملة إلى ديار بني سليم على طريق مكة، وبعد مسير يوم وليلة وصلت الحملة إلى الرويثة في أوائل جمادى الأخرة عام ٢٣٠ للهجرة، ووجدوا جموعاً لبني سليم، ولم يكن عددهم كبيراً ومعهم عزيزة قائدهم فأرسل السلميون إلى حماد الطبري يخبرونه بالموادعة وأنهم لايريدون القتال، ولكن حماداً رد عليهم رداً شديداً وأبلغهم أنه مصر على قتالهم أو يستسلموا، وحاول السلميون أن يثنوا حماداً عن القتال دون جدوى، وكانوا ينتظرون وصول عدد من السلميين المقيمين في بادية نجد، فلما رأى زعيم السلميين عُزيرة إصرار حماد على القتال عبأ فرسانه فبلغوا مائة وخمسين فارساً، وهم أقل بكثير من حملة حماد، ومع ذلك التحم بالحملة وقاتل قتالا ضارياً، وأرسل يستعجل بقية السلميين وكان أول هجومه على مجموعة من السودان الذين خرجوا في الحملة ولم تكن معهم خيول، لذلك نجح في شق صفوفهم ونشر الذعر فيهم، فقتل منهم من قتل وولى الباقون هرباً، فهجم بقية أهل المدينة على الفرسان والرجال من بني سليم واشتدت المعركة، وثبت الطرفان، ثم بدأ السلميون يتراجعون من أعلى الرويثة إلى أسفلها، واستمر القتل في الطرفين، ثم ظهرت طلائع السلميين القادمين من البادية وهجمت على أهل المدينة بعد أن كادوا ينتصرون، وتكاثروا عليهم وبدأت الكفة تميل لصالح السلميين، واستبسل القرشيون والأنصار وثبت حماد وجماعته بشجاعة نادرة، غير أن السيوف المتكاثرة مالبثت أن أصابتهم إصابات شديدة فسقط حماد ومن معه، وسقط عدد كبير من أهل المدينة، وأصيب آخرون بجراح، وبدأ من أخطأته السيوف

ينسحب تاركاً كل ماكان يحمله، ناجياً بروحه نحو المدينة، وفرح السلميون بما تركه المدينيون، واشتغلوا بجمعه، وتركوا المنسحبين ينجون بأنفسهم.

وجاء الخبر إلى المدينة، فعمها حزن شديد، وكانت قد نسيت الأحزان منذ مدة طويلة، فقد فقدت عدداً من شبابها، وفقدت معظم القوة المسلحة التي جاءتها من بغداد لحمايتها، وأصبحت غير قادرة على أن تتصدى لمن يفكر في غزوها أو الشغب فيها، لذلك سارع الأمير محمد بن صالح فأرسل البريد بخبر الحملة الفاشلة، ومافعله السلميون بأهل المدينة وجيشها.

أما السلميون فقد انتشوا بهذا النصر، وتحركت جموعهم وأغارت على عدد من القرى المجاورة، ولاسيما قرى الباهليين والكنديين وقتلوا عدداً من أبنائهم ونهبوا أموالهم، وأغاروا على بعض القبائل المسافرة، وتطايرت أخبارهم إلى المدينة المنورة وأطراف الحجاز.. فقلق الناس قلقاً شديداً واضطرب التجار وخافوا أن يدهموهم في أسواقهم(١).

آثار الحملة الخاسرة:

اهتم الخليفة الواثق بما جاءه من أخبار المدينة، فكلف أحد قادته الكبار، بغا الكبير ((أبو موسى التركي)) أن يجهز على وجه السرعة جيشه، ويعبئ فيه المقاتلين الأتراك، ويعجل السير إلى السلميين، كما أرسل أمراً بعزل أمير المدينة محمد بن صالح وتعيين عبد الله بن أحمد بن داود الهاشمي مكانه.

حملة تأديبية تنظف المنطقة:

جهز الجيش تجهيزاً حسناً، وسار قاصدا مدينة السوارقية، أكبر مراكز

١) أنظر الطبري ٩/١٢٩-١٣٠

السلميين وأكثرها تحصيناً(١)، فوصلها في شعبان من العام نفسه ٢٣٠ للهجرة، وكان قد تجمع فيها قادة السلميين النجديين والحجازيين، فيهم عزيزة الذي قتل حماد بن جرير، فهاجمهم بغا وقاتلهم بعنف شديد، واستخدم خبرته العسكرية بالإحاطة بهم، فقتل خمسين رجلا منهم وأسر مثلهم وبدأ الآخرون في الهرب، ولم يكن بغا يريد القضاء على السلميين، بل كان يريد تأديبهم وحملهم على الطاعة، لذلك عندما رآهم يهربون نادى فيهم بالأمان، وأمر رجاله بعدم التعرض لمن يغمد سيفه، واتجه نحو قلب السوارقية فنزل فيها، وأرسل إلى السلميين أن يأتوه وهم آمنون ليفاوضهم، فجاءه عدد منهم فأخبرهم أنه يريد منهم عهداً موثوقاً ألا يشغبوا ولايتعرضوا للمدينة المنورة ولا لأحد من المسافرين، وأنه سوف يقبض على سفهائهم الذين لايستطيعون ضمانهم ويحبسهم في المدينة لكيلا يحملوا إخوانهم على الشغب والإفساد، فرضي معظم السلميين ونزلوا على حكمه، وجاءه عدد كبير منهم، وأخذ منهم رهائن، وقبض على من اتهموا بالسفه والإفساد وارتكاب الجرائم، وأرسل إلى بطون سليم في الأطراف وبخاصة بني عوف وبني حبش، وأمضت قواته أكثر من شهرين وهي تتجول في قراهم ومضاربهم لتقبض على من يوصف بالشر والفساد، وفر بعضهم قبل أن يصل إليه رجاله، فأمسك ألف رجل وأطلق سراح الباقين، وسار بهم إلى المدينة المنورة، فوصلها في أوائل ذي القعدة عام٢٣٠هـ، وفرح أهل المدينة بقدوم بغا وجيشه وأسراه، واستقبلوه بترحاب شديد، وأملوا عودة السكينة التي افتقدوها، وسلم بغا الكبير سجناءه ورهائنه لأميرالمدينة، فحبسهم الأمير في دار كبيرة قرب الإمارة تعرف بدار يزيد بن معاوية.

أحس الناس بالأمان بعد أن كسرت شوكة السلميين، وعادت الحياة إلى هدوئها وتجهز الراغبون في الحج، فلم يعد أحد يتعرض لقوافل المسافرين،

---

١) الطبري ١٣٢/٩ -.

وخرج بغا الكبير على رأس الحجاج إلى مكة واصطحب معه جيشه، وبعد إنتهاء موسم الحج قفل راجعاً إلى المدينة، وتوقف في ذات عرق، على بعد يومين من مكة، فأرسل رسله إلى بني هلال يعرض عليهم الأمن والأمان مقابل أن يسلموه رهائن منهم، ويسلموه المفسدين والمشاغبين ليحبسهم في المدينة أيضاً ضماناً لعدم تكرار الشغب والجرائم، وهددوهم إن لم يستجيبوا بالقتال والقتل، فاستجاب الهلاليون لطلب بغا الكبير وجاءه عدد كبير منهم، فأخذ ثلاثمئة من عتاتهم ومردتهم، وخلى سبيل الباقين، وتوجه بمن أخذه إلى المدينة فحبسهم مع السلميين، وغدت المدينة تتحدث بأخبار بغا والقبائل التي شغبت من قبل، ومن أمسك منهم ومن نجا، ومن بقي من القبائل المشاغبة والتي تتعرض للقوافل، وتتوقع خروج الجيش إليها، فقد انتشر الخبر بأن الخليفة الواثق أمر قائده بغا بأن يؤمن المنطقة كلها ويؤدب جميع المفسدين، وألا يعود إلى العراق الا بعد أن يعيد الأمن إلى نصابه.

ومالبث بغا أن خرج إلى شمال المدينة ثم شرقها، إلى بني فزارة ثم بني مرة، يعرض عليهم ماعرضه على السلميين والهلاليين من قبل، ومن أبى يهاجمهم في دورهم، ويقتل من يشهر السيف، ويأسر من يستأسر، ليعود إلى المدينة بطائفة أخرى من الأسرى والرهائن.

شغب في السجن:

بينما كان بغا وجيشه يجوبون مواطن الحربيين والفزاريين شهدت المدينة أحداثاً جديدة صاخبة، فقد ازدحمت دار يزيد بن معاوية بالرهائن والأسرى، إذ جاوز عددهم ألفاً وثلاثمئة رجل، وكان فيهم عزيزة زعيم السلميين، فلما طال عليهم الحبس بدؤوا يفكرون في الهرب من السجن، وحاولوا رشوة بعض الذي وكلوا بحراستهم فاستجاب بعضهم، وترك لهم الفرصة كي ينقبوا أحد الجدران ويفتحوا ثغرة فيه يتسللون منها خارج السجن، وقد أفلحوا في ثقب الجدار وإحداث الثغرة، وخرج عدد من شجعانهم وباغتوا الحراس فقتلوا منهم

رجلين وأخذوا سلاحهما، وتدفق زملاؤهم من الثغرة، وانتشروا حول السجن ليهاجموا بقية الحراس، وشاء الله أن تشرف امرأة من دارها فترى السجناء يتقاطرون من الثغرة، ففزعت وصرخت تنبه أهل الحي، وتردد صوتها في هدأة الليل بين البيوت، وهب الرجال على صوتها، وتعالت الأصوات تنادي كل من يسمع من أهل المدينة أن يدركوا السجناء قبل أن يخرجوا من الثغرة، وأسرع الذين سمعوا النداء ووقفوا في وجه السجناء وأشهروا سيوفهم عليهم وهددوهم بالقتل إن لم يرجعوا، وتقدم عدد من أهل المدينة إلى الثغرة ليوقفوا تدفق الخارجين منها، وأخذوا يدفعون السجناء بالعصي والرماح وأطراف السيوف ليعودوا إلى سجنهم، ويضربون من يحاول الفرار، ولكن السجناء تجمعوا ثم اندفعوا في وجه أهل المدينة، ونجح بعضهم في شق الصفوف، وجرى في الشوارع إلى ظاهر المدينة، وجاء أمير المدينة عبد الله بن أحمد بن داود ورجاله، وأمر رجاله بتعقب السجناء الفارين، وجرى السودان وراءهم فأدركوا عدداً منهم وأمسكوهم، وعندما قاوموهم ضربوهم ضرباً مبرحاً، وقتلوا من شهر السلاح عليهم، وأفلت عُزيزة ونفر قليل معه، وتوارى في أطراف المدينة، وشد أهل المدينة على بقية السجناء وضربوهم، وبخاصة بعد أن قتل عدد من المدنيين، فتراجع السجناء وسقط عدد منهم بين قتيل وجريح. واستسلم الباقون وطلبوا الأمان ليعودوا الى السجن..

وتوقف القتال، وقبض على رؤوس الفتنة، وطلب الأمير من أهل المدينة أن يعينوا رجاله في الحراسة بقية الليل.. فتطوع عدد منهم، وأحكمت الحراسة على السجن، وسارت دوريات منهم في الأحياء وأطراف المدينة للقبض على الفارين...

وقبل أن يطلع الفجر.. كان الأمن قد استتب في المنطقة، وحمل أهل المدينة شهداءهم وجرحاهم إلى البيوت، وعزل الذين شوهدوا يقتلون الحراس والمدافعين من أهل المدينة في غرفة في الإمارة للاقتصاص منهم..

وفي الصباح قتل هؤلاء، وجمعت جثتهم إلى جثث قتلى الليل من السجناء، وصفت على باب الإمارة بعضها فوق بعض، وجاءت المجموعات التي تعقبت الفارين بجثث من تمكنت منهم فطرحت مع مثيلاتها.. وقبل أن ينتصف النهار دفن أهل المدينة شهداءهم، ثم أقبل رجل يحمل على دابته جثة عزيزة، وأخبر أنه عثر عليه مختبئاً في بئر، فحاول القبض عليه ، ولكن عزيزة قاومه، فقتله.

واطمأن الناس إلى أنهم قد تغلبوا على ذلك التمرد وأمنوا شر المفسدين.. فلا أحد إلا الله يعلم ماالذي كان يمكن أن يفعله ألف وثلاثمئة من العتاة لو تمكنوا من الخروج من السجن والانتشار في المدينة.. يحملون في جنباتهم وقود الشر والفساد، وحرص أهل المدينة على مساعدة الأمير في ضبط السجناء، واستمر المتطوعون في التناوب على الحراسة، بانتظار عودة بغا وجيشه من حملة تأديب الأعراب والقبائل المفسدة، وكتب الأمير إلى الخليفة بالأحداث التي جرت، وأرسل الخليفة عوناً مادياً لأهل المدينة، فوزعت عليهم الأعطيات، وحصنت دار يزيد بن معاوية، وزاد الأمير من عدد الشرطة والحراس.. وسكن السجناء بعد أن قتل مردتهم وزعماؤهم.

وفي رمضان من العام نفسه ٢٣١هـ عاد بغا الكبير إلى المدينة وهو يحمل معه مزيداً من السجناء والرهائن، فقد أخذ ألفاً من عتاة الفزاريين والحربيين بعد صولات وجولات كثيرة في ديارهم، وجاء بهم فأضافهم إلى سجنائه السابقين، وعندما علم بالأحداث التي جرت في غيبته غضب غضباً شديداً، وهم أن يقتل مجموعة أخرى من الأسرى ولكنه كف عن ذلك، كما غضب عندما علم أن السودان قد قتلوا بعض الأعراب الذين وجدوهم في أحياء المدينة ظناً بهم أنهم من السجناء الفارين، ولكنه لم يعاقب أحداً منهم، لأنه لايعرف على وجه التحديد قاتله، فضلاً عن أنهم كانوا يقصدون نصرة السلطة على الخارجين عليها..

وهكذا تحولت المدينة المنورة إلى مركز للقوة التأديبية التي جاءت لضبط الحجاز ونجد، وتأمين طريق المعتمرين والحجاج، والضرب بقوة على أيدي المفسدين، وقد عسكر جيش بغا في أطراف المدينة بقية تلك السنة، وخرج بغا وبعض رجاله مع وفد الحجيج إلى مكة في موسم الحج، وخرج معه عدد كبير من أهل المدينة، واستتب الأمن في الموسم..

وعاد بغا بعد الموسم وتابع حملاته التأديبية في أطراف نجد وبدأ بتأديب بني نمير، ثم بني ثعلبة ثم بني كلاب ، وشارك في حملة التأديب عدد من شباب المدينة، وزاد عدد السجناء وتجاوز الألفين، واستمر في الازدياد كلما وفدت مجموعة جديدة من الأسرى من بني كلاب وبني ثعلبة..

ومرت شهور من سنة مئتين واثنتين وثلاثين والمدينة مركز تجمع للأسرى، حتى إذا دخل شهر ذي القعدة أرسل بغا الكبير إلى محمد بن صالح العباسي- أمير المدينة السابق -يطلب منه أن يأتيه بالسجناء المجموعين في سجون المدينة إلى العراق.. فجهز محمد بن صالح الجنود والابل والقيود.. وأعد العدة لكيلا يفلت أحد من أسراه، وخرج بهم في قافلة كبيرة تضم أكثر من ألفين ومئتي رجل، ووقف أهل المدينة يشهدون خروج هؤلاء المفسدين، ويحمدون للخليفة الواثق وقادته مافعلوه لتنظيف المنطقة وتأمين طريق الحجاج وتوفير الأمن والسلامة. وقبل أن ينتهي العام جاء النعي بوفاة الواثق وتولي المتوكل، فحزن عليه أهل المدينة وبكوه بدموع سخية..(١).

---

١) انظر أخبار بغا الكبير وشغب السلميين وحربهم في: الطبري ١٢٨/٩ وما بعد

الأمن والطمأنينة في المدينة:

بعد ذلك دخلت المدينة في فترة هدوء ثانية، وعقد المتوكل لابنه محمد المنتصر ولاية فخرية على الحرمين واليمن والطائف في رمضان سنة ٢٣٢، وأغلب الظن أنه أبقى عليها واليها السابق، محمد بن إسحق بن إبراهيم(١).

واستتب الأمن بفضل حملات بغا التأديبية التي نظفت المنطقة من عدد كبير من المفسدين، فلا نجد أية إشارات إلى اضطرابات أو مشكلات تقع في المدينة المنورة أو بقية منطقة الحرمين الشريفين.

ومع أن المنتصر كان هو الوالي الاسمي للمدينة ومكة ، فإنه لم يرها إلا بعد أربعة أعوام من ولايته عليها، حيث جاء للحج عام ٢٣٦ مع جدته شجاع أم الخليفة المتوكل، واحتفى به أهل المدينة مثلما يحتفون بأي أمير من بيت الخلافة يفد إليها، وحمل المنتصر إلى الحرمين أموالاً فوزعها فيهما.

وعندما تغير المتوكل على ابنه محمد المنتصر ألغى ولايته على الحرمين، ووجه إلى المدينة صالح بن علي، ويغلب على الظن أن هذا الأمر قد حدث في عام ٢٤٦ للهجرة حيث أراد المتوكل أن يعزل المنتصر عن ولاية العهد فأبى المنتصر، فأخذ يهينه في مجلسه، وقد أثر ذلك في المنتصر فكان أحد المتآمرين على قتل أبيه المتوكل، وكان أول عمل قام به بعد مبايعته بالخلافة هو عزل صالح بن علي من المدينة وتعيين أمير آخر عليها هو علي بن الحسن بن إسماعيل بن العباس بن محمد(٢)، ووصاه أن يعنى بأهلها عناية فائقة، وكان مما قاله له: ياعلي إني أوجهك إلى لحمي ودمي، ومد جلد ساعده وقال، إلى هذا وجهتك، فانظر كيف تكون للقوم، وكيف تعاملهم، (يعني آل أبي طالب) فقال علي: أرجو أن أمتثل رأي أمير المؤمنين أيده الله فيهم إن شاء

---

١) الطبري ١٨٣/٩-.

٢) الطبري ٢٥٤/٩ - الكامل ٣١١/٥-.

الله، فقال: إذاً تسعد بذلك عندي(١).

وطبيعي أن تحظى المدينة بأمير يرعى شؤونها رعاية حسنة، وأن يجد الطالبيون الرفق والعناية، بل إن طالبيي المدينة من حفدة الحسن والحسين قد ردت إليهم فدك بأمر الخليفة المنتصر، فصار لهم منها دخل وفير.

ومع أن المدينة عاشت في هدوء ودعة فإنها قد تأثرت بالضعف العام الذي أصاب الدولة العباسية عام ٢٤٧هـ، فالفتن الكثيرة المشتعلة حول الخلافة بسبب تسلط القادة العسكريين على الخلفاء قد أضعفت اهتمام الخلفاء بالولايات والأمصار، وأثر ذلك على الحالة الاقتصادية بعامة، وكانت طرق التجارة تضطرب بين حين وحين، فترتفع الأسعار ويشكو الناس من الضائقة، والمدينة التي اعتادت أن تعتمد على منتجاتها الزراعية لم تكن لتستطيع أن تستغني عما يحمل إليها من الأمصار، فليس لديها صناعة تكفي أهلها الثياب والأواني المنزلية والأثاث، والاضطراب كثيراً ما يؤثر على موسم الحج، فيقل عدد الوافدين وتقل الواردات من الموسم.

طالبي جديد يستولي على المدينة:

غير أن المدينة لم تشهد اضطراباً وضائقة حقيقية إلا عام ٢٥١ للهجرة عندما احتلها لبعض الوقت طالبي ثائر هو إسماعيل بن يوسف بن إبراهيم بن موسى بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب، وهو من أحفاد عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب، الذي خرج ابناه محمد ذو النفس الزكيه وإبراهيم زمن المنصور، ومع أن جده المباشر موسى، والملقب بالجون، لم يخرج مع أخويه إلا أنه أوذي بسببهما، فقد أخذه المنصور وحبسه، ثم أطلقه وكاد رجال أمير المدينة رياح أن يقتلوه، ولكن رجال محمد أنقذوه، فلما قتل محمد توارى موسى الجون في بادية الحجاز، ولم يصل إليه المنصور، وقد نشأ أبناؤه وأحفاده في ذلك الريف بين الأعراب

---

١) الطبري ٩/٢٥٤ -.

وورثوا قصص الخروج السابقة، ولكن لم يخرج أحد من أبناء موسى ولا من الجيل الأول من أحفاده، فلما ظهر الجيل التالي من الأحفاد كان فيه إسماعيل هذا وأخوه محمد الأخيضر، وكانا يترددان على مكة والمدينة ولم يسكنا فيهما، ويبدو أن ضعف الإدارة العباسية في المنطقة قد جرأهما على التحرك، ومع أن محمد الأخيضر أكبر من أخيه إسماعيل بعشرين سنة فإن إسماعيل هو الذي جمع الأعراب ورجال بعض القبائل وخرج بهم، ولا أستبعد أن تكون بداية الحركة قد تزامنت مع تحرك بني سليم عام ٢٢٩هـ، إذ يذكر ابن خلدون أن إسماعيل كان يتردد بالحجاز قبل خروجه عام ٢٥١هـ بإثنين وعشرين سنة(١) أي منذ عام ٢٢٩هـ، ولكن حملة بغا الكبير على بني سليم جعلته يؤجل ثورته، فلما تطاولت السنوات على تلك الحملة وضعف شأن الإدارة العباسية وجد الفرصة سانحة للخروج والثورة، فهاجم مكة المكرمة في مطلع ربيع الأول عام ٢٥١ للهجرة، ولم يكن فيها قوة قادرة على مقاومته، فهرب واليها جعفر بن عيسى، فأمر إسماعيل رجاله بنهب دار الإمارة وبيوت كبار العاملين فيها والقبض على جنودها، ثم أمر بقتلهم جميعاً، وقتل جماعة من أهل مكة، وكان إسماعيل دموياً، فلقب بالسفاك(٢). ولم يكتف بذلك بل أغار على الكعبة الشريفة فأخذ مافي خزانتها من الذهب والفضة والطيب والكسوة، واستولى على الأموال المخصصة لإصلاح عين زبيدة، وفرض على الناس إتاوة، وجمع منهم مائتي ألف دينار، وأباح لرجاله أن ينهبوا ما يشاؤون.

تطايرت أخبار السفاك ووصلت إلى المدينة ففزع أهلها، ثم اشتد فزعهم عندما علموا أنه خرج من مكة في أواخر ربيع الثاني عام ٢٥١ قاصداً المدينة، وليس في المدينة قوة قادرة على مواجهته، فأسقط في أيديهم، ولجئوا إلى

---

١) ابن خلدون ٤/١٢٧-

٢) التحفة اللطيفة ١/٣٢٢ -.

الأمير علي بن الحسين، ولكن الأمير لا يملك شيئاً، فجنوده قليلون لايكافئون رجال السفاك، وما صنعه السفاك بجنود مكة أدخل الرعب في قلوبهم، وليس في الوقت متسع لوصول نجدة من بغداد، لذلك كان من رأي الأمير مسالمة السفاك وطلب الأمان منه، ولكن أهل المدينة لم يقتنعوا بهذا الحل، فليس السفاك ممن يؤمن جانبه، وفظائعه في مكة تجعل الثقة فيه معدومة.

أصر الأمير على رأيه، واقتنع بأن المقاومة عقيمة، وكتب إلى الخليفة في بغداد بالأمر طالباً النصرة، ثم جمع حاشيته وخرج من المدينة.

وكانت الأمور في العراق مضطربة بسبب الخلاف بين الخليفة المستعين بالله وابن عمه المعتز بالله، وكان الصراع على أشده بين الفريقين، لذلك لم يكن من المتوقع أن تصل نجدة سريعة إلى المدينة لتدفع عنها السفاك ورجاله.

بطولات شعبـــية نادرة:

يشير المؤرخون إلى موقف، كان الأجدر بهم أن يفصلوا القول فيه، هذا الموقف هو ثبات أهل المدينة في وجه الغزاة القادمين رغم هرب أميرها وحاشيته، فقد اشتعلت الحماسة فيهم، ونظموا المقاومة، ونجحوا في صــد السفاك ومنعه من دخول المدينة.

فقد توجه السفاك بعد خمسين يوماً من استيلائه على مكة إلى المدينة المنورة، أي في أواخر شهر ربيع الثاني، والمسافة بين مكة والمدينة يقطعها المسافرون في مدة تتراوح بين الأسبوع والعشرة أيام، فيكون بذلك وصوله إلى مشارف المدينة في أوائل جمادى الأولى، وعندما وصلها وجد أهل المدينة قد حصنوها، ولا يكون تحصينها إلا بإعادة حفر الخندق، الذي حفره رسول الله ﷺ وأعيد حفره مرتين بعد ذلك، وبإقامة المدافعين على أطرافه، وكان آخر مرة حفر فيها قبل مائة عام في ثورة محمد ذي النفس الزكيه. وبناء على ماذكره ابن خلدون فقد حاصر السفاك المدينة محاصرة شديدة، وصمد أهل المدينة ونفروا جميعاً لمواجهته حتى عطلت بعض الصلوات في

المسجد النبوي، وطال الحصار على الناس وأجهدهم، ونفدت الأقوات وحصلت مجاعة ومات عدد من السكان، ومع ذلك ثبتوا على المقاومة ورفضوا الاستسلام. ونجد إشارات في كتب متفرقة إلى وقوع بعض الصدامات، وربما تمكن بعض رجال السفاك من اقتحام الخندق ومقاتلة أهل المدينة، وربما تمكنوا من دخولها بعض الوقت، فقد أشار أبو الفرج الأصفهاني في كتابه مقاتل الطالبيين، إلى أن السفاك قد قتل عدداًمن الجعفريين(١)، وهذا يبين مدى إجماع أهل المدينة على مقاومته.

ولا ندري كم عدد الذين سقطوا في القتال أو تمكن منهم السفاك ورجاله،(٢) ولنا أن نتصور كيف كانت الأمور تجري في هذه الأيام العصيبة، ومن الذي يوجهها بعد غيبة الأمير وحاشيته، والدور البطولي العظيم الذي قام به رجال مجهولون من أهل المدينة في توجيه الناس وتثبيتهم على المقاومة وإدارة شؤونهم آنئذ.

صحيح أن للمدينة موارد زراعية، ولكن المنطقة التي انحصر فيها الناس ضيقة، وليس فيها من المزارع والبساتين ما يكفي أهلها، وأغلب المزارع والبساتين تقع خارج منطقة الحصار، في متناول الغزاة، لذا كان اعتماد أهل المدينة في الحصار على الطعام المدخر، وكل يوم من الحصار ينقصه ويزيد هموم الناس وموتاهم.

وأخيراً شاء الله أن يأتي الفرج، فقد بدت طلائع العسكر قادمة من العراق، وسبقت أخبارها إلى السفاك ورجاله، فرغم الصراع المشتعل بين المستعين بالله وابن عمه المعتز بالله في بغداد، ورغم المعارك التي كانت تدور بين عساكرهما، اهتز المعتز بالله لخبر حصار المدينة، ووجه مجموعة من جيشه بقيادة محمد بن أحمد بن عيسى المنصور وعيسى بن محمد

---

١) أنظر مقاتل الطالبيين ص ٧٢٠

٢) ابن خلدون ١٢٧/٤ ـ.

المخزومي، وأسرع الجيش لملاقاة السفاك قبل أن يقتحم المدينة، وحاول السفاك ورجاله اقتحام المدينة قبل أن يصل الجيش ولكنهم فشلوا، فقد استمات أهلها في الدفاع عنها، واقترب الجيش القادم، ورأى السفاك أنه ليس في موقع يستطيع فيه مواجهته وبخاصة إذا اجتمع عليه الجيش القادم من أمامه وأهل المدينة من ورائه، فجمع رجاله ورحل بهم عن المدينة بعد أن أجهدها بالحصار والتجويع(١).

والحقيقة أن موقف أهل المدينة هذا لون من البطولات الشعبية النادرة، وكم يود المرء لو يجد في كتب المؤرخين تفصيلات لهذه البطولات، وأسماء الذين قادوا معركة الصمود ومقاومة الحصار، والذين قاموا بشؤون الناس، صحيح أن المدينة قد دفعت ثمناً غالياً لهذا الصمود والمقاومة، ثمناً من جوع أبنائها وموت بعضهم، ولكن أهل المدينة نجحوا في حمايتها من تلك الحملة الغادرة، فلا أحد يعلم إلا الله، ما الذي كان سيفعله هذا السفاك في المدينة لو نجح في اقتحامها، خاصة بعد أن قاومته وثبتت في وجهه، فلربما فاق مافعله بأهل مكه، ومما يرشح لذلك أن السفاك ورجاله قد ارتكبوا أعمالا وحشية بعد ذلك في مكة وجدة، فقد توجه إلى مكة فسارع أهل مكة لمقاومته، وفعلوا مثل مافعل أهل المدينة، وفوجئ بتحصن أهلها، وحاول اقتحامها ففشل ، فانصرف عنها إلى جدة، فأوقع فيها بلاء عظيماً وأخذ أموال التجار واستولى على البضائع والسلع القادمة بالبحر، ثم عاد برجاله إلى مكة وقد دخل شهر ذي الحجة، ووصل الجيش القادم من العراق لمحاربته وهاجمهم السفاك في عرفة، وقتل عدداً كبيراً من الطرفين، وقتل من الحجاج أكثر من ألف حاج، وتفرق الناس عن عرفة ولم يقفوا فيها في اليوم التاسع، وانتصر رجال السفاك على الجيش العباسي في تلك الموقعة ووقفوا في عرفة وحدهم، بينما انسحب الجيش العباسي شمالا، ثم نزل السفاك إلى مكة وعاث

---

١) ابن خلدون ١٢٧/٤ - الطبري ٣٤٧/٩ -.

فيها فساداً، فلما عاد الجيش العباسي خرج منها وعاد إلى جدة ثم تغلغل في ريف الحجاز، وظل الناس في مكة والمدينة يترقبون أخباره ويخشون عودته إلى أن جاءت الأخبار بإصابته بالجدري وموته في السنة التالية ٢٥٢هـ، وتحول أخيه محمد الأخيضر إلى اليمامة، فاستراحت المدينتان من شروره.(١)

سنوات من الهدوء والسكينة:

سكنت المدينة إلى الهدوء والراحة بعد تلك الفترة العصيبة وعاد إليها الأمن، وقام أهلها يصلحون ما أفسده رجال السفاك حول المدينة، فقد كانت تصرفاتهم سيئة لدرجة جعلت الطالبيين في المدينة يلتحمون ببقية السكان، ويقاومون قريبهم في النسب بصلابة، ويذكرونه وحركته من بعد بسوء، فقد كان عامة رجاله من بدو الحجاز وأعرابها والمغامرين وطالبي المال، وهؤلاء لايرعون إلا ولا ذمة.

واشتغل أهل المدينة بأمورهم اليومية، وآب إليها بعض الطالبيين الذين خرجوا في الآفاق، فوصلها من مصر عام ٢٥٦هـ إبراهيم بن محمد بن يحي بن عبد الله بن محمد بن الحنفية، الذي ثار في صعيد مصر وجمع حوله عدداً من الأشياع، ولكن ثورته فشلت، فهرب إلى مكة، فقبض عليه أميرها ثم أطلقه، فعاد مع رجاله إلى المدينة واستقر فيها إلى أن مات..

عاشت المدينة خمس عشرة سنة بعد السفاك بهدوء، وابتعدت أكثر وأكثر عن الأضواء والأحداث السياسية العنيفة، ففي هذه السنوات ضعف أمر الخليفة العباسي، واستبد القادة العسكريون بالأمور، وتكررت السنة التي سنها المتوكل في إمارة الحرمين، عندما عقد لابنه المنتصر إمارتها والمنتصر مقيم في بغداد لايخرج منها، فلم يصل إلى المدينة أمير معين من الخليفة، بل

---

١) المصادر السابقة. وأنظر الكامل ٣٢٨/٥ - والتاريخ الاسلامي ٥٩/٦ - التحفة اللطيفة ٣٢٢/١-٣٢٣ -.

أصبحت إمارتها إمارة شرف لكبار الشخصيات ثانية، وعقد الخليفة المعتمد لأخيه أبي أحمد الإمارة على الكوفة وطريق مكة والحرمين واليمن عام ٢٥٧هـ، (١)، وأناب أبو أحمد بعض رجاله لإدارة الأمور في كل من تلك المناطق، واكتفى بأن ترفع إليه حسابات الديوان، خاصة وأن أبا أحمد قد اشتغل بفتنة الزنج التي تفجرت عام ٢٥٥هـ وتفرغ لها.

كوارث طبيعية في المنطقة:

ظهرت تبديلات كبيرة في الطقس في عام ٢٥٩هـ فحدثت بعض الزلازل والعواصف الترابية الشديدة فأضرت بريف المدينة وباديتها وبخاصة بني سليم وبني هلال فهربوا إلى المدينة ومكة، وأحضروا بعضاً من متاع الحجاج الذين قطعوا عليهم الطريق، وذكروا أنه هلك منهم خلق عظيم في البادية(٢). وفي عام ٢٦٠ للهجرة وقع قحط شديد، شمل معظم العراق والشام وخراسان ومصر والحجاز، وكان فضل الله على المدينة أن القحط فيها أقل من غيرها فلجأ إليها كثير من أهل مكة وأهل المناطق المجاورة وظلوا فيها بقية العام(٣) وفي الوقت نفسه كانت الفتن مستعرة في الكوفة والبصرة والأهواز وسبخات العراق وخراسان والبحرين، وقد أثرت هذه الفتن على الحالة الاقتصادية فاضطربت طرق التجارة وقلت القوافل المنتقلة بين البلدان خشية أن تقع ضحية الثائرين أو المقاتلين، وبلغت الضائقة ذروتها عامي ٢٥٩ و ٢٦٠ للهجرة، حيث أصاب الناس قحط شديد فاجتمع القحط مع آثار الفتن فازداد الوضع سوءاً.

ولم يذكر المؤرخون أسماء الذين تولوا إدارة المدينة في هذه الفترة بعد أن عقدت إمارتها لأبي أحمد شقيق الخليفة، وكان أبو أحمد قد أناب عليها

---

١) الطبري ٩/٤٧٦ -.

٢) اليعقوبي ٢/٥١١

٣) الطبري ٩/٥١٠ -.

بعض أهلها من الطالبيين.

وعندما نصل إلى عام ٢٦٦هـ يذكر المؤرخون أن القيم بأمر المدينة هو إسحق بن محمد بن يوسف الجعفري، والقيم رتبة دون الإمارة، ولايته إدارية ومالية وليست سياسية، ولاندري هل كان إسحق هو القيم في المدة الماضية منذ أن عقدت الولاية لأبي أحمد أم كان غيره.

صراع بين الطالبيين في المدينة:

مر بنا أن المنافسة بين الطالبيين في المدينة بدأت منذ العهد الأموي، وأن بعض الولاة قد عملوا على إذكائها، ولكن المصائب المتوالية عليهم أخمدتها، وخبأتها تحت الرماد إلى أن تحين فرصتها ومنذ بداية العصر العباسي توزع الطالبيون بين الولاء للعباسيين والثورة عليهم.

وعندما سيطر العسكريون على أمور الخلافة في بغداد، كثر الخارجون على الدولة، وتشجع عدد من الطالبيين في الحجاز والعراق وخراسان ومصر والمغرب على الثورة، ونجح بعضهم في إقامة إمارة أو دولة مستقلة وأخفق بعضهم الآخر.

أما الذين استوطنوا المدينة فكان أغلبهم موالين للخلافة العباسية -وقد بدا هذا الولاء في مناسبات عدة منذ ثورة محمد المهدي عام ١٤٥هـ- إلى محاصرة السفاك للمدينة عام ٢٥١هـ..

وكان للطالبيين أموال كثيرة في المدينة وما حولها، وكان بعضها موضع نزاع تاريخي بين فروعهم، وهي الأملاك التي أوقفها علي بن أبي طالب في أطراف المدينة وينبع وفدك لذريته، فاختلف فيها أحفاد الحسن وأحفاد الحسين، وكان الخلاف يقوم على ولايتها..

ويبدو أن عدم وجود أمير قوي في المدينة، قد أتاح المجال لهذا الصراع أن يظهر على السطح ثانية، وزاد من فرصة ظهوره اعتماد العباسيين على أحد الفروع الطالبية دون الفروع الأخرى لبعض الوقت، فكان هؤلاء يجدون

الفرصة لتقوية مواقفهم أو عزل منافسيهم عن ولاية بعض الأوقاف الذرية، فلما كان عام ٢٦٦هـ بلغ الصراع ذروته الأولى ووصل إلى مرحلة القتال. ولا نجد سبباً مباشراً لتفجير الصراع.. بل نجد أن كلا من الفريقين كان ينتظر الفرصة السانحة ليثب على الفريق الآخر.. وقد سنحت لأحدهما في هذه السنة..

ففي هذه السنة - كما يذكر الطبري-(١) كان القيم على أمر المدينة من الحسنيين (إسحق بن محمد بن يوسف) وكان قد وزع إخوته ومواليه على الإدارات والأعمال التابعة له، فولى على وادي القرى رجلا لم يذكر المؤرخون اسمه، وكان للحسنيين فيها ممتلكات قيمة، وفيها إخوان لإسحق. وثار أهل وادي القرى على عامل إسحق.. فقتلوه وقتلوا أخوي اسحق، فغضب إسحق وخرج بنفسه على رأس قوة إلى وادي القرى لتأديب أهلها.. وخلف أخاه موسى بن محمد بن يوسف الجعفري نائباً عنه، ولكن المنية عاجلته ومات في الطريق، فقام موسى بأمره ونصب نفسه مكان أخيه وكتب إلى بغداد طالباً تثبيته في المنصب..

وهنا وجد بعض الطالبيين الفرصة سانحة للاستئثار بالسلطة -فليس لدى موسى بن محمد قوة كبيرة تسانده، لذلك سارع أحد المتطلعين إلى السلطة، وهو حسني أيضاً، واسمه الحسن بن موسى بن جعفر، فأعلن العصيان، وحاول انتزاع الإمارة من موسى بن محمد، ولكن موسى فاوضه على التخلي عن ثورته، وكانت طموحات الحسن هذا صغيرة.. فرضي بالتخلي عن الثورة لقاء ثمانمائة دينار..

ولم تكن هذه الفرصة لتفوت أبناء الفرع الحسيني، لذلك سارع أبو القاسم أحمد بن اسماعيل بن الحسن بن زيد الحسيني. إلى جمع رجاله ومهاجمة موسى بن محمد في دار الإمارة.. وقد شجع أبا القاسم على

---

١) انظر: الطبري ٥٥٢/٩

الخروج أن ابن عمه الحسن بن زيد قد ثار في طبرستان واستطاع أن ينتزعها من أميرها العباسي ويقيم فيها إمارة مستقلة، واستطاع أبو القاسم أن يتغلب على رجال موسى بن محمد القليلين وأن يقتله ويتسلم إدارة الإمارة..

وقد استعان أبو القاسم هذا بابن أخيه أحمد بن محمد بن إسماعيل بن الحسن بن زيد في ضبط أمور المدينة، وكان خارج المدينة فاستقدمه وولاه أمنها وجندها، فضبط أحمد أمورها بحزم وحكمة..

وقد أثرت هذه الصراعات بين الطالبيين على سوق المدينة فانحرفت عنها القوافل وأمسك التجار عن استخدام ميناء الجار خوفاً من أن تنهب بضائعهم، فقلت السلع وغلت الأسعار وتضايق الناس. ورأى أحمد بن محمد أن الحل لايكون إلا بإقناع التجار بإرسال البضائع والقوافل إلى المدينة، وتأمين الطريق والسوق ونشر الجند فيها لحمايتها، ففعل ذلك، وأرسل رسله إلى التجار في ميناء الجار يتعهد لهم بضمان سلامة قوافلهم وبضائعهم وبحراستها في المدينة، فوثق به التجار، وبدءوا بإرسال البضائع إلى المدينة، فرخصت الأسعار وعادت الحياة إلى مجراها الطبيعي.

وتوزع أقرباء أبي القاسم الأعمال والإدارات فصار الحكم والسلطان في المدينة للحسينيين، وانكسر الحسنيون بعد مقتل موسى، وخرج بعضهم من المدينة، وكمن بعضهم الآخر يتربص الفرصة للثأر واستعادة السلطة..

وفي بغداد كان الخليفة المعتمد مشغولاً بمواجهة الفتن الكثيرة، وبخاصة فتنة الزنج ، فطلب من أخيه أبي أحمد، الذي ولاه إمرة الحرمين، أن يتفرغ نهائياً لقتالهم، وكان أبو أحمد قد سافر إلى مكة فاستقدمه منها وعقد ولاية الحرمين لمحمد بن أبي الساج، وأمره بالتوجه إليها.

جاء محمد بن أبي الساج في أواخر عام ٢٦٦هـ، ورأى الأمور في يد الحسينيين فتسلمها منهم، وأقام في مكة، ووضع نائباً عنه في المدينة اسمه الحارث بن سعد، فقام الحارث بجهود ضخمة لضبط الأمن في المدينة

وضواحيها، والقبض على المفسدين، وكان بعض الطالبيين الذين لم تتح لهم فرصة المشاركة في الإدارة قد ثار، وبدأ يغير على القوافل والمسافرين، فتتبعهم الحارث أيضاً، وقبض على محمد بن الحسن بن محمد بن إبراهيم في ميناء الجار وحبسه حتى مات، وكان محمد هذا من المجاهرين بالمنكرات والقتل (١). وقبض على أحمد بن يحيى بن عبد الله بن الحسن بن الحسن وحبسه في دار الإمارة بالمدينة حتى مات(٢)، ونجح الحارث في توفير الأمن والأمان مدة ولايته على المدينة، واختفت الصراعات بين الطالبيين إلى حين.

وفي عام ٢٦٩ هـ عين الفضل بن العباس العباسي نائباً عن ابن أبي الساج في إدارة المدينة فتفجرت الصراعات بين الطالبيين مرة ثانية، لأن الفضل بن العباس انحاز إلى الحسـنيين، واصطدم مع الحسـينيين..

ويلوح لنا من الإشارات القليلة أن الحسينيين قد تورطوا في خلاف مع نائب المدينة الفضل بن العباس العباسي في سنة ٢٦٩هـ وأن أمراً قد زاد من حدة الخلاف بينهم وبين أبناء عمومتهم، ووقع الصدام، وحاول الحسينيون السيطرة على المدينة كلها، وتم لهم ذلك أول الأمر، وقبضوا على نائب الأمير الفضل بن العباس العباسي ولكن الحسنيين قاوموهم بشدة، ثم حملوا عليهم حملة قوية. وسقط عدد كبير من القتلى، عد الأصفهاني منهم ثمانية عشر حسنياً، ثمانية منهم قتلوا دفعة واحدة على يد محمد بن الحسن بن جعفر بن موسى، وتسعة عشر حسينياً (٣). وانتصرالحسـنيون آخر الأمر، وأنقذوا الفضل بن العباس. ونزح عدد من الحسينيين من المدينة(٤).

لم تستقر الأوضاع في المدينة بعد انتصار الحسنيين، وأخذ الحسينيون

---

١) ابن خلدون ٤ / ١٤٥ -
٢) مقاتل الطالبيين ص ٦٧٣
٣) أنظر مقاتل الطالبيين ٧١٦ - ٧١٩ -
٤) الطبري ٦/٦٢١-.

يترقبون فرصة لينتقموا منهم، وبدت آثار هذا الترقب في حياة المدينة المنورة، فقد هجرها عدد من أهلها خشية تفاقم الفتنة، وكان كثير من الطالبيين الذين نذروا أنفسهم للعلم والعبادة يكرهون مايحدث على أيدي سفهائهم، فخرج بعضهم، واعتزل بعضهم الآخر الناس ، يمضي جل نهاره بين بيته والمسجد النبوي.

طالبيون منحرفون يقلقون المدينة :

قدر للمدينة أن تشهد أحداثاً مفجعة أخرى على يد أناس قادمين من خارجها.. فمنذ حركة محمد المهدي كان عدد من الطالبيين يخرج إلى ريف الحجاز، ويوغل بعضهم فيه إيثاراً للسلامة وتجنباً للصدام مع العباسيين، وقد ظل محمد وإبراهيم ابنا عبد الله بن الحسن بن الحسن عشر سنوات في ذلك الريف لاتصل إليهم يد الدولة، وخرج أخوهم موسى الجون بعدهما، وعدد من أبنائهم في الأجيال التالية، وعاشوا في تلك المناطق..

وبمرور الزمن ظهر بعض الطالبيين المختلفين عن أسلافهم في سلوكهم، وانحرف عدد منهم لأسباب كثيرة متداخلة منها: تأثرهم بالبيئة البدوية القاسية، وإحساسهم بعراقة النسب إحساسا خاطئاً يدفعهم إلى الإستعلاء والمطالبة بالسيادة المطلقة، وحقدهم على العباسيين لأنهم -في نظرهم- اغتصبوا حقهم المطلق في الخلافة، وقلة العلم، وخاصة العلم الشرعي الذي يعطيهم مقاييس التمييز الصحيح بين الحلال والحرام، والخطأ والصواب، وقد ارتكب هؤلاء المنحرفون جرائم فاحشة، فقتلوا وسلبوا وأقلقوا المدينة، وآذوا أهلها، وسفكوا فيها الدماء، ونهبوا الأموال، وأمعن بعضهم في الفساد فطاردتهم القبائل المحيطة بالمدينة ، كقبائل بني مالك الجهنية، وطيئ وسالم

وقتلت عدداً منهم(١).

ومن أولئك المنحرفين محمد بن صالح بن عبد الله بن موسى بن عبد الله بن الحسن الذي تحول إلى قاطع طريق، يتربص بالقوافل المتجه إلى المدينة والخارجة منها، وبالحجاج والمسافرين، وقد هاجم مع رجاله المدينة ونهبوا بعض الأموال والأرزاق وأخافوا الناس حتى تعطلت الصلوات في المسجد النبوي(٢).

ومنهم السفاك الذي سفك الدماء في مكة والمدينة وحاربه أهل المدينة، وفي مقدمتهم الهاشميون المقيمون في المدينة، وقَتل السفاك ـكما رأيناـ عدداً من الهاشميين، فلم تعد القضية قضية ثورة ومبادئ لدى هؤلاء بل أصبحت انحرافاً وجريمة.

ومنهم أيضا محمد وعلي ابنا الحسين بن جعفر بن موسى بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب، اللذين فجعت بهما المدينة في شهر صفر من عام ٢٧١هـ فقد فاجآها ومعهما عدد كبير من أتباعهما، وكانت المدينة تعيش جو التوتر، وتتوقع الصدام بين الحسينيين والحسنيين، ولم تكن للإمارة قوة قادرة على ضبط الأمن، لذا دخلت جموع الغزاه شوارع المدينة بأسلحتها، وبدأت ببيوت الطالبيين، فنهبتها، وقتلت عددا من أصحابها، ثم تحولت إلى بيوت بعض الموسرين فنهبتها، وقصدت الإمارة وقتلت الجنود الذين حاولوا الدفاع عنها، ونهبت الأموال التي وجدتها، ولم يجرؤ أحد على التصدي لهم لما رأوه من سفكهم للدماء، وهرب الأمير الفضل بن العباس، ولزم الناس بيوتهم، وأغلقت الأسواق والدكاكين بعدما نهب الغزاة عدداً منها.

انتشر الفزع في أهل المدينة، وخلت الشوارع والأسواق، وانقطعت الصلاة

---

١) انظر مقاتل الطالبيين ص ٧٠٦ ، ٧٠٧ ، ٧٠٨.

٢) أنظر : مقاتل الطالبيين ٦٠٥ وابن خلدون ١٤٥/٤.

في المسجد النبوي، حتى صلاة الجمعة التي كان الساكنون في ضواحي المدينة كقباء والقبلتين يحضرونها انقطعت أيضاً، وظل الغزاة يجوبون شوارع المدينة ويعيثون فساداً أربعة أسابيع متوالية، وساد المدينة جو من الإرهاب، وخرج منها عدد من أهلها إلى أقاربهم في الأرياف والمدن الأخرى، فلم يحدث في تاريخها أن استمر الإرهاب فيها وعطلت الصلاة في المسجد النبوي كل تلك المدة الطويلة.

وأخيراً خرج الغزاة حاملين معهم مانهبوه تتبعهم لعنات أهل المدينة(١) ولم يذكر المؤرخون عدد الضحايا الذين أزهقت أرواحهم، ولا حجم الخسائر التي مني بها أهل المدينة، ولكننا نستنتج من حالة الذعر التي صوروها، وإحجام أهل المدينة عن المقاومة، أن عدد الضحايا كان كبيرا، وأن الخسائر كانت ضخمة.

والمدهش ألا يهب أحد من خارج المدينة لنصرتها، مع أن الغزاة مكثوا فيها أربعة أسابيع، وهي مدة كافية لانتشار الخبر ووصوله إلى مكة وبغداد، ورغم خروج الغزاة من المدينة وعودة أميرها إليها فقد ظل أهلها خائفين من عودتهم، أو ظهور غزاة آخرين.

استمر الأمر على هذا الحال إلى شهر رمضان من العام نفسه، حيث وصلت الأخبار أن الخليفة عقد الولاية لأحمد بن محمد الطائي على مكة والمدينة والطريق من بغداد إليهما، ليعيد الأمن إلى هذه المنطقة، بعد ماعاث المفسدون فيها، وأصبح الحجاج والمسافرون والقوافل في خطر شديد..

الأمن يعود الى المدينة:

وجاء أحمد بن محمد الطائي إلى المدينة أواخر رمضان عام ٢٧١هـ، ومعه حملة كبيرة، ووزع الجند في أطراف المدينة لمراقبة المفسدين وضربهم أول تحركهم، وبث العيون لرصد المنحرفين والمفسدين خارج المدينة ومعرفة

---

١) الكامل ٦/٥٧-.

أماكن تجمعهم، ثم خرج بعدد كبير من جنوده اليهم، وعثر على بعضهم فقتلهم شر قتلة، وفر الباقون إلى البادية، وأرسل جنوده على امتداد الطريق بين مكة والمدينة وطريق بغداد، فضرب القبائل التي تعرضت للحجاج والقوافل، ونظم سير القوافل الحجاج والمسافرين، وكلف مجموعات من جنوده بمرافقتهم إلى المدينة ومكة، واستمر جنوده في حركة دائبة طوال أشهر قدوم الحجاج وعودتهم.

ودخلت السنة الثالثة والسبعون بعد المائتين والمدينة المنورة تنعم بالأمن والطمأنينة، وعاد الذين رحلوا منها في فترة القلق إليها، وصلح أمر المدينة وعمرت(١).

وخلف الطائي هارون بن محمد الهاشمي، الذي سار على نهج سلفه، وامتدت إمارته من ٢٧٦ الى ٢٧٩هـ وشملت منطقة الحجاز كلها، حيث ضمت إليه مكة والطائف، وكان يقود مواسم الحج، ويكثر الإقامة في مكة، وينيب عنه في إمارة المدينة المنورة أحد موظفيه من الحسينيين المقيمين فيها، وشهدت هذه الفترة وفرة في الأموال، فالاستقرار الذي تحقق أتاح للناس تنشيط أعمالهم الزراعية والتجارية والصناعية، والقوافل التي أصبحت طرقها آمنة توالت على المنطقة تحمل منها وإليها البضائع المختلفة، وظهر مصدر دخل خارجي جديد يشبه عطاءات الخلفاء قديماً، هذا المصدر هو الإمارات العلوية البعيدة، فقد تمكن بعض الطالبيين الذين فر أجدادهم من العباسيين من إقامة إمارات في طبرستان والمغرب، وقويت تلك الإمارات وبدأت تتسع في المناطق المجاورة لها، وعندما تمكن الملك فيها للعلويين بدؤوا يرسلون الأموال لأقربائهم في المدينة، وراسلوهم واستقدموا بعضهم فرحل إليهم من رحل،

---

١) أنظر الطبري ١١/١٠-

ومن بقي في المدينة وصلته الهدايا والأموال مع الحجاج والمسافرين(١) فتكاملت عوامل الإستقرار والطمأنينة في حياة المدينة المنورة في تلك الفترة، أمن داخلي، وأموال وافرة، وسنوات خصبة.

وتزداد قيمة هذا الاستقرار إذا قارنا المدينة بما حولها في ذلك الوقت، ففي الوقت الذي كانت المدينة تنعم فيه بالاستقرار كان القرامطة يعيثون فساداً في نجد والأحساء، وتصل غاراتهم إلى البصرة والكوفة، حتى إن القوافل كانت تعدل إلى المدينة لأن طريقها أكثر أمناً من طريق الكوفة - مكة(٢)..

المدينة المنورة والطولونيون : أول ارتباط بمصر:

قامت الدولة الطولونية في مصر، على يد مؤسسها أحمد بن طولون، ففي عام ٢٥٦هـ عقد الخليفة المعتمد ولاية مصر لأحد قادته العسكريين الكبار ويدعى بارجوخ، المقيم معه في بغداد، فأناب بارجوخ صهره أحمد بن طولون للقيام بالولاية، فقام بها، وقويت سلطته، وفي عام ٢٥٩ توفي بارجوخ وكانت مصر مستقرة بيد ابن طولون فثبته الخليفة والياً عليها، وفي عام ٢٦٩ حاول الخليفة -بضغط من أخيه الموفق- أن يخلع ابن طولون، فامتنع ابن طولون وأرسل جيوشه لقتال أنصار العباسيين في بلاد الشام، كما أرسل جيشاً إلى الحجاز لينتزعها من العباسيين، واتجه الجيش الطولوني إلى مكة واصطدم مع القوات العباسية في موسم الحج وهزم، وعادت فلوله إلى مصر بعد أن دفعت مئتي ألف دينار لعساكر العباسيين، ولم يمر الجيش الطولوني بالمدينة(٣) وحاول ابن طولون بعد ذلك أن يمد نفوذه إلى المدينة ومكة ولكنه لم يوفق، وخلفه ابنه خمارويه الذي أصلح العلاقة مع العباسيين، وزوج ابنته قطر الندى

---

١) الكامل ٦/٨٠ -.

٢) الكامل ٦/١١٦ -.

٣) الكامل ٦/٤٩ -.

للخليفة المعتضد بالله، فعقد له المعتضد بالله الولاية على المنطقة الممتدة من شاطئ الفرات إلى برقة في ليبيا، وتشمل هذه المنطقة بلاد الشام والحجاز ومصر وجزءاً من ليبيا، فدخلت المدينة -فيما دخل- في سلطة الدولة الطولونية، وذلك عام ٢٧٩هـ(١).

وكانت سلطة الطولونيين على الحجاز اسمية لاتتعدى الخطبة على المنابر، أي ذكر الأمراء الطولونيين والدعاء لهم بعد ذكر الخليفة العباسي.. ولم يكن لهم جيش في المنطقة، ولم يكونوا يعينون أمراء المدن، فقد شغل خمارويه بحروبه حتى وفاته عام ٢٨٢هـ، وخلفه ثلاثة من أبنائه على امتداد عشر سنوات تالية مليئة بالمشاحنات والقتال، وانتهى أمر الدولة الطولونية عام ٢٩٢هـ(٢).

لذا لم يتغير شئ في حياة المدينة المنورة طوال ولائها الاسمي للطولونيين، وظل أمراؤها المحليون يديرون أمورها. والشئ الوحيد الذي جد فيها -إضافة الى ذكر إسم الطولونيين على المنابر- هو الأموال التي أرسلها خمارويه مع وفود الحج لتوزع على أهالي الحرمين، لذا فقد سارت الحياة في المدينة هادئة، بسيطة إلى نهاية القرن الثالث الهجري، وكما دخلت المدينة في ولاء الطولونيين بهدوء، خرجت بهدوء مماثل عندما انتهت الدولة الطولونية، فقطعت الخطبة لهم على المنابر، ولم يعد الخطيب يذكر أسماء أمرائهم..

ولم يترك الطولونيون أي أثر يذكر في حياة المدينة المنورة، رغم أن العلاقة معهم هي أول علاقة رسمية بمصر، ومقدمة لارتباط سيقوم بعد ذلك ويستمر طويلا على نحو ما سنرى في صفحات قادمة..

---

١) أنظر الكامل ٧٣/٦ - ٧٥ -.

٢) انظر : شاكر ١٠٥/٦-

سنوات الوفاق بين الطالبيين:

والجدير بالذكر أن الخلافات التي استمرت بين الحسنيين والحسينيين في النصف الأول من هذا القرن قد هدأت في الفترة الطولونية، واستمرت هادئة بعدها أكثر من عقدين من الزمن..

فقد توصل الفرعان الطالبيان المتنافسان الى مهادنة حقنت الدماء وحفظت للمدينة أمنها واستقرارها، ويذكر ابن خلدون أنه عندما دخلت المئة الرابعة للهجرة كانت الخطبة بالمدينة للخليفة العباسي المقتدر، وكانت الرئاسة فيها تتردد بين بني حسين وبني جعفر (بني حسن)(١) وأكبر الظن أنه كانت للخلافة العباسية أثر في هذا الوفاق، أو على الأقل في تثبيته واستمراره، فالخليفة المقتدر الذي تولى الخلافة ربع قرن من الزمن من ٢٩٥-٣٢٠هـ كان يحسن إلى الطالبيين ويقربهم، وقد نظمت في عهده أمورهم، وصار لهم نقيب يحضر، مع كبار الطالبيين في بغداد، مجالس الخليفة، ويشهد التولية والعزل، وصارت لهم كلمة مسموعة واحترام كبير، ولا نستبعد أن يتدخل رجال الخليفة والمتنفذون في بغداد، ولاسيما الطالبيون، في تنظيم أمور الطالبيين في المدينة، ومناوبة الرئاسة بينهم وتوزع الوظائف عليهم.. وقد لقيت المدينة طوال عهد المقتدر عناية حسنة، ووصلتها أموال وافرة وزعت على أهاليها، وأوقفت لها عقارات وضياع كثيرة(٢).

المدينة واحة الأمن:

وبينما كانت الأحداث الدامية تعصف بمناطق من الحجاز ونجد والعراق والشام، كانت المدينة واحة الأمن والسكينة حتى القرن الرابع الهجري..

ففي مكة ثار محمد بن سليمان بن داود بن حسن بن الحسن بن علي وخلع طاعة العباسيين وأنشأ الدولة الهاشمية الأولى..

---

١) ابن خلدون ٤/١٣٩-

٢) انظر : البداية والنهاية ١١/١٣١-

وفي نجد والاحساء والبحرين كان القرامطة يعيثون فساداً ويغيرون على القوافل والقرى الآمنة ويقتلون ويسلبون، وقد زحفوا إلى مكة، ثم دخلوها عام ٣١٧هـ وسفكوا الدماء وقتلوا الحجاج في المسجد الحرام، وقبضوا على الأمير الهاشمي وحاشيته وقتلوهم خارج مكة وأنهوا الدولة الناشئة..

وفي المنطقة بين مكة والمدينة كان بنو سليم وبنو هلال يغيرون على القوافل وبعض القرى ينهبون ويقتلون، لكنهم لم يدخلوا المدينة..

ونجد في بعض الكتب التاريخية إشارة الى ثورة رجل علوي في المدينة عام ٣٢٩هـ فقد..((خرج الناس للحج ثم رجعوا أثناء الطريق، بسبب رجل من العلويين قد خرج بالمدينة وخرج عن الطاعة))(١). وهذه الاشارة الضنينة تزيدنا بلبلة، فمن هو العلوي الثائر في المدينة؟ ولماذا أغفل المؤرخون اسمه؟ وما حجم ثورته؟؟ ولم امتنع الناس عن الحج والثورة في المدينة؟ هل امتد سلطانه فشمل المدينة ومكة؟ ثم ان مكة والمدينة شهدتا ثائرين كثيرين من قبل ولم ينقطع الحج أيام ثورتهم، فما الجديد في هذا الثائر؟ ومتى انتهت ثورته؟ وكيف انتهت؟

أسئلة كثيرة لاإجابة لها، تجعلنا نشك في صحة الخبر، ونعتقد أن الأمر قد اختلط على رواته الأوائل قبل أن يصل الى المؤرخين الكبار، فخلطوا بين القرامطة والثائر العلوي، وبين المدينة وطريق المدينة..

فالثابت أن المسلمين في الآفاق قد انقطعوا عن الحج عدة سنوات بعد المجزرة الرهيبة التي ارتكبها القرامطة في المسجد الحرام عام ٣١٧هـ، وأن القرامطة دأبوا على قطع الطريق قبل ذلك وبعده، والراجح أن مجموعة منهم هددت الطريق المؤدية إلى مكة من أكثر من جهة في ذلك العام، وبخاصة من جهة طريق المدينة.. فعاد الذين خرجوا إلى الحج لما وصلتهم الأخبار. وليس لدينا أي خبر يقيني عن قيام ثورة في المدينة أو دخول القرامطة إليها سنة

---

١) الكامل ٢٨١/٦ - البداية والنهاية ٢١٣/١١-

٣٢٩هـ. وقد سكت المؤرخون عن تلك الفترة في حياة المدينة، ولم يذكروا شيئاً عنها، حتى أسماء أمرائها أو القائمين بإدارتها لانعرف شيئاً عنهم، وليس لنا سوى أن نتوقع استمرار الأمر على ماكان عليه في العقدين السابقين، فلم تتعرض المدينة لهجمات القرامطة، ولا للصراع المستمر بين المتنفذين والطامعين في الامارات في مكة والشام ومصر واليمن، وكانت الأسرتان المتنافستان على السلطة في المدينة -الحسينيون والحسنيون- في هدنة مستمرة أيضاً، تتناوبان على الوظائف -كما أشار ابن خلدون- وتنمو المنافسة بينهم تحت الرماد إلى أن تصل لحظة الانفجار كما سنرى بعد قليل.

المدينة المنورة والدولة الاخشيدية:

في بداية العقد الرابع من القرن الهجري الرابع دخلت المدينة المنورة في سلطة الدولة الاخشيدية وذلك عام ٣٣٠هـ، وكان دخولها هذا بداية مرحلة جديدة في حياة المدينة، مرحلة صراع بين الخلافة العباسية ومنازعيها، ينتقل فيها ولاء المدينة المنورة ومكة المكرمة من جهة إلى أخرى أكثر من مرة، وكانت سلطة الأخشيديين على الحجاز اسمية لاتتعدى ذكر اسم الحاكم الأخشيدي على المنابر بعد اسم الخليفة والدعاء له، وظلت هذه السلطة الاسمية إلى نهاية الدولة الاخشيدية عام ٣٥٧هـ، وقابل الاخشيديون هذا الولاء الاسمي بأموال وافرة أرسلوها الى أمراء المدينة.(١).

---

١) تنسب الدولة الاخشيدية لمؤسسها الأخشيد محمد بن طفج أحد القادة العسكريين في الجيش العباسي ، كلف بملاحقة القبائل التي تتعرض للحجاج القادمين من العراق والشام ، ولاسيما قبائل لخم وجذام ، فقام بمهمته خير قيام ، واشتهر أمره . ولما هدد الفاطميون مصر عام ٣٢١ هـ أرسل لصدهم ، فاستمر هناك الى عام ٣٢٤ هـ ونجح في مهمته أيضاً ، وكافأه الخليفة بولاية مصر والشام ، ودعي له على منابرها ، ونجح في ضبط أمور مصر المضطربة. وفي عام ٣٢٨ هـ غضب عليه الخليفة ، وأرسل جيشاً بقيادة ابن رائق لإخراجه ، فتصدى له الأخشيد بجيشه ، ووقعت معركة عند العريش وانهزم جيش ابن

وفي عهد كافور الاخشيدي قويت العلاقة بين المدينة ومصر، بسبب أحد الحسينيين المقيمين في مصر وهو محمد بن عبد الله بن طاهر بن يحي بن الحسن الملقب بمسلم، وكان محمد هذا صديقاً لكافور، وكان يدبر أمره، ولم يكن بمصر لعصره أوجه منه(١) واستطاع أن يضاعف اهتمام كافور بالمدينة ويزيد عطاياه لأهلها، وباستثناء الولاء الاسمي والأموال الاخشيدية لانجد اية أثار أخرى لارتباط المدينة المنورة بالدولة الاخشيدية، فلاهم يعينون أمراءها، ولا يتدخلون في شيء من شؤونها، وعندما انفجر الصراع فيها بين الحسينيين والحسنيين لم يستطع الاخشيديون أن يفعلوا شيئاً، وانتهت العلاقة بين المدينة والاخشيدين بهدوء كامل مثلما بدأت، فقطع ذكرهم على المنابر بعد سقوط دولتهم عام ٣٥٧هـ..

انفجار الصراع بين الحسينيين والحسنيين في المدينة:

كان التنافس بين الفرعين الطالبيين: الحسينيين والحسنيين ينمو شيئاً فشيئاً منذ العصر الأموي، وقد بدأ بالخلاف على إدارة الأملاك الموقوفة لذرية علي بن أبي طالب رضي الله عنه، والتي يشترك فيها الفرعان، وكاد الصدام أن يقع في إمارة محمد بن هشام بن اسماعيل لولا أن عبد الله بن الحسن بن الحسن أدرك أن الأمير آنئذ يعمل على تأجيج الصراع لإشغال الفرعين الطالبين ببعضهما وصرفهما عن التفكير بالخلافة، فتصالح مع أبناء عمه..

وقد مر الفرعان الطالبيان بعد ذلك بمحن كثيرة، وقتل عدد من رجالهما

رائق ، وظل الأخشيد حاكماً لمصر وحكم ابن رائق الشام ، ووقع صدام أخر عام ٣٣٠ هـ قتل فيه ابن رائق واستعاد الأخشيد الشام ، واضطر الخليفة للاعتراف بالامر الواقع وتثبيت الأخشيد والياً على مصر والشام وضم إليه الحجاز ، كانت سلطة الأخشيد على مصر والشام فعلية ، وكانَ يعين نوابه لادارة مدنها ، أما الحجاز فكانت سلطته عليها اسمية . أنظر محمود شاكر ١٣٨/٣ - ١٤٠ ، والكامل ٢٨٤/٦

١) ابن خلدون ١٤٠/٤-.

في ثورة محمد المهدي وأخيه ابراهيم وبعض أحفاده، وكانت إصابات الحسينين أكثر من اصابات الحسنيين لأنهم كانوا يتزعمون الخروج والثورة غالباً، وقد ساعدت هذه المحن الفرعين الطالبيين على تجاوز خلافاتهما مدة من الزمن..

وعندما عمت السكينة المدينة المنورة ظهرت الخلافات ثانية، وتجاوزت التنافس على ادارة أملاك الوقف إلى التنافس على السيادة، فقد شغلت الخلافة العباسية بالصراعات الكثيرة بين العسكريين عن أمر المدينة، وأصبحت السيادة فيها قضية يتجاذبها الحسينون والحسينيون، معتمدين على قوتهم حيناً، وعلى دعم بعض رجال الخليفة في بغداد حيناً آخر، ونجح رجال الخليفة الواثق في توزيع السيادة بين الطرفين مدة من الوقت ، بعد أن نجحوا في تنظيم أمور الأشراف ونقابتهم، وظل الوفاق بين الطرفين أكثر من عشرين سنة بعد الخليفة الواثق..

وعندما بدأت السيادة الاسمية للاخشيديين على المدينة المنورة عاد الاضطراب بين الحسنيين والحسينين، وكان محمد بن عبد الله بن طاهر المقرب من كافور حسينياً، فاستشعر الحسينيون بعض القوة، وربما خص فرعه بمزيد من الأموال فتعززوا بها.

واشتد الاضطراب وتحول إلى صدامات متفرقة هيأت للانفجار الكبير والحرب الدامية بين الفرعين الطالبيين عام ٣٤٨هـ. ومن المؤسف أن المؤرخين لم يسجلوا أحداث هذه الحرب، ولا أسبابها المباشرة، بل لانجد أية إشارة إليها عند ابن كثير وابن الأثير أعرق من أرخ لهذه الفترة، إنما نجد اشارات مقتضبة في تاريخ ابن خلدون والمقريزي..

أما ابن خلدون فإشارته أقرب إلى الابهام، فهو يقول في إيجاز شديد خلال حديثه عن أحداث المئة الرابعة للهجرة:

(ترددت ولاية بني العباس عليها (أي المدينة) والرياسة فيها بين بني

حسين وبني جعفر (أي بني الحسن)، إلى أن أخرجهم بنو حسين، فسكنوا بين مكة والمدينة، ثم أجلاهم بنو حرب من زبيد إلى القرى والحصون، وأجازوهم إلى الصعيد، فهم هنالك إلى اليوم، وبقي بنو حسين بالمدينة إلى أن جاءهم طاهر بن مسلم من مصر) (١).

وأما المقريزي فيذكر أن المعز لدين الله الفاطمي عندما كان في المغرب علم بالفتنة التي وقعت بين العلويين والجعفريين (الحسينيين والحسنيين)، فأنفذ رجالاً ومالاً سراً، وسعوا بين الطائفتين فأصلحوا بينهما وتحملوا الحمالات عنهم، ويذكر أن قتلى العلويين زادوا عن قتلى الجعفريين سبعين رجلاً، فتحمل المعز دياتهم، وعقد الصلح، ويؤرخ لهذه الواقعة بعام ٣٤٨هـ(٢)

ولئن كان قتلى الحسينين أكثر من قتلى الجعفريين بسبعين رجلاً، فكم كانت حصيلة الموقعة من الطرفين؟؟ وكيف انتصر الحسينيون آخر الأمر؟ وهل أخرجوا الحسنيين قبل الصلح ولم يسمحوا لهم بالعودة بعد ذلك أم حدثت موقعة تالية كانت الفاصلة؟؟، أسئلة كثيرة مازلنا ننتظر اجابتها من صفحات التاريخ المطوية في مخطوطات لم تحقق بعد...

والى ذلك الحين يمكنا أن نرسم صورة ظنية، نلتقط أجزاءها من الاشارات المتناثرة، ونصل بينها بما يقبله العقل والمنطق..

فالمتوقع أن الخلافات بين الفرعين الطالبيين بلغت ذروتها في ذلك العام، وتحولت إلى صدام دموي، سقط فيه عدد كبير من القتلى لايقل عن مئتي قتيل، أكثرهم من الحسينين، ولكن الحسينيين تغلبوا على الحسنيين آخر الأمر وأجلوهم عن المدينة، وربما استعدوا للفتك بهم والثأر لقتلاهم الكثيريين، غير أن رسل المعز لدين الله الفاطمي جاءت من المغرب، وسعت

---

١) ابن خلدون ١٣٩/٤-

٢) انظر : اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الحنفا ١٠١/١

بين الفريقين بالصلح، فوافق الحسينيون على أخذ ديات القتلى، ولم يرجع الحسنيون إلى المدينة، وطبيعي أن معركة يسقط فيها هذا العدد الكبير من الرجال ستخلف بالمدينة دماراً كبيراً.

وقد امتدت شرارة الفتنة إلى مكة، فاصطدم الحسنيون والحسينيون المقيمون فيها، ووقع عدد من الضحايا لانعرف عددهم (١) واستطاع الفاطميون أن يطفئوها كما أطفؤها في المدينة، وكان للتدخل الفاطمي أثر كبير في نفوس الطالبيين في مكة والمدينة فقد قارب بينهما، وهيأ الطالبيين للارتباط بالفاطميين بعد ذلك..

---

١) ابن خلدون ٤/١٣٠ ـ.

المدينة والدوله الفاطميه

بعد خروج الحسنيين من المدينة استقرت الإمارة للحسينيين فيها، ولا نعرف أسماء الأمراء الذين تولوا إدارتها، فلم تذكرهم كتب التاريخ، ولم تذكر لهم منجزات مهمة، لأكثر من عشر سنوات.

وفي المغرب كان المعز لدين الله الفاطمي يتطلع إلى الشرق، ويطمح في أن يمد نفوذه إلى مصر والحجاز والشام وينافس الخلافة العباسية أو يلغيها ويحل محلها، واستطاع قائده جوهر الصقلي أن يمد سيطرة الدولة الفاطمية شرقاً، وهدد مصر عدة مرات، ثم نجح في احتلالها وتخليصها من أبناء الاخشيد بعد موت كافور، وذلك في عام ٣٥٨ هـ، وأعلن الخلافة الفاطمية فيها.

وفي الحجاز فرح الطالبيون بإعلان الخلافة الفاطمية في مصر، وقام أحد رجال الفرع الحسني بالاستيلاء على امارة مكة وطرد واليها العباسي، وخطب في المسجد الحرام معلناً ولاءه للمعز الفاطمي(١) وكتب بذلك إلى جوهر الصقلي في مصر، وكان الحسينيون يديرون إمارة المدينة، فجاروا أبناء عمهم وأعلنوا على منبر المسجد النبوي خلع طاعة العباسيين وتحويل الولاء إلى الفاطميين، وأرسلوا رسولا بذلك إلى مصر أيضاً، فأرسل جوهر الصقلي إلى المعز في المغرب يبشره بما حدث، ويدعوه الى نقل عاصمته الى

١) انظر: اتعاظ الحنفا ١٤٥/١ ، والتاريخ الإسلامي ٢٣٧/٤

مصر(١).

سر المعز الفاطمي بمبايعة المدينتين المقدستين سروراً بالغاً، لأنها تعطيه مكانة كبيرة ينافس بها الخليفة العباسي، وينشر اسم دولته في الآفاق الإسلامية. وأرسل قافلة من الهدايا القيمة والأموال الجزيلة لتوزع على أهل الحرمين(٢). وقد وجدت في تركته بعد وفاته قطعة نسيج ثمينة أمر بصنعها عام ٣٥٣هـ كتبت عليها عبارات تدل على تطلعه الى الحرمين قبل أن يمتد سلطانه إليهما، والقطعة أشبه بلوحة فنية منسوجة من الحرير الأزرق ومحبوكة بأسلاك من الذهب، عليها صورة أقاليم الأرض بمدنها وجبالها وبحارها وأنهارها الواسعة، وفيها صورة للمدينة ومكة، وقد تكلف صنع القطعة اثنين وعشرين ألف دينار(٣).

بدت آثار الولاء الجديد في المدينة المنورة من خلال المظاهر العامة، فقد أنزلت الرايات السوداء ورفع مكانها رايات بيضاء على الإمارة ومنائر الحرم، وقطعت الخطبة للخلفاء العباسيين وحولت إلى الفاطميين، أما ما سوى ذلك فلم يتغير شيئ في حياة المدينة، لم تتغير إدارة المدينة، وظل الأمير الحسيني -الذي لم تذكر كتب التاريخ اسمه- في مكانه، وظلت الإدارة على حالها.. ولم يكن للعباسيين وجود عسكري في المدينة لذا لم تحدث أية صدمات أو قلاقل نتيجة لتغيير الولاء..

وقد أكرم الفاطميون أهل الحجاز بعامة، وأهل المدينة بخاصة، وأغدقوا عليهم الأعطيات، وفي عام ٣٦٤هـ توجه وفد من أهل المدينة وأهل مكة إلى المعز الفاطمي في مصر، وكان قد انتقل إليها، فلقي الوفد حفاوة كبيرة ونال

---

١) السابق١/١٧٢

٢) السابق ١/١٠١-

٣) انظر السابق ١/٢٩٢ - ٢٩٣ -

أعطيات سخية بلغت أربعمائة ألف درهم وهدايا أخرى قيمة(١).

وقد تجاوب أمير المدينة، أو أمراؤها، طوال فترة حكم المعز مع الدولة الفاطمية في كل مايطلبه الفاطميون، فكان خصوم الفاطميين لايجرؤون على الظهور في الحجاز خشية القبض عليهم ومعاقبتهم أو تسليمهم للفاطميين، وكانت الكتب تأتي من مصر الى أمير المدينة، وأمير مكة، بمن يطلبه الخليفة الفاطمي(٢) وكانت الرايات البيضاء ترفع في موسم الحج في عرفة، يتقدمها أمراء مكة والمدينة، ورغم أن أمراء المدينة من الفرع الحسيني وأمراء مكة من الفرع الحسني، وبينهما ذكرى وقعة سنة ٣٤٨هـ وطَردِ الحسنيين من المدينة، رغم ذلك فان الولاء للفاطميين قد جمع بينهما، وأوقف المشاحنات. وقد ظل هذا الولاء مدة خلافة المعز..

المدينة تحول ولاءها إلى العباسيين:

وفي عام ٣٦٥هـ توفي المعز لدين الله الفاطمي وخلفه ابنه العزيز، فأوقف أمير المدينة الخطبة لهم وأعادها للعباسيين وأنزل الرايات البيضاء ورفع الرايات السوداء!! وكذلك فعل أمير مكة الحسني..

ولايذكر المؤرخون سبباً لهذا التحول المفاجئ، رغم أن الفاطميين أقرب للطالبيين إنتساباً وفكراً، فهل كان الأمر خلافاً شخصياً مع العزيز بالله؟؟ ام أن العباسيين استطاعوا أن يستعيدوا نفوذهم في مكة والمدينة بطريقة غير عسكرية؟ فلا يذكر المؤرخون أية صدمات أو جيوش قدمت من بغداد..

فكيف تم التحول؟؟ ولماذا؟.

لانجد في كتب التاريخ أية إجابة على هذه الأسئلة، لذلك نقدر أن هذا التحول يشبه التحولات التي حدثت فيما بعد، وهي تحولات من الولاء للعباسيين إلى خصومهم وبالعكس.. تمت جميعها ببذل المال والهدايا لأمراء

---

١) اتعاظ الحنفا ١/٢١٦.

٢) انظر السابق ١/٢٠٤.

مكة والمدينة.. كما سنرى في صفحات قادمه.

صدام مع الفاطميين:

غضب العزيز بالله الفاطمي لخروج المدينة ومكة من الولاء الفاطمي، فأرسل جيشاً بقيادة باديس بن زيري الصنهاجي لاستعادتهما، ووصل الجيش إلى مشارف المدينة المنورة أواخر عام ٣٦٧هـ. ولم يكن في المدينة قوة تدافع عنها وتمكنها من مواجهة الجيش المهاجم، فأرسل الأمير الحسيني لقائد الجيش يطلب المفاوضة والصلح كي لايتعرض أهل المدينة لبطش المهاجمين، فطلب القائد الفاطمي إعلان الولاء للفاطميين، وإعادة الرايات البيضاء وخلع السوداء، فاستجاب الأمير الحسيني مقابل عدم إلحاق الأذى بالمدينة وأهلها، وتم الاتفاق، ودخل الجيش المدينة المنورة سلماً، وأنزل السواد ورفعت الرايات البيض، وخطب للفاطميين وحدهم على المنبر، ومكث الجيش في المدينة بضعة أيام، ثم خرج منها إلى مكة..

ربح الفاطميون ولاء أهل المدينة الاسمي، ولكنهم لم يربحوا قلوبهم، فلم يصمد هذا الولاء، ولم يطل، وانقلب بعد أقل من عام بفضل عاملين متكاملين هما: تسلم حسيني مناوئ للفاطميين إمارة المدينة، وحسن تصرف العباسيين..

أما الحسيني المناوئ للفاطميين فهو طاهر بن مسلم، الذي قدم من مصر هارباً من الفاطميين، وهو ابن عبد الله بن طاهر بن يحيى بن الحسن الذي كان مقدماً عند كافور الأخشيدي، وكان له الفضل في إرسال الأموال والعطايا للمدينة آنئذ، وله الفضل أيضاً في استقرار الحسينيين في المدينة بعد معركتهم مع الحسينين..

ويذكر ابن خلدون أن المعز لدين الله الفاطمي عندما جاء إلى القاهرة أراد أن يتقرب من مسلم، لنسبه العلوي، ولأنه أحد رجال الدولة الأخشيدية، فخطب ابنته لأحد أبنائه، فرفض مسلم الخطبة، وغضب المعز، وسجن مسلماً

واستصفى أمواله، وظل مسلم مسجوناً حتى مات، وفر ابنه طاهر إلى المدينة، فوصلها بعد خروج الجيش الفاطمي..

وقد احتفى الحسينيون في المدينة بطاهر، وذكروا فضل أبيه، وقدموه عليهم وجعلوه أميراً للمدينة(١)..

ولاشك أن تولي طاهر بن مسلم إمارة المدينة يثير تساؤلات كثيرة؟ فكيف تنازل الحسينيون عن الإمارة لمغترب قادم من مصر، وهم الذين قاتلوا أبناء عمهم الحسنيين عليها؟ وهل تكفي أيادي مسلم السابقة عليهم ليخرج الأمير عن إمارته ويسلمها لطاهر؟

أغلب الظن أن الحسينيين في المدينة كانوا يعانون من مشكلة الإمارة، وأنهم وجدوا في تولية طاهر حلا مرضياً، وكثيراً ما يحدث خلاف في الأسرة الحاكمة حول شخص الأمير عندما يشغر المنصب. لذلك فالمتوقع أن يكون مجيء طاهر قد صادف وفاة أميرها، ووقوع خلاف حاد حول من يخلفه، فكان الحل في تولية طاهر..

وأما العامل الثاني: حسن تصرف العباسيين، فقد تولى وزيرهم عضد الدولة البويهي استعادة ولاء المدينة بحنكة ، فلم يرسل جيشاً مقاتلا، ولم يزعج أحداً من أهل المدينة، بل أرسل مع أمير الحج العراقي لموسم عام ٣٦٨هـ أموالاً طائلة وهدايا قيمة للأمير الحسيني، ولم يجد أمير الحج العراقي صعوبة في إقناع طاهر بن مسلم الذي وتره الفاطميون بأبيه بإعادة الولاء للعباسيين، كما أن الفاطميين بعد عودة جيشهم إلى مصر انشغلوا بحروبهم في فلسطين والشام، ولم يرسلوا أموالاً كافية، وكانت الأرزاق قليلة، وكان من بين ما حمله أمير الحج العباسي أموالاً مخصصة لبناء سور للمدينة يحميها من غارات الأعراب والطامعين الآخرين..

لذلك كله، قبل طاهر بن مسلم عرض العباسيين، ونزع الرايات البيضاء

---

١) انظر ابن خلدون ٤/ ١٤٠

وقطع الخطبة عن الفاطميين وحولها للعباسيين. وأشرف على بناء السور بالأموال التي أرسلها عضد الدولة البويهي..

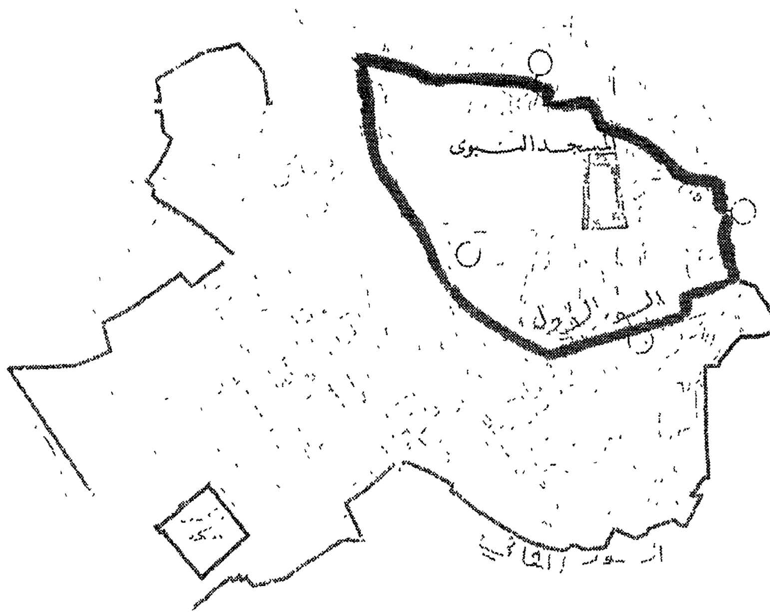
سور المدينة المنورة:

كانت المدينة تتألف من عدة كتل عمرانية متفرقة، أهمها كتلة المسجد النبوي وما يتصل به من أحياء متلاصقة، وهناك كتل أخرى في العوالي وقربان وسلع، أما قباء والقبلتين والعقيق فكانت أشبه بقرى وضواح بعيدة عن مركز المدينة..

وقد اتسعت المدينة في القرن الهجري الأول كما رأينا، ووصل المد العمراني في نهاية العصر الأموي إلى جبل سلع غرباً، وقباء جنوباً، واتصلت المساكن، وظهرت قصور العقيق..

وتوقف هذا التوسع في بداية العصر العباسي، ثم تحول إلى تقلص ظاهر منذ بداية القرن الثالث الهجري، وخرجت هجرات كثيرة بسبب الفتن والقلاقل التي مرت بها، والتي كانت على شكل موجات متقطعة، آخرها موجة الصدام الدموي بين الحسينين والحسنيين عام ٣٤٨هـ..

وقد أثر ضعف الإدارة المركزية في الدولة العباسية على الحالة العامة لمعظم المدن - فتطاول البدو والأعراب، وكثر الثائرون وأصحاب الفتن، وعانت المدن منهم الكثير، وقد أصاب المدينة المنورة بعض ماأصاب تلك المدن، فلم تسلم من هجمات الأعراب السريعة، حيث ينهبون ما تصل إليه أيديهم، ويفرون قبل أن يطاردهم رجال الإمارة وأهل المدينة، لذلك كانت الأحياء المتطرفة أكثر مناطق المدينة تعرضاً للأذى، وأول المناطق التي يرحل عنها أهلها، إما إلى داخل المدينة، أو إلى بلد آخر، ومع ضعف الإمارة، وقلة الرجال أصبحت المدينة أكثر تهديداً.. لذا عندما جاء عرض عضد الدولة البويهي بناء سور للمدينة لقي ترحيباً كبيراً، وكان أحد أسباب تحول ولاء المدينة من الفاطميين إلى العباسيين. والعجيب أن عضد الدولة البويهي كان



السور الأول ويظهر من خلاله حجم المدينة الصغير قياساً إلى حجمها فيما بعد. كما يبدو السور الثاني الذي بُني لاحقاً

متشيعاً، وفي الوقت نفسه وزيراً للعباسيين وخصماً للفاطميين، حتى إنه بدأ بتجهيز حملة لقتالهم ثم تراجع وسلك طريق السياسة، فأرسل الأموال الى الحرمين(١). وقد عُرف عضد الدولة بأنه شغوف بالعمران، اجتهد في عمارة مرافق كثيرة في بغداد، فشق الطرقات، وحفر الآبار وبنى المستشفيات(٢) وله إنجازات كثيرة في مدن أخرى ، ومنها بناؤه سور المدينة.

لم يحضر عضد الدولة إلى المدينة ولم ير السور ، فقد كان مشغولا بالصراع السياسي في بغداد، ولكنه أمر ببناء سور المدينة ودفع نفقاته....

وقد بني السور حول الكتلة العمرانية الكبيرة التي تشكل معظم المدينة آنئذ، وهي كتلة مركزها المسجد النبوي، وتضم دار الإمارة والأربطة ومساكن الزوار والأحياء المتلاصقة، ومعظم مساكن أهل المدينة، وجعل للسور أربعة أبواب، باب في الشرق يخرج إلى البقيع، وباب في الجنوب يخرج إلى قباء، وباب شمالي غربي، يخرج إلى العقيق، وباب شمالي يخرج إلى أحد(٣).

أسست جدران السور بالحجارة، وأكملت باللبن الطيني، وصنعت الأبواب من الخشب القوي. ورغم بساطة هذا السور فقد حفظ المدينة من غارات الأعراب المفاجئة، ومنح أهل المدينة طمأنينة وشعوراً بالأمان، وزاد الأمان إنشغال الفاطميين بحروبهم في بلاد الشام، فنعمت المدينة بالهدوء في ظل إمارة طاهر بن مسلم حتى عام ٣٨٠هـ، حيث عاد الفاطميون يدقون أبوابها، وكان الوزراء والأثرياء العباسيون في تلك الفترة يرسلون الأموال لتوزع على أهلها..

الفاطميون في المدينة ثانية:

انتصر الخليفة الفاطمي العزيز بالله على خصومه في سلسلة الحروب

---

١) انظر الكامل ٧/١٠٠.

٢) انظر البداية والنهاية ١١/٣٢٠.

٣) انظر مرآة الحرمين ١/٤١٠ - وانظر المصور المرفق -

المتوالية في فلسطين والشام، وكسر شوكة القرامطة واضطرهم للعودة إلى عمق الباديّة. فالتفت الى الحجاز، وقرر استعادته من العباسيين، فجهز حملة قوية، خرجت من مصر في شوال عام ٣٨٠هـ واتجهت إلى المدينة، فوصلتها مع اقتراب موسم الحج.

أغلق أهل المدينة أبواب السور، فحاصرها الجيش الفاطمي، وكأنما جاءت الحملة لتكون التجربة الأولى للسور، وتبين جدواه ومدى احتماله لهجمات الجيوش..

غير أن الأمير طاهر بن مسلم أراد أن يتجنب الصدام مع الفاطميين ففاوضهم على الصلح ، وصالحهم أخيراً على قطع الخطبة للعباسيين وإعادتها إلى الفاطميين نهائياً، مقابل تأمين المدينة وأهلها.. وفتحت أبواب السور وأنزلت الرايات السوداء ورفعت الرايات البيضاء، وأعلن الأمير طاهر بن مسلم في خطبته على المنبر ولاءه وولاء أهل المدينة للفاطميين، فعاد الفاطميون إلى المدينة، ولكنهم عادوا هذه المرة وفي ذهنهم أن يمدوا إليها نفوذهم الحقيقي(١).

فقد استفاد الفاطميون من التجربة السابقة، وأدركوا أن الولاء الاسمي عرضة للتحول بمجرد عودة الجيش الفاطمي إلى مصر، لذلك سلكوا منهجاً جديداً ينبع من فكرتهم الأولى، منهج التغيير الفكري، وتحويل الناس إلى أفكارهم وعقيدتهم، فإذا نجحوا في نشر معتقداتهم الفاطمية، وهي لون من التشيع لايخلو من الغلو والتطرف -ضمنوا انفصال المدينة عن العباسيين وارتباطها الوثيق بهم، لذلك نشروا دعاتهم بين أهل المدينة واستخدموا وسائل الترغيب والترهيب، والمناقشات والجدل، والتقاليد والبدع والاحتفالات للتأثير في الناس.. فبدأت مرحلة جديدة في حياة أهل المدينة، وكان للفاطميين أساليب بارعة في الدعاية والإقناع، ففضلا عن المناقشة والجدل

---

١) انظر: اتعاظ الحنفاء ١/١٧٢-

هناك التقاليد والاحتفالات الكثيرة التي ابتدعوها: كالاحتفال بيوم غدير خم (الثامن عشر من ذي الحجة كل عام لوقوف الرسول صلى الله عليه وسلم مع علي وأبنائه عند غدير خم ودعائه لهم) ويوم عاشوراء (العاشر من محرم ذكرى مقتل الحسين رضي الله عنه) ويوم المولد النبوي.. وغيرها من المناسبات المبتدعة..

ورغم النشاط الذي بذله دعاة الفاطميين في المدينة فان استجابة أهلها كان ضعيفاً، وكان معظم الذين تأثروا بهم من البسطاء والجهلة، فليس من السهل نشر تلك المعتقدات في بلد يعيش على إرث الرسول صلى الله عليه وسلم من السنة المطهرة، والمسجد النبوي مازالت فيه حلقات العلم وفقه الامام مالك، وقد تصدى هؤلاء لدعاة الفاطميين وحاجوهم، كما أن أمير المدينة طاهر بن مسلم الذي أعلن الولاء للفاطميين لم يكن متحمساً لعقائدهم، وكذا الحسينيون الذين مازالت لهم صلات بالعلم.. لذلك ستشهد المدينة غضب الفاطميين وعودة جيشهم إليها بعد عشرسنوات، في ظل أسرة المهنا، التي تسلمت إمارة المدينة، وشهدت المدينة في عهدها أحداثاً كثيرة..

من هم آل المهنا؟:

يرجح ابن خلدون نسبة هذه الأسرة إلى الحسن بن طاهر بن مسلم الذي خلف أباه في إمارة المدينة عام ٣٨١هـ. وكان يلقب المهنا، وإليه تنسب الأسرة، ويعرض رأياً آخر لبعض المؤرخين يقرر أن المهنا هو اسم شخص انتقلت إليه الإمارة بعد وفاة طاهر بن مسلم، ونسبه كمايلي: مهنا بن هانىء بن داود بن القاسم بن عبد الله بن طاهر. فمهنا حسب هذه الرواية هو حفيد

ابن عم طاهر بن مسلم. ويستبعد ابن خلدون هذه الرواية(١)وعلى أية حال فإن أسرة المهنا هي فرع من الأسرة الحسينية ذاتها، سواء كان المهنا ابن طاهر أو حفيد ابن عمه...

بداية امارة آل المهنا:

بدأ عهد آل المهنا أواخر القرن الرابع الهجري وقد حكمت هذه الأسرة المدينة المنورة عدة قرون، وشهدت المدينة في عهدها أحداثاً كثيرة..

وقد انتقلت الإمارة إلى المهنا بهدوء كامل، وبناء على اتفاق آل الحسين الذين انفردوا بالسلطة في المدينة بعد خروج الحسنيين منها.

وفي عهد المهنا، رأس أسرة آل المهنا ـ شهدت المدينة هزة كبيرة كادت أن تقضي على حكم الأسرة وتؤذي الكثيرين من أهلها.

فقد استمر المهنا على سياسة طاهر بن مسلم في الولاء الاسمي للفاطميين، وعدم الاستجابة لدعاتهم، وتطور الجدل بين دعاة الفاطميين الذين يحاولون نشر فكرهم الشيعي المتطرف وبين أهل السنة، وظهرت مقولات تشكك في صحة نسب الفاطميين وانتمائهم لأهل البيت، فغضب الفاطميون، ووافق ذلك تولي الحاكم بأمر الله الخلافة الفاطمية، بعد أن تسلم الحكم من الوصي عليه وقتله، فعزم على معاقبة آل المهنا في المدينة، وتثبيت الحكم الفاطمي وفكره، فأرسل مع قافلة الحج المصرية قوة عسكرية إلى أمير مكة الحسن بن جعفر الحسني ويلقب بأبي الفتوح ـوكان أبو الفتوح محافظاً على ولائه للفاطميين حتى ذلك الوقت ـ وطلب منه أن يضم إليها رجاله ويزحف بهم جميعاً إلى المدينة فيستولي عليها ويطرد آل مهنا منها نهائياً.

احتلال المدينة:

صادف طلب الحاكم بأمر الله هوى في نفس أمير مكة، إذ كان يتطلع إلى توسيع نفوذه والسيطرة على بقية الحجاز، بل سنجده يتطلع فيمابعد إلى

---

١) انظر: ابن خلدون ٤/١٤٠

الخلافة ويعلن نفسه خليفة. فلما وصل المحمل المصري ضم إليه رجاله وزحف بهم الى المدينة..

علم أهل المدينة بالزحف، فخرجوا مع أميرهم المهنا لمقابلة الحملة القادمة، واشتبكوا معها على مشارف المدينة، ولكن وجود الجيش الفاطمي جعل الكفة تميل لصالح الحملة، فهزم أهل المدينة وسقط عدد من القتلى والجرحى، وتراجعوا إلى المدينة وأغلقوا عليهم أبواب سورها، فتبعهم أبو الفتوح، وحاصرهم وطلب منهم الاستسلام والدخول في طاعته، وتعهد لهم ببذل الأمان وحفظ الدماء والأموال، وجرت مفاوضات بين الطرفين انتهت بالتسليم وخروج آل المهنا آمنين إلى بعض القرى في ينبع، ودخل أبو الفتوح المدينة بجيشه وتسلم الإمارة، ووفى بوعده فبذل الأمان للناس.

الفاطميون يحاولون نقل جسد الرسول ﷺ :

عرف الحاكم بأمر الله الفاطمي باضطراب عقله، وأوامره العجيبة المتناقضة، ويذكر المؤرخون أنه أمر قائد الحملة التي وجهها إلى المدينة أن ينبش قبر الرسول ﷺ، ويحمل جثمانه الطاهر إلى مصر لتصبح عاصمتهم محط أنظار المسلمين، ويتهمون بعض أفراد حاشيته بأنهم وسوسوا له بذلك لترتفع مكانة الفاطميين بين المسلمين، واقتنع الحاكم بأمر الله بالفكرة. وقد نقل القائد الفاطمي أمر الحاكم الى أبي الفتوح بعد أن دخلوا المدينة، فارتاع أبو الفتوح واستفظع الأمر ونصحه بعدم التعرض لمثوى رسول الله ﷺ، ولكن القائد الفاطمي أصر على تنفيذ أمر خليفته، وأدخل بعض رجاله ليلاً إلى الحرم وجاؤوا إلى الحجرة الشريفة لينبشوا القبر. فهبت ريح عاصفة أظلم لها الجو وكادت تقتلع البناء من أصله، فخافوا وتوقفوا عن فعلتهم النكراء، وأقبل عليهم أبو الفتوح وخوفهم من عاقبة ماأقدموا عليه، وأقنعهم بالعدول عنه.. فاقتنعوا وخرجوا من المسجد النبوي مذعورين(١).

شاع أمر هذه الحادثة بين الجيش الفاطمي، والمكيين القادمين معه -فاستفظعوه- كما شاع بين أهل المدينة فحمدوا الله على حفظ جسد رسول الله ﷺ ومسجده وقبره.. وتضايق أبو الفتوح أمير مكة. وعزم على العودة إلى إمارته. وعلم آل المهنا بالأمر ، فأرسلوا يفاوضون ابن عمومتهم ليعودوا إلى إمارتهم وتعهدوا له بعدم الدعوة للعباسيين ثانية، وبالمحافظة على الولاء للفاطميين.. فقبل منهم ذلك وسمح لهم بالعودة إلى إمارتهم بعد أن يخرج جيشه من المدينة.

وخرج أبو الفتوح والجيش الفاطمي بعد أقل من شهر من قدومهم، وسلم الله المدينة من العبث والأذى، وعاد آل المهنا إلى إمارتهم، ووفوا بعهودهم وأعلنوا الطاعة التامة للفاطميين.

---

١) انظر ابن خلدون ٤/١٤٠-

تقويم الحملة الفاطمية الأخيرة: أسبابها الحقيقية ونتائجها:

تثور أسئلة حول الأسباب الحقيقية لهذه الحملة.. هل هي كما ذكرت بعض المصادر التاريخية (التشكيك في نسب الفاطميين) أم أنها أبعد من ذلك؟ وهل بلغ التشكيك درجة من العلانية تؤذي الفاطميين؟ ثم كيف يشكك المدنيون بنسب الفاطميين ويحافظون على الولاء الاسمي لهم فيخطبون للخليفة الفاطمي؟

إننا نميل إلى الاعتقاد بوجود أسباب أخرى (غير مباشرة) دفعت الفاطميين إلى محاولة (معاقبة) أهل المدينة؛ هذه الأسباب ترتبط بالدعوة الفاطمية ذاتها، فرغم الولاء الاسمي للفاطميين لم ينتشر فكرهم في المدينة، ورغم أن حكامها من آل الحسين ويمتون بالقرابة إلى الفاطميين -حسب إدعاء الفاطميين بانتسابهم الى آل البيت- فان العقائد التي انتحلها الفاطميون لم تجد رواجاً في الحجاز بعامة وفي المدينة بخاصة.. وكان الفاطميون يكتفون أول الأمر باعلان الولاء لهم، ولكنهم منذ أواخر عهد العزيز تحولوا إلى التوسع في نشر العقيدة المذهبية في مناطق نفوذهم، وبثوا دعاتهم لاقناع الناس بها.

ورغم تراجع الحالة العلمية في المدينة آنئذ فإن التراث الفكري الذي حمله المدنيون قد عوق الدعوة الفاطمية فيها، فلم يأخذ بها المثقفون أومعظمهم في المدينة.. وهذا ما أغضب الفاطميين وجعلهم يوجهون ضربة للمدينة.

غير أن هذه الحملة لم تحقق أهدافها، لأسباب كثيرة، فبمجرد عودة أبي الفتوح إلى مكة عاد آل المهنا، وما لبث الفاطميون في مصر أن انشغلوا بتصرفات خليفتهم المتقلب الأهواء الحاكم، ثم توالت الأحداث في الحجاز ـ على نحو ماسنرى ـ فحالت دون تحقيق الأثر المنشود وحُفظت المدينة المنورة من أن تدين للمذهبية الفاطمية، وبقي ولاؤها اسمياً يلتقي مع التشيع العام للأسرة الحاكمة، ومع شعورهم بالعجز عن مواجهة الفاطميين، ورغبتهم في

الحصول على العطايا التي ترد منهم، وكان الحاكم يرسل أحياناً بعض الأموال للحسينين(١) .

استقلت المدينة عن مكة رغم مشاركتها في الولاء للفاطميين، وسارت الرسل بين المدينتين لتحسن العلاقة بينهما وتمسح آثار حملة أبي الفتوح، ولتفتح الأبواب أمام الزائرين والقادمين للحج والعمرة كي ينتقلوا بين المدينتين المقدستين بأمان، ونشط ميناء الجار واستقبل البضائع من مصر واليمن، ولكن المدينة لم تعد تتسع، فكأن السور قد حد لها حدوداً لاتتجاوزها. والأحداث التي تجري في المناطق المجاورة لاتتيح لها ظروف التوسع. والصراع السياسي بعيد عنها، وليس فيها مطمح لأهل الثروات والمناصب، والنمو السكاني فيها بسيط، وأصحاب الطموح السياسي أو الاقتصادي يقصدون العواصم الكبرى. كبغداد وحلب ودمشق والقاهرة وخراسان والمغرب والأندلس، وأما المدينة فتستقبل المجاورين والزائرين؛ منهم من يقيم الأيام والأسابيع القليلة، ومنهم من يمد إقامته سنة أو أكثر. وهؤلاء يلتمسون الصلاة في المسجد النبوي وملازمة حلقات العلم فيه.

---

١) انظر النجوم الزاهرة ٢١٧/٤ .

الحاكم يستولي على آثار جعفر الصادق:

وفي مطلع القرن الخامس الهجري. اهتزت المدينة لحدث جديد.

فقد قدم وفد من مصر أرسله الحاكم بأمر الله ليبحث عن آثار بعض الأئمة الذين يعتقد الفاطميون بعصمتهم. وكان الوفد برئاسة ختكين العضدي أحد قادة الفاطميين آنئذ، فقصدوا دار جعفر الصادق، وكانت مغلقة منذ مدة طويلة، ففتحوها، ووجدوا فيها مصحفاً وقدحا ضخماً من خشب له اطار حديدي، ودرقة خيزران، وحربة، وسريراً، فأخذوها. وجاءهم عدد من العلويين يستعلمون الأمر فأخبروهم بأن الحاكم قد أمر بحمل مافي الدار إليه، فخرج معهم طائفة منهم، وسافرو إلى مصر، واستقبلهم الحاكم وأكرمهم وأمر باعطائهم بعض المال، ثم أخذ المصحف والقدح والحربة والدرقة ورد السرير إلى العلويين، فتذمر العلويون من تصرفة وخاب أملهم فيه، وعادوا إلى المدينة وهم يذمونه ويدعون عليه(١).

ولعله من لطف الله بمدينة رسوله ﷺ أن يكون هذا نصيبها من تصرفات الحاكم الهوجاء وجنونه.. فقد لقيت مصر منه الأهوال مدة حكمه، وأصبحت تصرفاته نموذجاً لتصرفات الحاكم الطاغية المجنون(٢).

كما أنه من لطف الله بهذه المدينة الطيبة أن الأحداث كانت تجري حولها قلقة دامية دون أن يصيبها شيء من أذاها، وجل ماأصابها أن أحد أمراء الحج الفاطميين أمر الناس في المدينة وهو يخطب على المنبر أن يقوموا واقفين كلما ذكر اسم الحاكم في الخطبة(٣)..

المدينة وثورة أبي الفتوح:

في عام ٣٩٧هـ استطاع وزير مغربي مقيم عند أمير مكة أبي الفتوح أن

---

١) الكامل ٧/٢٤٩ - البداية ١١/٣٦٥ -

٢) انظر بعض سيرة الحاكم وتصرفاته - البداية والنهاية ١٢/١٠ -

٣) المنتظم ٧/٢٣٠ -

يقنع أبا الفتوح بأنه أحق بالخلافة من الفاطميين، فخرج أبو الفتوح على طاعة الحاكم وطلب البيعة لنفسه وتلقب الراشد بالله، ورحل من مكة مع رجاله الى قبيلة طيء فبايعه أميرها أبو حسان، ونزل بالرملة. فبعث الحاكم جيشاً لمحاربته، ووقعت معركة هزم فيها جيش الحاكم وقتل قائده، فعمد الحاكم إلى طريق المال لإنهاء تمرد أبي الفتوح، ونجح في استمالة الطائيين وصرفهم عن نصرة أبي الفتوح، وأرسل إلى ابن عم أبي الفتوح يغريه بالاستيلاء على مكة، ويعينه أميراً عليها ففعل ذلك، وعادت مكة لولاء الخليفة الفاطمي.

وأدرك أبو الفتوح أن مكر الحاكم قد نجح في تخذيل معظم رجاله عنه وأنه أصبح مهدداً بين الطائيين. فراسل الحاكم واعتذر له وعاد إلى طاعته فقبل منه الحاكم وأعاده إلى إمارة مكة سنة ٤٠٣هـ.

مرت هذه العاصفة كلها حول المدينة ولم تصبها بشيء. فأبو الفتوح الذي سبق أن احتل المدينة عام ٣٩٠هـ بأمر الحاكم، مر بها في طريقه إلى طيئ ولم يفعل شيئاً لضمها إلى مكة آنئذ. وظلت المدينة في سكينتها وادعة تعيش حياتها اليومية البسيطة طوال تلك الفتنة التي استغرقت ثلاث سنوات.

سنوات عجاف:

غير أن المدينة المنورة أخذت تتأثر من ظهور شوكة الأعراب حولها وتسلطهم على قوافل الحجاج والمسافرين، وعجز الدولة عن تأمين الطرق. وقد أثر ذلك على حركة القادمين إليها وقلل عدد زوارها وبخاصة في موسم الحج. ويذكر المقريزي أن الحجاج المصرين لم يتمكنوا من زيارة المدينة المنورة في عام ٤٠١هـ، وكذلك في عام ٤٠٣ و٤٠٥ و٤٠٦ هـ بسبب هجمات

الأعراب المتوالية على القوافل ونهبها(١) وكذلك كان الحجاج القادمون من العراق يعانون من هجمات الأعراب والقرامطة على قوافلهم. وكانوا يرجعون أحياناً أو يقتلون. وطبيعي أن حركة التجارة تتأثر بهذه الحالة وتقل السلع الواردة إلى المدينة وترتفع أثمانها نتيجة دفع مبالغ طائلة للأعراب كي يخفروها.

وقد وافق ذلك حدوث قحط ومجاعات شديدة في مصر، فانقطعت الميرة لبعض الوقت، ولم تصل الإعانات الفاطمية أيضاً. وأصبح لزاماً على المدينة أن تعتمد على منتجاتها، وعلى القليل الذي يصلها بين الحين والآخر. وقد تضايق أهل المدينة - كما تضايق أهل الحجاز بعامة - من هذه الحالة وفكروا بالتحول عن الولاء الفاطمي إلى العباسيين.

وذهب وفد من أهالي المدينتين المقدستين إلى مصر في ذي القعدة عام ٤١٥هـ ليطلب أن تعمل الدولة على تحسين الأوضاع، فتزيد المخصصات المرسلة الى الحجاز، وترسل جيشاً يؤدب المفسدين ويؤمن طريق القوافل والمسافرين. ولكن مصر كانت ترزح تحت أعباء اقتصادية شديدة آنئذ، وكان القحط قد عاودها، فلم يجد الوفد آذاناً صاغية، ولم يستجب له أحد، بل لم يجد الضيافة اللائقة، فجاهر أعضاؤه بضيقهم مما لقوه، وألمحوا إلى إمكانية تحول المدينتين المقدستين عن الفاطميين. وقد وصف المقريزي حالة الوفد آنئذ فقال:

اجتمع الوفد بباب القصر واستغاثوا وقالوا: ياقوم قد جئناكم وفارقنا أهلينا وقد هلكنا من الجوع، فإن لم يكن لكم حاجة بإقامة الدعوة بمكة والمدينة، فاصرفونا، فاننا قد بذل لنا الرغائب في إقامة الدعوة لغير إمامكم فلم نأخذها، ونريد إنساناً يكلمنا (فلم يجابوا بشيء)، وكانوا قد مضوا قبل ذلك إلى رجال الدولة، فصار يدفعهم هذا إلى هذا. فلما انصرفوا عن باب

---

١) اتعاظ الحنفا ٢/٧٨ - ٨٦ - ١٠٥ -

القصر خائبين بعث إليهم جمال الدولة مظفر الصقلبي صاحب المظلة ألف دينار من ماله، فقالوا: لانأخذ إلا مايصلنا به أمير المؤمنين، وهذه الصلة قد قبلناها والله مجازيك عليها. ونحن نفرقها على ضعفائنا وعبيدنا. ففرقوها على خمسمائة نفس(١).

المدينة ومشكلة الأعـــراب:

كان لتردي الأحوال في مصر آثار سيئة على الأحوال الاقتصادية والأمنية في المدينة المنورة، فانقطاع الأموال التي ترد إلى الإمارة أو شحها جعل المدينة في ضيق، وأضعف قوتها العسكرية، فليس في ديوان الامارة مايكفي لتجنيد أعداد تحفظ هيبة الإمارة وترد هجمات الأعراب، وليس فيه أموال تدفع لرؤساء القبائل ليكفوا شرورهم عن المدينة والمسافرين، وكما ان الأعراب حول المدينة وفي ريف الحجاز عامة يحتاجون إلى موارد تعوضهم عن سنوات القحط وهلاك المواشي وآثار المنازعات والحروب القبلية.

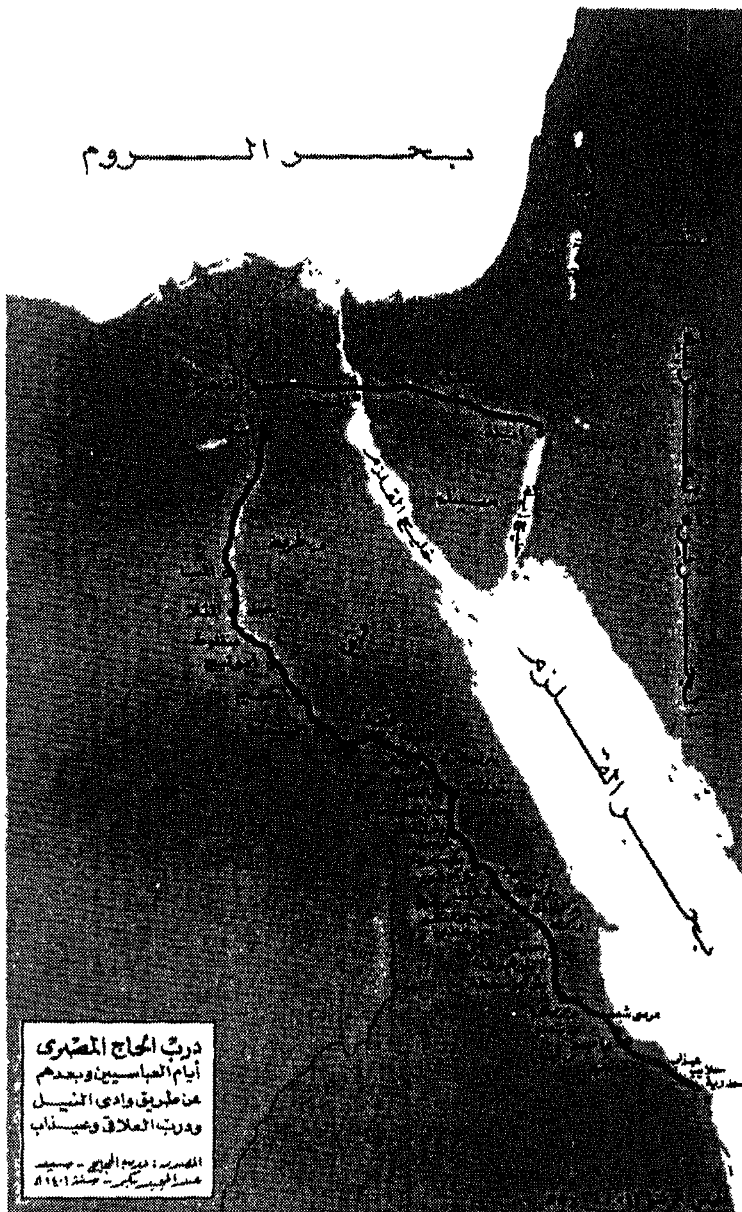
لذا أصبحت قوافل الحجاج هدفاً رئيساً لهؤلاء الأعراب، يعدون مافيها غنيمة لهم، وأصبح من الضروري لتلك القوافل أن تؤمن حماية لنفسها وتصطحب قوة قادرة على مقاومة الأعراب والطامعين فيها وإلاهلكت أو رجعت. ففي عام ٤١٢هـ خرج نقيب الطالبيين محمد بن الحسن على رأس قافلة الحج فاعترضها بنو نبهان، فقاتلهم رجال القافلة وتغلبوا عليهم وقتلوا أميرهم حسان(٢) وبعد عامين عجزت قافلة الحجيج عن مواجهة حشود الأعراب فرجعت ولم يحج أحد منها، ثم انقطع الحجاج العراقيون عدة سنوات.

وعندما تولى القائم بأمر الله العباسي الخلافة عام ٤٢٤هـ حاول أن يؤمن طريق الحج، ولكنه عجز عن تجهيز قوة قادرة على التصدي للأعراب لضعف

---

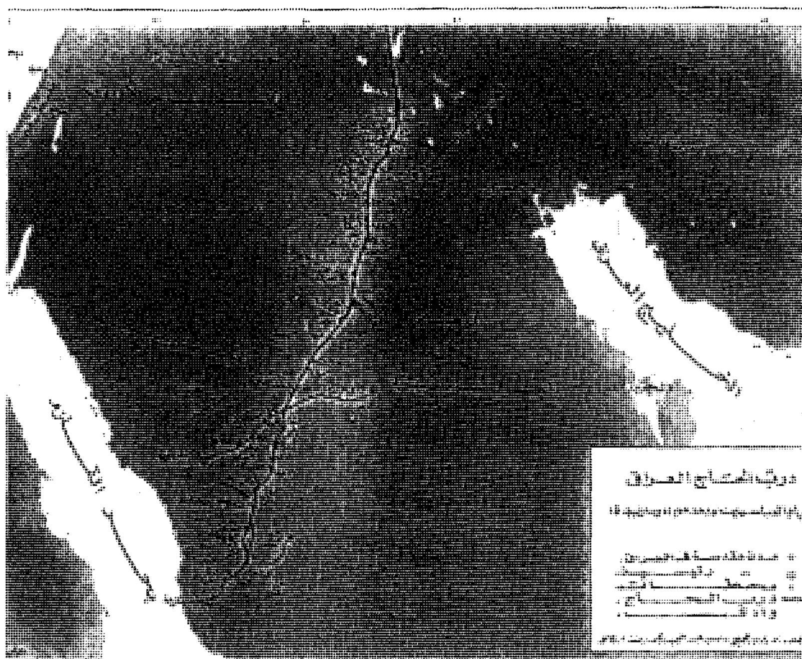
١) اتحاف الحنفا ١٦٣/٢ -

٢) ابن خلدون ١٣١/٤-



طريق القوافل البرية من مصر إلى المدينة فمكة

المصدر: أطلس التاريخ الإسلامي



طريق القوافل والحجاج من العراق والبلاد التي وراءها.

المصدر: أطلس التاريخ الإسلامي.



الطريق السلطاني من دمشق إلى المدينة فمكة. كانت تسير فيه قافلة المحمل الشامي

المصدر: أطلس التاريخ الإسلامي

جهاز الدولة، وتشتت أمرها بين القادة المتنازعين، وضعف بني بويه المتسلطين على بغداد آنئذ(١).

وتفاقمت مشكلة الأعراب وسكان البادية القريبين من طرق الحج، وتحولت الى مشكلة تاريخية لم يحسن أحد من الحكام على امتداد القرون إلى العصر الحديث حلها، وبالعكس من ذلك، كان الحل الخاطئ الذي بدأه الفاطميون تعميقاً للمشكلة جعلها مستعصية. فقد عمد الفاطميون إلى دفع مبالغ مرضية للقبائل الساكنة على طريق الحج، كي لايتعرضوا للمحمل المصري وقوافل الحجيج ، وهذا حل مؤقت أشبه بمخدر محدود الفاعلية، يهيج المشكلة بشكل أعنف بعد زوال مفعوله، ويغري الأعراب بمعاودة الكرة، بل سيجعلهم كالمدمنين. لابد من جرعات تالية وإلى مالانهاية. وهذا ماحدث..

فقد وجد الأعراب في المبالغ المدفوعة دخلا مربحاً، لايكلفهم عناء العمل ولاحتى القتال والضحايا، يكفي أن يهددوا أو يقوموا بغارة على إحدى القوافل، فتكون رسالة قاسية، تصل الأموال بعدها إليهم. وتصبح هذه الإتاوة عرفاً وحقاً لهم، إن أخل به الطرف الآخر أبيح دمه وماله..

وربما تكون حياة الأعراب الصعبة، وبعض السنين العجاف قد دفعتهم إلى هذا السلوك أول مرة.. ولكنهم امتهنوا قطع الطريق بعد ذلك، وأصبح النهب دخلا شرعياً عندهم، سواء كانت السنون عجافاً أو مخصبة.

والمدهش أن الخلفاء والحكام والأمراء لم يفكروا بحل جذري للقضية، وكان أكثرهم غيرة يجرد حملات تأديبية قوية، تطارد الأعراب وتبطش بمن تصل إليه، فيفر الباقون إلى أعماق باديتهم، ويصبح طريق الحج آمناً لبعض الوقت، ولكن ما إن تعود الحملة أو يموت صاحبها حتى يعود الأعراب إلى ماكانوا عليه، ويفرضون الإتاوات أو يقتلون وينهبون..

ولم يفكر أحد في إيجاد حل جذري للقضية يوطن هؤلاء الأعراب ويبني

---

١) السابق -

لهم القرى ويحولهم إلى مزارعين، أو يحول مناطقهم إلى محطات تجارية على طريق القوافل فيكون دخلهم أفضل من قطع الطريق والنهب والسرقة، فظلوا على امتداد السنين الطويلة مصدر خطر دائم على الحجاج من جهة، وعلى القرى والمدن من جهة أخرى، ومصدر قلق وأذى للمدينة المنورة ومكة المكرمة.. فانقطاع الحجاج أو قلة عددهم سيحرم المناطق التي يحلون بها موارد مالية، تشكل جزءاً من دخلها، والمدينة واحدة من تلك المناطق، يمكث بها الحجاج والزائرون بعض الوقت..

يضاف إلى ذلك أن تهديد الطرق يؤثر أيضاً على القوافل التجارية التي تحمل القمح واللوازم الأخرى. وهذا يؤدي إلى فقد السلع الضرورية وارتفاع الأسعار. ويزداد الأمر سوءاً عندما تحل سنوات من القحط، فلايكتفي الأعراب بقطع الطريق بل يغيرون على المدينة ذاتها فتضطرب حياة سكانها من كل الجوانب.

أمير مكة يحتل المدينة:

استمرت الأحوال مضطربة في المدينة أكثر من ثلاثة عقود، ولم يكن الاضطراب سياسياً هذه المرة يتصارع فيه المتنافسون على الإمارة، بل كان أمنياً واقتصادياً، بسبب تسلط الأعراب على القوافل والحجاج وغاراتهم المتقطعة على المدينة وأطرافها وضعف أمراء المدينة وعجزهم عن مطاردة الأعراب وتأديبهم.. وقد توالى على إمارة المدينة بعد المهنا ابنه عبد الله بن المهنا عام ٤٠٨هـ ولا تذكر المصادر مدة إمارته، وتكتفي بذكر خلفه الحسين بن مهنا، الذي لانعرف متى تولى الإمارة.

وتنقطع أخبار المدينة في كتب التاريخ إلى عام ٤٣٦هـ حيث نجد إشارة إلى حدث عاصف يلغي استقلالها ويخرج آل المهنا منها، هذا الحدث هو هجوم أمير مكة شكر بن أبي الفتوح وجيشه على المدينة واحتلالها.

كان شكر لايقل طوحاً ورغبة في التوسع عن والده أبي الفتوح، وتوجهت أنظاره الى المدينة، التي كانت في ضعف اقتصادي وأمني كبيرين، وزحف بجيشه إليها، وعندما وصل الخبر إلى أمير المدينة استنفر الناس للدفاع عن مدينتهم، ورممت الأجزاء المتهدمة من السور، ووصل جيش شكر فتصدى له أهل المدينة، ووقعت بين الطرفين معارك ضارية يسميها ابن خلدون (خطوب) ولكنه لايذكر تفاصيلها ولاعدد ضحاياها، ونفهم من كلمة خطوب وجود وقعات عدة وخسائر جسيمة في الطرفين، وهذا يعني أن أهل المدينة استبسلوا في الدفاع رغم ضعف قوتهم العسكرية، ولكنهم خسروا المعركة

آخر الأمر، ودخل شكر ورجاله المدينة، واستولى على الإمارة(١) وأنهى سيطرة آل المهنا عليها وألحقها بإمارته.

ولانسمع شيئاً عن آل المهنا بعد ذلك، وقد جرت العادة في ذلك الوقت أن يخرج المهزوم إلى القرى التي يسكنها أقرباؤه أو حلفاؤه، ويكتفي الأمير المنتصر بالسيطرة على الإمارة، ولايتعقب خصمه، ويعود الناس إلى حياتهم العادية في ظل النظام الجديد بعد أن تغمد السيوف وتنتهي عملية المعاقبة والانتقام.

وقد حكم المدينة بعد ذلك أفراد من الأسرة الحاكمة في مكة، العائلة السليمانية، وهي فرع من الحسنيين، وانتقل إليها عدد من أفراد تلك العائلة ووطدوا حكمهم فيها قرابة ثلاثين سنة، ولايذكر المؤرخون أسماء الذين تولوا إمارتها نيابة عن أمير مكة، ولايذكرون أية أحداث مهمة أواضطرابات خلال حكم السليمانيين هؤلاء، وأغلب الظن أن الأمور قد هدأت فيها بعد توحيد المدينتين تحت حكم أسرة واحدة، وأن الأمن قد استتب، وقلت غارات الأعراب.

وفي عام ٤٥٤هـ مات شكر بن أبي الفتوح في مكة، ولم يكن له ولد يخلفه في الإمارة، وتولاها أحد عبيده فعقد أهل مكة أمرهم لأحد الحسينين وهو محمد بن جعفر، وقاتلوا الأمير الجديد وأنصاره من العائلة السليمانية وهزموهم وأخرجوهم من مكة إلى اليمن(٢).

ولكن الأمر لم يتغير في المدينة، وظل الحسنيون الذين ولاهم شكر في إمارتها، وانفصلوا عن مكة، وظلوا كذلك تسع سنوات تالية، ولم يستفد آل المهنا من فرصة خروج السليمانيين من مكة فيستعيدوا المدينة، وأغلب الظن أنهم بعد أن فقدوا الإمارة ضعفوا وتفرقوا، بينما كثر السليمانيون وعاضدهم بعض الحسنيين الآخرين، وقويت شوكتهم فلم يستطع آل المهنا أن يتعرضوا

---

١) ابن خلدون ٤/١٣١-

٢) ابن خلدون ٤/١٣٢-

لهم.

حصار اقتصادي مؤقت:

رغم اختلاف الأسرة الحاكمة في المدينة مع الأسرة الحاكمة في مكة، تأثرت المدينة بتصرفات أمير مكة الهاشمي.

ففي عام ٤٥٨هـ حج الوزير العباسي أبو الغنائم، ومكث في مكة مجاوراً، واتصل بأميرها محمد بن جعفر، واستطاع أن يقنعه بقطع الخطبة عن الفاطميين وتحويلها إلى العباسيين مقابل مساعدة مالية سخية ، فاستجاب محمد بن جعفر لطلب الوزير، وحول الخطبة في موسم الحج التالي عندما جاءه المحمل العراقي بالأموال الموعودة.

وبلغ الخليفة الفاطمي ذلك فغضب، وأمر بقطع الميرة المصرية عن الحجاز كله، فتوقف نقل الحبوب والبضائع الأخرى، وتأذت المدينة رغم أنها مازالت محافظة على ولائها الاسمي للفاطميين، وغلت الأسعار وقلت السلع.

ولم يطل هذا الحصار، فقد لام الهاشميون في مكة أميرهم على تصرفه وأقنعوه باسترضاء الفاطميين، فأرسل الأمير إلى الخليفة معتذراً وأعاد الخطبة للفاطميين. فرضي الخليفة الفاطمي، وأمر بفك الحصار الاقتصادي عن الحجاز وشحن الميرة إلى مكة والمدينة.

وواصل الفاطميون بعد ذلك إرسال مخصصات مالية لمكة والمدينة وعنوا بالطالبيين عناية خاصة، فكانوا يرسلون إليهم سائر مايحتاجون إليه من الكسوة وغيرها حتى يحمل اليهم ألواح الصبيان التي يكتب فيها، والأقلام

والمداد(١).

وكانوا ينفقون على محمل الحج بسخاء، ويحملونه أموالاً لأهل مكة والمدينة وهدايا لأمرائها سوى مخصصاتهم السنوية، وبلغ ماينفقونه في ذلك مائتي ألف دينار(٢)٠

ضائقة شديدة:

غير أن الأحوال الاقتصادية في مصر مالبثت أن اضطربت، فقد حل عام ٤٦١هـ يحمل معه القحط والمجاعة والغلاء الفاحش، ولم يرسل الفاطميون مااعتادوا إرساله إلى الحجاز. فاشتد الضيق على أهل المدينة، كما اشتد على أهل مكة لأن القحط قد أصابهم أيضاً في تلك السنة، وغلت الأسعار وقلت الأرزاق وقلت الأموال في أيدي الناس. وتأخرت رواتب الجند، وخشي أمير المدينة أن يشغبوا عليه. وطالت الضائقة ودخلت سنة ٤٦٢هـ ولم تصل أية مساعدات خارجية، ولم يتحسن الوضع في الداخل، فبدأ الأمير يفتش عن مصدر ينقذ الإمارة من الهاوية، وبلغه أن أمير مكة، الذي يعاني من الضائقة أيضاً، قد أخذ ذهباً من باب الكعبة، وأستارها، وضربه دنانير، وسد بها حاجة الإمارة، فأمر أن تأخذ القناديل الذهبية من المسجد النبوي -وهي هدايا من ملوك وأمراء وأغنياء من سائر العالم الاسلامي- وتصهر وتصك نقوداً ليسد بها حاجة الإمارة. فأخذت القناديل الذهبية المعلقة والموجودة في المستودع، وعوض عنها بقناديل عادية وصهرت وصكت نقوداً وسدت الحاجة لبعض الوقت.

وكانت هذه الواقعة أول حالة تؤخذ فيها بعض موجودات المسجد النبوي

---

١) انظر : الوزارة والوزراء في العصر الفاطمي ص ٢١٣ - محمد حمدي النادي دار المعارف بمصر د . ت

٢) انظر : النفوذ الفاطمي في مصر ص ٢٨ - جمال الدين سرور -

الثمينة (١) والملاحظ أن المؤرخين الذين ذكروها لم يعقبوا عليها كما عقبوا على حوادث أخرى مشابهة في قرون لاحقة، ولم يستفظعوها أو يعدوها جريمة اعتداء على المسجد النبوي بسبب (الضرورة) التي ألجأت الأمير إلى مافعله، ولأن الذهب تحول إلى دنانير صرفت في المصلحة العامة كدفع رواتب الجند وموظفي الإمارة أوالإنفاق على المرافق العامة أو شراء طعام للمحتاجين، ولم تنفق في مصالح شخصية.

---

١) انظر : البداية والنهاية ١٠٥/٤ -

الولاء بالعطاء:

تضايق الخليفة العباسي القائم بأمر الله لفشل محاولة وزيره تغيير ولاء مكة والمدينة، وراسل أمير مكة وأرسل إليه بعض الهدايا والأموال ووعده بعطاء سخي ومخصصات ثابتة له ولإمارته إذا قطع الخطبة عن الفاطميين وأعادها إلى العباسيين، وتطلع إلى المدينة أيضاً، وكان الجهد قد بلغ بالمدينتين مبلغاً كبيراً، والنقود التي صكت من ذهب المسجدين: المسجد الحرام والمسجد النبوي، محدودة وستنفد بعد حين، والدولة الفاطمية تعاني من متاعب اقتصادية وسياسية. كل هذه العوامل جعلت أمير مكة يستجيب لدعوة القائم بأمر الله العباسي، ويرسل وفداً برئاسة ابنه إلى بغداد، فاحتفى الخليفة بالوفد حفاوة كبيرة، وأكرمه، وأعطاه ثلاثين ألف دينار وخلعة نفيسة، وقرر للأمير راتباً سنوياً قدره عشرة آلاف دينار، وأرسل رسالة شفهية الى أمير المدينة، يعرض عليه أن يحذو حذو أمير مكة وله عشرون ألف دينار(١).

أما أمير مكة، فقد نفذ طلبات الخليفة العباسي على الفور، وقطع الخطبة عن الفاطميين وحولها إلى العباسيين، وأما أمير المدينة، فقد اختلفت المصادر التاريخية في رده، فذكر ابن الجوزي أنه استجاب لطلب الخليفة العباسي وقطع الخطبة عن الفاطميين وحولها إلى العباسيين(٢) بينما تسكت المصادر الأخرى عن هذه القضية، بحيث نشعر أنه لم يتغير شيئ في المدينة، وظل ولاء أميرها السليماني -الحسني- للفاطميين. ونحن نميل إلى هذا الرأي لسببين:

الأول : أن تحول ولاء مكة الى العباسيين كان في موسم حج عام ٤٦٢هـ

---

١) انظر : الكامل ٨ / ١٠٧ - ١٠٨ -

٢) انظر: المنتظم ٨/٢٩٤ -

أي في آخر تلك السنة(١) وقد دوهم السليمانيون بعدها بوقت قصير، ولم يتح لهم المجال لمراسلة الخليفة.

الثاني : أن أمير مكة الهاشمي كان خصماً لأمير مكة السليماني، وهو الذي طرد السليمانيين من مكة، وتتبعهم بعد ذلك إلى المدينة فأخرجهم منها.

ولئن كان في ذهنه أن يفعل ذلك فليس من المنطقي أن يبلغ رسالة الخليفة لخصمه، ويتيح له الفرصة كي يتقوى بالدنانير القادمة، وليس من مصلحته أيضاً أن يجتمع مع خصمه تحت ولاء الخليفة العباسي، فربما يفرض الخليفة عليه شيئاً من الحماية، أو يعاقب أمير مكة إذا حارب أمير المدينة، ولو بقطع المخصصات والعطايا في هذه الظروف الصعبة.

أمير مكة يهاجم المدينة:

أحس أمير مكة بالقوة بعد وصول الأموال من بغداد، ومعها مجموعة من الجنود الأتراك، جاءت مع الحجاج العراقيين لحمايتهم، بعد فشل محاولة الفاطميين طرده من مكة(٢) فشكل جيشاً قوياً من رجاله ومن الجنود الأتراك،

---

١) ابن خلدون ٤/١٣٣-.

٢) حاول أمير مكة أن يقيم توازناً في علاقاته مع العباسيين والفاطميين في آن واحد، فقبل عرض القائم بأمر الله العباسي بتحويل الخطبة للعباسيين ، وقبض الأموال ، وكتب للخليفة الفاطمي يعتذر له بأنه سيقيم الخطبة في الموسم للعباسيين ، وفي سواه للفاطميين . ولكن الخليفة الفاطمي لم يقبل تصرف محمد بن جعفر ، ولم يكن في حالة تسمح له بإرسال جيش من مصر ، فكتب إلى أمير اليمن الصليحي - وكان موالياً للفاطميين - أن يسير إلى مكة ويطرد محمد بن جعفر ، فخرج الصليحي في خمسة آلاف رجل إلى مكة ، وعندما وصل إلى قرية المهجم فاجأه أحد خصومه على الحكم في اليمن : سعيد بن نجاح الأحول ، وقتله ، فرجعت الحملة إلى اليمن ، ولم يعد أمير مكة يحسب حساباً للفاطميين ، وتوجه للمدينة ، وربما يكون محمد بن جعفر قد خشي أن يستعين الفاطميون بأمير المدينة ضده ، فعاجلهم بالهجوم.-.

وزحف بهم الى المدينة، واستولى عليها ، وأخرج السليمانيين الحسنيين منها في النصف الأول من عام ٤٦٣هـ(١) وتلقب بأمير الحرمين، وهذا يعني أن المدينة أصبحت خاضعة لنفوذه، إن لم تكن جزءاً من إمارته. غير أن المؤرخين يذكرون اسم الحسن بن مهنا بن الحسن الأعرج بعد ذلك مباشرة على أنه أمير المدينة، فقدأعاد محمد بن جعفر آل مهنا إلى إمارة المدينة(٢)، وحول الخطبة في منبر المسجد النبوي ومنابر المدينة الأخرى إلى العباسيين، وحافظ آل مهنا على هذا الولاء الاسمي للعباسيين، وتلقوا الأموال من بغداد وخرسان..

آل المهنا في إمارة المدينة:

عندما أعاد محمد بن جعفر أمير مكة آل المهنا إلى إمارة المدينة كان الحسين بن المهنا بن الحسين الأعرج هو الوريث الذي نصب في الإمارة، وفق أعراف الأسرة. وقد بدأ الحسين إمارته تابعاً لأمير مكة، ثم استقل عنه بعد عودة ابن جعفر إلى مكة.

وبعد مدة بدت منه تصرفات تضايق منها أهل المدينة، فقد فرض على التجار والمزارعين ضرائب يؤدونها للإمارة، وابتدع ضريبة أنكرها عليه المؤرخون، وهي ضريبة زيارة المدينة، ففرض على كل وافد إليها أن يدفع مبلغاً من المال للإمارة، واحتج بما يفعله أمير مكة، ورفض المؤرخون حجته لأن أمير مكة كان يستوفي الرسوم من التجار الوافدين إلى مكة في موسم الحج ولايأخذ شيئاً من الحجاج العاديين، فهي ضريبة (أرباح) وليست ضريبة

---

١) لم يذكر المؤرخون أية تفاصيل عن المعركة التي حدثت بين جيش مكة وأهل المدينة ، ونرجح أن السلمانيين قد شعروا بقوة محمد بن جعفر وعجزهم عن مواجهته ، فخرجوا .منها قبل أن يصل اليها ، أو بعد مفارضات قصيرة. ولو حدثت معركة وضحايا لاشار إليها المؤرخون

٢) المنتظم ٣٠٤/٨ـ صبح الأعشى ٢٦٩/٤

(زيارة). وانتشر خبر رسوم الزيارة في الأمصار وشاعت سمعة الأمير السيئة داخل المدينة وخارجها(١).

واستمرت إمارة الحسين دون أحداث تذكر، سوى تلك الضرائب. واستمر ولاء المدينة الاسمي للعباسيين، وحافظت عليه، وعلى استقلالها الكامل أيضا، بدليل أن ولاء أهل مكة قد تذبذب ثانية عام ٤٦٧هـ، عندما مات الخليفة العباسي القائم بأمر الله، وسارع الخليفة الفاطمي فكاتب محمد بن جعفر وأغراه بإعادة الخطبة، وسوغ له ذلك بأن اعطاء الخطبة نوع من المعاهدة، ومعاهدته مع القائم قد سقطت بموته، لذا فهو في حل منها، وأرسل إليه أموالا وهدايا كثيرة، فقبلها ابن جعفر، وخطب في موسم ذلك العام للفاطميين.

وسارع العباسيون في العام التالي فاستعادوا الخطبة بالأموال والهدايا أيضاً (٢).

ولم يكن الفاطميون أقل اهتماماً بالمدينة من مكة، ومع ذلك لانجد خبراً عن تحول الخطبة في المدينة للفاطميين. فقد حافظ الحسين بن مهنا على ولائه للعباسيين، ولم يتحول عنهم.

محيط العلوي يستولي على المدينة:

يذكر بعض المؤرخين أن رجلا يدعى محيط العلوي استولى على المدينة في صفر عام ٤٦٩هـ وأن أهل المدينة أعانوه على ذلك. فهرب الحسين بن مهنا، ولحق بالسلطان السلجوقي ملك شاه وقطعت الخطبة عن العباسيين، وحولت إلى الفاطميين(٣) ولا نجد أي توضيح عن شخصية محيط العلوي؟ ولانجد اسمه أيضاً بين أسماء أمراء المدينة.

وتشير العبارات التي ورد فيها ذكر محيط العلوي إلى أنه جاء من خارج

---

١) انظر : المنتظم ٣٠٤/٨ .

٢) انظر : الكامل ١٢١/٨ .

٣) انظر النجوم الزاهرة ٥ / ١٠٤.

المدينة، حيث يقول ابن الجوزي (فدخل رجل علوي المدينة) ويقول: ابن تعزي بردي (في صفر غلب على المدينة النبوية محيط العلوي)(١) ولاندري هل كان محيط العلوي من رجال الفاطميين؟ أم أنه شيعي من أبناء المنطقة أعان أهلَ المدينة على التخلص من أميرها الذي أرهقها بالضرائب، واكتفى بتحويل الولاء للفاطميين، وسلم الإمارة لرجل من آل المهنا؟،

ففي كتب التاريخ ثغرة كبيرة تشمل هذه الفترة، حيث سكت المؤرخون عن أحداث المدينة وحكامها. فلا نجد أية اشارة حتى عام ٤٩٢هـ، حيث نلقى منصور بن عمارة بن مهنا الحسيني -من آل المهنا أيضاً- أميراً على المدينة، وله علاقة بمجد الملك الباسلاني. وقد توفي منصور بن عمارة عام ٤٩٥هـ وخلفه ابنه.

فمن هو أمير المدينة في هذه المدة الطويلة: من ٤٦٩ - ٤٩٢؟؟

وماالأحداث التي جرت آنئذ؟؟ سلسلة من المجاهيل لانجد فيما بين أيدينا من كتب أية اجابات عنها..

عودة آل المهنا إلى الإمارة:

نتوقع أن محيطاً العلوي الذي أخرج الحسين بن مهنا قد تسلم الإمارة مدة من الزمن، ثم تسلمها منصور بن عمارة بن مهنا. وليس في كتب التاريخ مايشير إلى معارك أو وقائع. وهذا يجعلنا نرجح عودة الإمارة إلى آل مهنا سلماً بوفاة محيط أو تركه الإمارة طواعية.

وأما العلاقة بين منصور بن عمارة ومجد الملك الباسلاني فدافعها اقتصادي محض، ذلك أن مجد الملك كان واحداً من القادة المتنفذين في الدولة العباسيه، وكان شيعياً غير متطرف لايسب الصحابة، وكان يكرم العلويين ويرسل إليهم الأموال والهدايا، وقد طلب من أمير المدينة أن يسمح له ببناء قبة على قبر الحسن بن علي وأخرى على قبر العباس بن عبد المطلب في

---

١) انظر المنتظم ٨ / ٣٠٤ - والنجوم الزاهرة ١٠٤/٥-

البقيع، وأرسل أموالاً وهدايا، وأرسل معماراً بارعاً فبنى القبتين، وفي عام ٤٩٢ هـ قتل مجد الملك الباسلاني، وعندما علم أمير المدينة بذلك قبض على المعمار ثم قتله(١)،

وليس في كتب التاريخ مايشير إلى استمرار ولاء المدينة الاسمي للفاطميين، وبالعكس يشير بعض المؤرخين إلى أن الحجاز كله قد خرج من ولاء الفاطميين نهائياً في تلك الحقبة من الزمن(٢)،

وقد تولى إمارة المدينة بعد منصور بن عمارة ابنه مهنا، واستمر فيها إلى عام ٥٠٧هـ، ولم تحدث في مدة إمارته أحداث لافتة للنظر يسجلها التاريخ، فقد بقيت المدينة في هدوئها وحياتها العادية، وودعت القرن الخامس الهجري واستقبلت القرن السادس وكأنها تتهيأ لأحداث متميزة..

وقبل أن نخرج من المدينة في القرن الخامس الهجري نلمح إلى بعض الكوارث العامة التي مرت بالحجاز كله وبعض البلاد الاسلامية الأخرى، وكان للمدينة نصيب ضئيل منها، ففي عام ٤٥٣هـ ظهر الطاعون في الحجاز، وكان أكثر انتشاره في الريف، وهلكت منه قرى كثيرة، ووقعت بعض الإصابات في المدينة، ولكنه لم يتحول إلى وباء خطير فيها، وفي عام ٤٧٨هـ تكررت الإصابات، وصحبها أيضاً انتشار موت الفجأة وجدري الأطفال، وكان نصيب المدينة ضئيلا أيضاً(٣)،

---

١) انظر الكامل ١٩١/٨ - ٢١٤.

٢) انظر: التاريخ الإسلامي ٢٠٨/٤ و د٠حسن ابراهيم حسن: تاريخ الدوله الفاطميه ٢٣٩

٣) انظر المنتظم ١٩/٥-

المدينة في القرن السادس

حمل القرن السادس إلى المدينة المنورة قدراً أوفر من الاستقلال الذاتي، والبعد عن الأحداث العامة الكبيرة، فالصراعات تدور في أطراف العراق وخراسان والشام ومصر. والصليبيون يحتلون شريطاً ساحلياً ممتداً من جنوب تركيا إلى حدود مصر، ويهددون بعض المدن في الشام ومصر. والمدينة بعيدة عن ذلك كله.. تعيش حياتها اليومية العادية، وتتأثر بما يجري خارجها وتضطرب لغارات بعض القبائل على الطرق المؤدية إليها، ويزداد اضطرابها عندما تغير على بيوت المدينة نفسها فتنهب وتسرق. أما ما سوى ذلك فلايسجل التاريخ أحداثاً مهمة في المدينة. بل إن التاريخ يضن علينا بأسماء أمرائها لفترة طويلة، فالأمير الذي استقبل القرن السادس الهجري مهنا بن منصور بن عمارة توفي عام ٥٠٧هـ وأول أمير نجد أخباره من بعده هو القاسم بن مهنا، الذي تولى الامارة عام ٥٦٣ هـ واستمر فيها إلى عام ٥٨٨هـ. فهناك أميران أو أكثر لانعرف أسماءهم ولامدة إمارة كل منهم.

لذلك ليس لنا إلا أن ننظر في الأمور العامة التي جرت في المدينة خلال هذه المدة، قبل أن يتولى القاسم بن المهنا الإمارة.

الولاء السياسي لأهل المدينة:

كان ولاء أهل المدينة في هذا القرن للعباسيين، حيث ترتفع الرايات السوداء على الإمارة، وينصب علمان أسودان بين يدي خطيب المسجد النبوي، ويدعى للخليفة العباسي على المنابر.

وكانت المدينة تستقبل في كل موسم حج قافلة الحجاج القادمة من العراق، ومعها الأموال المخصصة للمدينة بدءاً بأميرها، ومروراً بنفقات المسجد النبوي وكسوة الحجرة التي تضم قبر رسول الله ﷺ، ووصولا الى

أعطيات الأشراف وصدقات الفقراء والمجاورين.

وكانت الأموال الواردة إلى المدينة تضم مايرسله بعض الأثرياء الذين يتطوعون بالصدقات على فقراء الحرمين، أو بإقامة الأربطة للمقيمين والمجاورين والزائرين أو ما يوصون به في هذه السبل، فتخرج بعد وفاتهم. وقلما يخلو موسم منها.

وقد بلغت وصية أحد الأمراء، وهو معلم أبناء الخليفة في بغداد -أكثر من ثلاثين ألف دينار للمدينة- ومثلها لمكة(١).

غير أن الأموال المرسلة إلى الأمراء لم تكن كافية لسد نفقاتهم الخاصة والعامة، لذلك عمدوا إلى فرض رسوم على القادمين إلى المدينة لدعم وارداتهم وكانت هذه الرسوم تزعج القادمين.

ويذكر السمهودي أن بعض إمراء المدينة استولوا على الأراضي التي كانت موقوفة للمساكين من صدقات النبي ﷺ حوالي سنة ٢٠٥هـ وأخذوا ريعها لأنفسهم(٢) ورغم أن هذا الحدث كبير وخطير، يثير مشاعر المسلمين، ويعرض أمراء المدينة لمعاقبة الدولة العباسية او الفاطمية، فإنه مر دون أية ضجة، وفي تقديري أنه وقع تدريجياً، وأن الذي استولى على هذه الصدقات قد استغل فرص انقطاع الأموال القادمة من بغداد، أوقلتها، فأخذ بعض أموال الصدقة، ثم أخذها كلها، ثم أخذ المزارع ذاتها، وقد يكون عدد من الأمراء المتوالين قد فعلوا ذلك بالتواطئ مع القائمين عليها..

ولاشك أن انشغال الخلافتين العباسية والفاطمية بالحوادث المضطربة آنئذ ساعد امراء المدينة على الاستقلال الكامل والتصرف بما يريدونه.. كما كانت الخلافة العباسيه مشغولة بمواجهة الصليبيين الذين استولوا على القدس في نهاية القرن الخامس ٤٩٢هـ.

---

١) المنتظم ٩ / ٢١٩ - البداية والنهاية ١٢ / ٢٠ -

٢) وفاء الوفاء ٢/٩٩٤ -

وقد أدت هذه المعارك إلى اضطراب قوافل التجارة وقوافل الحج القادمة من الشام عدة مرات، الأمر الذي يؤثر على اقتصاديات المدينة المنورة.

فاذا أضفنا إلى ذلك استمرار بعض الأعراب في التعرض للقوافل التجارية وقوافل الحجاج أدركنا حجم العزلة والضائقة التي كانت تمر بالمدينة بين الحين والآخر، لذلك لم تتسع المدينة في هذه الفترة، ولم تخرج من السور الذي أحاط بها، ولم تحدث فيها أحداث مهمة يسجلها المؤرخون.

واشتهرت قبيلة (زعب) بغاراتها على قوافل الحجاج قرب المدينة المنورة، فقد أغارت عام ٥٤٥هـ على قافلة الحج ونهبتها وفتكت بعدد كبير من الحجاج(١)، وتكرر الأمر مرات كثيرة، حتى إنه لم يصل إلى المدينة في بعض المواسم (غير حفنة قليلة من الحجاج، وغلت الأسعار وقل الطعام)(٢) وكان أمراء المدينة عاجزين عن تأديبهم وعن تأمين الطرق المؤدية إلى المدينة، وعاجزين عن حماية المدينة نفسها، فقد تهدمت أجزاء من السور الذي مر أكثر من قرن ونصف على إنشائه، ولم يكن في الإمارة المال الكافي لترميمه وتقويته، كما لم يكن لها قوة كافية تتصدى لغارات الأعراب، لذا كثرت غاراتهم، فقد كانوا يفاجئون الناس ليلاً، فينهبون ما تصل إليه أيديهم، وربما يسبون بعض النساء والأطفال ثم يفرون إلى معاقلهم. فتأذى منهم أهل المدينة أذى شديداً.

سـور جـديـد للمديـنة:

شكى بعض أهل المدينة في عام ٥٤٥هـ إلى الوزير جمال الدين أبو محمد بن علي بن أبي المنصور الأصفهاني صاحب الموصل آنئذ ماتعانيه المدينة من هجمات الأعراب، وكان الوزير جمال الدين يلقب بـالجواد لشدة كرمه وكثرة صدقاته، فأمر الوزير ببناء سور محكم حول المدينة المنورة مكان

---

١) الكامل ٢٧/٩-

٢) الكامل ٩٢/٩-

السور القديم المتهدم، وأرسل نفقاته من ماله الخاص، وقد استوعب السور الكتلة المعمارية المحدودة التي كانت تتألف منها المدينة المنورة آنئذ(١)، وقد حفظ السور المدينة من شرور المغيرين عليها فيما بعد(٢) حتى إن خطيب المدينة كان يدعو له على المنبر بعد وفاته لأنه (صان حريم المدينة)(٣).

واللافت للنظر في هذه الأخبار ليس عجز إمارة المدينة عن تجديد سورها وحسب، بل إنشغال الخلافتين العباسية والفاطمية عن هذا الأمر الخطير، وإذا كنا نحسب للفاطميين بعدهم وعدم موالاة المدينة لهم، فإننا نعجب لانشغال الخلافة العباسية عن أمر المدينة والأخطار التي تهددها حتى يقوم بها فرد واحد استجابة لدافع إيماني خالص.

ولم يكتف جمال الدين ببناء السور، بل بنى رباطاً كبيراً فيها أوقفة لفقراء العجم الذين يجاورون في المدينة المنورة، وللزائرين في الموسم، في موقع دار عثمان بن عفان المسماة (الدار العظمى) وهي أكبر دور المدينة آنئذ (٤) وخصص غرفة منها ليدفن فيها بعد موته، واتفق مع أسد الدين شيركوه على نقل جثمانه إليها إن توفي بعيداً عنها. وقد نفذ شيركوه وصيته فأرسل جثمانه إلى المدينة ودفن فيها عام ٥٥٨هـ(٥).

ويذكر ابن كثير مآثر عدة للوزير جمال الدين وآثاراً في مكة والمدينة والطريق بينهما.

ومما يذكر في هذا السياق أن المبادرات الفردية هي التي كانت تقوم بأمر الأربطة والفقراء وبعض احتياجات المسجد النبوي، وأن مكانته ومكانة

---

١) الكامل ٨٨/٩ -

٢) البداية والنهاية ٢٦٧/١٢ - مرآة الحرمين ٤١٠/١ -

٣) النجوم الزاهرة ٣٦٥/٥

٤) عائشة بوقاسي: الحجاز في العصر الأيوبي ص ٩٦ -

٥) اتعاظ الحنفاء ٣ / ٣٠٧ - الكامل ١٤٤/٩-

المدينة في نفوس المسلمين في أقطار الأرض كانت تحثهم على إرسال الأموال إليها وتخصيص الأوقاف للانفاق على الأربطة وبعض المرافق الأخرى. ولا سيما مرفق المياه الكبير والحيوي في المدينة (العين الزرقاء).

الآثار الفاطمـــية في المدينة:

من المدهش أننا لانجد في المدينة المنورة أثراً عمرانياً للفاطميين، لافي المسجد النبوي، ولافي المرافق العامة، ولا في الأربطة الموقوفة على الفقراء والمحتاجين. وقد عرف عن الفاطميين اهتمامهم بالعمران، وبناؤهم بعض الأبنية المشهورة ولاسيما المساجد كالجامع الأزهر والجامع الأقمر وجامع الصالح وغير ذلك من الأبنية(١). وكذلك عرف عنهم اهتمامهم الشديد بمد نفوذهم إلى الحرمين وإنفاقهم الأموال الطائلة على قوافل الحجاج، ودفعهم الأموال لأمراء الحرمين لكسب ولائهم الاسمي والخطبة لهم على المنبر، فهل يكون إحساسهم بضعف ولاء امراء الحرمين لهم السبب في عدم إقامة الأبنية والمرافق فيها؟ أو حتى إعادة إعمار المسجد الحرام والمسجد النبوي أو ترك أية منشأة معمارية تحفظ ذكرهم.

محاولة ثانية لنقل جسد الرسول ﷺ:

ويذكر مؤرخ الدولة الفاطمية الكبير المقريزي حادثة خلاصتها: أن الخليفة الفاطمي الحافظ ـ الذي حكم مابين ٥٢٤ و ٥٤٤هـ ـ حاول أن ينقل جثمان رسول الله ﷺ الى القاهرة، فبعث أربعين رجلا من الأشداء، فتوجهوا إلى المدينة وأقاموا بها مدة، وحفروا سرباً من مكان بعيد، فعصم الله رسوله ﷺ منهم، ويقال إن السرب انهار عليهم فهلكوا، وقيل بل سُعي بهم

---

١) تاريخ الاسلام ٦١٩/٤ -

فأهلكوا (١) ولا يذكر هذه الحادثة مؤرخ غير المقريزي. غير أننا نذكر أن الحاكم العبيدي قد فكر بالأمر نفسه من قبل، واستعان بأمير مكة، ولكن الله رد كيده. لذلك لايستبعد نظرياً أن يكون الحافظ قد فكر بما فكر فيه سلفه الحاكم وكرر المحاولة ورد الله كيده أيضاً.

قوافل الحجاج المنكوبة:

منذ أن اكتمل بناء السور بأموال جمال الدين الأصفهاني الجواد أحس أهل المدينة والقاطنون فيها بشيء من الطمأنينة، فقد أمنوا غارات الأعراب ومفاجآت الليل، ولكن هذا الأمن لم يتعد سور المدينة إلى خارجها، أي الى الطريق شمالا أو جنوباً، فالقبائل المستوطنة خارجها مازالت تتربص بالقوافل المارة لتنهبها، لذلك كان المسؤولون عن القوافل يفاوضون رؤساء القبائل ويدفعون لهم الإتاوات مقابل عدم الاعتداء عليهم، وحمايتهم من اللصوص في المناطق التي يسكنونها، وإذا لم تبادر القافلة بالدفع تعرضت للنهب والقتل والاسترقاق.. وقد أغارت قبيلة زعب على قافلة عراقية قادمة من مكة الى المدينة عند منطقة (الغرابي) وكان أمير القافلة (قايماز) قد همّ بدفع إتاوة لزعب قبل أن يخرج من مكة، ولكن مرافقيه رفضوا الدفع، فخرج عليه بنو زعب وقاتلوهم، وظفروا بالحجاج، ونهبوا أموالهم ومتاعهم، وتفرق الحجاج في البر، وهلك منهم خلق كثير، ولم يسلم إلاالقليل(٢).

وتكرر هجومهم في العام التالي وكان في القافلة أخت السلطان نور الدين زنكي، فأخذوا منها مئة ألف دينار، ومات كثير من الحجاج جوعاً وعطشاً(٣).

---

١) اتعاظ الحنفا ٣/١٩٢.

٢) الكامل ٩ / ٢٧ واتحاف الورى ٢ / ٥١١ .

٣) الكواكب الدرية ١٣٦.

المدينة المنورة والأيوبيون:

لم يجد السلطان نور الدين زنكي بداً من مهادنة هذه القبائل وإرضائها، إذ كان مشغولا بمواجهة الصليبين وبعض الأمراء المحلين في الشام وحلب فأرسل إلى تلك القبائل أموالا، وأوقف لها ولبقية القبائل في الطريق من المدينة إلى الشام إقطاعات توفر لهم دخلا سنوياً، وأرسل إلى أميري الحرمين الشريفين أموالا لإصلاح بعض المرافق ولاسيما مجرى العين الزرقاء وعين الشهداء التي تجري بين أحد وقبر حمزة رضي الله عنه(١)،

ونتيجة لذلك قامت علاقة حسنة بين أمير المدينة والزنكيين. وأرسل نور الدين أموالاً كثيرة واشترى رباطاً وأوصى أن يدفن فيه بعد موته(٢).

وفي الوقت نفسه كان الفاطميون الذين أشرفت دولتهم على نهايتها يحرصون على شيء من المودة مع أمراء الحرمين، فقد أرسل رؤيك بن الصالح وزير العاضد - آخر الخلفاء الفاطميين - أموالاً الى أمير الحرمين ، ودفع عن الحجاج الرسوم التي تطلب منهم في مكة والمدينة، وللأعراب الذين تمر بهم قافلة الحجاج المصريين(٣)،

انتعاش محـدود:

أخذت المدينة تنتعش تدريجياً في ظل الأمان والسكينة والأموال الواردة من الشام ومصر، وأخذت البيوت تكثر حتى ضاق عنها السور. فتجرأ بعض السكان وبنى بيوتاً خارج السور، اعتماداً على حالة الأمن التي اضطردت أكثر من عقد من الزمان. وعندما كثرت الدور خارج السور أطمعت بعض الأعراب. فأغاروا عليها وسرقوا منها. فاضطرب الأمن الذي نعمت به المدينة المنورة لسنوات عدة. وأصبحت الحاجة ماسة لتوسعة السور ليحمي الدور الجديدة.

---

١) الكواكب الدرية ١٦ - ١٧ ودر الفوائد ٦٦٣ -

٢) اتحاف الورى ١٠ / ٥٢٢ -

٣) اتعاظ الحنفا ٢/١٧١ -

سور ثان للمدينة المنورة:

وفي عام ٥٥٧هـ حج نور الدين زنكي، وزار المدينة، فاستغاث به بعض الساكنين خارج السور وأخبروه بما يلحقهم من أذى شديد، فأمر ببناء سور جديد يشمل جميع بيوت المدينة داخل السور القديم وخارجه، فبني على وجه السرعة، وتم بناؤه في العام التالي ٥٥٨هـ، وقد بني هذا السور في مواجهة السور القديم تماماً واتسع ليضم المسافة الجديدة في الجهات كلها.

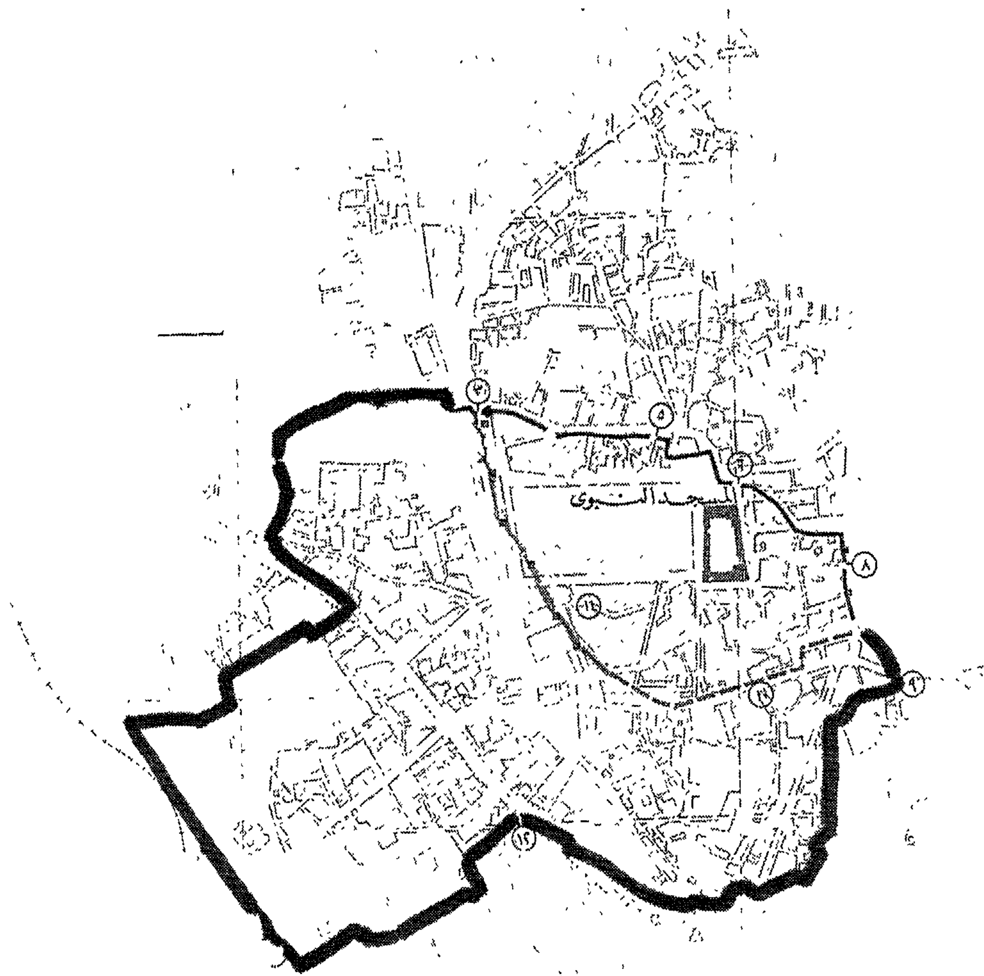
تحسين مرفق المياه في المدينة:

كانت شبكة مياه عين الزرقاء التي أنشأها مروان بن الحكم مصدر المياه الرئيسي لبيوت المدينة، وبمرور السنين تعطلت أجزاء من هذا المرفق وأصبح في حاجة للإصلاح، وعندما حج الوزير العباسي ابن أبي الهيجاء وزار المدينة رأى حاجة أهلها لإصلاح مرفق المياه، فأرسل بعد عودته أموالا كثيرة بنيت بها خزانات جديدة تجتمع فيها مياه عين الزرقاء وبعض العيون الأخرى، وأجريت صيانة لبعض الأقنية القديمة، وحفرت قناة جديدة من الخزانات إلى داخل المسجد النبوي، وبني في ساحته مكان للوضوء، وبنيت في بعض الأحياء التي تمر بها الأقنية موارد ينزل إليها الناس ليستقوا منها، واستفاد أهل المدينة من هذه التحسينات، باستثناء القناة التي مدت إلى داخل المسجد النبوي، فقد أساء بعض الزائرين استخدامها فأمر أمير المدينة باغلاقها بعد سنة واحدة من بنائها(١).

النصارى وقبر الرسول:

يسوق بعض المؤرخين حادثة تثير شيئاً من الجدل، خلاصتها أن نور الدين زنكي رأى في منامه رسول الله ﷺ ثلاث مرات في ليلة واحدة وهو يقول له في كل مرة: يا محمود أبعدني عن هذين الأشقرين، ويشير إلى شخصين تجاهه، فاستحضر وزيره وذكر له الرؤيا، فقال الوزير هذا أمر قد

١) أنظر: الحجاز في العصر الأيوبي ص ٨٩-٩٠



السور الثاني ويظهر من خلاله اتساع العمران في المدينة

حدث في مدينة رسول الله ﷺ ليس له غيرك. فتجهز نور الدين وخرج على عجل ومعه وزيره، ووصل المدينة في ستة عشر يوماً ودخلها على غفلة من أهلها، ومضى إلى المسجد فسلم على رسول الله ﷺ، ثم طلب أن يأتيه أهل المدينة جميعاً لينعم عليهم ، فجاؤوه، ولم يبق إلا رجلان من أهل الأندلس مجاوران قالا : نحن على كفاية ولا نقبل شيئاً، فجدّ في طلبهما، فجيء بهما، فلما رآهما تبين له أنهما اللذان رآهما في منامه، وحقق معهما فأنكرا، وأنكر أهل المدينة اتهامهما بشيء، لِمَا عُرف عنهما من نُسُك وصدقات، فذهب نور الدين إلى منزلهما، وكان قرب المسجد النبوي في مواجه الحجرة الشريفة، واكتشف بعد التفتيش أنهما حفرا نفقاً إلى الحجرة وقاربا الوصول إلى القبر الشريف، فقررهما، فاعترفا أنهما من النصارى، وأن بعض الملوك الصليبيين بذلا لهما مالاً كثيراً ليسرقا جسد الرسول ﷺ وينقلاه من المدينة، فضرب عنقيهما قرب المسجد، ثم أمر بحفر خندق عميق حول الحجرة، فحفر عميقاً حتى خرج الماء، فصب فيه رصاصاً كثيراً، وبذلك أصبح حول الحجرة سور عظيم من الرصاص(١).

وقد تناقل المؤرخون المتأخرون هذه الحادثة، فقبلها بعضهم، ورفضها بعضهم الآخرللأسباب التالية:

أولا : إن الله سبحانه وتعالى قد تكفل بحماية نبيه صلى الله عليه وسلم. ولا يعقل أن يستغيث رسول الله ﷺ بنور الدين.

ثانياً : إن المساحة المذكورة من النفق الذي حفره النصرانيان تقتضي نقل كميات كبيرة من التراب، ولايمكن نقلها دون أن يشعر بهما أحد.

ثالثاً : لو نجح النصرانيان في الوصول إلى القبر فكيف يستطيعان نقل جسد رسول الله ﷺ، والخروج به عبر البلاد الإسلامية دون أن يضبطا. لذلك لايمكن أن يفكر أحد بهذا العمل..

---

١) الكواكب الدرية ٧٢، وفاء الوفاء٢/٦٥ -.

وينتهي بعضهم الى أن هذه الحادثة من صنع الخيال، وأن الداعي لاختلاقها رفع درجة السلطان نور الدين محمود الزنكي(١).

ولو ناقشنا الأسباب التي أبداها المعترض لوجدناها تتساوى في ضعفها مع الرواية التي يرفضها. فقد اعتمد في قضية الاستغاثة على رواية للسمهودي، بينما الرواية التي وردت في الكواكب الدرية (ص ٧٢) ليس فيها استغاثة. إنما طلب، أو أمر، بإبعاد النصرانيين عن القبر.

ولاشك أن حفظ الله سبحانه وتعالى لرسوله مطلق في حياته وبعد وفاته إلى يوم الميعاد. وقد يكون من وسائل الحفظ تسخير بعض عباد الله لمعاقبة المعتدين على حرمة رسول الله ﷺ حياً وميتاً، للتشهير بهذا المعتدي، وليكون عبرة للكفار وضعفاء النفوس.. وقد نقل المؤرخون محاولة الحاكم الفاطمي نقل الجسد الطاهر إلى مصر، واشتداد الأمر على أبي الفتوح والي مكة. وفي إحدى الروايات أن أهل المدينة عندما علموا بالخبر جاؤوا إلى المسجد النبوي ومعهم مقرئ يعرف بالزلباني فقرأ (وإن نكثوا أيمانهم من بعدِ عهدهِم وطعنوا في دينِكم فقاتلوا أئمةَ الكفرِ إنهّم لاأيمانَ لهم لعلّهم ينتهون * ألاتقاتلون قوماً نكثوا أيمانهم وهموا بإخراج الرسول وهم بدؤوكم أولَ مرةٍ ، أفتخشونهم ، فاللهُ أحقُ أَنْ تَخشوه إن كنتم مؤمنين)(٢)، فماج الناس وكادوا يقتلون أبا الفتوح ومن معه من الجند، ولما رأى أبو الفتوح ذلك قال لهم: الله أحق أن نخشى، والله لو كان علي من الحاكم فوات الروح لما تعرضت للموضع، وحصل له من ضيق الصدر ما أزعجه؛ كيف نهض في مثل هذه المخزية؟ فما انصرف نهار ذلك اليوم حتى أرسل الله ريحاً كادت الأرض أن تتزلزل من قوتها، حتى دحرجت الإبل بأقتابها، والخيل بسروجها كما

---

١) انظر المدينة بين الماضي والحاضر ص ١٦٤ -والمسجد النبوي عبر التاريخ ص ١٣٩ -

٢) التوبه: ١٣/١٢

تتدحرج الكرة على وجه الأرض، وهلك أكثرها، وخلق من الناس، فانشرح صدر أبي الفتوح، وذهب روعه من الحاكم لقيام عذره(١).

وأما السبب الثاني، نقل التراب، فليس بعسير، ولن يعدم المجرمان طريقة هادئة لذلك.

وأما نقل الجسد الطاهر، فان تفكير الكاتب يختلف عن تفكير أبناء ذلك العصر، فلم يكن أولئك يحسبون الحسابات التي تدور في أذهاننا اليوم، ولم يكن السفر من بلد الى بلد على الجمال يخضع للتفتيش والمراقبة الموجودتين في عصرنا، فضلاً عن أن منافذ السفر لاتقتصر على نقاط حدود أو مطارات أو موانئ محددة.

فمن حيث المبدأ يمكن لبعض أعداء الإسلام أن يفكروا بما ورد في الخبر، خاصة وأن عصر الرواية هو عصر ذروة المشاعر العدائية ضد المسلمين، وهي المشاعر التي نتجت عنها الحروب الصليبية. لذلك كله لانستبعد القضية نظرياً.

غير أننا نجد أسباباً أخرى تثير بعض الشكوك حولها، هذه الأسباب هي سكوت المصادر التاريخية الكبيرة عن هذه الحادثة، كالبداية والنهاية، والكامل، وتاريخ ابن خلدون. وأول رواية للحدث نجدها عند جمال الدين أحمد بن محمد المطري صاحب كتاب ((تاريخ المدينة الشريفة)) وقد نقلها ابن قاضي شهبة في الكواكب الدرية في السيرة النورية ص ٧٢ -٧١، ونقلها السمهودي أيضاً، ولم يطعن فيها، رغم أنه ينقد الروايات التي يشك فيها، ولكنه تعجب من عدم وجود هذه القصة في كتابات من ترجم لنور الدين. ولعل السمهودي لم يطلع على كتاب السيرة النورية لابن قاضي شهبة، فقد وردت القصة فيه كاملة نقلاً عن المطري.

نخرج من ذلك كله إلى أن القصة محتملة الوقوع إذا تجردت من المبالغة

---

١) رسائل في تاريخ المدينة ص ١٣٢ -

الواردة في بعض الروايات، وبالذات قضية استغاثة رسول الله ﷺ بنور الدين.

ضائقة مؤقـــــتة:

في منتصف القرن السادس الهجري شهدت المدينة، وسائر الحجاز، ضائقة اقتصادية شديدة، فقد شحت الأمطار وانتشر القحط، وبلغ ذروته عام ٥٥٩هـ فقلّ الطعام، وجفت معظم العيون، ولم يستطع الحجاج زيارة المدينة لأن العيون التي يستقون منها في الطريق إليها قد نضبت، وانقطع كثير منهم في فيد والثعلبية وواقصة وغيرها، وهلك خلق كثير في البرية(١) وأضر القحط بزراعة المدينة، فقل المحصول، وغلت الأسعار غلاءً فاحشاً.

واستمر الحال على ذلك في العام التالي ٥٦٠هـ الى نهايته(٢) وفي العام الثالث جاء الفرج، فجادت السماء بالأمطار، وجرت الأودية، وعادت المياه إلى الينابيع، وتحسن المحصول ورخصت الأسعار، وتوافد الناس الى المدينة زائرين(٣)..

---

١) انظر اتحاف الورى بأخبار أم القرى ٢/٥٦٢-

٢) انظر الكامل ٩/٩٢ -.

٣) انظر المنتظم ١٠/٢٢٠

القاسم بن مهنا:

وفي الستينيات من هذا القرن تسلم الإمارة رجل تردد اسمه في كتب التاريخ، واقترن بالثناء العطر، وهو القاسم بن مهنا.

تولى القاسم إمارة المدينة عام ٥٦٣هـ بعد وفاة أبيه -الذي لاندري كم سنة أقام في الإمارة، ولم يرتبط اسمه بحدث مهم- وكان عاقلا تقياً محبوباً، كثير الأسفار. وهو أول أمير من أمراء المدينة بعد القرن الثالث الهجري يخرج من حدود الحجاز، ويتصل برجال العصر ويقيم معهم علاقات وطيدة، تعود آثارها الطيبة على المدينة وأهلها.

فقد سافر القاسم إلى بغداد عام ٥٦٦هـ عندما تولى الخلافة المستضيء، وأكد ولاءه للعباسيين، فسر الخليفة لذلك، وأصدر مرسوماً بتثبيته في الإمارة، تأكيداً لارتباط المدينة بالدولة العباسية(١) وتردد القاسم على بغداد بعد ذلك عدة مرات ونال أعطيات الخليفة له وللمدينة(٢). وسافر إلى مصر في العام التالي، واتصل بصلاح الدين الأيوبي، فأحبه صلاح الدين، وقامت بينهما علاقات طويلة، واصطحبه في بعض معاركه، وكان يتفاءل بوجوده معه ويستبشر بالنصر..

صلاح الدين الأيوبي في المدينة المنورة:

كان صلاح الدين الأيوبي منهمكاً بترتيب أمور بلاد الشام ومصر، والقضاء على الأمراء والملوك الذين فتتوا البلاد واستعانوا بالصليبيين، والإعداد لطرد الصليبيين من المنطقة، ورغم ذلك التفت إلى المدينة المنورة وأهتم بأحوالها بعد أن اتصل به أميرها القاسم، فقد أرسل إليها أموالاً كثيرة لإصلاح مرافقها، وتأمين الطريق إليها، وحفر الآبار فيها، وأرسل

---

١) انظر د.جميل حرب الحجاز واليمن في العصر الأيوبي صـ٦٨

٢) محمد بن تقي الدين: مضمار الحقائق وسر الخلائق ص ٣٩-٤٠ ، تحقيق حسن حسن حبشي. القاهرة ١٩٦٨-.

أموالاً للقبائل المقيمة على طريق الحرمين كي لايتعرضوا للحجاج والمسافرين، وطلب من أمير المدينة وأمير مكة إبطال الرسوم المفروضة على الحجاج والزائرين، وعوضهم عما كانوا يحصلون عليه من خزانته، فأبطلت الرسوم. وأرسل ثمانية آلاف إردباً قمحاً لتفرق على أهل الحرمين(١) وأرسل أربعة وعشرين خادماً خصياً لخدمة الحرم، وجعل عليهم شيخاً اسمه بدر الدين الأسدي، وكان هؤلاء بداية فئة الأغوات التي توالت على خدمة المسجد النبوي في الأجيال التالية، وارتبط اسمها باسمه، وأوقف لهم صلاح الدين قريتي قبالة ونقادة في صعيد مصر ليكون دخلهما رواتب دائمة لهم ولمن يخلفهم(٢) وأقنع صلاح الدين القاسم بن مهنا بحذف عبارة (حي على خير العمل) من الأذان، وكان الفاطميون قد أدخلوها على الأذان، وفرضوها على المدينة أيام نفوذهم فيها، وبقيت بعد زوال نفوذهم بسبب تشيع عدد من آل المهنا، فاستجاب القاسم لطلب صلاح الدين وأمر بحذف تلك العبارة من الأذان في المدينة، فحذفت، ووافق ذلك وصول أموال أخرى من الخليفة العباسي المستضيء لتصرف على المسجد النبوي، فبنيت فيه غرفة لحفظ ذخائره، ولاسيما المصحف العثماني الذي أصبح أقدم أثر فيه(٣) وعاشت المدينة فترة انتعاش في عهد صلاح الدين الأيوبي، ومعظم عهد الأيوبيين بعده، لايقلقها شيء سوى قلق الحملة الصليبية التي هددتها عام ٥٧٧هـ.

حملة صليبية تهدد المدينة:

كانت الحجاز بعيدة عن الحروب الصليبية منذ بدايتها، ورغم وصول الصليبين إلى أطراف مصر فانهم لم يتجهوا قط إلى الحجاز ولم يفكروا فيه. غير أن واحداً من عتاة الصليبيين حاول أن يغير مجرى تلك الحروب ويضرب

---

١) أنظر النجوم الزاهرة ٧٨/٦ و المدينة في العصر الأيوبي ٨٩ - ٩٠ -.

٢) أنظر : بدائع الزهور ٧٣/١ و السلوك : ج ١ قسم ٢ ص ٥٧ -.

٣) التحفة اللطيفة ١٧٦/١-.

المسلمين في أقدس بقاعهم، ولكن الله رد كيده إلى نحره، فدفع حياته ثمناً لمحاولته الفاشلة فيما بعد، هذا الصليبي هو: (رينولد دي شامون)، والذي يعرف في المصادر العربية باسم أرناط.

كان أرناط أحد القادة الصليبيين وأشدهم حقداً ولؤماً وغدراً، يعقد المواثيق مع المسلمين ثم ينقضها في أقرب فرصة، وقد وصفه ابن الأثير بأنه من شياطين الإفرنج ومردتهم وأشدهم عداوة للمسلمين، وكان يغير على المدن الإسلامية ويعيث فيها فساداً، فأسرة مجد الدين أبو بكر بن الداية، أحد قواد نور الدين زنكي، ومكث في الأسر خمس عشرة سنة ثم أطلق سراحه، فتزوج من أميرة نصرانية (اتبنت دي ميلي) ورثت مستعمرة صليبية في الأردن من أبيها، فانتقل إلى الكرك وجعلها مركزاً لغاراته على المسلمين، وتسلط على طريق القوافل بين الشام ومصر والحجاز وأخذ يغير عليها وينهبها ويفتك بالحجاج والمسافرين.

فكر أرناط بغزو الحجاز والوصول الى المدينة ومكة لطعن المسلمين في أعز مقدساتهم، فجهز حملة كبيرة اتجه بها الى الجزيرة العربية عام ٥٧٧هـ ووصل إلى مشارف تيماء، وأصبح طريقه إلى المدينة مفتوحاً، ففزع المسلمون لذلك، وكانت أول مرة تطأ فيها أقدام الصليبيين جزيرة العرب، ولم تكن في الحجاز قوة قادرة على التصدي للحملة، وكان صلاح الدين في الشمال مشغولا بترتيب أمور حلب والموصل، فلما بلغه الخبر أرسل إلى ابن أخيه ونائبه في دمشق فرخ شاه أن يتدارك الأمر، فجهز فرخ شاه حملة سريعة وسار بها إلى الكرك عاصمة أرناط ليأخذه من خلفه أو يجبره على الرجوع من الجزيرة العربية، ونجحت الخطة، وعاد أرناط إلى عاصمته مسرعاً عندما سمع بحملة فرخ شاه وترك غزو الجزيرة العربية، فأنقذها الله منه، ولم يرجع فرخ شاه عن الكرك إلا بعد أن وقع ارناط معاهدة بعدم التعرض لطريق المسلمين وقوافلهم.

غير أن أرناط لم يتخل عن مشروعه وراح يخطط له بخبث أشد، فقرر أن يتسلل إلى الحرمين من البحر الأحمر، ويفاجئ المدينة ومكة قبل أن يشعر به المسلمون ويجمعوا الجموع لصده، ولم يكن لأرناط ولا لأحد من الصليبيين سفن في البحر الأحمر، لذا بدأ بإعداد السفن في مدينة الكرك، ونقلها مفككة على ظهور الجمال إلى البحر الأحمر.

وأثناء ذلك اعترض قافلة كبيرة للمسلمين ذاهبة الى الحج، رغم أنه وقع قبل مدة وجيزة معاهدة بعدم التعرض للقوافل والحجاج، ونهب القافلة، وقتل كثيراً من الحجاج، فلما بلغ الخبر صلاح الدين غضب غضباً شديداً وأقسم ليقتلنه بيده إن ظفر به.

استفاد ارناط من الثروة الكبيرة التي نهبها من قافلة الحج، واستعان بها على إكمال صنع سفنه، واستأجر بعض الأعراب لنقلها على الجمال إلى العقبة، وأرسل معهم عدداً كبيراً من غلاة رجاله وأشدائهم، وفي العقبة جمع رجاله أجزاء السفن وأنزلوها إلى البحر الأحمر، وأبحروا فيها، دون أن يشعر بهم أحد، إلى شواطئ مصر في منتصف عام ٥٧٨هـ، ونجحوا في مفاجأة الموانيء التي نزلوها، فهاجموا ميناء عيذاب وقتلوا عدداً كبيراً من الآمنين ونهبوا السفن الموجودة في الميناء ثم أحرقوها، وكان فيها سفن شحنت بالميرة إلى المدينة ومكة، واستولوا على سفن قادمة من اليمن تحمل بضائع كثيرة، وقتلوا بحارتها ونهبوا مافيها ثم أحرقوها، وأبحر الصليبيون بعد ذلك إلى شواطئ الجزيرة العربية ونزلوا في الحوراء، وأحرقوا السفن التي وجدوها فيها، ثم انتقلوا إلى ينبع، فوجدوا سفناً قادمة من اليمن وبها بعض التجار المسلمين، فاستولوا على السفن وأسروا التجار. ثم نزلوا إلى الساحل وهاجموا القرى والبدو الذين صادفوهم، وفتكوا بهم ونهبوا أموالهم، ونجا من بطشهم من استطاع الفرار وأشاع الخبر حيثما وصل، فانتقل الخبر مع الركبان في كل إتجاه، وعظم البلاء، وأشرف أهل المدينة على الخطر، وكان



كانت القوة التي أرسلها أرناط أول قوة صليبية تبحر في بحر القلزم (البحر الأحمر)

أمير المدينة القاسم بن مهنا مسافراً الى الشام ليلقى صلاح الدين، وكان نائبه لايملك شيئاً يستطيع به أن يدفع الغزاة الذين صاروا على بعد ليلة واحدة منها(١).

بلغ الخبر صلاح الدين بعد أن ضربت السفن الصليبية مرفأ عيذاب، وكان متجهاً من الشام إلى حوران جنوباً، فأرسل على وجه السرعة إلى نائبه في مصر الملك العادل أبو بكر بن أيوب أن يوجه الأسطول بقيادة الحاجب حسام الدين لؤلؤ فوراً في أثر الغزاة، فاندفع الأسطول المصري إلى ميناء إيلة حيث وجد بقية من سفن الصليبيين المنقولة فقضى عليها كي لاتكون مدداً لهم، واتجه نحو عيذاب، ولما وصلها وجد الصليبيين قد خرجوا منها، فتتبعهم إلى شواطئ الحجاز، وعثر على سفنهم في ميناء الحوراء في أوائل شوال عام ٥٧٨هـ، ووجد عدداً كبيراً من التجار المسلمين وقد أخذوا أسرى ونهبت بضائعهم وأموالهم، وتغلب على الحامية الصليبية الباقية للحراسة، وفك أسر التجار ورد إليهم أموالهم، واستعان بأهل المنطقة لتتبع أثر المتوغلين نحو المدينة، وكانوا ثلاثمئة رجل كما يروي العلمي(٢) وعلم الصليبيون المتوغلون نحو المدينة بوصول لؤلؤ إلى ينبع، وسيره نحوهم، وأدركوا أنهم إن دخلوا المدينة وقعوا بين فكي كماشة، فأهلها سيقاومونهم، ولؤلؤ سيدركهم من خلفهم، لذلك قرروا التحول إلى المرتفعات والاعتصام بها، حيناً من الوقت ثم شن الغارة على رجال لؤلؤ وعلى المدينة، فاتجهوا إلى الجبال القريبة واعتصموا بها وعلم لؤلؤ بتحركهم، فاشترى خيولا نشطة، وركب مع رجاله في أثر الصليبيين، وصعد إلى المناطق الوعرة، وظل يتبعهم خمسة أيام متوالية حتى وجدهم، وبعد معركة قاسية انتصر لؤلؤ ورجاله على الصليبيين الغزاة وقتل مائة وثلاثين رجلا منهم وأسر مائة وسبعين وأنزلهم من الجبال

---

١) المقريزي انقاظ الحنفاء ٧٢/١-
٢) الأنس الجليل ٢٨/١



وصـار الصليبيون على مسـافة ليلـة واحدة من المـدينـة. ولكن القـائـد حسام الدين لؤلؤ ورجاله استطاعوا الوصول إليهم فقتلوا بعضهم وأسروا الباقين

مقيدين.

وفي مطلع ذي القعدة من العام نفسه وصلت البشرى إلى المدينة المنورة ففرح أهلها فرحاً عظيماً، ورأوا بعض الصليبيين يقودهم جنود لؤلؤ ويتجهون بهم إلى مكة ليقتلوا على مرأى الحجاج، وعلموا أن لؤلؤاً وبقية رجاله عادوا إلى مصر ببقية الأسرى(١) وقد كتب صلاح الدين الى أخيه الملك العادل بمصر أن يضرب أعناق الأسرى في هذه الحملة لأنهم تجرأوا على مقدسات المسلمين، ولأنهم عرفوا الطريق إلى المدينة ومكة واطلعوا على عورات المسلمين في البحر الأحمر، ولايقبل فيهم فداء ولايطلقهم، كي لايفكر الصليبيون بعدها بالدخول إلى الجزيرة العربية، وقام كاتبه الأثير القاضي الفاضل بتدبيج رسالة بليغة في ذلك، وكان مما قاله فيها (ليس في قتل هؤلاء الكفار مراجعة ولا في استبقاء واحد منهم مصلحة، وللتغاضي عنهم عند الله عذر مقبول، فليمض العزم في قتلهم ليتناهى أمثالهم عن فعلهم)(٢) وقال في رسالة أخرى: (هؤلاء الأسارى قد ظهروا على عورة الإسلام وكشفوها، وتطرقوا بلاد القبلة وتطوفوها، لوجرى في ذلك سبب والعياذ بالله لضاقت الأعذار إلى الله والخلق، وانطلقت الألسن بالمذمة في الغرب والشرق، ولابد من تطهير الأرض من أرجالهم والهواء من أنفاسهم، بحيث لايعود منهم مخبر يدل الكفار على عورات المسلمين)(٣).

ومن وقتها لم يعد صلاح الدين يأمن من أرناط على الحجاز وعلى الحجاج، فبعث عيونه ليراقب تحركات أرناط، وأرسل الجنود لمرافقة قافلة

---

١) الكامل ٩/١٦٠-.

٢) الروضتين ٢/٣٧ -

٣) ذيل الروضتين ٢ / ٣٦ و انظر خبر هذه الحملة : سنا البرق الشامي ص ٢١٢ و ابن جبير ٣٣ / ٣٤ و ابن شداد : النوادر السلطانية ٧٨ و المقريزي : السلوك ١ ح قسم ٢ ص ٧٩ و العلمي : الانس الجليل ١/٢٨٠ -

مخطط حملة أرناط الصليبية على الحجاز والتي وصلت إلى مسافة ليلة واحدة من المدينة

الحجاج، وخرج بنفسه في العام التالي لمصاحبتهم من حوران، وأخذ يعد للقضاء على أرناط ورصفاءه من الصليبيين.. واستطاع بعد عامين أن يحشرهم في معركة حطين ويقضي على جيوشهم.. وأسر عدداً من ملوكهم وقادتهم بينهم أرناط، وبر بقسمه فقتل أرناط بيده جزاء وفاقاً لجرأته على الحرمين(١)،

ومن االلافت للنظر في أخبار هذه الحملة أن المدينة المنورة كانت كجزيرة معزولة لاحول لها ولاقوة، فهي لاتملك جيشاً يذب عنها الغزاة، والسور الذي لم يمض وقت طويل على بنائه لم يكن كافياً لدفع الغزاة، والقبائل التي تحيط بالمدينة لاتتحمس لاعتراض الغزاة والايقاع بهم، وأقاربهم الهاشميون في مكة لايفعلون شيئاً لنجدتهم. ويبدو أن الضعف والتفكك كان عاماً في المنطقة، وأن الخصومات بين القبائل حالت دون تشكيل قوة تقف في وجه.. ثلاثمئة صليبي.. وربما يكون للمفاجأة أثر في هذا الموقف.. فالحجازيون لم يحسوا قط بخطر الصليبيين، ولم تقترب منهم عواصف الحرب التي تدور في الشام ومصر، ولم يكونوا يتوقعون أن تدنس أرضهم أقدام الصليبيين. لذلك لم يعدوا للأمر عدته.. وفاجأهم الغزاة فلم يتصرفوا على الوجه المطلوب.

والمتوقع أن الغزاة لايعرفون الطريق الى المدينة ولايستطيعون المضي في الحجاز دون دليل. ولابد أنهم استعانوا ببعض الأعراب سواء بالتهديد أوبالاغراء.. وقد نجحوا من قبل في خداع بدو الأردن وجعلوهم ينقلون لهم سفنهم المفككة على جمالهم وأوهموهم أنهم ينقلون بعض البضائع ليس غير.

على أي حال كان التفكك في الجزيرة العربية عاماً، وكان انشغال صلاح الدين بمواجهة الصليبيين ومكانة الحرمين الكبيرة في نفسه ومكانة أميرها أيضاً، يصرفه عن تغيير الإمارة فيها وضمها الى سلطنته. ومع أنه وجه أخاه سيف الدين إلى اليمن ليدير شؤونها مباشرة، فإنه اكتفى بذكر اسمه في

---

١) الكامل ٩ / ١٧٨ و ابن شداد ص ٧٨ -

الخطبة على منابر الحرمين الشريفين بعد اسم الخليفة، وأقر الحسينيين في المدينة على إمارتهم ولم يتدخل في شؤونهم على الإطلاق، كما أقر الهاشميين على إمارتهم في مكة ولم يتدخل في شؤونهم أيضاً.

خطيــب جشــع:

رغم الأموال المتدفقة على المدينة، يحدثنا ابن جبير الذي زار المدينة عام ٥٨٠هـ عن واقعة يستفظعها ويستصرخ بسببها للإسلام، وهي أن خطيب المسجد النبوي جلس بعد الخطبة الأولى، وقام عبيده والمردة يدورون في الصفوف ويجمعون له من الحاضرين الأموال والعمائم والثياب والذهب والفضة، حتى تجمع كوم عظيم، فقام وخطب الخطبة الثانية(١) ويقرر ابن جبير أن هذا الخطيب كان على مذهب غير مرض، وأنه استغل الزائرين من الأعجام والأغراب والقادمين في موسم الحج.

ولعل الأمر لايعدو أن يكون جشعاً من شخص الخطيب. وليس عادة متبعة أوصورة للحالة الاقتصادية في المدينة، فقد أنكر -كما يروي ابن جبير- عدد من الحاضرين هذه الكدية وعلت أصواتهم بالاحتجاج، ولكن الخطيب لم يأبه لهم وظل متوقفاً عن الخطبة حتى تجمع له كوم عظيم من العطايا(٢) ولانجد في حديث ابن جبير أية إشارة إلى ضائقة اقتصادية في المدينة، وأغلب الظن أن المدينة قد نعمت بفترة هدوء ورخاء طيلة إمارة القاسم بن مهنا التي امتدت خمسة وعشرين عاماً (من ٥٦٣ - ٥٨٨ هـ)، وباستثناء حملة أرناط الفاشلة لم تتعرض المدينة لأية حروب أو تهديدات خطيرة.

---

١) رحلة ابن جبير ص ١٧٩

٢) المصدرالسابق -

المدينة في عهد سالم بن قاسم بن مهنا:

توفي الأمير قاسم بن جماز وانتقلت الإمارة بهدوء إلى ابنه سالم بن قاسم، وكان شاعراً وشجاعاً، سار على نهج أبيه في إقامة العلاقات الطيبة مع كل من الأيوبيين والخليفة العباسي. فبعد وفاة صلاح الدين الأيوبي عام ٥٨٩هـ راسل أخاه العادل وخطب له على المنبر بعد الخليفة(١) وسافر في العام التالي لزيارته ولزيارة الخليفة العباسي الناصر.. وكان لهذه العلاقات الطيبة آثار حسنة على المدينة وأهلها، وفوائد جمة في الأحداث اللاحقة.

وانتهزت بعض القبائل فرصة غياب الأمير سالم بن قاسم عن المدينة، فطمعوا في الإغارة عليها ونهبها.. وكان في مقدمة الطامعين بعض رؤساء قبيلة زعب، التي سبق أن هاجمت قوافل الحجاج.. فاجتمع هؤلاء الطامعون في جمادى الآخرة عام ٥٩٠هـ وتحركوا إلى المدينة. ووصل الخبر إلى المدينة.. فجمع الأمير هاشم بن قاسم شقيق سالم ونائبه في إمارة المدينة، مالديه من رجال، وخرج بهم إلى ظاهر المدينة لملاقاة الغزاة وقتالهم، كي لايحاصروا المدينة ويخربوا سورها.. ووصلت جموع زعب ومن معهم، ودار قتال شرس، واستبسل هاشم ورجاله.. ولكن الغزاة كانوا أكثر عدداً وأشد فتكاً. فاستشهد هاشم وقتل عدد من رجاله. وبدأ الآخرون بالهرب إلى المدينة.. فتبعهم الغزاة واستفادوا من حالة الفزع التي دبت بين المدافعين ودخلوا المدينة، ونهبوا ماوصلت إليه أيديهم من الدكاكين والبيوت، ومكثوا أياماً قليلة، والناس في ذعر شديد.. ثم خرجوا إلى بلادهم(٢).

عاد سالم بن قاسم إلى المدينة واهتم باصلاح ماأفسده الغزاة في السور وداخل المدينة، ولكنه لم يهتم بإنشاء قوة عسكرية ثابتة في المدينة تحفظها من أطماع الغزاة، وسرعان مانسي الناس تلك الغزوة وانخرطوا في شؤونهم

---

١) البداية والنهاية ١٣ / ص ٣ -

٢) انظر: الكامل ٩ / ٢٣١ و الحجاز واليمن في العصر الأيوبي ٧٩ - ٨٠ -

اليومية.

وتوالت سنوات القرن السادس على المدينة بهدوء وسكينة، والأموال التي تصلها من الأيوبيين والعباسيين والزائرين تسد حاجة الإمارة الصغيرة وتسعف فقراءها والمجاورين في أربطتها. وكانت قبائل السرويين تأتي كل موسم من اليمن، تحمل الميرة والطعام والفواكه الميبسة، فيقضون حجهم ويسارعون إلى المدينة، ومعهم طعام كثير يوزعونه على المجاورين والفقراء(١) وقد اهتم الملك العادل بالحرمين كاهتمام صلاح الدين، فواصل إرسال الأموال والأعطيات، وبخاصة بعد أن اتسع ملكه وشمل البلاد التي كان يحكمها أبناء صلاح الدين، ودعي له على منبرالمسجد النبوي في المدينة والمسجد الحرام بمكة(٢). لذلك نجد بعض الناس في مصر يلتجئون إلى المدينة ومكة عام٥٩٧ هـ عندما هبط النيل واشتد عليهم الغلاء والوباء(٣). فودعت المدينة المنورة القرن السادس الهجري وهي في سكينتها ووداعتها وحياتها الهادئة، خلافاً لما كانت عليه مكة، التي عصف بها الصراع على الإمارة حتى استولى عليها أمير ينبع أبوعزيز قتادة بن إدريس عام ٥٩٧ هـ. ثم تطلع بعد ذلك إلى المدينة ليفسد هدوءها في مطلع القرن السابع الهجري كما سنرى في الصفحات القادمه.

---

١) ابن جبير ص ١٤٣-

٢) النجوم الزاهرة ١٩٦/٦-

٣) النجوم الزاهرة ١٧٣/٦ -

المدينة المنورة في القرن السابع الهجري

فتن واضطرابات:

مع مطلع القرن السابع تضطرب حياة المدينة المنورة شيئاً ما، ثم تشهد أحداثاً عاصفة وصدامات مع أمير مكة أبي عزيز قتادة بن إدريس ورجاله.

ونظراً لأثر الأحداث التي جرت في مكة على المدينة نقف قليلاً عند بدايتها لنفهم امتداداتها الى المدينة بعد ذلك.

كانت مكة إمارة مستقلة تتبع اسمياً للأيوبيين، ويخطب لهم على منابرها كما هو الحال في المدينة، وكان أميرها مكثر بن عيسى الهاشمي يدير شؤونها منذ عام ٥٧١هـ، وقد طرده أمير الحج طاشتكين منها لبعض الوقت، ونازعه أخوه داود في إمارته مدة يسيرة، وصفت له منذ عام ٥٨١هـ حيث جاء الأمير طغتكين شقيق صلاح الدين الأيوبي وأقره عليها. واعترافاً بالجميل بادر الأمير مكثر بإلغاء عبارة (حي على خير العمل) من الأذان في مكة، وصك الدراهم باسم صلاح الدين وألغى المكوس عن الحجاج لقاء المبالغ التي أرسلها إليه صلاح الدين(١).

ولكن مكثراً لم يستقم على هذا الحال مدة طويلة.. فقد أعاد بعد سنتين فرض المكوس على الحجاج، وتغاضى عن اعتداءات بعض الشيبيين والأعراب ونشط قطاع الطرق فلم يتصد لهم، وانهمك في اللهو، واحتاج لمزيد من المال فصادر بعض أموال التجار القادمين ببضائعهم إلى مكة، وكثر ظلمه، ولم يعد أهل مكة وحجاجها يأمنون شره وشر رجاله، كما أن بعض قادته أخذوا يتذمرون من سوء معاملته.

وبعيداً عن مكة.. في منطقة ينبع الواقعة بينها وبين المدينة، كان الأمير قتادة بن إدريس ينشر نفوذه في القبائل المستوطنة في المنطقة، وقد تحالف مع بعض القبائل، وحارب بعضها الآخر، حتى دان له وادي ينبع وماجاوره

---

١) ابن جبير ص ٤٩.

بالطاعة (١) وبلغ الأمير قتادة سوء الأحوال في مكة.. وجاءه في مطلع عام ٥٩٧هـ بعض التجار يشكون إليه مالحقهم من ظلم الأمير مكثر وحاشيته، وقصوا عليه عدداً من الأخبار في ذلك وحثوه على التدخل لدى الأمير فوعدهم خيراً. ويبدو أن هذه الأخبار قد حركت مطامع قتادة الطموح، وجعلته يفكر بالاستيلاء على مكة ونقل إمارته إليها.. فدعا أصحابه وأعوانه واستشارهم في الأمر فوافقوه على رأيه..

وعلى الأثر جهز قتادة جنوده وزحف بهم إلى مكة.. وسبقت أخباره إلى الأمير مكثر.. فلم يعبأ بالأمر استخفافاً به، واستمر في لهوه وملذاته.. حتى فاجأه أبو عزيز على أبواب مكة، ورأى جيشه الكثيف.. فلم يجد حيلة سوى الهرب، وترك مكة فدخلها قتادة في السابع والعشرين من رجب عام ٥٩٧هـ وكان معظم أهلها مشغولين بالعمرة، فلم يلق قتالا، فاتجه إلى الإمارة وأعلن انهاء إمارة الهواشم وبدء إمارة جديدة(٢).

هرب الأمير مكثر إلى منطقة نخلة قرب مكة، ويئس من استرجاع إمارته لما بلغه من قوة قتادة، ومات بعد سنة واحدة. وحاول ابنه محمد عام ٦٠٠هـ استعادة الإمارة فجمع بعض الأشراف والأتباع وسار بهم إلى مكة، فتصدى له حنظلة بن قتادة وهزمه شر هزيمة.. فعاد إلى نخلة. واستتبت الأمور لقتادة ولم يفكر الهاشميون باستعادة الإمارة منه بعد ذلك..

أرسل قتادة إلى الخليفة الناصر العباسي يطلب إقراره، وخطب له على المنابر فأقره الخليفة على إمارة مكة..

ولكن قتادة لم يكتف بما حصل عليه، وتطلع إلى بقية الحجاز واليمن.. وسرعان ماتجهت أنظاره إلى المدينة المنورة التي كانت تعيش هادئة وادعة في ظل الأمير سالم بن قاسم..

---

١) العقد الثمين ج ٧/٤٠.

٢) انظر سمط النجوم ٤/٢٠٨.

بدأ قتادة يعد جيشه للزحف على المدينة بعد هزيمة محمد بن مكثر مباشرة..

قتادة يهاجم المدينة:

وصلت الأخبار إلى المدينة وسرت بين الناس وانقلبت السكينة قلقاً واضطراباً، ودهش الحسينيون لعدوان ابن عمهم، فلم يسبق لهم أن آذوه بشيء. وعقدوا الأمر على مواجهة المعتدي وقتاله. وأمر الأمير سالم بتجهيز قوة لمواجهة الزحف قبل أن يصل إلى المدينة، وخرج المنادون يحضون الناس في الأسواق وعلى المنابر للانخراط في القوة المسلحة والإسهام بتجهيزها بما يلزمها من مؤن وسلاح.. وخلال أيام قليلة تشكل في المدينة جيش صغير.

خرج جيش قتادة من مكة قبل أن يتم استعداد أهل المدينة، ولما صار على مقربة منها خرج جيش المدينة لملاقاته، وتواجه الطرفان عند ذي الحليفة، ودارت معركة ضارية، واستبسل فيها المدنيون وأوقعوا في جيش قتادة خسائر كبيرة، ولكن جيش قتادة كان أكبر من جيش سالم، وأكثر منه خبرة في الحرب.. لذلك استطاع أن يضغط على جيش سالم وأن يوقع فيه عدداً من القتلى ثم يضطره إلى التراجع..

وأخذ سالم ورجاله يتقهقرون إلى المدينة وهم يدفعون خصومهم ماستطاعوا، وأخيراً أمر سالم قسماً من جيشه بمشاغلة الغزاة بقية اليوم ريثما ينسحب القسم الآخر إلى ماوراء السور.. فإذا حل الظلام وتوقف القتال انسحبت المجموعة المقاتلة بهدوء إلى المدينة.. ونجحت الخطة وعاد الجيش إلى المدينة بعد أن خسر عدداً من رجاله وأغلق عليه الأبواب..

وفي الصباح اكتشف قتادة انسحاب المدنيين فأمر بمحاصرة المدينة، ونشر رجاله على امتداد السور أملا في أن تستسلم له المدينة أو ينفذ إليها بعد حين..

كان قتادة مغروراً بنفسه وجيشه، وزادته هذه الوقعة غروراً واستهانة

بأهل المدينة، وحسب أنهم سيسلمون له بعد حين.. لذلك لم يفعل شيئاً سوى الحصار والمراقبة، وامتد الحصار أياماً. كان جيش قتادة يلتقط فيها أنفاسه ويستريح من السفر الطويل والقتال المرهق الذي شهده..

كان جيش سالم يعيد تنظيم صفوفه ويعوض خسائره برجال لم يشاركوا في المرة الماضية، وكانت دكاكين الحدادين والنجارين تصنع مزيداً من الأقواس والسهام والرماح والسيوف والتروس.. وشهدت الساحات الضيقة داخل المدينة تنظيم الجيش إلى مجموعات وتدريب الأفراد الجدد وتنشيط الذين شاركوا من قبل.. وفي الوقت نفسه كان عدد من الرجال يتناوبون الحراسة على أطراف السور كي لايفاجئهم رجال قتادة بتسلل أو هدم..

ومع امتداد الحصار ركن جيش قتادة إلى الراحة مستفيداً من البساتين المحيطة بالمدينة.. فقد استباحها ونعم بما فيها من تمور ممتازة ومياه عذبة وخضار وفواكة أخرى.. بينما كان أهل المدينة يعيشون على ماخزنوه في بيوتهم. وقرر سالم أن يستخدم سلاحاً آخر إضافة إلى أسلحة الحرب هو سلاح الدهاء والسياسة والمال، فبعث عدداً من رجاله إلى أطراف السور يخاطبون من يعرفونهم من رجال قتادة.. وبخاصة قادتهم ومقدميهم، وأخذوا يحاورونهم عبر السور ويثبطونهم عن القتال بطرق شتى: بمناشدتهم الله والرحم، وبعدم وجود مسوغات لهذه الحرب سوى أطماع قتادة، وإغرائهم بالمال إذا نكثوا عنه. وقد نجحوا في استمالة بعضهم وحصلوا منهم على وعود قاطعة ألا يقاتلوهم إذا وقع القتال..

وسر سالم بهذه النتيجة وقرر أن يخرج إلى قتادة ليدفعه عن المدينة.

ويروي صاحب إتحاف الورى(١) أن سالم بن قاسم لما فرغ من تنظيم جيشه داخل السور وقرر الخروج إلى قتادة، ذهب إلى المسجد النبوي، وصلى عند الحجرة الكريمة، ودعا الله أن ينصره على عدوه قتادة، وألح في الدعاء وأخلص فيه، ثم خرج برجاله للقاء قتادة، ودارت بينهما معركة حامية، وقتل عدد من الفريقين، واستبسل سالم ورجاله، ونكث بعض رجال عنه وفاء بعدهم لأهل المدينة من قبل، فمالت الكفة إلى جيش سالم وانتصر أهل المدينة وطردوا قتادة وجيشه، وأسروا بعض رجاله، ومنهم وزيره ومساعده الأكبر ابن الريحاني، وغنموا غنائم وافرة، رغم الفرق الكبير بين الجيشين(٢).

العين بالعين: جيش المدينة يحاصر مكة:

قبل أن يستريح الجيش وينفرط عقده قرر الأمير سالم مطاردة قتادة والقضاء على قوته كي لايطمع في المدينة ثانية، وخرج في اليوم الثاني في إثره، وعلم قتادة بالأمر، فأسرع السير ووصل مكة قبل أن يدركه جيش المدينة ودخلها وأغلق عليه أبواب سورها، ومالبث سالم ورجاله أن وصلوا

---

١) إتحاف الورى ٣/٣.

٢) انظر الكامل ٢٦٩/٩، وابن خلدون ١٤١/٤، ويعرض ابن خلدون صورة أخرى للمعركة، فيروي أن قتادة يئس من استسلام أهل المدينة، فرحل عنها، وبعد رحيله مباشرة وصل مدد من قبيلة لام -إحدى بطون همدان- فتقوى به سالم وخرج لملاحقة قتادة، فأدركه في بدر، واقتتل الفريقان قتالا شديداً، وهلك منهم خلق كثير، وانهزم قتادة إلى مكة، ويسمي المعركة معركة المصارع، لأن قتادة تمثل فيها بيت يقول فيه:

مصارع آل المصطفى عدن مثلما بدأن ولكن صرن بين الأقـــارب

ويكشف هذا البيت إحساس قتادة بالمرارة لهذه المعركة، وهو إحساس يناقض ما نراه في شخصيته وسلوكه، فهو الذي بدأ العدوان على المدينة، وهو الذي جرد السيف لقتال أبناء عمه، هذا الاحساس استيقظ فيه متأخراً بعد خسارته في المعركة.. انظر ابن خلدون ١٤١/٤ والحجاز واليمن في عصر الأيوبيين ص ٣٩.

إلى مشارف مكة وانتشروا حولها فانعكست الآية، وأصبح المحاصرون يحاصرون، والمهاجمون مدافعين، وكما عاشت المدينة أياماً صعبة من الحصار والقلق والخوف عاشت مكة أياماً مماثلة، وكما استبسل سالم ورجاله في المدينة من قبل استبسل قتادة ورجاله ورفضوا التسليم للمحاصرين، وأخذوا يعدون العدة لكرة أخرى.

كانت مشاعر الثأر تملأ سالم ورجاله، ولكن هذه المشاعر بدأت تهدأ بتوالي أيام الحصار، فقد هدأ الغضب تدريجياً، وتحول إلى رغبة في معاقبة قتادة ورجاله وإذلالهم، وعمد قتادة إلى ماعمد إليه سالم من قبل، فاستنهض من المكيين من لهم أدنى صلة بأهل المدينة، ومن نكصوا عن القتال في الموقعة الأخيرة، وبثهم ليحاوروا المحاصرين ويقنعوهم بوقف إراقة الدماء ومراعاة حرمة البلد الأمين.

ومثلما أثر المدنيون في المكيين من قبل وجعلوا بعضهم ينكصون عن محاربة إخوانهم، أثر المكيون في بعض المدينيين، وبخاصة بعد أن فقد المدنيون الدافع القوي الذي كان فيهم من قبل للقتال، دافع حماية النفس والأهل والمال والبلد، والمدنيون بطبعهم أرق عاطفة وأكثر استجابة للحسنى، لذلك بدأ بعضهم يتحدث عن جدوى الحصار ومغزى الحرب، وتحول الهمس إلى كلام مسموع انتقل إلى سالم بن قاسم، فأدرك سالم أن عدداً من رجاله بينهم بعض قادته قد ينقلبون عليه، وأنه إذا خرج إليه أهل مكة مدافعين فلن تكون له القوة السابقة، وجاءت رسالة من قتادة تحض سالماً على المصالحة ورفع الحصار يقول فيها: ياابن العم كسرة بكسرة، وأيام حصار بمثلها،

والبادئ أظلم، فإن كان أعجبكم عامكم فعودوا في القابل(١). وكانت لهجة الرسالة مرضية لسالم. ففيها إقرار بانكسار قتادة ورجاله وشعورهم بذله وبآثار الحصار، وفيها تأكيد على صلة القربى بين الأميرين وأهل البلدين، وهذا كاف ليروي نفس سالم ويعوضها عن هموم الأيام الفائتة، ويشعرها أنها أدركت ثأرها، أو معظمه.. فاتخذ قراره الحاسم بفك الحصار والعودة إلى المدينة..

وقد يتساءل المرء.. لماذا لم يفاوض سالم قتادة ولم يعقد معه معاهدة صلح؟ ولماذا لم يرتب العلاقة المستقبلية بين الأسرتين والبلدين المقدسين؟.

في ظني أن الأسباب كثيرة. منها عدم الثقة بعهود قتادة.. فشخصيته الطموحة لاتلزمها عهود يقطعها وهو محاصر أو مكسور. بل ستدفعه إلى أن ينقض كل العهود عندما يحس بقدرته على المواجهة، وستجعله أكثر شراسة وعدوانية، فالتوقف عند مرحلة الانتصار المعنوي يجعل قتادة لايفكر بمعاودة الكرة أو يحسب لها ألف حساب..

ويؤيد هذا الظن أن قتادة مكث سنوات طويلة لا يعرض فيها للمدينة، واشتغل بعلاقاته المضطربة مع الخلافة العباسية وبالمشكلات التي ثارت بين بعض أهل مكة والحجاج العراقيين، والتي وصلت إلى حد الاقتتال وإراقة الدماء في أيام الحج لأكثر من موسم(٢) ولكنه بدأ بعد ذلك يتحرش بأمير المدينة.. وبدأت بعض قواته تجتاز من ينبع إلى بعض القرى المحيطة بالمدينة وتسيئ إلى أهلها..

حملة تأديبية ضد قتادة:

كانت المدينة محافظة على ولائها للأيوبيين.. وكان سالم يراسل الملك المعظم (عيسى بن محمد الأيوبي) سلطان دمشق، ويراسل الملك الكامل

---

١) العقد الثمين: ٤٢/٧.

٢) انظر: الكامل ٣٠٥/٩ والعقد الثمين: ٤٨/٧ والروضتين ٧٨.

سلطان مصر. وفي سنة ٦١٠هـ جاء الملك المعظم من الشام حاجاً فخرج سالم وعدد من وجوه أهل المدينة لاستقباله واحتفوا به وأكرموه إكراماً بالغاً، وقدموا له كل ماتحتاجه قافلته من خيل ومؤن، وسلمه سالم مفاتيح المدينة وأنزله في داره، وسهر على راحته، فسر المعظم بذلك..

وعندما خرج المعظم من المدينة إلى مكة صحبه الأمير سالم ونزل معه في مكة وصحبه في المشاعر، وحاول قتادة أن يبطش بالأمير سالم فأرسل بعض رجاله ليقبضوا علية ويحضروه إليه.. وكان سالم يتوقع غدر قتادة فلزم مع رجاله موكب الملك المعظم.. ولما قدم رجال قتادة للقبض على سالم أحس رجال المعظم بهم فطردوهم وكادوا أن يبطشوا بهم(١) وبلغ الخبر الملك المعظم فغضب غضباً شديداً وحنق على قتادة الذي لم يحسن استقباله ولم يلقه بمثل ما لقيه به أمير المدينة وأهلها. وانتهز سالم الفرصة فأخبر الملك المعظم بتحرشات قتادة وبعض رجاله وإفسادهم في مكة وينبع وبعض قرى المدينة، فقرر الملك المعظم أن يكسر غرور قتادة ويلقنه درساً قاسياً، ووعد سالما أن يرسل فور عودته جيشاً لذلك..

لم يكن سالم يرغب في أن تعود الحرب بين المدينة ومكة.. ولم يكن يملك القوة الكافية لمواجهة جيش قتادة الذي قوي قي السنوات القليلة الماضية.. ولم يكن أيضاً مطمئناً إلى أن قتادة لن يعود إلى مهاجمة المدينة، خاصة بعد أن حاول اختطافه في موسم الحج، لذلك مكث ينتظر الجيش الذي وعده به الملك المعظم من الشام.. وفي الوقت نفسه يجهز رجاله القليلين ليكونوا قادرين على رد أي عدوان يحدث على المدينة وضواحيها..

وتختلف روايات كتب التاريخ حول مجريات الأحداث بعد ذلك. فبعضها يقول إن سالماً عاد مع الملك المعظم إلى الشام، فشكى الملك المعظم إلى أبيه الملك العادل مالقيه من قتادة ومايلقاه الناس منه، فجهز العادل جيشاً وبعثه

---

١) العقد الثمين ٦٠٩/٤ والمقريزي: السلوك ج١ قسم ١ ص٨٠.

مع الأمير سالم ليطرد صاحب مكة (فلما انتهوا إليها هرب منهم إلى الأودية والجبال والبراري)(١).

ويقول بعضها الآخر إن الأمير سالماً مكث في المدينة ينتظر الجيش، فلما تأخر قدومه خرج إلى الشام لاستعجاله فالتقى بالجيش في الطريق يقوده الأمير الناهض بن الجرخي، فاصطحبهم إلى المدينة، وخرج معهم لقتال قتادة، وبلغ الخبر قتادة فاستعد لهم بجيشه، وخرج للقائهم، ودارت بينهم معركة كبيرة في منطقة الصفراء، فهزم قتادة وفر إلى حصنه في ينبع، وتبعه الجيش وحاصره فيها وذلك سنة ٦١١هـ(٢).

ومنها من يقول إن سالماً لم يشهد المعركة مع قتادة، وأنه توفي أثناء عودته من الشام مع الجيش(٣). ومنها من يؤخر المعركة إلى سنة ٦١٢هـ ويقرر أن الأمير سالماً خرج إلى الشام لزيارة العادل وإخباره بأفعال قتادة، فانتهز قتادة الفرصة وزحف برجاله إلى المدينة في التاسع من صفر عام ٦١٢هـ، وقطع تمرها جميعه وكثيراً من نخلها(٤) فقاتله من فيها، وقتل جماعة من أصحابه، ورحل عنها خاسراً، وكان أمير المدينة عند العادل في الشام، فبعث معه جيشاً، واستخدم جماعة من التركمان، وسار من الشام في ثالث شعبان إلى المدينة، وتوفي سالم في الطريق، وقام ولد أخيه قاسم بن جماز بعده، واجتمع أهله على طاعته، فمضى بمن كان معه لقصد قتادة صاحب مكة، وجمع بشر بن قتادة عسكراً كثيراً والتقى بعسكر الشام في وادي الصفراء، فكانت الغلبة لعسكر المدينة، فاستولوا على عسكر قتادة قتلاً ونهباً، ومضى قتادة منهزماً إلى ينبع، فتبعوه وحصروه بقلعته، وغنم صاحب

---

١) البداية والنهاية ٧٣/١٣.

٢) الذيل على الروضتين: ٨٧.

٣) الحجاز واليمن في العصر الأيوبي ص ٤٠.

٤) الذيل على الروضتين: ٨٩-٩٠.

المدينة شيئاً كثيراً(١).

والصورة التي يمكن أن نخرج بها من الروايات المتضادة هي: نشب النزاع بين أمير المدينة سالم بن قاسم وأمير مكة قتادة بسبب محاولة قتادة القبض على سالم، وبسبب تعديات رجاله المتوالية على أطراف المدينة وكثرة الشكاوى منه، واهتم سالم بإخراج قتادة من إمارة مكة أو القضاء عليه لتعاظم قوته، وخشية أن يعيد الكرة على المدينة، ونجح في استعداء الملك المعظم وأبيه الملك العادل الأيوبيين، فسير الملك العادل جيشاً لمحاربة قتادة، وسواء لقي سالم هذا الجيش أم لم يلقه، وسار معه إلى مكة أو لم يسر، فإن ماتجمع عليه الروايات هو أن الجيش الأيوبي قدم إلى المدينة، واستراح فيها شيئاً يسيراً، واصطحب معه بعض رجالها، وخرج إلى قتادة، وحدثت موقعة انتصر فيها الجيش القادم من الشام والمدينة، وهزم قتادة إلى ينبع، وتوفي الأمير سالم وخلفه ابن أخيه القاسم بن جماز، الذي واصل الصراع مع قتادة. وهذا يعني أن المدينة قد اشتغلت بهذا الصراع، وأن عدداً من رجالها كانوا يشاركون في المعارك، وأنهم في هذه الجولة قد حفظوا المدينة من عدوان قتادة ورجاله.

ويروي صاحب العقد الثمين أن المعركة التي وقعت بين الجيش الشامي وجيش قتادة في وادي الصفراء قد أسفرت عن غنائم ضخمة وأسرى كثيرين، استرقوا، فلما استعرضوا عرف بينهم عدد من الأشراف الحسنيين، ففك أسرهم وسلموا إلى أقاربهم الأشراف في الشام والمدينة(٢).

المدينة في إمارة قاسم بن جماز: عسكرية جديدة:

تسلم قاسم بن جماز إمارة المدينة في ظروف الصراع مع قتادة، فاهتم بالجانب العسكري اهتماماً كبيراً، وجند عدداً من رجال المدينة في القوة

---

١) السابق وإتحاف الورى ٣/٢٢٠.

٢) العقد الثمين ٧/٤٣.

المسلحة، واستعان ببعض التركمان الذين قدموا من الشام مع الجيش الأيوبي، وأخذ يرد على اعتداءات رجال قتادة بمثلها، ويرسل رجاله للإغارة على ممتلكاته (١)، وقد استشعر القاسم بن جماز القوة فقرر أن يوسع إمارته ويقوي نفوذه ودخله، فخرج برجاله أول العام التالي ٦١٣هـ إلى وادي القرى واستولى عليها وغنم منها أموالا وافرة فرقها في رجاله وقوى بها جيشه، وأخذ يفكر في الاستيلاء على ينبع ومكة وإنهاء أمر قتادة، وعلم قتادة بما يدبره قاسم بن جماز وشعر أن جيش قاسم قد أصبح قادراً على قهر بقية جيشه، لذلك أرسل إلى الملك الكامل الأيوبي سلطان مصر يستغيث به، ويطلب منه حماية إمارته من قاسم وجيشه، وكان الأيوبيون راضين عن أمراء المدينة ويقدمونهم على أمراء مكة لأسباب عدة، منها المكانة الرفيعة التي كانت لأمير المدينة الأسبق القاسم بن مهنا عند الأيوبيين، ومنها أن أمراء المدينة لم يخرجوا قط على طاعة الأيوبيين وظلوا يدعون لهم على المنابر، بخلاف أمراء مكة الذين خرج بعضهم عليهم، ومنها إساءة بعض أمراء مكة للحجيج، وبخاصة مكثر ثم قتادة. كل ذلك جعل علاقة أمراء المدينة مع الأيوبيين إيجابية ومستقرة، ولهذا سارعوا إلى نجدة سالم بن قاسم على قتادة عام ٦١١هـ أو ٦١٢هـ. ورغم ذلك فقد استجاب الملك الكامل سلطان مصر لاستغاثة قتادة أمير مكة، وأرسل إليه قوة نزلت في ينبع وفرضت حمايتها عليها، وكان قتادة قد خرج منها إلى مكة لتجهيز قواته فتسلمتها القوات المصرية من نائب قتادة وحمتها من هجوم قاسم بن جماز.

وقد يكون السبب في حماية الملك الكامل لقتادة الخلاف الذي نشب بين الملك العادل سلطان الشام وأخيه الملك الكامل سلطان مصر، وخشية الكامل من أن ينتصر قاسم بن جماز على قتادة ويخرجه منها، ويلحقها بإمارة المدينة، فتصبح تابعة للملك العادل حكماً، لأن قاسم بن جماز كان يخطب

---

١) الحجاز واليمن في العصر الأيوبي ص ٤٠.

للعادل على المنابر، وقد يكون السبب رغبة الأيوبيين في حفظ التوازن بين الأمراء الحسنيين و الحسينيين في مكة والمدينة.

على أي حال فقد توقف جيش المدينة عن الزحف إلى ينبع بعد أن وصلها الجيش المصري، ولم يضيع قتادة الوقت، واستشعر القوة بوصول النجدة المصرية، فجمع رجاله في مكة في مطلع ذي الحجة عام ٦١٣هـ وسار بهم للإغارة على المدينة، وعلم قاسم بن جماز بتحركه فغذ السير إليه، وكان قد خرج بجيشه من المدينة فالتقى الجيشان عند قرية الحميمة، وهي أقرب إلى مكة، واقتتل الفريقان قتالا مريراً في مطلع يوم النحر، ورغم أن النجدة المصرية لم تكن مع قتادة، فقد استطاع قتادة بمن معه من رجال أن يضغط على جيش قاسم بن جماز وأن يهزمه آخر النهار، وتوقف القتال وانسحب قاسم بن جماز بمن معه مخلفاً عدداً من القتلى لم يذكره المؤرخون، وعاد قتادة إلى مكة.

أوقفت هذه المعركة اندفاع قاسم بن جماز، غير أنها أججت الخصومة بين أميري المدينتين الكريمتين وجعلتها إحدى همومها الكبيرة، ولم يكن لهذه المعركة أية آثار سلبية مع الأيوبيين، ولم يشعر أهل المدينة أن الملك الكامل الأيوبي سلطان مصر يقف ضدهم، ذلك أن جيشه لم يشارك في المعركة، واكتفى بحماية ينبع، وينبع مهمة لسلطان مصر، لأنها المرفأ الذي تبحر إليه السفن القادمة من عيذاب في مصر، ومركز تجمع قافلة الحج المصرية غالباً.

والراجح أن أمير المدينة قد أدرك هذه المعاني فلم يغير علاقته بالأيوبيين وظل محافظاً على مودة سلاطينهم جميعاً، كما أن الأيوبيين حافظوا على تقديرهم لأمير المدينة ولأهلها، وذكر ابن خلكان أن الملك الكامل سلطان مصر عندما انتصر على الصليبيين في معركة دمياط عام ٦١٦هـ، علم أن أحد الصليبيين كان يسب النبي ﷺ جهاراً نهاراً، فلما أسر هذا الصليبي في المعركة أمر الكامل بإرساله إلى أمير المدينة كي يقتل فيها، فلما وصل

الأسير إلى المدينة أقيم قريباً من قبر الرسول ﷺ (فقيل: يارسول الله هذا عدو الله وعدوك، فتهادته أيدي الناس ضرباً بالسيوف)(١).

وسارت الحياة في المدينة في عهد قاسم بن جماز وسط هاجس الصراع مع قتادة ورجاله، فهزيمة جيش قاسم في موقعة الحميمة لم تشف قتادة القاسي الطموح، وقد نجح قتادة في مد نفوذه إلى الطائف، وحصل على رضا الخليفة العباسي رغم اعتداء رجاله على الحجيج مرات عدة، ولم يعد يشغله شيء عن التوجه إلى المدينة والاستيلاء عليها، وكان قاسم يدرك ذلك ويعمل جهده لتقوية القوة المسلحة للمدينة ولإعداد المؤن والسلاح للموقعة المترقبة، وفي عام ٦١٧هـ وصلت الأخبار بأن قتادة يجهز جيشه للخروج إلى المدينة وأنه جمع جموعاً كثيرة فبدأت المدينة تستعد لمعركة كبيرة، وشاء الله أن تتطور الأحداث لصالح المدينة وأهلها فقد مرض قتادة بعد أن تحرك جيشه، وتوقف عند وادي الفرع -منتصف الطريق تقريباً- واشتد مرض قتادة، فاستخلف على الجيش كلاً من أخيه الحسن وابنه الحسن، وأمرهما بمواصلة السير إلى المدينة، وطلب إعادته إلى مكة، وعندما فصل الجيش من وادي الفرع، دب الخلاف بين القائدين: الحسن بن قتادة والحسن أخي قتادة. وبلغ الحسن بن قتادة أن عمه الحسن قال لبعض جنده: إن أخي مريض، وهو ميت لامحالة، وطلب منهم أن يحلفوا له ليكون هو الأمير بعد أخيه قتادة، فحضر الحسن عند عمه، واجتمع إليه كثير من الأجناد والمماليك الذين لأبيه، فقال الحسن لعمه: قد فعلت كذا وكذا، فقال: لم أفعل، فأمر الحسن الحاضرين بقتله، فلم يفعلوا وقالوا: أنت أمير وهذا أمير، ولا نمد أيدينا إلى أحدكما، فقال غلامان لقتادة: نحن عبيدك فمرنا بما شئت، فأمرهما أن يجعلا عمامة عمه في عنقه، ففعلا، ثم قتله، فسمع قتادة الخبر فبلغ منه الغيظ كل مبلغ، وحلف ليقتلن ابنه، وكان على ماذكرناه من المرض، فكتب بعض أصحابه إلى

---

١) وفيات الأعيان ٩١/٥.

الحسن يعرفه الحال، ويقول له: ابدأ به قبل أن يقتلك، فعاد الحسن إلى مكة، فلما وصلها قصد دار أبيه في نفر يسير، فوجد على باب الدار جمعاً كثيراً، فأمرهم بالانصراف إلى منازلهم، ودخل الحسن إلى أبيه، فلما رآه أبوه شتمه وبالغ في ذمه وتهديده، فوثب إليه الحسن فخنقه، وخرج إلى الحرم الشريف، وأحضر الأشراف وقال لهم: ان أبي قد اشتد مرضه، وقد أمركم أنْ تحلفوا لي أن أكون أنا أميركم، فحلفوا له، ثم أظهر تابوتاً ودفنه ليظن الناس أنه مات، وكان قد دفنه(١) ومع أن المصادر التاريخية لم تذكر شيئاً عن الحملة التي اجتازت منتصف الطريق إلى المدينة، فإن الاضطراب والقتل الذي حصل في آل قتادة قد أوقفها ولاشك، فعادت أدراجها، وسلم الله المدينة من موقعة كانت ستصيبها بشيء من البلاء.

ومن الواضح أن هذا التفسخ الذي وصلت إليه أسرة قتادة في مكة، قد سلمت منه أسرة المهنا في المدينة، فشخصية قتادة الطموحة القاسية أنجبت شخصية أخرى أشد منها ضراوة وأكثر دموية هي شخصية الحسن بن قتادة، الذي قتل عمه وأباه، واستدعى أخاه من ينبع وقتله كي لاينافسه على الإمارة، ومثل هذه الشخصية السفاكة لابد أن تلقى عقاب الله العاجل، فكانت نهاية حكم آل قتادة على يديه، لاجرم.. لم يمهله الله سبحانه وتعالى، نزع ملكه وجعله طريداً شريداً خائفاً يترقب، فقد دهمه الملك المسعود من اليمن عام ٦٢٠هـ وطرده، فهام على وجهه ومات شريداً على دكة في الجانب الغربي من بغداد(٢).

وبينما الأمور على هذا الاضطراب والقلق في مكة كانت المدينة تعيش في طمأنينة رغم شدة أميرها قاسم بن جماز وطموحاته العسكرية، وقد أفادت هذه الطموحات المدينة في تقوية القوة المسلحة فيها، وتأديب الأعراب الذين

---

١) الكامل ٣٤٦/٩.

٢) السابق نفسه.

حاولوا غزوها ومطاردتهم وإنزال أشد العقاب بهم، فنعم أهل المدينة والمجاورون بالأمن، وتواصلت الحركة العلمية في المسجد النبوي، والمدارس التي أنشئت حوله وبعض الرباطات، ونمت الحركة التجارية شيئاً ما، ووجدت البساتين من يعطيها مزيداً من الوقت للعناية بها واستخراج الخضار والفواكه والتمور منها، ويذكر صاحب التاريخ المنصوري أن الحج كان في غاية الأمن والرخاء وكثرة المياه وغيرها في تلك السنوات(١).

كبوة الجواد: الخطأ القاتل:

غير أن الروح العسكرية عند قاسم بن جماز لم تخل من آثار سلبية أضرت ببعض أهل المدينة، وأضرت به بالذات، بل وقضت عليه، فرغم العلاقة التاريخية الطيبة بين الأيوبيين وآل المهنا أمراء المدينة، منذ أيام صلاح الدين الأيوبي، ورغم الاحترام الشديد الذي كان الأيوبيون يظهرونه لأمراء المدينة وأهلها، فإن قاسم بن جماز قد تصرف تصرفاً خاطئاً عام ٦٢٢هـ، أي بعد سنتين من استيلاء الملك المسعود الأيوبي -سلطان اليمن- على مكة المكرمة، فقد انحاز قاسم بن جماز إلى آل قتادة ضد الأيوبيين، رغم ماأصاب المدينة من شرورهم، ورغم أنهم حاولوا طرد آل المهنا من المدينة أكثر من مرة. ويروي المقريزي أن راجح بن قتادة لجأ إلى قاسم بن جماز واستنصره على الأيوبيين ليعيد مكة إلى أبناء قتادة الذين بقي منهم راجح هذا، فأمر قاسم بتجهيز حملة من أهل المدينة ومن العربان حولها لمهاجمة مكة وانتزاعها من الأيوبيين، وتجهز الجيش عام ٦٢٢هـ وتجمع في جرف المدينة، ثم سار إلى مكة بقيادة قاسم، وكان الملك المسعود الأيوبي قد غادرها إلى اليمن وخلف عليها نور الدين عمر نائباً عنه، ولم يأبه نور الدين لأخبار الجيش الزاحف أول الأمر واكتفى بتحصين أسوار مكة وتدعيمها، أملاً في أن يفاوض قاسم بن جماز ويرده بحكم الصداقة العريقة بين أسرته والأيوبيين، ولكن قاسم بن

---

١) التاريخ المنصوري: تلخيص الكشف والبيان ص ١١٦.

جماز نشر رجاله حول الأسوار وأصر على أن تستسلم له ويخرج الأيوبيين ويعود الأمر إلى آل قتادة، ورفض الأيوبيون ومعظم أهل مكة، واستمر الحصار شهراً كاملا، عندها يئس نور الدين عمر من رد قاسم ابن جماز، ويئس من وصول نجدة تنهي هذا الحصار، فجمع ثلاثمائة فارس من أشداء جيشه ومن أهل مكة، وخرج بهم لقتال قاسم، ودارت معركة طاحنة، واشتد نور الدين عمر ورجاله على جيش قاسم، واجتهدوا في الوصول إليه بالذات لتحطيم معنويات رجاله وهزيمتهم، وتم له ذلك خلال جولات سريعة حاسمة، فَقَتَلَ أحدُ مماليك نور الدين عمر قاسمَ بن جماز، وعلت أصوات المنادين بالخبر، وقتل مع قاسم عدد من رجاله الأشداء، فتضعضع جيش المدينة الغازي وانسحب إلى التلال الخلفية تاركاً عدداً من القتلى والأسرى(١).

وهكذا خسر قاسم بن جماز حياته في معركة ما كان له أن يدخل فيها، ولا أن يزج فيها رجالا من أهل المدينة نصرة لأبناء عمه آل قتادة، خاصة وأن آل قتادة كانوا على قدر كبير من العقوق وظلم الناس وسفك الدماء.

ولا يخلو تاريخ قاسم بن جماز من الأخطاء، قد يكون سببها الروح العسكرية والشعور بالقوة والتفوق، فقد ذكرت بعض المصادر أنه عدا على ينبع مرة(٢) وأخذ من مينائها أموالا وأسلحة ومؤنة جاء بها (ألطن بغا) من مصر، وكانت ينبع مخزن المؤنة والأسلحة للأيوبين. وطبيعي أن تتردى القوة العسكرية في هذه المزالق إذا لم تضبطها ضوابط دينية وخلقية قوية..

أمير جديد .. بالقوة:

وعاد الجيش المنسحب -أو فلول ذلك الجيش- إلى المدينة يحمل نعي أميرها قاسم بن جماز، وقبل أن يمسح أهل المدينة أحزانهم على من فقدوه من أبنائهم، وقبل أن يجتمع آل جماز ليختاروا من يتولى إمرة المدينة بعد

---

١) السلوك: ج١ قسم ١ ص ٢١٩.

٢) التاريخ المنصوري ١١٦.

قاسم، كان ابن عم لقاسم يدعى شيحة بن هاشم بن قاسم بن مهنا نازلاً عند بعض الأعراب قرب المدينة، فلمَّا بلغه مصرع قاسم جمع أعوانه، واستنصر أولئك الأعراب فنصروه وأمدوه بعدد من رجالهم، فقادهم إلى المدينة ودهمها، واستولى على دار الإمارة دون إراقة دماء، وأصبح الناس فرأوا شيحة على منبر المسجد النبوي يدعو إلى مبايعته بالإمارة والحلف له على السمع والطاعة، ورجاله قائمون في أنحاء المسجد وخارجه حول الإمارة وفي الطرقات، فلم يكن بد من مبايعته. حتى الجمامزة أبناء قاسم وإخوته اضطروا لإعطاء البيعة والحلف للأمير الجديد. فمن أعراف الإمارة الاستيلاء عليها بالقوة وتنحية الأمير السابق أو ورثته، وقد عهدت المدينة ذلك مرات عدة، وسيستمر هذا العرف خلال مراحل الصراع القادم بين أبناء الأسرة الواحدة.

كان شيحة قوياً عاقلا حسن السياسة، لذلك كان أول مافعله هو أن يمسح أخطاء سلفه قاسم بن جماز، وأهمها الروح العسكرية الصارمة، ومعاداة الأيوبيين. فبدأ بتخفيف وطأة (الروح العسكرية) عن أهل المدينة، وأوقف الصراع مع أمراء مكة ورجالهم. وقد أرسل رسله إلى السلطان الكامل الأيوبي في مصر، تحمل ولاء المدينة له، فسر السلطان بذلك وأرسل الخلع والأموال للأمير ولأهل المدينة، ونعمت المدينة بالطمأنينة والأمن إلى نهاية ذلك العقد، وسارت الحياة العلمية والاقتصادية في مجرياتها الهادئة.. وكان من الممكن أن تستمر على هذا المنوال تحت حكم الأمير شيحة لولا الأحداث التي وقعت خارج المدينة وبعيداً عنها، ولكنها أثرت فيها، فقد واصل شيحة محافظته على الأمن بحزم لايقل عن حزم قاسم بن جماز من قبله، واستفاد من صلاته القديمة بالأعراب المحيطين بالمدينة فضمن عدم إغارتهم عليها، وأنفق مقابل ذلك بعض الأموال التي كانت ترده من مصر والشام.

غير أن هذه السكينة والطمأنينة مالبثت أن اضطربت بسبب الأحداث التي وقعت في اليمن ثم في مكة عامي ٦٢٩- ٦٣٠هـ.

جيش المدينة في مكة ثانية:

توفي السلطان مسعود الأيوبي حاكم اليمن عام ٦٢٩هـ وهو في طريقه إلى مصر، وخلفه على اليمن أحد أعوانه المخلصين نور الدين عمر، الذي سبق أن تولى أمر مكة وقاتل قاسم بن جماز وقتله، وقد أظهر نور الدين عمر الولاء للأيوبيين أول الأمر.. ثم استقل عنهم في العام التالي وتلقب بالمنصور ودعا لنفسه. وجهز جيشاً سيره إلى مكة المكرمة لطرد أميرها من قبل الأيوبيين طغتكين بن عبد الله الكاملي. وعند اقتراب الجيش اليمني من مكة عمل قائده ابن عيدان على استمالة أهلها، فذكرهم بإحسان نور الدين عمر إليهم عندما كان والياً عليها، فمالوا اليه، وشعر طغتكين بذلك وفر إلى ينبع مركز تجمع القوة الأيوبية آنئذ، وأرسل من هناك إلى السلطان الكامل يطلب منه النجدة لاستعادة مكة. ودخل ابن عيدان مكة وخطب فيها لنور الدين عمر الرسولي وجعلها إمارة تابعة للرسوليين.

ولما بلغ الخبر السلطان الكامل جهز جيشاً بإمرة فخر الدين ابن الشيخ الجويني إمام الحرمين المشهور وأرسل إلى الأمير شيحة يطلب منه أن يجهز قوة من أهل المدينة وينضم بها إلى جيش فخر الدين، كما أرسل إلى أمير ينبع الشريف أبي سعد الحسن بن علي بن قتادة أن يفعل ذلك، كان شيحة قد نجح في تجنب الحروب طوال السنوات الماضية، وأقام علاقات حسنة مع الأيوبيين وولاتهم في مكة، ولكن الحدث الجديد قلب الموازين، ولم يجد شيحة بدأ من الانصياع لطلب السلطان الكامل الأيوبي، فأمر بالنفير وجهز رجاله والمتطوعين معه، واستقبل الجيش القادم من مصر وخرج معهم إلى مكة، وفي الطريق انضمت إليهم القوة القادمة من ينبع بقيادة أميرها أبي سعد وسار الجيش الضخم إلى مكة، وحاصرها حصاراً شديداً، وانتشرت القوة الكبيرة حول سورها تمنع الدخول والخروج، وتناوش الحراس بالنبال، ومالبث ابن عيدان أن رتب رجاله واندفع بهم خارج السور، والتقى الجمعان في معركة

طاحنة غير متكافئة قتل فيها ابن عيدان وعدد كبير من أعوانه، وهرب جنده الأخرون إلى تلال مكة البعيدة، ودخلت القوة الأيوبية المنتصرة إلى مكة ودخل معها شيحة ورجاله، ولم يخسر الجيش المنتصر سوى عدد قليل من القتلى، وقد ارتكب قائده طغتكين خطأ فاحشاً إذ أباح لجنوده أن ينهبوا ماتصل اليه أيديهم من أموال ومتاع ذلك اليوم. وغضب شيحة لذلك وأمر رجاله بالانسحاب من مكة والعودة إلى المدينة، وكتب للسلطان الكامل بذلك، فغضب السلطان الكامل وعزل طغتكين وأمر الجيش كله بالانسحاب من مكة والعودة إلى ينبع ومصر(١).

المدينة على الحياد:

عاد الأمير شيحة إلى المدينة مع رجاله وقد اغتم لما حدث في مكة، لذلك قرر ألا يشترك مع الجيش المصري في أحداث مكة المتوالية، فقد حدث في السنة نفسها أن جمع راجح بن قتادة بعض الأعوان والأعراب وأغار على مكة، فخرج منها واليها الأيوبي، ومع ذلك لم يتحرك الأمير شيحة ولم يرسل قوة من المدينة، واضطر السلطان الكامل إلى إرسال قوة من مصر بقيادة الأمير الزاهر استطاعت في آخر ذلك العام أن تعيد مكة إلى طاعة الأيوبيين وأن تقيم الحج بأمن وطمأنينة(٢) وبقي الأمير شيحة محافظا على حياده هذا في الصراع الذي استمر سبع سنوات متوالية، أي إلى عام ٦٣٧هـ، حيث كان كل من الأيوبيين والرسوليين يستولي على مكة مدة من الزمن، ثم يخليها عندما تأتي قوة كبيرة للطرف الآخر.

---

١) العقد الثمين ٥/٦٥.

٢) سمط النجوم ٤٨٠.

العودة إلى الصراع العسكري:

ففي ذلك العام استقر الأمر في مصر للسلطان الصالح نجم الدين أيوب بعد سنتين من الصراع بين أبناء السلطان الكامل الذي توفي عام ٦٣٥هـ، وسافر الأمير شيحة مع عدد من وجوه المدينة إلى القاهرة لتهنئته بالسلطنة، فاستقبله السلطان الصالح أحسن استقبال وأكرمه وخلع عليه، ثم حادثه بشأن مكة التي استولى عليها الرسوليون قبل وفاة السلطان الكامل، ولم يتفرغ أحد لاستعادتها منهم بعد، وطلب منه أن يقود الحملة لإخراج الرسوليين منها وإعادتها إلى المظلة الأيوبية، فوافق الأمير شيحة على طلب السلطان الصالح وخرج عن حياده الذي التزمه سبع سنوات متوالية، وعاد إلى المدينة ومعه ألف فارس من الجيش الأيوبي.

مكث الأمير شيحة في المدينة مدة يسيرة، جمع فيها عدداً من رجاله ليصحبوه إلى مكة، وقوى جيشه ببعض المؤن والعتاد وتوجه به إلى مكة المكرمة، وكان الرسوليون قد أسندوا إمارتها إلى الشريف راجح بن قتادة، فأصبح على أمير المدينة شيحة بن جماز أن يواجه راجح بن قتادة الذي انتصرت له المدينة عام ٦٢٢هـ، وقاتل رجالها من أجل إعادتها إلى إمارة مكة وقتل أميرها قاسم بن جماز في سبيل ذلك، ولقد تحول الصديق إلى عدو والمنجد إلى محارب.

وصل شيحة بجيشه إلى ضواحي مكة فعلم أن الشريف راجح بن قتادة مسافر إلى اليمن قبل أن تتحرك الحملة، وأن الذين يتولون أمرها هم قادة الجيش اليمني المرابط فيها، وتمهل شيحة فلم يهاجم مكة أملا في أن يستسلم الجيش اليمني وينحاز المكيون إليه، خاصة بعد أن عرف عنه غضبه لاستباحة الأموال فيها في حملة طغتكين عام ٦٣٠هـ، وأرسل من يتحسس له الخبر، وقد صدق حدسه إلى حد ما، إذ جاءه المخبرون بأن القادة اليمنيين عندما علموا بقوة جيشه خرجوا من مكة إلى اليمن، ففرح شيحة بذلك وأمر

الجيش بإغماد السيوف ودخول مكة سلماً، وأرسل المنادين ينادون فيها بالأمان، ودخل شيحة مكة واتجه مع كبار قادته إلى البيت الحرام وطاف فيه، واستقبل الشرفاء ووجوه أهل مكة، وأخذ منهم البيعة للأيوبيين، ومكث فيها يدير بنفسه شؤونها، وترك أمور المدينة لنائبه وولده عيسى بن شيحة.

غدت مكة امتداداً لإمارة المدينة التي يديرها الأمير شيحة، وكانت هذه الإمارة انغماساً في الصراع بين الأيوبيين والرسوليين، الذي امتد إلى نهاية الحكم الأيوبي، فلم يكد الأمر يستقر لشيحة في مكة حتى بلغه أن السلطان المنصور الرسولي في اليمن قد جهز جيشاً كبيراً بقيادة الأمير ابن النضيري لاستعادة مكة منه، وأرسل معه راجح بن قتادة الذي ترك أتباعه ومؤيديه في مكة، وعندما تحقق شيحة من تحرك الجيش وقرب وصوله إلى مكة، وتحقق أن عدده كبير ولا طاقة لجنده بمواجهته، أمر رجاله بالانسحاب والاتجاه شمالاً إلى المدينة المنورة.

عاد الأمير شيحة إلى المدينة وقد أحس بالضيق لانسحابه الاضطراري، وأبقى الجيش فيها، وسافر إلى مصر يطلب من الملك الصالح مدداً آخر يواجه به الجيش الرسولي الذي استولى على مكة دون قتال، كما استولى هو عليها من قبل، ورغم أن الأمير شيحة كانت له صلة حسنة بالقبائل المحيطة بالمدينة فإنه لم يستمد منها العون لمواجهة الجيش الرسولي، ولم يعتمد أيضاً على أهل المدينة، والراجح أنه فعل ذلك ليقينه بأن المدينة غير قادرة على تجنيد العدد اللازم لمواجهة الجيش الرسولي، وبأن الأعراب والقبائل المحيطة بالمدينة قد لاتلبي دعوته وقد لاتكون طيعة لقيادته، وهكذا أصبح أمير المدينة مشغولاً بقضية مكة ومنشغلاً عن تدبير أمور إمارته الأساسية، ومتورطاً في الصراع العسكري.

صراع في غير ميدانه:

لبى الملك الصالح طلب الأمير شيحة، وجهزه بجيش كبير يفوق عدده

الجيش اليمني بقيادة الأميرين علم الدين الكبير، وعلم الدين الصغير، والمدهش أن الملك الصالح الذي كان يواجه الإعصار الصليبي الذي يهدد مصر، والذي استولى على بعض مدنها الساحلية لبعض الوقت، قد انغمس أيضاً في هذا الصراع الهامشي على السلطة والنفوذ، والمؤلم أن تتشتت الجهود الإسلامية في وقت كانت فيه كتائب الصليبيين تحاول استعادة ماانتزعه منها صلاح الدين وأخوه الملك العادل، وكانت زحوف التتار تهدد الأمصار الإسلامية في الشمال والشرق وتنذر بقرب توجهها نحو الشام والعراق، ومع ذلك كانت حمى الصراع على الإمارة تستنزف الجهود والأموال والدماء، ولعله من لطف الله أن يكون هذا النزيف في مكة مقتصراً على الجهود والأموال غالباً، وأن يكون الصراع استعراضاً للقوة ليس أكثر، فمن يجمع حشوداً ضخمة يدخل مكة، وينسحب أمامه خصمه، ليعد حشوداً أضخم ويأخذ مكانه بعد حين، وهذا ماحدث مرات عدة في ظل الأمير شيحة بالجيش الجديد من مصر، واصطحب الجيش الماكث في المدينة وتوجه إلى مكة في رجب عام ٦٣٨هـ. سبقت أخبار هذا الزحف المهول إلى مكة، وأحس راجح بن قتادة والجيش الرسولي أن خصمه يفوقه عدة وعتادا، فانسحب من مكة وأخلاها له(١) فدخلها شيحة بجحافله منتصراً، وعاد إلى كرسي الإمارة، ومكث في مكة إلى نهاية العام، مكتفياً بإنابة ابنه جماز حيناً، وابنه الأخر عيسى حيناً آخر، لإدارة شؤون المدينة الداخلية، فكانت المدينة في هذه المدة تابعة لمكة وليس العكس، لأن الموجه الحقيقي للأمور ماكث هناك(٢).

واستمرت حلقة الصراع المفرغة في دورانها، فما إن انتهى موسم الحج ذلك العام حتى وصلت الأخبار إلى الأمير شيحة بأن السلطان المنصور الرسولي جهز جيشاً كبيراً يفوق جيشه عدداً وعدة، وسيره إلى مكة المكرمة

---

١) الحجاز واليمن ص ٦١.

٢) السلوك ج١ قسم ٢ ص ٣٢١.

بقيادة الشريف علي بن قتادة، فقرر الأمير شيحة ألا يغادر مكة هذه المرة، وأرسل على وجه السرعة رسولاً إلى الملك الصالح يطلب منه نجدة سريعة، فأرسل إليه الملك الصالح مائة وخمسين فارساً بقيادة الأميرين مبارز الدين علي بن الحسن بن برطاس ومجد الدين أحمد التركماني، ووصلت أخبار النجدة قبل وصولها، فأشاعها الأمير شيحة وتعمد تسريبها إلى خصومه الزاحفين إليه، فلما بلغتهم توقفوا عن الزحف عند قرية السرين، وأرسل الشريف علي بن قتادة إلى المنصور الرسولي يخبره بذلك ويطلب منه نجدة إضافية، وتحمس السلطان المنصوري الرسولي لذلك، وأمر بتجهيز أكبر قوة ممكنة على وجه السرعة، وقرر أن يخرج بنفسه على رأسها.

ولا شك أن هذا القرار يبين حقيقة الصراع الذي يقف فيه أمير المدينة شيحة وأشراف مكة من آل قتادة، فهو صراع مزدوج أو صراعان متوازيان:

الصراع الأول والأكبر: بين الأيوبيين والرسوليين، فالأيوبيون في مصر هم الذين يجهزون القوة الحقيقية التي ترهب الرسوليين وتخرجهم من مكة، وتقاتلهم إذا التقت الجموع، كما حدث في عام ٦٣٠هـ وعام ٦٣٥هـ، والرسوليون في اليمن هم الذين يجهزون القوة الحقيقية التي ترهب الأيوبيين وتقاتلهم وتخرجهم من مكة.

وأما الصراع الثاني والأصغر: فهو الصراع بين أمراء المدينة من آل مهنا وأمراء مكة من آل قتادة، ولهذا الصراع خلفية تاريخية ترجع إلى عهد قتادة نفسه عام ٦٠١هـ عندما زحف إلى المدينة وحاصرها، ثم رد له أمير المدينة سالم بن قاسم الهجمة بمثلها فلحقه إلى مكة وحاصره فيها. وكان أمراء مكة هم المبادرون إلى الصراع، ودافعهم إلى ذلك الطموح الشخصي والطمع في إدخال المدينة تحت سلطتهم. أما آل المهنا فكانوا مدافعين عن إمارتهم. ثم تغير الأمر، فصار آل المهنا -هم- المهاجمين، ليس لتوسيع نفوذهم وضم مكة إلى إمارة المدينة، بل قادة للأيوبيين، ينفذون رغبتهم ليس أكثر، حتى إن

الأمير شيحة لم يستطع في حملة عام ٦٣٠هـ أن يمنع الجيش المصري من نهب مكة إذ لم يكن القائد العام للجيش، وكذلك في الحملات التالية عام ٦٣٧-٦٣٨هـ. كان للجيش قادة غير شيحة يأتون معه من مصر، ومع أن الأمير شيحة هو الذي كان يتولى الإمارة في مكة عندما يدخلها الجيش، إلا أننا لانعرف حجم سلطته الحقيقية، ومدى نفوذ أمراء الجيش الأيوبي المزاحم، لذلك من البين أن انغماس أمراء المدينة في هذا الصراع كان في غير محله، ولم يعد على المدينة بنفع على الإطلاق، فقد خسرت فيه بعض رجالها، وخسرت أميرها قاسم ابن جماز، وكادت أن تخسر أميرها الثاني شيحة على نحو ماسنرى، وهذا طبيعي في أي صراع هامشي ينشأ بدافع الطمع في الإمارة بين الأقارب. فأمراء المدينة هم أبناء عم أمراء مكة. وطبيعي أيضاً أن المتصارعين عندما يكونون أتباعاً لأطراف أخرى فإنهم خاسرون مهما كسبوا، فضلا عن أن الصراع بين أمراء المدينتين المقدستين كان صورة من صور الصراع الكثيرة المنتشرة آنئذ بين ممالك العالم الإسلامي، وهو الذي مهد للتتار أن يبطشوا بطشتهم الدامية..

الدرس القاسي:

خرج السلطان المنصور الرسولي من اليمن بنفسه على رأس القوة التي جمعها ومعه أموال ومؤن كثيرة، ولحق بجيشه في السرين، وزحف الجميع إلى مكة.

وقبل أن يصل إليها وصلت أخبار من المدينة المنورة اضطرب لها الأمير شيحة. وخرج مسرعاً برجاله تاركاً مكة للجيش المصري.

كانت الأخبار تتعلق بأمن المدينة، وبإمارته عليها، فقد حركت غيبته الطويلة أطماع أقاربه في الإمارة، كما حركت أطماع بعض الأعراب المقيمين حولها، خاصة بعد أن لمسوا غياب القوة المسلحة عنها وانشغال الأمير ورجاله بمكة، فداهم الأعراب أطراف المدينة ونهبوا ماوصلت إليه أيديهم.

وتحرك عمير بن قاسم بن جماز ابن عم شيحة، وبدأ يجمع الجموع حوله لينتزع الإمارة من شيحة ويردها إلى الجمامزة، ونجح في جمع أعداد غفيرة من الأعراب وطالبي الجوائز، وأوشك أن يهاجم المدينة، لذا سارع الأمير شيحة بالعودة إلى المدينة، ولكن عميراً فاجأه بجموعه أواخر صفر من العام نفسه واقتحم سور المدينة وانتشر رجاله في أحيائها واتجهوا إلى الإمارة للقبض عليه، فلم يجد بداً من الهرب والنجاة بنفسه.

لقد جنت قضية الصراع على مكة بين الأيوبيين والرسوليين على الأمير شيحة، وأتاحت الفرصة لظهور صراع آخر داخل أسرة المهنا نفسها على إمارة المدينة، وحملت أهالي المدينة غير قليل من أوزارها، فالصراع يدور في ساحاتها ويسقط فيه القتلى والجرحى.

اختبأ الأمير شيحة في بعض بساتين المدينة إلى الليل، ثم خرج إلى الجبال البعيدة حيث أصدقاؤه القدماء الذين ساعدوه في الاستيلاء على الإمارة قبل سبع عشرة عاماً، فلجأ إليهم، وبدأ يرسل الرسل إلى رجاله في المدينة ليخرجوا إليه، ويستنهض أصدقاءه القدامى كي ينصروه ثانية. واستغرق هذا الأمر مدة لم تذكر المصادر كم هي؟ ولكنها ذكرت أن شيحة أفلح في إعادة تجميع قواته وتجهيزها، فهاجم المدينة وطارد عميراً ورجاله وأخرجهم منها وعاد إلى إمارته.

ولابد أن هذا العمل قد استغرق عدة أشهر، وكلف الأمير شيحة وابن عمه عميراً عدداً من رجالهما، وأصاب أهل المدينة بالقلق والخوف

والاضطراب(١).

كانت هذه الحادثة درساً قاسياً للأمير شيحة، أقنعه بالابتعاد نهائياً عن الصراع بين الأيوبيين والرسوليين على مكة، ولم يعد يتدخل في شؤونها رغم عودة الصراع واستمراره حتى نهاية عصر الأيوبيين(٢) وتفرغ الأمير شيحة لأمور المدينة ثانية، واهتم بتقوية سورها وتحسين مرافقها، وفي الوقت نفسه اهتم بتأديب الأعراب الذين هاجموا المدينة، والذين ناصروا ابن عمه عميراً وبخاصة بعض فروع بني لام، المقيمين في ضواحي المدينة وامتداداتها على طريق العراق، وقد سيطر الرسوليون على مكة إثر خروج الأمير شيحة منها وانسحاب الجيش المصري بعده(٣).

ومرت سنوات سبع لايعكر صفو المدينة سوى حوادث صغيرة، أهمها غارات محددة لبعض بني لام، فيخرج رجال الإمارة لتعقبهم وتاديبهم، وعندما يظفر بأحد مردتهم يؤخذ إلى المدينة ويقتل فيها جزاء وفاقا لإفساده في الأرض، الأمر الذي أحفظ تلك القبائل على الأمير وجعلهم يتربصونه به الدوائر.

وفي عام ٦٤٧هـ خرج الأمير شيحة مع عدد قليل من رجاله إلى العراق لزيارة الخليفة المستعصم بالله آخر الخلفاء العباسيين، فعلم بخروجه الحانقون عليه من بني لام فلحقوه وأدركوه غير بعيد عن المدينة وقتلوه، وفر أصحابه إلى المدينة يحملون إلى أهلها نعي أميرهم الذي امتدت إمارته قرابة ربع قرن من الزمان، كان فيها فترات طويلة من الهدوء والسكينة وفترات قليلة من الاضطراب والقلاقل..

---

١) العقد الثمين ٢٣/٥-٢٤.

٢) السابق ١٧٦/١.

٣) السلوك ج١ قسم ٢ص ٣٢١.

المدينة في إمارة عيسى بن شيحة:

كان عيسى بن شيحة نائبه على المدينة، فلما بلغه النعي تلقى العزاء بوالده وتلقى معه البيعة بالإمارة، فقد عرفه أهل المدينة في فترات غياب أبيه نائباً عنه في الإمارة ومدبراً لشؤون المدينة. ويذكر صاحب التحفة اللطيفة أن الجمامزة طمعوا في انتزاع الإمارة من عيسى، وجاء منهم جماعة على حين غفلة للاستيلاء عليها ففطن بهم عيسى وقبض عليهم، ويقال إنه قتلهم(١).

لم يكن عيسى يختلف عن أبيه في تفكيره وسياسته، فقد (رباه أبوه ليكون خليفته في الإمارة، وكان ينيبه عنه في غيبته، فكان مجتباه وحبه، وعلى الملك أمينه)(٢) وقدمه على أبنائه الثمانية الآخرين. وترك هذا التقديم أثراً سيئاً في نفس أخويه جماز ومنيف، فكانا يظهران النفور منه.

سار عيسى بإمارته سيراً حسناً، فأقام علاقات ودية مع الأيوبيين في مصر والشام، وحافظ على الولاء لهما، كما أقام علاقة حسنة مع آل قتادة، ولم يدخل في الصراع حول مكة. وفي عام ٦٤٩هـ تعاون الأخَوَان منيف وجماز ضد عيسى، وجمعوا رجالهم، وهاجموا الإمارة، وقبضوا على عيسى وسجنوه، وأعلنوا عزله(٣). وظل عيسى في السجن مدة من الزمن، ثم خرج منه ليعيش حياة عادية بعيداً عن الإمارة ومشكلاتها لمدة ثلاثين سنة، ومات سنة ٦٨٣هـ في إمارة أخيه جماز، ولم يذكر المؤرخون أنه حاول استرداد الإمارة قط.

الإمارة بين الأخوين:

تضطرب الروايات التاريخية في اسم الأمير الذي تسلم الإمارة بعد

---

١) التحفة اللطيفة ٢/٢٢٦.

٢) التحفة اللطيفة ٢/٢٢٧.

٣) انظر ابن خلدون ٤/١٤١ والتحفة اللطيفة ٣/٣٨٣.

عيسى. فبعضها يذكر اسم منيف وبعضها يذكر اسم جماز(١) وقد تبين لنا بعد تدقيق الروايات أن الأخوين تناوبا الإمارة، ولم يحدث أي تنازع بينهما، فتسلم جماز الإمارة من عام ٦٤٩هـ إلى عام ٦٥٣هـ، ثم تركها لأخيه منيف الذي تسلمها أربع سنوات متوالية من ٦٥٣-٦٥٧هـ، وتوفي في آخرها، فعاد جماز وتسلم الإمارة ثانية، وبقي فيها حتى عام ٧٠٠هـ، حيث تنازل عنها لابنه منصور، وعاش بقية شيخوخته وتوفي عام ٧٠٤هـ.

الإمارة الأولى لجماز:

عاشت المدينة المنورة السنوات الأربع من إمارة جماز حياة عادية هادئة رغم عواصف الأحداث من حولها، فقد انتهت الدولة الأيوبية في مصر بقتل توران شاه ابن الملك الصالح نجم الدين أيوب، ثم بقتل شجرة الدر واستيلاء المملوك عز الدين أيبك على الحكم، حيث بدأت دولة المماليك الأولى(٢). وفي مكة كان الصراع بين آل قتادة على الإمارة مستمراً، يوظف في صراع آخر هو الصراع بين بقايا الأيوبيين في الشام والرسوليين في اليمن(٣) وقد شارك جماز بن شيحة في بعض هذه الأحداث أواخر ولايته الأولى، وناصر الرسوليين الذين قدموا من اليمن لانتزاعها منهم، ففي شوال عام ٦٥٢هـ

---

١) ذكر ابن خلدون والشرفي أن الذي تولى الإمارة بعد عيسى هو جماز، انظر ابن خلدون ١٤١/٤ وجميل حرب نقلا عن مخطوط زهرة العقول للشرفي ص٨٢. بينما ذكر السخاوي أن الذي تولى الإمارة بعد عيسى هو منيف: انظر التحفة اللطيفة ٤٢٣/١، وقد اضطرب السخاوي في هذا الموضوع لأنه أرخ استلام منيف للإمارة في مكان آخر من كتابه عام ٦٥٧هـ، وهو العام الذي توفي فيه منيف، انظر التحفة اللطيفة ٣٨٣/٣، وذكر ابن الاثير أن جمازاً كان على رأس الإمارة في سنة ٦٥٩ وسنة ٦٧٩. انظر البداية والنهاية ٢٤٢/١٣ و ٣٠٧/١. وانظر النجوم الزاهرة ١٤٦/٧.

٢) انظر البداية والنهاية ١٣/١٩٠-١٩١.

٣) انظر: العقد الثمين ١٧٦/١، و ٤٣٥/٣ وشفاء الغرام ٢٠٢/٢.

استطاع الشريفان أبو نمي وإدريس بن قتادة الاستيلاء على مكة، وحكماها معاً وأقاما الخطبة لسلطان مصر المملوكي، إلى أن فاجأه جيش الرسوليين بقيادة ابن برطاس في الخامس والعشرين من ذي القعدة من العام نفسه، وكان جماز أمير المدينة في مكة، وانتصر لهما، وخرج برجاله فقاتل معهما ابن برطاس على أبواب مكة، وانتصر الرسوليون وهزم أبو نمي وإدريس وجماز، ودخل ابن برطاس مكة، ومكث فيها إلى أيام الحج حيث قاد وفود الحجيج، ودعا للرسوليين، وبقي إلى آخر ذي الحجة.

وفي أوائل محرم سنة ٦٥٣هـ أعاد أميرا مكة أبو نمي وإدريس تنظيم صفوفهما وانضم إليهما أمير المدينة برجاله، وهاجموا ابن برطاس ورجاله، وقاتلوهم قتالاً عنيفاً على أبواب مكة وهزموهم، واسترد شريفا مكة إمارتها، وعاد جماز ورجاله إلى المدينة(١).

ولا شك أن هذا التعاون بين أمير المدينة وأميري مكة يعني وجود علاقات حسنة بين البلدين طيلة إمارة جماز الأولى. ولا نجد أحداثاً متميزة أخرى في تلك الفترة، فبعد عودة جماز إلى المدينة انتقلت الإمارة إلى أخيه منيف.

---

١) العقد الثمين ٤٥٨/١.

المدينة المنورة في إمارة منيف بن شيحة:

ظلت المدينة المنورة هادئة في السنة الأولى من إمارة منيف، وكانت العلاقات الخارجية حسنة مع جميع الأطراف، فبعد أن ساعد جماز آل قتاده في مكة ضد الرسوليين لم يتدخل في شؤون مكة، إذ عاد الصراع بين الإخوة من آل قتادة على الإمارة، فوقفت المدينة على الحياد. واستمرت العلاقات مع بقية الأيوبيين في الشام، ولم تحدث أية مشكلة مع المماليك في مصر الذين استولوا على الحكم من الأيوبيين فيها والمدينة تفتح أبوابها للقادمين من جميع الجهات وتكرمهم وتحسن معاملتهم، والأمن مستتب بشكل عام، فليست هناك صراعات ظاهرة حول الإمارة وليس هناك من يهددها من القبائل المحيطة بها.

ولا يخلو حكم الأمير منيف بن شيحة من شدة وظلم أحياناً فهناك (مكوس) تؤخذ من القادمين إلى المدينة، و(مكوس) تفرض على التجار وعلى المحاصيل الزراعية، وقد بلغ الأمر بمصادرة بعض أموال التجار والمزارعين الذين يخفون أملاكهم أو يتخلفون عن دفع (المكوس) المفروضة. والحركة التجارية رغم ذلك تجري في الأسواق بشكل طبيعي، وكذا الحركة الثقافية في المسجد النبوي بشكل رئيسي، حيث حلقات العلم المختلفة وبخاصة حلقات التفسير والحديث والفقه، يشارك فيها عدد كبير من الزائرين والمجاورين. وقد ألِف الناس أن يحضر -بين الحين والآخر- عالم كبير من العراق أو الشام أو مصر أو خراسان ويجاور في المدينة عدة أشهر ويعقد خلالها دروساً يومية في المسجد النبوي، ويتقاطر إليه الناس يحضرون مجلسه ويستفيدون من علمه، وقد امتلأت كتب الرجال بأخبار هؤلاء في كل قرن.

وفي عام ٦٥٤هـ شهدت المدينة المنورة حدثين كبيرين هما: انفجار بركان في منطقة ((الحرة الشرقية)) وهو ماتسميه الكتب التاريخ القديمة ((النار العظيمة))، واحتراق المسجد النبوي. وليس بين الحدثين سوى شهرين

انفجار البركان:

أورد المؤرخون روايات مختلفة تناقلتها الكتب عن شهود عيان لايخلو بعضها من التناقض. وباستعراض هذه الروايات نخرج بالصورة التالية :

شهد عام ٦٥٤هـ منذ شهوره الأولى أحداثاً جيولوجية عدة في منطقة العراق والشام والحجاز. فقد حدثت تغييرات مفاجأة في الطقس، وهطلت أمطار غزيرة أعقبتها سيول وفيضانات أغرقت بغداد وهدمت دوراً كثيرة(١) وصار الناس ينتقلون في الشوارع بالقوارب(٢) وحدثت سلسلة من الهزات الأرضية في منطقة الحجاز، ووقع أعنفها في محيط المدينة المنورة وانتهت بانفجار البركان في الحرة الشرقية.

ففي يوم الاثنين أول رجب عام ٦٥٤هـ وقع زلزال خفيف أحس به بعض أهل المدينة ولم يشعر به الآخرون، ويبدو أن مركز هذا الزلزال كان بعيداً عن المدينة فوصل إليه أطراف منه. وقد تكررت الهزات الخفيفة في الليل، وسمع بعضهم له صوتاً يشبه صوت الرعد البعيد تارة تارة(٣) وفي اليوم الثاني من رجب اشتدت الهزات وتوالت وأحس بها أهل المدينة جميعاً.

وفي اليوم الثالث: الأربعاء الثالث من رجب حدثت زلزلة قوية في الثلث الآخر من الليل، فزع لها الناس، وقد وصف القاضي سنان أثرها في رسالته فقال: إنه كان في المسجد النبوي وأن المنبر قد اضطرب له حتى سمعوا صوت الحديد الذي فيه واضطربت قناديل الحرم(٤) واتصلت الهزات على شكل نوبات متقطعة قدر عشر مرات(٥) وفي اليوم التالي الخميس الرابع من رجب

---

١) السمهودي ١٥١/١.

٢) البداية والنهاية ٢٠٢/١٣.

٣) البداية والنهاية ٢٠١/١٣.

٤) البداية ٢٠١/١٣.

٥) عقد الجمان ١٢٦/١.

استمرت الهزات المتقطعة أيضاً.

وفي ضحى يوم الجمعة الخامس من رجب حدثت زلزلة قوية، أعقبها دوي هائل مثل دوي الرعد القاصف، فارتاع الناس روعة عظيمة وظهرت لهم نار هائلة تنفجر من الأرض في الجهة الشرقية من المدينة، وظهر لها دخان عظيم في السماء يتعقد حتى يبيض كالسحاب الأبيض(١) واستمر تدفق الدخان إلى السماء يخفي في ثناياه النار إلى مغيب الشمس، وفي الليل بدت ألسنة النار الهائلة ((إشعالها أكثر من ثلاث منارات))(٢) تصعد في السماء ثم ينحدر منها شلال ضخم فيه صخور تحترق وأبخرة تتصاعد.

كان موقع البركان قريباً من منطقة بني قريظة، ويبدو أنه رأس تل من التلال المنتشرة هناك ويقع بين جبلين وبجانبه واد كبير انهمرت فيه الحمم، وأخذت تجري محرقة كل ماتصادفه أمامها من نبات قليل وصخور صغيرة. ولأول مرة يشاهد أهل المدينة ناراً على الأرض تمشي ((مثل النهر أحمر وأزرق)) (٣) واستمر تفجر البركان وارتفاع اللهب في عنان السماء طوال الليل، ولم يجرؤ الناس على الذهاب إلى المنطقة التي تفجر فيها، وتوجلت القلوب وأشفقت وأيقن الناس أن العذاب قد أحاط بهم(٤) وتوجه القاضي سنان إلى أمير المدينة منيف بن شيحة ووعظه ونصحه أن يتوب إلى الله ويقلع عن ذنوبه ((فأعتق كل مماليكه، ورد على الناس مظالمهم وأبطل (المكس))) (٥) وهبط من قصره في القلعة ومعه أعيان البلد إلى المسجد النبوي، وتوجه أهل المدينة إليه ومعهم النساء والأطفال حتى لم يبق في

---

١) البداية ٢٠٣/١٣.

٢) السابق ٢٠٠/١٣.

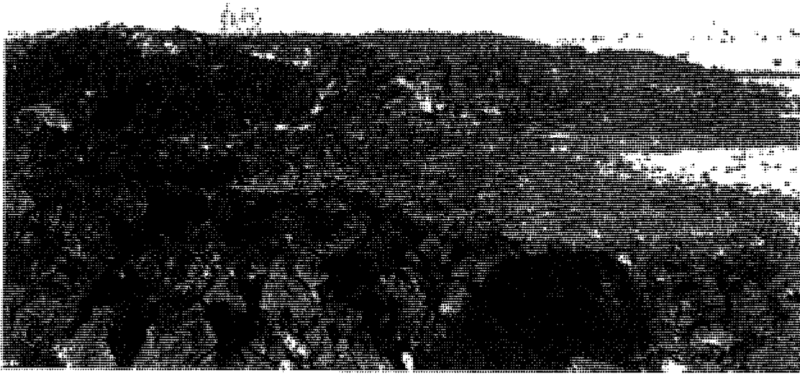
٣) وفاء ١٤٣/١.

٤) وفاء ١٤٤/١.

٥) وفاء ١٤٤/١ والبداية ٢٠١/١٣.



وفي الخامس من رجب عام ٦٥٤ هـ ظهرت نار عظيمة، إشعالها أكثر من ثلاث منارات، تعود إلى الأرض لتمشي مثل النهر وتحرق كل شيء
«القاضي سنان»



صورة لآثار البركان: الحجارة المحروقة في الحرّة الشرقية.

النخل أحد، وأخذوا يبكون ويتضرعون إلى الله أن يكشف عنهم الضر ((وأحاطوا بالحجرة الشريفة كاشفين رؤوسهم مقرين بذنوبهم مبتهلين مستجيرين))(١).

وفي اليوم التالي شاهد الناس من أسطحة المنازل نهراً من الحمم يتجمع في واد قرب موقع الانفجار، ثم يتحرك غرباً باتجاه المدينة ففزع الناس فزعاً شديداً ولم يجسر أحد على الذهاب إلى المنطقة، وأرسل الأمير عدداً من الفرسان للإتيان بخبرها، فلم تجسر الخيل على القرب منها، فترجل أصحابها واقتربوا من نار الحمم ((قدر غلوتين بالحجر)) ولم يستطع أحد أن يجاوز موقعه من حرارة الأرض ومقابلة مايتصاعد من اللهب(٢) وكانت الحمم تتحرك وتضطرم فيظهر فيها شرر وتتدحرج الأحجار فتشتعل. واشتد فزع الناس فلجأوا إلى المسجد النبوي وازداد بكاؤهم وتضرعهم. ثم تجمعت الحمم في بحيرة صغيرة، ثم بدأت تشق طريقها في أكثر من اتجاه، اتجه القسم الرئيسي منها شمالا نحو جبل أحد، وانحرف تيار منها في ميلان خفيف نحو الغرب واقترب من منطقة العريض وهذا ما أفزع الناس، فلو استمر هذا التيار في اتجاهه لنزل إلى المدينة، وأتى عليها لأنها منخفضة عن العريض.

وشاء الله أن يتوقف التيار المتجه غرباً عند العريض ويتابع التيار الشمالي ويتجه جزء منه شرقاً حتى تقاطع مع مجرى وادي قناة (ويسمى أيضاً وادي شظاة) القادم من الشرق، فأخذت الحمم تتجمع فيه يوماً بعد يوم، وكلما انسابت موجة جديدة وقفت فوق الحمم السابقة وأخذت تبرد وتجمد، فبدأ يتكون في مجرى الوادي سد كبير مالبث أن امتد إلى طرفيه وأخذ يحدث تلة طويلة تمتد يوماً بعد يوم.

استمر ثوران البركان اثنين وخمسين يوماً في بعض الروايات، وثلاثة

---

١) وفاء ١/١٤٤.

٢) وفاء ١/١٤٥.

أشهر في رواية أخرى(١) وتوقف اللهيب فترة بسيطة في السابع والعشرين من شهر رجب عام ٦٥٤هـ ثم عاود الاشتعال، وامتد نهر الحمم حسب تقدير القسطلاني أربعة فراسخ في عرض أربعة أميال، وارتفاع قامة ونصف، ولم تزل الدمم تتجمع في وادي قناة حتى قطعته وكونت سداً عظيماً(٢) ثم خرج منه وانتشر في فسحة من الأرض كانت منزلا للحجاج العراقيين يستريحون فيه قبل أن يدخلوا المدينة (تسمى بحرة الحاج) فقطعت الوادي وقطعت الطريق القادم من العراق، وكونت حرة جديدة لاتصلح للسير والمواصلات(٣) وقد ذكر السمهودي أن الحمم التي تجمعت في وادي قناة والساحة المجاورة لها كونت سداً كبيراً يقطع السيل عندما يسيل (حتى يصير بحراً مد البصر عرضاً وطولا)(٤) وهذا يعني أن المدينة المنورة قد كسبت بحيرة تبقى فيها المياه مدة طويلة في السنة، تزيد منسوب المياه الجوفية وتغذي الآبار. وذكر السمهودي فائدة أخرى لهذا السد هو أنه قطع الطريق التي كان يأتي منها المفسدون، ويقصد بعض الأعراب القاطنين في تلك الجهات، فلما قطعت هذه الحرة البركانية طريقهم أصبحوا لايصلون إلى المدينة الا عن طريق بعيد يمضي بهم خلف جبل أحد(٥).

تحديد موقع البركان:

حاول السمهودي أن يحدد موقع البركان بدقة فجمع عدة روايات تحدد الموقع في المواضع التالية:

أ - في صدر واد يقال له الأحيلين، وينسب هذا القول للمؤرخين دون أن

---

١) وفاء ١/١٤٥.

٢) وفاء ١/١٥٠.

٣) وفاء ١/١٥٠.

٤) وفاء ١/١٥١.

٥) وفاء ١/١٥٠.

يذكر اسماً معيناً. ويحدد وادي أحيلين بأنه شرقي المدينة على طريق السوارقية (مسيرة من الصبح إلى الظهر).

ب - في قارعة الهيلاء، قرب مساكن قريظة شرقي قباء بين قريظة وأحيلين، ثم سالت في أحيلين وعرجت واستقبلت الشام إلى منطقة تسمى قرين الأرنب قرب جبل أحد(١).

وحددها ابن كثير كما يلي:

أ - في منطقة المقاعد وراء قريظة على طريق السوارقية مسيرة نصف يوم من المدينة(٢).

ب - في رأس جبل أحيلين، في طريق الحرة(٣).

وذكر عبد القدوس الأنصاري في كتابه آثار المدينة وجود فوهة بركانية ذات شق مستطيل جداً من فوق جبل ((وشم)) ويقرر في الهامش أن اسم الجبل جشم وحرفته العامة إلى وشم(٤) وما زالت أثار هذه الحمم باقية إلى عصرنا هذا تغطي منطقة واسعة من الأرض بحجارة سوداء(٥).

آثار البركان:

أحدث ثوران هذا البركان هزة نفسية في المجتمع المدني، إضافة إلى ما أحدثه من دهشة وخوف. وتتجلى مظاهر هذه الهزة في الملاحظات التي سجلها المؤرخون وأهلها: مراجعة النفس والاعتراف بالأخطاء والانحرافات. فقد أرعبت هذه الظاهرة الكونية الضخمة الناس، وجعلتهم يقفون مع أنفسهم وقفة محاسبة صادقة، ويعترفون بذنوبهم، ويعلنون التوبة. ولئن حَرَّض

---

١) وفاء ١/١٥٠.

٢) البداية والنهاية١١/٢٠٢.

٣) السابق نفسه ١١/٢٠٢.

٤) آثار المدينة ص ٢٠٧.

٥) انظر مصور البركان في الملحق

القاضي سنان أمير المدينة منيف بن شيحة على التوبة، فإن أعيان المدينة وسائر رجالها ونسائها قد هرعوا دون أن يدفعهم أحد إلى المسجد النبوي مستغفرين تائبين، وأمضوا الليلة في الدعاء والتضرع، ويقول ابن كثير: وبات الناس تلك الليلة بين مصلٍ وتالٍ للقرآن وراكع وساجد، وداع إلى الله عز وجل، ومتنصل من ذنوبه ومستغفر وتائب، وأبطل أمير المدينة (المكوس) التي كان يجمعها ظلما، ورد المظالم إلى أهلها وأعتق مماليكه، وتبعه في ذلك كل من اقترف ظلماً(١) وورد في خطاب لسنان القاضي بعثه إلى أحد أصدقائه أن المدينة ((قد تاب جميع أهلها، ولا بقي يسمع فيها رباب ولا دف، ولاشرب.)) (٢) وهذه العبارة توضح جانباً من مراجعة النفس التي أحدثها البركان، والوقوف عند المعاصي التي انزلق اليها بعضهم في المجتمع المدني والرجوع عنها.

ثانياً: ربط هذه الحادثة بالقيامة بناء على حديث صحيح قاله رسول الله ﷺ ((لاتقوم الساعة حتى تخرج نار من أرض الحجاز تضيء أعناق الإبل ببصرى)) رواه البخاري. مع أن الحديث الشريف لاينص على أن هذه النار ستكون بالمدينة ضرورة بل بالحجاز، والحجاز إقليم واسع يمتد من جنوبي مكة إلى حدود الأردن. وقد التمس بعضهم ما يؤكد هذا الربط، فأورد ابن كثير رواية عن القاضي صدر الدين علي بن أبي القاسم المقيم بدمشق أن أعرابياً أخبر والده -وكان معاصراً للحادثة- أنهم رأوا في تلك الليلة أعناق الابل ببصرى على ضوء هذه النار(٣) ونقل السمهودي هذه الرواية واحتج بها لتأكيد أن هذه النار هي المقصودة بالحديث السابق، وناقش القطب القسطلاني الذي شك في أن تكون هذه النار قد رؤيت في بصرى، وعزز السمهودي

---

١) البداية والنهاية ٢٠٣/١٣.

٢) السابق ٢٠١/١٣.

٣) السابق ٢٠٤/١٢.

تأكيده بما نقله عن أبي شامة من أن أحد الثقاة بلغه أنها رؤيت في تيماء ((وبصرى عنها مثل ماهي من المدينة في البعد))(١) ويبدو أن السمهودي لم يكن يعرف تماماً أين تقع بصرى. وقد ذكر الحموي بلدين بهذا الاسم: الأولى من أعمال دمشق وهي قصبة كورة حوران، والثانية من قرى بغداد قرب عكبراء(٢). فالأولى تبعد عن المدينة أكثر من ألف (كيلو متر)، والثانية أكثر من ألف وخمسمائة (كيلو متر)، بينما لاتبعد تيماء سوى أربعمائة كيلو متر.

ولو ناقشنا الرواية التي نقلها ابن كثير واحتج بها السمهودي لوجدنا أنها تحتمل الشك، لأن الراوي الأول هو أعرابي لاندري مدى صدقه، ولو صحت إضاءة هذه النار لأعناق الإبل في بصرى لكانت خارقة تتواتر فيها الأحاديث، خاصة وأن النار قد استمرت مدة شهرين إلى ثلاثة أشهر، ولكنا لانجد إلا رواية ذلك الأعرابي المجهول؟. ومع يقيننا الذي لايتطرق إليه الشك أن النار التي ذكرت في الحديث الصحيح هي احدى علامات الساعة، لأن الذي أخبر بها لاينطق عن الهوى ﷺ. فاننا نعتقد أن تفسير الحديث يحتمل ظهور نار أخرى في مكان ما من منطقة الحجاز كلها، وأن تلك النار ستكون عظيمة جداً أضخم بكثير من هذا البركان، ويكون وهجها شديداً يضيء أعناق الإبل في بصرى، وقد تظهر شمالي الحجاز وقد تظهر في وسطه ولكن لن تكون رؤيتها قاصرة على أعرابي مجهول، بل سيراها كل من يرى أعناق الابل آنئذ. فاللفظة في الحديث الشريف تذكر أنها ((تضيء)) والإضاءة كما نعرفها درجة قوية من الإبانة والاظهار.

ثالثاً: إضفاء خصائص غير عادية على هذه النار، فقد شاعت مقولات بأن تلك النار ليس لها حر ولاتحرق الشجر بينما تحرق الحديد والحجر، وينقل المطري أن (سنجر العربي أحد عتقاء الأمير عز الدين منيف بن شيحة

---

١) وفاء الوفاء ١٤٨/١.

٢) معجم البلدان ٤٤١/١.

صاحب المدينة قال: أرسلني مولاي الأمير عز الدين بعد ظهور النار بأيام، ومعي شخص من العرب، وقال لنا ونحن فارسان: اقربا هذه النار وانظرا هل يقدر أحد على القرب منها، فإن الناس يهابونها لعظمها. فخرجت أنا وصاحبي إلى أن قربنا منها، فلم نجد منها حراً، فنزلت عن فرسي وسرت إلى أن وصلت اليها، وهي تأكل الصخر والحجر، فأخذت سهماً من كنانتي ومددت به يدي إلى أن وصل النصل إليها، فلم أجد لذلك ألماً ولا حراً، فعرق النصل ولم يحترق العود، فأدرت السهم، وأدخلت فيها الريش، فاحترق الريش ولم يؤثر في العود)(١) وقد ناقش السمهودي هذه الرواية وقرنها برواية للقسطلاني، وتبيّن أنها كانت تذيب مالاقاها من الشجر الأخضر والحصى من قوة اللظى، ولا أحد يقدر على الاقتراب منها ويأخذ بهذه الرواية ويرد كلام المطري(٢) وقد أصاب السمهودي في مناقشته فقد أتت نار البركان آنئذ على الأخضر واليابس، والرواية التي نقلها المطري لاتخرج عن إطار تزيّد القصاصين والمتخيلين.

حريق المسجد النبوي:

ولم تكد صدمة ((النار العظيمة)) تنتهي حتى فاجأت أهلَ المدينة صدمة أخرى كان لها وقع شديد في نفوسهم أيضاً، وكأن هذا العام عام صدمات ومحن. فقد ظل البركان يقذف حممه قرابة الشهرين، ثم هدأ، وثار بعد ذلك ثورة بسيطة. وما لبثت أن وقعت صدمة ثانية في الليلة الأولى من شهر رمضان في ذلك العام نفسه ٦٥٤هـ أي قبل أن ينطفىء البركان نهائياً.

فبعد أن انصرف الناس من صلاة العشاء والتراويح إلى بيوتهم، وقبل أن يخلدوا إلى النوم، ارتفع الصريخ ينادي الناس كي يهرعوا إلى المسجد النبوي فقد اشتعلت فيه النار. ويذكر المؤرخون أن أحد الفراشيين -واسمه أبو بكر

---

١) وفاء ١٤٦/١، اليافعي ١٣٢/٤.

٢) وفاء ١٤٧/١.

بن أوحد- دخل إلى مخزن في الجهة الشمالية الغربية من المسجد ليخرج بعض القناديل التي تعلق في المنارات طوال ليالي رمضان، وكان بيده سراج يستضيء به، فوضع السراج على قفص من أقفاص القناديل، وفيه مشاق (أي قطعة قماش من كتان) ريثما يخرج القناديل المطلوبة فعلقت النار بالمشاق، وامتدت منها بسرعة إلى الحصر والبسط الموجودة في المخزن، وحاول أبو بكر الفراش أن يطفئها فازداد اشتعالها، وامتدت إلى القناديل المملوءة بالزيت، وأمسكت النار بالفراش نفسه، وتزايد اللهيب ووصل إلى السقف، عندئذ رآى الناس خارج المسجد لهيب النار فتصايحوا وأسرعوا إلى المسجد ليطفؤوها بوسائلهم البسيطة آنئذ، وما كانوا يملكون سوى دلاء الماء، وجرى المنادي في أحياء المدينة وأسرع العسس إلى الأمير فطرقوا عليه الباب وأخبروه، فهرع مع رجاله إلى المسجد النبوي، واجتمع غالب أهل المدينة يحاولون إخماد النار ولكن النار أمسكت بخشب السقف الجاف، وما فيه من حصر وردم، وامتدت من خشبة إلى خشبة، وأخذت الأخشاب المحترقة تتساقط في أطراف المسجد فتحرق ما تقع عليه من بسط ووسائد خشبية وخزانات جانبية ومصاحف، فتزداد النار التهاباً وتتصل نار الأرض بنار السقف، وتعجز الدلاء المسفوحة عن إيقافها، ثم بدأ السقف يتهاوى، وعلقت النار بعدد من الرجال الذين يحاولون إطفاءها دون جدوى، فأسرع إليهم إخوانهم ليخلصوهم منها وارتفع أزيز اللهيب من أطراف السقف كله ولم يعد أحد يستطيع الوصول إلى أعلى المسجد، وصار الناس يسفحون الماء من الجوانب والنار تستعر داخل المسجد حتى آتت على المنبر والشبابيك الخشبية ورؤوس السواري، ووقع السقف الذي على أعلى الحجرة على سقف بيت النبي ﷺ

فوقعا جميعاً في الحجرة الشريفة وعلى القبور المقدسة(١) وتلف جميع ماالحتوى عليه المسجد الشريف من المنبر النبوي والأبواب والخزائن والشبابيك والمقاصير والصناديق، وما اشتملت عليه من كتب وكسوة الحجرة(٢) ومات الفراش المسكين متأثراً بحروقه الشديدة، وتأذى عدد من الذين أمسكت بهم النار، ولم يسلم من النار إلا مستودع صغير على شكل قبة أشبه بخزانة كبيرة كروية بُني زَمَن صلاح الدين الأيوبي وسط المسجد النبوي لتوضع فيه ذخائر الحرم، مثل المصحف العثماني وصناديق من منتصف القرن الرابع الهجري(٣).

جرت كل هذه الأحداث بسرعة مذهلة، وبهت الناس وصاروا في كمد عظيم، فهذه أول مرة في تاريخ المسجد النبوي يصيبه الحريق، والمدهش أن البركان الذي ثار قبل شهرين وأفزع الناس، لم يصل منه شيء إلى المسجد النبوي.

وكان اليوم التالي يوم الجمعة، وأول جمعة في رمضان، وعز على أهل المدينة ألا يصلوا في المسجد النبوي، لذلك تقاطروا صباحاً إليه وعزلوا ناحية منه ونظفوها من الركام وصلوا فيها والحزن يعصر قلوبهم.

إعادة بناء المسجد النبوي:

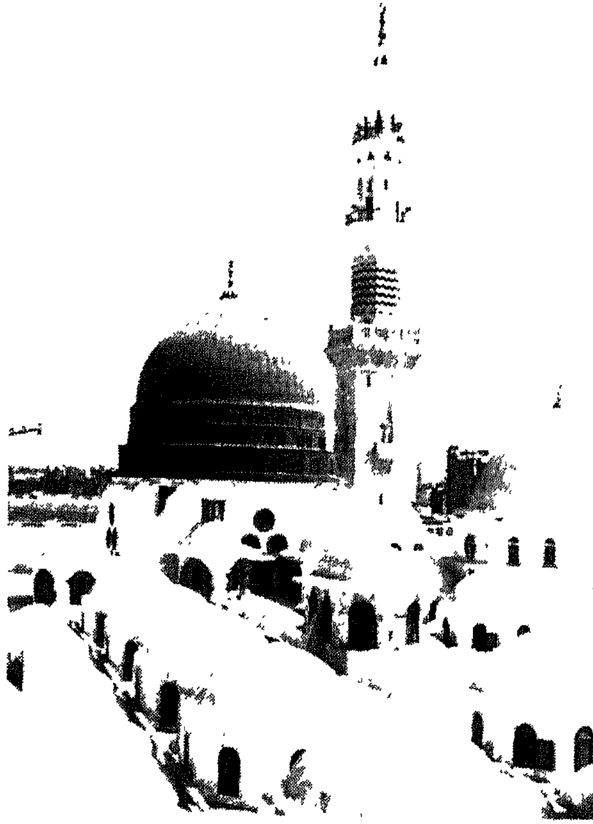
كتب أمير المدينة إلى الخليفة المستعصم يخبره باحتراق المسجد النبوي وتهدمه، ويطلب منه المساعدة لإعادة بنائه، فلم تكن الإمارة قادرة على إعادة بنائه بالشكل اللائق. فأمر الخليفة بإرسال فريق من البنائين والنجارين والحدادين والصناع ومعهم أدوات البناء اللازمة، وسيره على الفور مع المركب

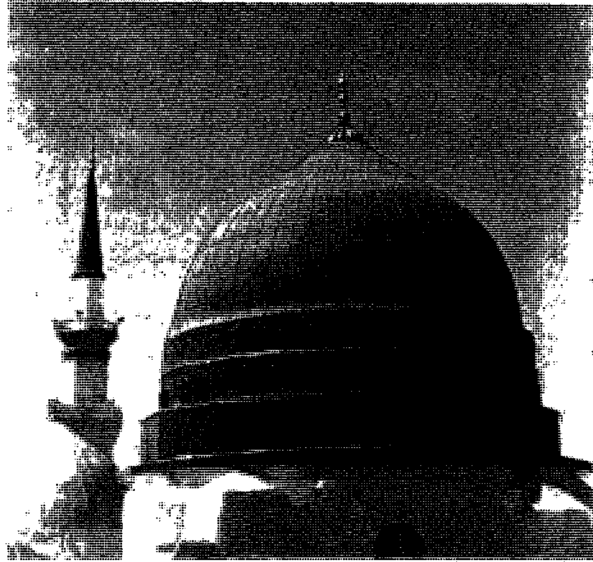
---

١) السمهودي ٢/٦٠٠ -٦٠١.

٢) السمهودي ٢/٥٩٩.

٣) السمهودي ٢/٦٠٠، عقود الجمان ١/١٢٨، الذيل على الروضتين ص ١٩٤، النجوم الزاهرة ٧/٣٦، البداية والنهاية ١٣/٢٠٥ ـ٢٠٦.





عند إعادة بناء المسجد النبوي بأمر السلطان قلاوون بُني سقفه على شكل مجموعة من القباب وبُنيت قبة كبيرة فوق الحجرة النبوية وكان لونها أبيض أيضاً ثم غُيِّر إلى الأخضر في عهد السلطان قايتباي

العراقي الذاهب إلى الحج(١) ووصل الفريق المدينة فطلب منه الأمير أن يؤخر العمل حتى ينتهي موسم الحج وينصرف الزوار. وفي أول محرم عام ٦٥٥هـ بدأ العمل في المسجد بإزالة الأنقاض تماماً وهدم بقية الجدران والسواري وإعادة بنائها.

وانتشر خبر احتراق المسجد والبدء بإعادة بنائه في الأمصار بعد عودة الحجاج، فسارع بعض السلاطين للإسهام في البناء الجديد، وأرسل سلطان اليمن آلات وأخشاباً وأموالاً لعمل الأساطين وتقوية الجدران، وأرسل الظاهر بيبرس من مصر ثلاثة وخمسين صانعاً ومعهم الحديد والرصاص والخشب الثمين والأموال اللازمة لنفقة الصناع لتجديد السقف وجعله من خشب الساج الثمين ولبناء مقصورة جديدة حول الحجرة النبوية وأخرى حول بيت السيدة فاطمة.

بعد ذلك أرسل السلطان قلاوون عمالاً وأموالاً لبناء قبة فوق الحجرة النبوية فبنيت عام ٦٧٨هـ، كما بنيت خارج المسجد عند باب السلام ميضأة، وجرت اليها قناة من مياه عين الزرقاء، وأعيد بناء المئذنة الرابعة فوق باب السلام، التي هدمت في عهد سليمان بن عبد الملك(٢).

ما بعد الحدثين:

سارت الحياة في المدينة المنورة بقية أيام منيف بن شيحة على وتيرتها الهادئة، حيث كان إعمار المسجد النبوي أهم أحداثها، وكانت آثار انفجار البركان واحتراق المسجد النبوي ماتزال تؤثر في النفوس وتحافظ على الرقة والصلاح اللتين ازدادتا إثر الحدثين المريعين.

أميران على المدينة:

وفي عام ٦٥٧هـ توفي منيف بن شيحة، وكان جماز خارج المدينة،

---

١) السمهودي ٦٠١/٢.

٢) انظر السمهودي ٦٠٥/٢ -٦١١.

فجاءها مسرعاً وتولى الإمارة(١) ولم يكن مستقلا بالإمارة وحده، بل كان يشركه فيها ابن أخيه مالك بن منيف، ولأول مرة يشترك أميران في إدارة المدينة المنورة. والراجح أن آل المهنا هم الذين فرضوا هذه الشراكة فمالك هو ابن الأمير المتوفى، وهو الوريث الحقيقي للإمارة، غير أن حداثة سنه، وحاجته لخبرة عمه جماز الذي تولى الإمارة أربع سنوات من قبل. جعلت الأسرة تشركه في الإمارة. ولم يكن جماز مقتنعاً بهذه الشراكة، ولكنه قبلها على مضض، وكان هو المتنفذ الحقيقي، وعندما دبَّ الخلاف بينهما بعد ذلك طرد جماز ابن أخيه عام ٦٦٤هـ. فذهب مالك إلى السلطان بيبرس -وكان بيبرس يحارب الصليبيين في صفد- وشكا إليه ما فعله عمه، فكتب بيبرس رسالة إلى جماز يطلب منه إعادة منيف إلى نصف إمارته، واستجاب جماز لطلب بيبرس وأعاد ابن أخيه(٢) ولا ندري مالمقصود بالنصف هنا، أهو النصف الجغرافي، بحيث يتولى كل من الأميرين الإمارة على قسم من منطقة المدينة المنورة الواسعة، أم هو نصف سلطوي يقتسم كل من الأميرين فيه السلطة الإدارية والمالية.

وبعد عامين رد مالك لعمه الكيل بمثله، وكاد له في الأسرة، واستطاع أن يقنعهم بعزله، فعزله ولم ينتصر له أحد داخل المدينة.

واستنجد جماز بأميري مكة اللذين وقف معهما في إمارته الأولى عام ٦٥٣هـ ضد الرسوليين، فأنجداه، وجاء معه إدريس بن قتادة ليرد له الجميل وينصره على ابن أخيه مالك، كما ناصره بعض العربان الذين سبق أن أحسن إليهم جماز واتجه الجميع إلى المدينة وحاصروها، ولكن مالك بن منيف أحسن التحصن والمقاومة، وصمد لمهاجميه حتى يئسوا منه، فرجع أمير مكة إلى بلده ورجع العربان إلى مناطقهم وبقي جماز، ورجاله في ضواحي

---

١) انظر النجوم الزاهرة ١٤٦/٧ والسلوك ج ١ قسم٢ ص ٤٢١.

٢) انظر السلوك ج١ قسم٢ ص ٥٦٠ و عقود الجمان ٩/٢ و ١٠.

المدينة(١) ويذكر السخاوي أن مالك بن منيف قام بعد ذلك بمبادرة لم يسبق لها مثيل في تاريخ أمراء المدينة من آل المهنا، إذ أرسل إلى عمه جماز يقول له ما معناه: أراك حريصاً على إمرة المدينة، وأنت عمي وصنو أبي، وقد كنت لي معاضداً ومساعداً ويجب علينا أن نحترمك ونرعى حقوقك، وقد استخرت الله تعالى ونزلت لك عن الإمارة طوعاً لاكرهاً. فسر بذلك جماز، وحمد الله على حقن الدماء وبلوغ مقصده، واستقل بها يومئذ(٢) ولئن صحت الرواية عن طريقة الصلح بين جماز ومالك فإنها نموذج رفيع لالتئام الأسرة الواحدة، والإيثار في الإمارة، ونادراً ما يحدث ذلك.

جماز في إمارته الثالثة:

كان جماز مختلفاً عن أخيه منيف وابن أخيه مالك، فمنيف أقرب إلى الرقة الليونة، وعندما ثار بركان الحرة الشرقية استمع لوعظ القاضي، وأعتق مماليكه ورد المظالم وألغى المكوس، ولم يدخل طوال مدة إمارته في نزاع مع سلطان أو أمير، وأحسن العلاقة مع الأيوبيين والمماليك وأمراء مكة والرسوليين، فلم يكن له خصوم.

أما جماز فكان أميل إلى الحزم والشدة، قليل الاهتمام بالعلاقات الخارجية، وقد اختلف مع مماليك مصر. ففي جمادى الآخرة عام ٦٦٤هـ جاءه الأمير شكال بن محمد أحد كبار المسؤلين في دولة المماليك وطلب منه أن تسهم إمارته في تكاليف الحرب ضد الصليبيين، وكانت تجمع من المناطق التي تتبع المماليك في كل مكان، وتسمى (العداد) فرفض جماز، فهدده شكال بالحرب، واستعان عليه ببني خالد المقيمين في بادية الحجاز، فخاف جماز

---

١) التحفة اللطيفة ٤٢٣/١.

٢) التحفة اللطيفة ٤٢٣/١.

وأرسل مذعناً، (ملتزماً القيام بحقوق الله، واستخراجها من قومه)(١) وبقيت العلاقات غير ودية مع المماليك أيام الظاهر بيبرس. رغم ما كان بيديه الظاهر بيبرس من اهتمام بالحرمين الشريفين، ورغم إسهامه في إعادة إعمار المسجد النبوي إثر حريق ٦٥٤هـ، وإرساله منبراً قيماً ليقام فيه. فعندما حج الظاهر بيبرس عام ٦٦٧هـ هرب منه جماز وخرج من المدينة. ومكث الظاهر بيبرس ثلاثة أيام في المدينة وقال لمن حوله: لو كان جماز يستحق القتل لما قتلته لأنه في حرم النبي ﷺ(٢) ووزع أموالاً كثيرة على أهل المدينة والمجاورين.

وما لبث جماز أن اختلف مع أمير مكة، وفتح صفحة جديدة من العلاقات المضطربة والحروب بين المدينتين، فقد دخل في الصراع الدائر هناك بين آل قتادة على الإمارة، وانتصر لفريق على فريق، وشارك بنفسه وبرجاله في القتال. فقد أدى الخلاف المستعر بين آل قتادة على إمارة مكة إلى صراع بين الشريكين إدريس بن علي بن قتادة وابن أخيه أبي نمي محمد بن حسن بن علي بن قتادة، وكانا قد اشتركا في حكم مكة سبعة عشر عاماً بعد أن خلصاها من الرسوليين بمساعدة جماز أمير المدينة. واتهم أبو نمي عمه إدريس بالميل إلى الرسوليين، فأخرجه من مكة عام ٦٦٧هـ وكتب إلى الظاهر بيبرس يعلمه بطرد عمه لميله إلى الرسوليين، ويعلن ولائه لمصر، ويطلب تثبيته وحده دون عمه في الإمارة. فقبل منه بيبرس الولاء واشترط عليه فتح مكة للحجاج والمعتمرين دون قيد أو شرط، وحمايتهم، وحماية التجار الوافدين والخطبة له وذكره في العملة المسكوكة، ونفذ أبو نمي الشروط. ولكن بعض آل قتادة مالبثوا أن صالحوه مع عمه إدريس، فعاد إدريس إلى مشاركته في الإمارة. وفي سنة ٦٦٩هـ دب الخلاف ثانية بين الأميرين واستطاع إدريس هذه المرة أن يطرد أبا نمي من مكة، فذهب أبو نمي إلى

---

١) عقود الجمان ٤٢٨/١، السلوك ج١ قسم٢ ص٥٥٨ ويؤرخها المقريزي بعام ٦٦٥هـ.
٢) النجوم الزاهرة ١٤٦/٧.

ينبع واستعان بأميرها وحارب عمه إدريس وقتله واستقل بإمارة مكة. ولجأ أحد أبناء إدريس واسمه غانم إلى الأمير جماز بن شيحة، ونجح في استثارته لمساعدته على قتال أبي نمي، فجهز جماز حملة من رجاله وخرج معهم بصحبة غانم بن إدريس في صفر عام ٦٧٠هـ إلى مكة وحاصروها، وقاتلوا رجال أبا نمي وتغلبوا عليهم، فهرب أبو نمي إلى بعض ضواحي مكة، ودخل جماز وغانم بن إدريس مكة ومكثا فيها معاً وحاول جماز أن يضمها إلى إمارته، ويجعل غانماً نائبه فيها، غير أن أبا نمي استطاع أن يجمع أعوانه واستعان ببعض أقاربه ومناصريه خارج مكة، وهاجم جمازاً وغانماً وأخرجهما من مكة بعد أربعين يوماً فقط من خروجه منها(١).

وقد أعادت هذه الحادثة الصراع بين أمراء مكة والمدينة وأحفظت جمازاً وجعلته ينتظر الفرصة المناسبة للعودة إلى مكة وقتال أبي نمي. ففي شعبان عام ٦٧٣هـ خرج جماز برجاله إلى مكة، ولم يكن خروجه هذه المرة انتصاراً لأحد من آل قتادة، بل ثأراً لنفسه ولكسر شوكة أبي نمي. غير أن أبا نمي تحاشى المواجهة، وأرسل يفاوض جمازاً على الصلح وعرض عليه أن يدفع له مبلغاً مجزياً من المال، على أن يرجع عن مكة ويتخلى عن نصرة خصومه من آل قتادة الذين قتلوا والده نهائياً. ونجحت المفاوضات وقبل جماز العرض ورجع عن مكة وخلى بينه وبين قتلة أبيه(٢).

ولكن جمازاً لم يحافظ على تعهده طويلا، فقد نجح أمير ينبع إدريس بن حسن بن قتادة في استثارته واستعداءه على أبي نمي بعد سنتين، فخرج جماز مع إدريس بن حسن في ربيع الأول عام ٦٧٥هـ لقتال أبي نمي، وكان عدد رجال الأميرين المتحالفين كما يذكر الفاسي ٢١٥ فارساً وستمائة راجل. وعلم أبو نمي بالخبر فجمع رجاله وكانوا أقل عدداً ٢٠٠ فارساً و١٨٠ راجلا

---

١) انظر العقد الثمين ١/ ٤٦٠ -٤٦١.

٢) انظر السابق نفسه.

فقط، وسار إلى مر الظهران قرب مكة، وخطط للمعركة بدقة، وقاد القتال في التاسع عشر من الشهر نفسه ونجح رغم قلة عدد رجاله في كسر الأميرين المتحالفين ضده وتغلب عليهما، فارتدا منسحبين بعد أن خسرا عدداً من رجالهما وعتادهما. وعاد أبو نمي إلى مكة منتصراً(١).

بعد ذلك بدأت فترة مصالحة وعلاقة حسنة، فقد اصطلح جماز مع أبي نمي، ومع المماليك في مصر أيضاً.

أما صلحه مع أبي نمي فلا ندري هل تدخل فيه أحد من الوسطاء أم تم بالمراسلة بين الأميرين، وقد حرص كل من الأميرين على أن يكون الصلح قوياً ودائماً، وأن تنشأ بينهما ارتباطات وشيجة، فتزوج جماز بن شيحة خزيمة ابنة أبي نمي وصار صهراً لخصمه القديم.

وأما صلحه مع المماليك فبعد وفاة الظاهر بيبرس عام ٦٧٦هـ أرسل جماز بالولاء إلى ابنه السعيد بركه الذي خلفه في الملك، وخطب له على منبر المسجد النبوي، فقبل السعيد الولاء وأرسل أموالا وكسوة للحجرة النبوية. وامتدت فترة الهدوء هذه اثني عشرة عاماً، حظي فيها جماز بثناء المؤرخين(٢).

غير أن العلاقات مع أبي نمي ما لبثت أن اضطربت عام ٦٨٧هـ وتحولت إلى قتال بين الفريقين. وكان المسؤول عن ذلك هذه المرة هو أبو نمي وليس جمازاً، لأن جمازاً كان ممثلا للسلطة الشرعية في مصر لمعاقبة أبي نمي على خطئه.

وترجع أصول المشكلة الجديدة إلى الصراع الدائر آنئذ بين الرسوليين في اليمن والمماليك في مصر. وحرص كل من الفريقين على بسط نفوذه على مكة المكرمة والاحتفاظ بولائها لسلطانه.

---

١) السابق نفسه.

٢) انظر التحفة اللطيفة ١/٤٢٤.

وكان أبو نمي -كما أسلفت- قد أعلن ولاءه للمماليك في مصر عام ٦٨١هـ فكتب عهداً للسلطان قلاوون يلتزم فيه بوضع الكسوة التي يرسلها المماليك على الكعبة وبالخطبة لهم وكتابة أسمائهم على العملة المسكوكة وحماية الحجاج والتجار، وغير ذلك من الالتزامات. وكان المماليك يدفعون له ثلاثين ألف درهم سنوياً ويرسلون الأعطيات والنفقات للحرم.

وفي عام ٦٨٧هـ استطاع خصوم المماليك الألداء في اليمن إقناع أبي نمي بالخطبة لهم، فخطب لملكهم المظفر الرسولي. وغضب السلطان قلاوون، وأرسل حملة بقيادة مملوكه الجماكي وطلب من أمير المدينة أن ينضم إليه لمقاتلة أبي نمي وإعادة الخطبة للمماليك. وجاء الجماكي إلى المدينة فخرج جماز معه برجاله رغم مصاهرته لأبي نمي، وخرجت معه أسرته وفيها زوجته خزيمة بنت أبي نمي ووصيفاتها. وعلم أبو نمي بالحملة، فخرج من مكة ولجأ إلى بعض أقاربه في ضواحيها، ودخل جماز مكة، واستولى على دار الإمارة، وأعاد الخطبة للمماليك، وأمر أن تضرب العملة في دار السكة باسمه وباسم السلطان المنصور قلاوون.

ولم يكن أبو نمي خصماً سهلاً، فقد عمل ببراعة على إخراج جماز، اذ راسل الجماكي قائد الجيش المملوكي ووعده بتنفيذ كل مايريده السلطان قلاوون، وبأعطيات له. كما حرض ابنته خزيمة على التخلص من جماز، واستطاعت إحدى وصيفات خزيمة واسمها أم هجرس أن تدس السم في شراب جماز، فاعتل جماز وكاد أن يهلك لولا أن سارع بعضهم لمعالجته. وعلم جماز بالمراسلات التي تجري بين الجماكي وبين أبي نمي، وحصل على دليل قاطع بأن الجماكي تواطأ مع أبي نمي وأنه سينقلب عليه، فاشتد الأمر عليه ورأى أنه لامخلص له من هذه الورطة إلا الرحيل عن مكة، فأمر بالعودة سريعاً إلى المدينة ليكمل علاجه فيها، وقبض على الجماكي وأرسله موثوقاً إلى السلطان قلاوون بمصر، فعزله السلطان عن وظيفته وسجنه. أما جماز

فقد تعافى من السم بعد مدة، وعاد لإدارة إمارته في المدينة والاهتمام بشؤونها(١).

بنى جماز لنفسه قصراً على جبل سلع، وجعله قلعة يتحصن بها ويشرف منها على مداخل المدينة، وما لبث أن نقل قصر امارته إليه(٢) وصانع عدداً من القبائل المحيطة بالمدينة والذين ظهرت شوكتهم، ودفع (خفارة لمن تخشى غوائله من رؤسائها)(٣) وساعد على تهدئة الخلافات بين السنة والشيعة في المدينة، وأذن للقاضي السني الشيخ سراج الدين عمر بن أحمد بن الخضر في معالجة أمور أهل السنة وإمامتهم والخطبة في المسجد النبوي، وسمح له بالبقاء الدائم في المدينة وحماه من تهجم الشيعة المتطرفين. وكانت الخلافات قد اشتدت قبل ذلك حتى لم يكن قاض سني يجرؤ على البقاء في المدينة مدة طويلة. وكان سلطان مصر هو الذي يعين القاضي السني ويرسله مع وفد الحجيج فيمكث إلى رجب ويأتي خلفه مع المعتمرين في ((الرجبية)) ليكمل السنة، وكان القاضي يعاني من مضايقات شديدة وربما حصبه بعضهم وهو على المنبر، وربما آذوه في بيته وهددوه بالقتل. وقد نجح الشيخ سراج الدين بالتعاون مع جماز في استمالة الشيعة، وصاهرهم ولم يعد أحد يتعرض له بالأذى(٤).

نتيجة لذلك علت مكانة الأمير جماز عند السلطان قلاوون فاستقبله عام ٦٩٢هـ واحتفى به حفاوة كبيرة، وكان السلطان قلاوون قد غضب على أمير ينبع وسجنه في مصر، فتشفع فيه الأمير جماز، فقبل شفاعته وأطلقه له، وأعاده إلى الإمارة، وأجاز جمازاً بأموال وفيرة وأرسل إلى المدينة مثلها.

---

١) انظر العقد الثمين ٤٦٢/١.

٢) السمهودي ١٢٣٦/٤.

٣) النجوم الزاهرة ٣٥٧/٧.

٤) انظر الدرر الكامنة ٢٢٤/٣-٢٢٥.

نجح جماز في ضبط الأمن في المدينة المنورة وحفظها من المغيرين والطامعين سواء بالمصانعة أو بالتأديب والعقوبة، وقد حاول أحد أمراء العربان عام ٦٩٣هـ الإغارة على المدينة المنورة -وكان شديد الفتك كثير الاغارة على المناطق الأخرى- فجهز جماز رجاله وعدداً من أشداء المدينة المتطوعين، وسار بهم إليه فالتقاه في منطقة قريبة من المدينة وقتله وقتل عدداً من رجاله فحمد الناس لجماز هذا القتل وانتشر صيته في البلاد(١) وعاشت المدينة المنورة بقية إمارة جماز هادئة آمنة.

وفي عام ٧٠٠هـ ضعف جسم جماز ضعفاً شديداً ولم يعد قادراً على إدارة شؤون الإمارة، فتنازل لابنه منصور عن الإمارة، واعتكف في قصره يعيش بقية أيام شيخوخته، ويزجي النصائح لابنه منصور إلى أن توفي عام ٧٠٤هـ(٢).

وقد نشطت الحركة الثقافية في عهده وكثرت الكتاتيب وحلقات العلم في المسجد النبوي. وحدثت في العقد الأخير من إمارته حادثتان طبيعيتان كان لهما أثر في أهل المدينة.

أما **الحادثة الأولى** فقد وقعت عام ٦٩٠هـ حيث هطلت أمطار كثيرة وسالت الأودية وتجمع سيل عظيم في وادي قناة وكون بحيرة كبيرة خلف السد الذي أحدثه بركان عام ٦٥٤هـ. وما لبث السيل أن أحدث ثغرة في السد، فاندفع الماء وانساح في المزارع الشمالية والشرقية، وفزع أهل المدينة، وخافوا أن ينهار السد وتندفع المياه إلى الدور والمسجد النبوي، غير

---

١) عقود الجمان ٢٩٦/٣.

٢) العقد الثمين ٤٣٧/٣. وفي الدرر الكامنة أنه اعتزل سنة ٧٠٢هـ بمرسوم من السلطان. ونرجح الأول. وربما كان الاعتزال عام ٧٠٠هـ والمرسوم بتولية منصور بعد سنتين. وفي السلوك أنه تولى سنة ٧٠٤هـ بعد وفاة أبيه. قسم١ ج٢ ص١٢.

أن الله كتب السلامة آخر الأمر وظل انسياب المياه على مستواه الأول، واتجهت بعض المياه إلى مجرى وادي قناة خلف السد وسارت غرباً إلى مجمع الأسيال واحتوتها الأودية هناك(١).

وأما **الحدث الآخر** فوقع بعد عامين من حادثة السد، حيث عاود البركان ثورانه عام ٦٩٢هـ وقذف الحمم في السماء، ولكنه لم يستمر في الثوران سوى ثلاثة أيام حيث خمد وانطفأ، ولم يحدث أي أذى للمدينة، ولم يحدث الذي أحدثه البركان السابق(٢).

وفي سنة ٦٩٥هـ احتبست الأمطار وقحط الناس، وهبت ريح صفراء مؤذية، فارتفعت الأسعار ارتفاعاً شديداً وقل الوافدون إلى المدينة، وعانى الناس من ذلك معاناة شديدة(٣) واستمر القحط إلى السنة التالية، ثم بعث الله الفرج.

وودعت المدينة القرن السابع بهدوء ودعة وسكينة، واستقبلت القرن الثامن بإمارة منصور بن جماز التي ستشهد أحداثاً جديدة مختلفة.

---

١) وفاء الوفاء ١٠٧٤/٣.

٢) عقود الجمان ١٤٩/٣.

٣) السابق ٣٠١/٣.

المدينة المنورة في القرن الثامن

إمارة منصور بن جماز:

استهلت أيام الأمير منصور بن جماز بخير وفير عم أهل المدينة. ففي موسم عام ٧٠٠هـ حج الأمير بكتمر الجوكندار، أحد أمراء المماليك وحمل معه كسوة للحجرة النبوية وأموالاً كثيرة أعطى بعضها للأمير وفرق الباقي، ويقدر ما فرقه في مكة والمدينة بثمانين ألف دينار، فإذا كان نصيب المدينة نصفها فهو مبلغ ضخم بمقياس ذلك الزمن(١) وفي السنة الثانية وقع زلزال شديد وأعقبه شيء من القحط، فتأذى الناس، فلما كان موسم الحج وفد الأمير سلار نائب السلطة بمصر يصحبه ثلاثون أميراً ومعهم آلاف الأرداب من القمح -عشرة آلاف منه وعشرة آلاف من الأمير سنقر وآلاف أخرى من سائر الأمراء- فرقها في مكة والمدينة وأعطى كل واحد قوت سنة، كما فرق أموالاً طائلة(٢).

وأعاد سلار الكرة عام ٧٠٤هـ(٣) وأغدق العطاء على أهل الحرمين، وكان بصحبة سلار قوة مسلحة كافية لتأمين طريق الحج. وقد شكا إليه بعضهم ما تعرض له بعض الحجاج في الطريق بين مكة والمدينة، فقاد رجاله لمطاردة الأعراب الذين اعتدوا على الحجاج، ووصل إلى مضاربهم وقبض على خمسين رجلا منهم ممن شارك في الجريمة وأخذهم إلى المدينة واستفتى الفقهاء فيهم فأفتوه بتطبيق حد الحرابة عليهم ليكونوا عبرة لمن خلفهم فلا يتجرأ أحد على طريق الحج بين المدينتين المقدستين. فأمر سلار بقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف، ونفذ الحد، وسرت أخباره بين القبائل فكان لها

---

١) الدرر الكامنة ١٨/٢ و درر الفوائد ص ٦٩٤.

٢) الدرر ٢٧٦/٢. التحفة ١٦٧/٢. السلوك ج١ قسم٣ ص ٩٥٤ ويجعل تاريخ الحج سنة ٧٠٣هـ.

٣) السلوك ق١ ج٢ ص١٢.

أثر كبير في تأمين الطريق عدة سنوات.

كما استطاع بعض العلماء المجاورين في المدينة المنورة أن يؤثروا في مجريات الحياة العامة ويحدوا من انتشار بعض البدع، ويذكر بعضهم أنه كان في المسجد النبوي عند الروضة جذعة تسمى جزيرة فاطمة، وكانت عالية يتطاول الزائرون ليلمسوها ويتبركوا بها، ويتزاحم الرجال والنساء عليها ((فتقف المرأة للأخرى حتى ترقى على ظهرها وكتفيها لتصل اليها، وربما وقعت المرأة وانكشفت عورتها، وربما وقعتا معا))(١) فاستطاع العالم الفقيه أحمد بن محمد بن علي بن سليم المصري أن يقنع الأمير بقلع تلك الجذعة فاقتلعت. كما استطاع أن يزيل عدداً من البدع الأخرى(٢) ونقل بعضهم إلى السلطان بمصر أنه ليس في المدينة من يحسن إقامة المواقيت وربما أخطأوا في توقيت الأيام والصلوات، فأرسل السلطان ثلاثة من الخبراء في المواقيت ليتولوا في الأمر بشكل دائم(٣).

وهكذا مضى معظم العقد الأول من القرن الثامن الهجري والحياة في المدينة المنورة هادئة هانئة، استتب الأمن وتوافرت السلع وتوالت العطاءات من السلطان والأمراء، إلى أن كان عام سبعمائة وتسع للهجرة، قبل أن ينتهي العقد، حيث حدث شرخ في أمن المدينة كاد أن يعيدها إلى أيام الفتن والحروب المضنية.

كان السبب في هذا الشرخ تنافس الإخوة على الإمارة، وسوء تصرف السلطان المملوكي. فرغم أن سلطة السلطان المملوكي على المدينة اسمية أكثر منها فعلية، فقد كان يتدخل في تعيين الأمير، وكان قراره مؤثراً يلتزم به الأشراف. ولكن المؤسف أن هذا القرار لم يكن يصدر عن روية أو معرفة

---

١) التحفة ٢٤١/١.

٢) السابق نفسه.

٣) التحفة ٤٥٨/٣.

بالأمور أو سياسة حكيمة، بل كان قراراً ارتجالياً في غالب الأحوال، فعندما يقصد أحد الأشراف السلطان ويطلب منه أن يعينه في الإمارة أو يشركه في إمارة أمير موجود، يستجيب له السلطان دون أن يدرس أثر استجابته على الوضع في المدينة، وهل سيتقبله الآخرون بقناعة ورضا ؟ أم أنه سيحدث فتنة ؟

وهذا ما وقع عام ٧٠٩هـ في المدينة المنورة. فقد طمع طفيل بن جماز شقيق الأمير منصور بن جماز في إمارة المدينة، ولم يكن قادراً على انتزاعها من أخيه، ولم يجد حجة يقنع بها السلطان كي يعزله، لذلك اكتفى بطلب المشاركة في الإمارة. وقصد طفيل السلطان الملك المظفر سلطان المماليك في مصر آنئذ، فاستقبله المظفر وأكرمه واستجاب لطلبه، وأعطاه أمراً سلطانياً يشركه فيه بالإمارة مع أخيه منصور بن جماز.

وعاد طفيل إلى المدينة، وقبل أن يصلها علم أن أخاه منصوراً مسافر إلى نجد، وأنه استخلف على إمرة المدينة ابنه كبيش بن منصور، فتحركت أطماع طفيل، ولم يقتنع بما أعطاه السلطان من مشاركة في الإمارة، وقرر أن يستغل الفرصة ويستولي على الإمارة كلها وينفرد بها، فجمع رجاله وأعوانه خارج المدينة، ثم أغار على المدينة في السادس عشر من شعبان عام ٧٠٩هـ فأغلقت المدينة أبوابها، وتحصن الناس خلف السور، وأمر كبيش أن لايبيت رجل قادر على حمل السلاح في بيته، حتى المجاورون والفقراء الذين في الرباطات أمرهم بالخروج والتوجه إلى القلعة وأطراف السور والسهر في الحراسة، فكرب الناس، لذلك ولم يسعهم الا الطاعة ولم يتخلف أحد.

واستمر الحصار ليلتين، وفي الليلة الثالثة استخدم رجال طفيل سلماً طويلا أحضروه من الشام قطعاً، وتسلقوا السور وفاجأوا المحاصرين بالهجوم، فتضعضع الناس وبدأوا بالفرار، وتراجع كبيش ورجاله، وخرجوا

من المدينة لبعض الوقت(١) ولكنهم ما لبثوا أن جمعوا صفوفهم واستنهضوا الناس معهم من أطراف المدينة والمرابطين على الجهات الأخرى من السور وهاجموا طفيلاً ورجاله، واشتد القتال، وكاد كبيش أن يهرب ولكنه ثبت أخيراً واستطاع مع أنصاره أن يصل إلى طفيل ويقتله، وقتل معه عدداً من أعوانه، وفر الباقون.

وهكذا أمضت المدينة ثلاث ليال مشحونة بالتوتر انتهت بمعركة دامية بين أفراد الأسرة الواحدة بغى فيها الأخ على أخيه، واقتتل أبناء العائلة الواحدة وقتل ابنُ الأخ عمه وأبناء عمه(٢).

وعاد الأمير منصور بن جماز إلى إمارته وقد أقلقه ما حدث، لأن السلطان الذي أصدر أمره بإشراك أخيه طفيل في الإمارة يمكن أن يصدر أمراً آخر لغيره من أفراد الأسرة المتطلعين إلى الإمارة، لذلك ما إن جاءه الخبر بمقتل السلطان المظفر وتولي السلطان الناصر محمد بن قلاوون حتى شدَّ الرحال إلى مصر وزار السلطان لتهنئته بالسلطة، واستصدر منه مرسوماً بتفرده بالإمارة وإلغاء ما سبق أن حدد له في مرسوم إشراك طفيل معه(٣).

كان هذا الحدث بداية لدوامة من الفتن والحروب الصغيرة المتصلة الحلقات في عهد منصور بن جماز، فقد أثار مقتل طفيل بعض أفراد العائلة عليه وأوتر ابنه ماجداً، ولجأ ماجد إلى بعض الضواحي قرب المدينة المنورة، وكانت لهم إقطاعات فيها ملكها أبوه، فجعلها مركز إقامته، وبدأ ماجد يعد العدة للثأر من الأمير منصور وإخراجه من المدينة والاستيلاء على الإمارة.

---

١) ابن خلدون ١٤١/٤، ويرى أن أبا كبيشة قد استجاش العرب.

٢) انظر التحفة اللطيفة ٧٠٣/٣. السلوك ق١ ج٢ ص٨٢. النجوم الزاهرة ٢٧٨/٨.
ويذكر ابن بطوطة أن كبيشاً بلغ من غيظه من عمه وضرواته في قتاله أن توضأ بدمه بعد قتله. رحلة ابن بطوطة ص١٤٣.

٣) انظر السلوك ق١ ج٢ ص٩٤.

واتصل ماجد بأمير ينبع الذي شايعه وشجعه وأمده ببعض المال والرجال، فاتسعت جبهة الخصومة ضد أمير المدينة.

بدأ ماجد بشن غارات مفاجئة على المدينة المنورة، يحاول فيها النيل من الأمير منصور ورجاله، فيتصدى له رجال الإمارة وتدور معركة صغيرة وسريعة يقع فيها بضع ضحايا ثم يرتد المهاجمون إلى مكامنهم تاركين وراءهم حالة من الفزع والاضطراب، وقد يحمل معهم المغيرون ما تصل إليه أيديهم من سلاح ومؤونة.

ثم أخذ ماجد يتحين فرص خروج الأمير منصور من المدينة ليشن الغارة ويحاول الاستيلاء على الإمارة. وضاق الأمير منصور بهذه الغارات وخرج متقفياً ابن أخيه فلم يظفر به، فقرر أن يضعف قوته ويقطع عنه مدد أمير ينبع قتادة بن إدريس، وفي الوقت نفسه يعاقب قتادة لمساعدته خصمه، فخرج بقواته إلى ينبع في عام ٧١١هـ. وعلم أمير ينبع بخروجه فأعد العدة لملاقاته وعزز حصنه، ولم ينجح الأمير منصور في مباغتة قتادة بن إدريس، ووقعت بين الفريقين مناوشات محدودة وتحصن قتادة بقلعته، وأدرك الأمير منصور أنه لن يظفر بطائل من حملته، وخشي أن يستغل ماجد غيبته ويستولي على المدينة، لذلك انسحب مع رجاله عائداً إلى المدينة(١).

أثرت هذه الفتنة في أمن المدينة وحياتها الهادئة، واضطربت هيبة الإمارة، وظهرت آثار هذه الاضطرابات في اللغط الذي انتشر في المدينة حول غارات ماجد، واستفاد الطامعون والمفسدون من هذا الوضع، فتحركوا ليزيدوا الحالة بلبلة واضطراباً. ويروي السخاوي أن بعض الشرفاء المتمردين على الأمير منصور أو المتعاطفين مع ماجد أشاعوا أنهم: سوف يغلقون أبواب الحرم بعد صلاة الصبح على الناس، وينقضون على بيوتهم فينهبونها، وأنهم سوف يقتلون من بالحرم من الناس. فاستعد المجاورون والخدام لذلك، وقام

---

١) انظر ابن خلدون ١٤١/٤. والتحفة الملوكية في الدولة التركية ص١٢٦.

الشيخ علي بن يحيى نور الدين بعد صلاة الصبح وصاح بأعلى صوته: ياأيها الناس الفتنة خامدة، لعن الله مثيرها، وكرر ذلك مراراً، واستمر يسكن الفتنة وساعده أشياخ مثله في حلمه وعقله حتى سكنت(١) وساعدت حالة الاضطراب هذه على نشر الإشاعات العدائية المتبادلة بين الشيعة والسنة، وراجت حكايات لاتعرف مصادرها الحقيقية حول صدامات وعمليات انتقام متوقعة، وبخاصة بعد أن أشيع أنه لن يحج في هذه السنة أحد من المماليك والقادة لانشغالهم بمواجهة التتار، ولكن مالبث الخبر أن جاء بأن السلطان الناصر بن محمد بن قلاوون سيحج ومعه عدد كبير من الأمراء، فهدأت الأحوال، وجاء السلطان ومرافقوه إلى المدينة أواخر ذي القعدة ٧١٢هـ وفرق الأموال، وسكنت الفتنة بين الشيعة والسنة.

وفي العام التالي ٧١٣هـ شارك عدد من أشراف المدينة في الصراع الدائر بين أبناء أبي نمي في مكة، حيث انخرط خمسمائة فارس من أهل المدينة وما حولها في حملة قادها أبو الغيث بن نمي ضد أخويه رميثة وحميضة، وأعانوه على الاستيلاء على مكة(٢).

وطبيعي أن مثل هذه المشاركة ستزيد الروح الحماسية والاستعداد للقتال والمصادمات عند هؤلاء، وبالتالي فان أخبار الغارات التي يشنها ماجد والخصومة مع قتادة بن إدريس وتحركات بعض الأعراب المحيطين بالمدينة ستجد بيئة تنميها وتزيد الاضطرابات، على حساب السكينة والأمن اللتين كانت المدينة تنعم بهما.

وشاعت أخبار هذه الاضطرابات ووصلت إلى السلطان محمد بن قلاوون الذي كان مشغولا بالتصدي للتتار وتعقبهم وإخراج بقية الصليبيين من السواحل. فتضايق وعدّ ذلك ضعفاً من أمير المدينة أو سوء إدارة. وزاد من

---

١) التحفة ٣/٣٦٧-٣٦٨.

٢) العقد الثمين ٤/٤٠٦-٤٠٧.

ضيقه شكاوى الحجاج وأمراء الحج من اضطراب الأمن في الحرمين الشريفين والطريق بينهما، وأثر ذلك في فقدان السلع وغلاء الأسعار، فأمر قائد موكب الحج عام ٧١٦هـ بالقبض على الأمير منصور وإحضاره إلى مصر للتحقيق معه في هذا الأمر. ونفذ قائد الركب الأمر، فقبض على الأمير منصور واصطحبه معه في العودة إلى مصر، وأناب أخاه الأمير ودي في إمارة المدينة، وهناك استطاع الأمير منصور أن يقنع السلطان بأنه ليس مسؤولا عن الحالة المتردية في المنطقة، وأن المسؤول الحقيقي هم خصومه: ماجد وقتادة بن إدريس وعدد من أشراف المنطقة وشرفاء مكة. وعندما نجح الأمير منصور بن جماز في إثبات براءته أطلقه السلطان وجهزه وأعاده إلى إمارته في ربيع الأول ٧١٧هـ غير أن أخاه ودي طمع في الإمارة وحاول أن يتصدى لأخيه منصور ويمنعه من دخول المدينة، وجمع رجاله وأعوانه لذلك. ووقعت مناوشات بين الطرفين واستطاع الأمير منصور آخر الأمر أن يطرد ودي ويسترد الإمارة(١).

وأغار ماجد على المدينة في جمادى الأولى من العام نفسه، وفاجأ الأمير منصور وكاد أن يأسره، فهرب الأمير منصور خارج المدينة، وجمع رجاله واستعان بعساكر السلطان قلاوون الذين جاؤوا معه، وكروا على المغيرين داخل المدينة، ودارت معركة عند جبل سلع أسفرت عن مقتل ماجد وعدد كبير من رجاله وهزيمة الباقين، كما سقط عدد من الضحايا من رجال الأمير منصور، وعاد منصور إلى إمارته وقلعته(٢) ولم يذكر ابن خلدون مقتل ماجد

---

١) السلوك ق١ج٢ ص١٧٥ والعقد ٤٣٧/٣.

٢) العقد الثمين ٤٣٧/٣، التحفة ٤٤٢/٣. وأورد ابن خلدون مع شيء من الاختلاف، فقرر-أن ماجداً استولى على المدينة ومكث فيها لبعض الوقت وأن الأمير منصور قد أرسل إلى السلطان الناصر محمد بن قلاوون يستنجده فأنجده السلطان بجيش ١٤٠/٤.

في حين ذكر السخاوي ذلك في ترجمته الموجزة(١).

استراحت المدينة من غارات ماجد ورجاله، ولكنها لم تعد إلى أمنها وسكينتها السابقة، وأثرت هذه الأحوال المضطربة على الحياة العامة، وقلت التجارة، واضطر الأمير أن يفرض المزيد من (المكوس) والضرائب على القادمين إلى المدينة والبضائع التي يحملونها ليغطي نفقات الإمارة وما تواجهه من صدامات وفتن. واشتد أصحاب الخراج على التجار القادمين بالبضائع فقلت التجارة كثيراً، وأصبح غالب عيش أهل المدينة من زرعها وزرع السوارقية، وكان القمح لايأتي من الشام إلا قليلاً حتى كان السعيد من يدخل بيته بحمل أو حملين، وكانت العقوبة على من يشتري ولا يبلغ ولا يدفع الخراج كبيرة(٢).

وضج الناس من هذه الحالة وشكوا الأمر إلى الملك الناصر محمد بن قلاوون عندما حج عام ٧١٩هـ، فأمر الناصر بإبطال جميع المكوس والخراج، وعوض أمير المدينة عن دخله منها فمنحه إقطاعات في مصر والشام وجعلها وقفاً يخصص ريعها لإمارة المدينة وفقرائها(٣) وكان مع السلطان صاحب حماة الملك المؤيد ونحو خمسين أميراً وجماعة من أهله وأعيان دولته فوزعوا أموالاً كثيرة(٤).

ووردت بعد ذلك أموال أخرى لمساعدة أهل المدينة على مواجهة ظروف المعيشة في فترات الاضطراب. وأرسل جوبان بن قدوان نائب السلطة بالعراق أموالاً أخرى كثيرة لبناء مدرسة قرب المسجد النبوي ولشراء بعض العقارات

---

١) انظر ٣/٤٤٢.

٢) التحفة ٣/٧٠٩.

٣) درر الفوائد ص٦٧٧.

٤) إتحاف الورى ٣/١٦٢-١٦٤ والسلوك ق١ ج٢ ص٢١٤.

ووقفها عليها(١) فخففت هذه الأموال من أثر القحط(٢).

ونجح الأمير منصور في حفظ الأمن في المدينة المنورة في السنوات التالية، ولكنه لم ينجح في سل الضغينة من صدور أبناء أخيه وأبناء عمه الذين وترهم من قبل. فما زال هؤلاء يتحينون الفرصة لقتله، وقد استطاع أحد أقاربه الموتورين أن يظفر به في رمضان عام ٧٢٥هـ، وهو في عدد قليل من رجاله، فهاجمه وتمكن من قتله(٣).

إمارة كبيش بن منصور:

كان الأمير منصور قد بلغ السبعين من عمره، وكان في أيامه الأخيرة يستعين بابنه كبيش الذي أثبت قدرته على إدارة الإمارة في غيبة والده والدفاع عنها، وقد تولى كبيش الإمارة مباشرة بعد أبيه وطلب من السلطان أن يثبته بمرسوم، فأرسل السلطان بتثبيته.

غير أن كبيشاً الذي أحفظه مقتل أبيه الشيخ لم يسع إلى تصفية الحقد المتراكم بينه وبين أبناء عمه، بل أخذ يطارد قتلة أبيه وخصومه الآخرين، وأخذ أقاربه القاطنون في ضواحي المدينة وقراها يشنون الغارات عليها أيضاً للنيل منه. وظهرت مطامع أفراد الأسرة الواحدة في الإمارة، وعاد الصراع بينهم. ففي شهر صفر عام ٧٢٧هـ جمع ودي بن جماز عم الأمير كبيش أعوانه وسار بهم مع ابنه عسكر إلى المدينة، وكان الأمير كبيش غائباً عنها وينوب عنه في الإمارة أخوه طفيل بن منصور، فحاصر المدينة سبعة أيام ثم اقتحم سورها وهاجم الإمارة، فهرب طفيل، ودخل ودي المدينة فأخذ غلمان الأمير وأهله وصادرهم وعذب جماعة من رجاله فمات بعضهم تحت التعذيب، وقتل قاضي المدينة هاشم بن علي وشريفاً آخر. ومضى طفيل إلى القاهرة

---

١) العقد الثمين ٤٤٦/٣.

٢) الدرر الكامنة ٧٠/٣، التحفة ٤٣١/١.

٣) السلوك ق١ ج٢ ص٢٦٩ والدرر ١٣٢/٥.

يشكو عمه ودي إلى السلطان المنصور، وطمع ودي في أن يثبته السلطان المنصور في الإمارة، فترك أعوانه يدبرون شؤون المدينة وسافر إلى مصر ليقنع السلطان المنصور بإصدار مرسوم تعيينه، ولكن المنصور جمع بين ودي وطفيل وسمع منهما معاً في جلسة أشبه بجلسة القضاء والمحاكمة، وفي نهايتها أمر بالقبض على ودي وسجنه وإعادة كبيش إلى إمارته، وأرسل الأمير علاء الدين بن طفربل مع قوة مسلحة لطرد أعوان ودي وتسليم الإمارة لكبيش، وعلم كبيش بذلك فجمع أنصاره، ولقي الأمير علاء الدين، وتوجه الجميع إلى المدينة للقبض على أعوان ودي، وعلم هؤلاء ففروا قبل أن يصل إليهم الجمع. وعاد كبيش إلى إمارته(١).

ولم تطل إمارة كبيش لكثرة خصومه والمتربصين به، وكان كبيش قد قتل أحد أبناء عمه عام ٧٠٩هـ واسمه مقبل، ورغم مضي قرابة العقدين من الزمن فإن أبناء مقبل ما زالوا يحملون الرغبة في الثأر والانتقام، ويتحينون الفرصة للنيل من كبيش، وقد ظفروا بهذه الفرصة في نهاية رجب عام ٧٢٨هـ حينما كان كبيش خارج المدينة مع عدد قليل من رجاله، فكمن له أبناء مقبل وقتلوه. ويروي ابن بطوطة أن الناس في المدينة كانوا يقولون (إن أبناء مقبل قتلوا كبيشاً ولعقوا دمه)(٢) ولكن أبناء مقبل لم يستطيعوا أن ينزعوا الإمارة من أسرته، فانتقلت الإمارة إلى أخيه طفيل بن منصور(٣).

---

١) السلوك ق١ ج٢ ص٢٨٠-٢٨١.

ينقل السخاوي عن الفيروز آبادي رواية مختلفة تقرر أن ودي بن جماز جهز هدية سنية للسلطان وذهب إليه بنفسه طالباً تعيينه، فعينه السلطان بعد شهر، ورجع طفيل إلى كبيش في العربان وحمل هدية أكبر وعاد بها إلى القاهرة في شعبان، فلما وصلها جاء الخبر بمقتل كبيش، فقلد المنصور طفيلاً. التحفة ٢٦٠/٢. ولكننا نرجح رواية المقريزي الذي قرر أن السلطان سجن ودياً وأعاد كبيشاً لتظاهرها مع الروايات الأخرى التي تؤكد سجن ودي.

٢) رحلة ابن بطوطة ١٤٣.

إمارة طفيل بن منصور:

ورث طفيل بن منصور الإمارة من أخيه وورث معها مشاحناتها وخصوماتها، وأول تلك الخصومات خصومة عمه ودي بن جماز الذي أطلق سراحه، وعاد وجمع رجاله (وأخذوا يشنون على المدينة الغارات ويطلبون بها الثارات، ويفسدون الزروع، وينهبون الضروع، ويحرقون النخيل والأشجار وما يجدون أينع من الثمار)(١) وقد تأثر أهل المدينة بغارات ودي ورجاله تأثراً شديداً، ولم يستطع طفيل أن يقمعهم أو يمنع غاراتهم، ولم يجد أهل المدينة بداً من التصرف بأنفسهم لحماية أرواحهم وممتلكاتهم، وحسب رواية السخاوي فقد خرج وجهاء المدينة، وفي مقدمتهم قاضيها شرف الدين الأسيوطي، وشيخ الحرم والأعيان، وفاوضوا ودي بن جماز على الصلح واتفقوا معه على أن يدفعوا له خمسة عشر ألف درهم مقابل الكف عن أملاكهم وزروعهم، فرضي ودي وتم الصلح(٢) غير أن هذا الصلح ما لبث أن نقض، وكان بعض رجال ودي هم الذين نقضوه، لذلك قرر طفيل أن ينهي أمر ودي وعصابته فاستنجد بعدد من القبائل المحيطة بالمدينة من الحربيين ((صالح بن حريبة من آل فضل، وعمرو بن هيبة من آل مراد، وعياق بن متروك)) فحشدوا له جموعاً كبيرة وأخذوا في مطاردة ودي ورجاله -وكانوا قلة- واستطاعوا أن ينزلوا بهم هزيمة موجعة، وفر ودي وقتل عدد كبير من رجاله(٣).

اعتقل ودي ثانية عام ٧٢٩هـ بأمر من السلطان وسجن في قلعة الجبل

---

٣) النجوم الزاهرة ٢٧٣/٩.

١) التحفة اللطيفة ٢٦٠/٢.

٢) السابق نفسه.

٣) السابق نفسه.

بمصر فاستراحت المدينة من غاراته إلى حين(١) وسارت حياة الناس في مجراها المعتاد، وقد حرص السلطان قلاوون على أن يهدئ المنازعات بين أفراد الأسرة الحاكمة في المدينة المنورة، ويستل السخائم من النفوس المضطربة فأفرج عن ودي عام ٧٣١هـ وأنعم عليه بإقطاع في الشام ليشغله به عن مشاحنة ابن أخيه وتعكير حياة المدينة المنورة بالغارات والفتن، وأطلق له أكبر أعوانه الذي كان معتقلا معه، فذهب إلى الشام وأقام فيها مدة من الزمن(٢) وجاء السلطان قلاوون في السنة التالية حاجاً فزار المدينة المنورة بعد أن قضى النسك، فتلقاه أشراف المدينة من ينبع ورافقوه في الطريق، وصادف أن هبت ريح شديدة بعد وصوله المدينة، وألقت الخيم واقتلعت بعض الأشجار واستغل بعض عبيد السلطان الفرصة فهربوا، وعندما سكنت الريح في اليوم الثاني أرسل أمير المدينة رجاله فتعقبوا العبيد الآبقين وجمعوهم وردوهم للسلطان، فسر السلطان بذلك، وأنعم على أمير المدينة بعطاءات سخية وفرق أموالاً كثيرة في أهل المدينة(٣).

كوارث طبيعية:

وقد شهدت المدينة في فترة إمارة طفيل هذه حدثين طبيعين أصابا أهلها بأضرار مزعجة، ففي سنة ٧٣٤هـ نزلت أمطار غزيرة أواخر الشتاء، فاضت على أثرها الأودية، وحجز السد الذي صنعه البركان على وادي قناة السيل تجمعت بحيرة ضخمة جداً، ومالبثت المياه أن أحدثت ثغرة ونفذت إلى الطرف الآخر من السد ومضت إلى طرف جبل أحد، وجبل عينين ومشهد سيدنا حمزة السيل ودخل إلى البيوت، وخرب عدداً منها وحمل شيئاً من ماشيتها، وقد بلغ من القوة أنه (أخذ جمالاً كثيرة وعشرين فرساً) وتضررت

---

١) السلوك قسم ٢ ج ٢ ص ٣٣٣.

٢) السابق نفسه.

٣) النجوم الزاهرة ١٠٥/٩.

عدد من المزارع، وكانت الخسارة كبيرة، ومكث الماء أربعة أشهر، ولايصل الناس إلى المشهد إلا بمشقة كبيرة(١).

وفي السنة الثانية انتشر وباء (الخناق) بشكل لم يعهد من قبل، وربما وفدت عدواه مع أحد الزائرين، ثم سرت بين الناس بسرعة كبيرة، وبدأت الضحايا تتساقط (فكان يموت في كل يوم خمسة عشر) بهذا الوباء، وكانت وسائل العلاج بسيطة وبدائية -فمات بسببه خلق كثير- إلى أن أذن الله برفع هذا الوباء(٢).

موجة عابرة:

وباستثناء هذين الحدثين لانجد ما ينغص الحياة الوادعة في المدينة منذ انتهاء مشكلة ودي إلى سنة ٧٣٦هـ حيث عادت الأحداث السياسية لتصنع موجة معاكسة وتحدث تغييراً كاد أن يعيد القلق والاضطراب والدماء إلى أحياء المدينة وضواحيها.. ولكن الموجة مرت بعد أن أحدثت هزة بسيطة وتغييراً في سدة الإمارة، وعادت الحياة إلى هدوئها. أما الهزة التي حدثت عام ٧٣٦هـ فكان سببها النفوذ السياسي الهائل الذي كان المماليك يفرضونه على المدينة المنورة، حيث ساد شعور واحد عند كل من أمراء المدينة والسلطان، وهو أن إمرة المدينة منوطة بالقاهرة، فلا إمارة لمن لم تعينه القاهرة، ولا أمير الا من هذه الأسرة، والخيار لايخرج عن أحد الأخوة أو الأعمام. لذلك على من يطمح في الإمارة منهم أن يسترضي السلطان، ويحمل إليه هدية سنية، ويقنعه بأنه جدير بالإمارة، فإن رضي السلطان صدر المرسوم بتثبيته دون الاهتمام بأية اعتبارات أخرى، والطريف في الأمر أن السلطان بلغ من تحكمه في هذا الأمر أنه سن الشركة في الإمارة، وبدأت هذه السنة قبل المنصور محمد بن قلاوون منذ أن أشرك الظاهر بيبرس كلاً من

---

١) السلوك ق ٢ ج ٢ ص ٣٧٤، والمغانم ص ٢٧٧.

٢) السابق نفسه.

جماز وأخيه منيف في الإمارة، وكانت هذه الشركة تنتهي بمنازعات وصدامات، فقد اختلف جماز ومنيف، واختلف جماز ومالك بن منيف، واقتتل مالك ومقبل وقتل مقبل. ورغم هذا التاريخ الحافل بالاضطرابات بسبب الشركة في الإمارة، أمر المنصور بها ثانية.

ففي مطلع عام ٧٣٦هـ جاء ودي بن جماز إلى القاهرة بعد أن مات رفيقه وشريكه في الاقطاع، واستطاع بهديته السنية وتلطفه للسلطان أن يستصدر منه مرسوماً بإشراكه في الإمارة مع ابن أخيه طفيل بن منصور بن جماز، وفوجيء طفيل بهذا المرسوم فرفضه، ورفض أن يسلم خصمه القديم نصف إمارته. ويبدو أن ودي بن جماز قد استفاد من تجربتيه السابقتين لذلك لم يعمد إلى القوة، ولم يستنهض رجاله وأعوانه لإجبار طفيل على القبول بالمرسوم السلطاني أو إخراجه، بل عاد إلى القاهرة يشكو إلى السلطان تمرد ابن أخيه ورفضه تنفيذ أوامر السلطان، فكسب عطف السلطان ومساعدته. وأدرك طفيل أنه لن يستطيع الاستمرار في رفض أمر السلطان، وأن عليه أن يتدارك الأمر ويقنعه بعدم صلاحية ودي لمشاركته في الإمارة بسبب تاريخه السابق، لذلك شد الرحال إلى القاهرة، وقابل السلطان وحاول أن يقنعه بعدم إشراك ودي في إمارة المدينة ولكنه لم يفلح، وأيقن طفيل أن عمه ودياً قد استطاع أن يؤثر على السلطان تأثيراً بالغاً، وأنه إذا رضي بالأمر فلا بد أن تقع فتن ومشكلات كثيرة لأنه لايستطيع التعاون معه في الإمارة، فقرر الإصرار على رفض المشاركة مهما كلف الأمر. وعندما رأى السلطان إصراره عرض عليه أن يتخلى عن الإمارة نهائياً مقابل إقطاعه أرضاً واسعاً في حوران ببلاد الشام، بعيداً عن المدينة، فلم يجد طفيل بداً من قبول هذا العرض، وتنازل عن الإمارة لعمه، وعاد إلى المدينة فحمل عياله ومماليكه وانتقل بهم إلى إقطاعه الجديد وسلم الإمارة لعمه وخصمه ودي بن جماز.

إمارة ودي بن جماز:

بدأت إمرة ودي على المدينة في شهر شوال عام ٧٣٦هـ، وتحول الفارس الذي كان يرهب أهل المدينة بغاراته، ويفاوضونه ويدفعون له المال كي لايؤذيهم في أملاكهم وأرواحهم، تحول إلى منصب الإمارة وصار حامي الناس والأملاك. وقد نجح ودي في تغيير صورته في أذهان الناس، فأحسن معاملتهم وخفض (المكوس) والجبايات، وكان قد أثرى من إقطاعه السابق في الشام، وتقرب إلى إخوته وأبناء إخوته الآخرين، وأحسن استقبال الوافدين في مواسم الحج من أعيان المماليك ورؤسائها ووزرائها، وبادلهم الهدايا، وحظي بعطاءاتهم، وفرق في الناس الأموال التي خصصوها لأهل المدينة(١) واستطاع أن يتألف العربان والقبائل المحيطة بالمدينة، التي كان يتعاون معها من قبل في الغارات أو يأوي إليها إذا اشتد عليه الطلب. وأفادته علاقاته القديمة في ذلك. وكان ودي شاعراً فصيحاً. وحرص أيضاً أن يكسب سمعة حسنة لدى السلطان المملوكي في مصر، وعندما توفي السلطان الناصر محمد بن قلاوون عام ٧٤١هـ، وتولى المنصور أبو بكر سارع إلى السفر إلى القاهرة ليعزي في السلطان الراحل ويهنىء خلفه ويثبت إمارته، خشية أن يسبقه خصمه طفيل في ذلك وينتزع الإمارة منه، وقد لقي الحفاوة والتكريم في القاهرة وثبت في إمارته.

وتكرر سفره إلى القاهرة مع انتقال الخلافة ثلاث مرات في سنتين متواليتين. فقد خلع المنصور أبو بكر عام ٧٤٢هـ وولي الأشرف كجك، وبعد

---

١) انظر درر الفوائد ٦٩٤-٦٩٥ والسلوك ق٢ ج٢ ص٤٦٣-٤٧٢.

سنة خلع الأشرف كجك وولي الناصر أحمد(١).

وكانت المدينة تعاني في غيابه من بعض الفتن والغارات، وقد قتل في إحداها عام ٧٤٢هـ أخوه ونائبه في الإمارة ثابت بن جماز(٢).

الاستيلاء على الإمارة:

وما لبث طفيل بن منصور أن استفاد من اضطراب الأحوال السياسية في مصر وعدم استقرار السلطان مدة طويلة، فرحل إلى أطراف المدينة، وأقام في بعض قراها عند أقاربه وبدأ يعد العدة لاستعادة الإمارة من عمه ودي.

لم يلجأ طفيل إلى السلطان كما فعل غريمه ودي من قبل، وذلك لتيقنه بأن السلطان لن يخرج عن إقرار الأمر الواقع، لذلك اختار أن يستولي على المدينة ويطرد ودي ثم يرسل إلى السلطان طالباً إقراره اعترافاً بالأمر الواقع وهذا ما حدث.

فقد حشد طفيل عدداً كبيراً من أنصاره من العربان وزحف بهم إلى المدينة في ذي القعدة عام ٧٤٣هـ(٣) وكان ودي خارج المدينة، واستطاع أن يقتحم المدينة ويقبض على نواب ودي ويستولي على الإمارة. وعندما علم ودي بالأمر لم يستطع أن يفعل شيئاً فاتجه إلى بادية الحجاز حيث يقيم بعض أقاربه، ثم انطلق منها إلى أمير اليمن فأقام عنده(٤).

سارع طفيل إلى الحصول على شرعية لإمارته، وأرسل أخاه حميد بن منصور إلى مصر بهدية سنية على رأس وفد من الأشراف، وكانت الظروف السياسية مناسبة لهذا الوفد، فقد خلع السلطان الناصر أحمد وتولى السلطنة الصالح اسماعيل بن محمد بن قلاوون، ولم تكن له خبرة سابقة بمشكلات

---

١) انظر تاريخ الاسلام ج٧ ص٣٥-٣٦.

٢) التحفة ٣٨٩/٢.

٣) انظر الاعلام للزركلي ١١٢/٨.

٤) السلوك ق٢ ج٢ ص٨٣٩-٨٤٠.

أمراء المدينة، لذلك قابل وفد الشرفاء بالترحاب وقبل الهدية وأصدر المرسوم الذي طلبوه منه بتعيين طفيل بن منصور بن جماز أميراً للمدينة(١).

إمارة طفيل بن منصور الثانية:

امتدت إمارة طفيل الثانية سبع سنوات، كان في أولها حسن السيرة، رفض أن ينصر القضاة الإماميين -مع أنه كان إمامياً- أو يستجيب لطلبهم بالضغط على القاضي السني ابن فرحون الذي مال الناس عنهم إليه فانقطعت أرزاقهم(٢) وكان له وزير عاقل يحسن تدبير الأمور هو الحسن بن علي بن سنجر(٣).

انحراف وجريمة:

غير أن طفيلا مالبث أن تغير، وظهرت له مساوئ كثيرة، فاستولى على بعض الأموال وفرض (المكوس) وزاد الجبايات، حتى إن وزيره المخلص الحسن بن علي بن سنجر كان يحتال ليمنع وقوع الضرر من بعض تصرفاته، فقد هم مرة أن يأخذ المخزون في أحد المستشفيات قهراً، فاتصل الوزير سراً بالقاضي الحنفي ودبر معه حيلة أنقذت المخزون من الأمير(٤) وبدأ أهل المدينة يتضايقون من تصرفاته، وكثرت الشكايات عندما ظهرت آثار تصرفاته في ارتفاع الأسعار واشتداد الغلاء، وقلة ورود القوافل إلى المدينة، وكتب القضاة والأشراف إلى السلطان الناصر حسن في مصر بذلك، فأمر الناصر بعزله وتولية ابن عمه سعد بن ثابت بن جماز، وأرسل الأمر مع الركب المصري القادم إلى الحج وأمر باعلانه وتنفيذه عقب الموسم مباشرة.

علم طفيل بالمرسوم قبل أن يصل الركب المصري إلى المدينة، فأطلق

---

١) الدرر الكامنة ٢/٣٢٤.

٢) التحفة ٢/٥٠٩.

٣) التحفة ١/٤٨٤.

٤) التحفة ١/٤٨٤-٤٨٥.

رجاله لينهبوا ما يستطيعون نهبه من تجار المدينة وأثريائها، وسطا على الحجرة النبوية، فأخذ من قناديلها الذهبية والأموال الكثيرة التي كان الأثرياء يرسلونها إليها، كما سطا رجاله على بعض الحجاج ونهبوهم، فتجمعت لهم مبالغ وافرة، وخرجوا بها من المدينة إلى باديتها قبل أن يصل الأمير الجديد. فكان عمل طفيل هذا أفظع جريمة يرتكبها أمير للمدينة حتى ذلك الحين، فقد انقلب مع رجاله إلى لص يسرق بقوة السلاح، ويتعدى على حرمة المسجد النبوي وعلى أموال الحجاج وأهل المدينة(١) وقد لقي طفيل جزاءه في موسم الحج للعام التالي ٧٥١هـ فقد استطاع قائد الركب المصري الأمير طاز أن يقبض عليه، فقيده وجعل الغل في عنقه وساقه أسيراً إلى مصر، حيث سجن فيها إلى أن مات في السجن عام ٧٥٢هـ(٢).

المدينة في إمارة سعد بن ثابت: إصلاحات عامة:

وصل الأمير الجديد سعد بن ثابت بن جماز إلى المدينة يوم الثلاثاء الثاني والعشرين من ذي الحجة عام ٧٥٠هـ مع الركب المصري، وفي يوم الجمعة ٢٥ من ذي الحجة قرأ أمير الركب المصري على منبر المسجد النبوي مرسوم تعين الأمير الجديد سعد بن ثابت بن جماز(٣) وبدأ سعد إمارته بإصلاحات عامة، فسير منادياً في الشوارع والأسواق ينادي ألا يقضي في الناس غير القاضي الذي يعينه السلطان، وألا يعقد الأنكحة سواه، ومنع آل سنان الذين تورثوا القضاء والعقود من ذلك، وكان القضاء قد تحول إلى مهنة

---

١) البداية والنهاية ٢٥٠/١٤ والسلوك ج٢ ق٣ ص٨١٦ والدرر الكامنة ٣٢٤/٢ والتحفة اللطيفة ٧٥/١.

٢) التحفة ٢٥٩/٢، النجوم الزاهرة ٢٢٨/١٠، واتحاف العروس ٢٤٤/٣، ذيول العبر ص١٩٩.

٣) العقد الثمين ٤٣٨/٣.

يرتزق بها القاضي من المتخاصمين أنفسهم، وكان يدخل في ذلك حيف على أحد الفريقين. وكان معظم القضاة من الشيعة. وتصدى الأمير سعد للمظالم والبدع فمنعها وألغى الجبايات التي فرضها سلفه طفيل آخر أيامه، واشتد على المفسدين، وكتب إلى السلطان يستعينه على تجديد سور المدينة، فأرسل السلطان إليه الأموال، فشرع بترميم السور وتقويته، وأقام خندقاً حول السور زيادة في منعة(١).

ونعمت المدينة في عهد سعد بن ثابت بن جماز بالأمن والسكينة والعدل، وحسنت سيرة الأمير بين الناس فأحبوه، غير أن أيامه لم تطل فقد ذهب ضحية الأمن الذي اجتهد في تثبيته. ففي مطلع ربيع الأول عام ٧٥٢هـ أغار بعض العربان على المدينة المنورة، وكان العمل في تحصين السور لم ينته بعد، فخرج بنفسه على رأس القوة المسلحة، وقاتلهم حتى ردهم عن المدينة وأوقع منهم ضحايا عدة، وأصيب بجرح بالغ، فحمل إلى المدينة، فاشتد عليه جراحه شديداً وما لبث أن مات في الثامن عشر من ربيع الآخر عام ٧٥٢هـ.

آل جماز يختارون الأمير:

حزن أهل المدينة لفقد أميرهم، واجتمع آل جماز لاختيار خليفة له من بينهم، ووقع اختيارهم على ابن عمه الفضل بن قاسم بن جماز، وحلفوا له على الطاعة والنصرة، وسافر أحدهم (مانع بن علي بن جماز) إلى القاهرة يحمل نعي سعد بن ثابت، ويطلب باسم آل جماز تعيين الفضل بن قاسم، فاستجاب السلطان للطلب وأصدر مرسوماً بتعيين الفضل بن قاسم، وعاد مانع إلى المدينة، وقرأ المرسوم على دكة المؤذنين في المسجد النبوي في

---

١) انظر العقد الثمين ٣/٤٣٨ وتحقيق النصرة ص ١٤٧.

جمادى الآخرة من العام نفسه(١).

إمارة الفضل بن قاسم بن جماز:

بدأ الفضل إمارته باكمال تحصين السور الذي بدأ به سلفه، ووسع الخندق حول السور، وسار سيرة سلفه سعد في العدل بين الناس وتوفير الأمن وقمع الفتنة، وبخاصة الفتنة بين الإمامية والسنة. ولم تحدث أيام إمارته أية أحداث كبيرة، وسارت الحياة في المدينة في هدوئها بعد أن تم تجديد السور وحفر الخندق حولها، وقد أسهم هذا العمل في حفظ المدينة من مفاجآت الليل وغارات الأعراب. ولم تطل إمارة الفضل أيضاً، فقد كان ضعيف الجسم يشكو من مرض خفي، وما لبث أن ظهر عليه واشتد به وتوفي في السادس والعشرين من ذي القعدة عام ٧٥٤هـ(٢).

كان مرشح الإمارة بعده الرجل الذي سافر إلى مصر واستصدر مرسوم تعيين الفضل بن قاسم قبل سنتين، وهو مانع بن علي بن جماز، وقد اختاره آل جماز وكتبوا للسلطان في مصر، فجاء مرسوم تعينه.

إمارة مانع بن علي:

واصل مانع سيرة سلفه، فاستقر في الإمارة خمس سنوات هادئة لم تجر خلالها أحداث متميزة يسجلها المؤرخون، وبينما كان مانع في إمارته كان ابن عمه جماز بن منصور بن شيحة يحبك مؤامرة لانتزاع الإمارة منه ببراعة وسرية. فقد سافر إلى مصر، واتصل بكبار المسؤلين حول السلطان، ونجح آخر الأمر في استصدار مرسوم بتعيينه أميراً على المدينة، وحمله وعاد به دون أن يشعر به أحد، وفاجأ الناس في ربيع الناس عام ٧٥٩هـ بالمرسوم الذي يحمله، وكان مانع مسالماً، فترك له الإمارة بهدوء.

---

١) التحفة ٣/٣٩٥.

٢) التحفة ٣/٣٩٦.

انقلاب كبير في المدينة:

وخلافاً لما كان عليه مانع كان جماز حاد المزاج، كثير المرض، يزداد عصبية في مرضه، فنفر منه معظم أقاربه، وقد أظهر تعصباً للإمامية منذ أول إمارته، فأعاد القضاء اليهم، وعين عدداً منهم في المناصب العالية، وجرى في أحكامه على الشدة حتى خرج عن الحد(١) وقبض على أحد المشايخ المجاورين من أهل السنة وسجنه في القلعة وعذبه حتى مات. وبدت الشدة في تعامل رجاله مع الناس، وعادت الرسوم والجبايات، فضج الناس بالشكوى، وكتبوا الكتب بذلك للسلطان في مصر، وسافر بعض أهل المدينة إلى القاهرة ليبلّغ الشكوى ويفصّل أخبار جماز. وقبل أن يفصل السلطان في الأمر فصل القدر المقدور فيه، فبعد انتهاء مناسك الحج، ازدحمت المدينة بالزائرين، وكان بينهما رجلان أشقران جاءا مع الركب الشامي، هاجما الأمير وقتلاه غيلة، وهو سائر بين حرسه. وحصل شغب كبير وهاجم رجاله جموع الحجاج وغيرهم من الحاضرين ظناً منهم أنهم متواطئون مع القاتلين، ودافع هؤلاء عن أنفسهم، وحصل اشتباك بالسلاح وبالأيدي، وقتل عدداً من المتقاتلين، وأسرع حرس السور فأغلقوا الأبواب وكان معظم الجيش القادم مع الركب معسكراً خارج السور، فأمر قائده بمهاجمة السور واقتحامه، وأضرموا النار في الأبواب التي وقفوا عليها واقتحموها ودخل الجيش المدينة وقبض على القاتلين وتحفظ عليهما ليقتادهما إلى دمشق لمحاكمتهما(٢).

وينسب السخاوي إلى سلطان مصر الناصر حسن بن قلاوون الذي حكم

---

١) التحفة ٤٢٧/١.

٢) التحفة اللطيفة ٢٢٧/١ واتحاف الورى ٢٧٧/٤.

(٧٥٥-٧٦٢هـ) أنه هو الذي بعث القاتلين إلى المدينة(١) ونحن نستبعد ذلك لأن الناصر هو الذي أصدر مرسوم تعيينه دون طلب من الأسرة في المدينة، وبسعي من جماز نفسه. وكان قادراً على إصدار مرسوم آخر بعزله، أو إرسال أمر مع قائد الركب الشامي في موسم الحج بالقبض عليه واقتياده إلى القاهرة كما حدث لسلفه الأسبق طفيل بن منصور. فما الذيْ يلجئه إلى أن يبعث شقيين لأغتياله؟ ثم إننا لانعرف أن الناصر استخدم هذا الاسلوب أثناء حكمه. ويذكر المقريزي أن سبب قتله كان (كثرة تظاهره بمذهبه الشيعي وإساءته إلى أهل السنة، فلما قدم الحاج وليس الخلعة على العادة، وثب فداويان فقتلاه في أواخر ذي الحجة)(٢).

وعلى أية حال كانت فترة إمارته شديدة على معظم أهل المدينة، وانعطافاً حاداً في الطريقة التي نهجها أسلافه مدة عشر سنوات كاملة، غير أن هذا الانعطاف زال بسرعة وعادت الحياة في المدينة إلى سكينتها على يد خليفة الأمير عطية بن منصور بن جماز.

إمارة عطية بن منصور:

اجتمعت الأسرة بعد مقتل جماز وتداولت في من يخلفه، وكان هذا الاجتماع -كما يعرضه السخاوي نقلا عن المجد الفيروز آبادي- صورة أخرى من صور الإيثار النادرة، وخلافاً لما سرى بين معظم أفراد الأسرة من تزاحم واقتتال على الإمارة. فقد عرضت الإمارة على هبة بن جماز أقرب الناس إلى الأمير المقتول، ولكن هبة رفضها. وربما يكون لظروف الفتنة آنئذ أثّر في رفضه. وعرضت على زيان بن منصور أحد اخوة جماز، فاعتذر عن قبولها ما دام أخوه عطية على قيد الحياة، وذلك لفضل عطية وتدينه وزهده، وكان عطية

١) التحفة ١/٤٢٧.

٢) السلوك ج٣ ق١ ص ٤٦.

مسافراً في البادية، فأجمع الحاضرون على توليته الإمارة دون أن يرجعوا اليه، وكتب المجتمعون رسالة إلى السلطان وأوفدوا أخاه نعير بن منصور إلى القاهرة ليقوم بالمهمة، وسافر نعير إلى القاهرة وقابل السلطان، وأخره السلطان شهراً كاملا بانتظار ما ستنجلي عنه الأمور بعد مقتل جماز، وربما كان السلطان يريد أن يستوثق من عدم وجود منافس في الإمارة، وبعد شهر أصدر مرسوماً بتعيين عطية بن منصور أميراً للمدينة وسلمه لنعير مع الخلعة. عاد نعير إلى المدينة في الثامن من ربيع الأول عام ٧٦٠هـ وكان عطية قد حضر إلى المدينة وعلم بالأمر، فلبس الخلعة وقرئ مرسوم التولية في المسجد النبوي وبدأت ولايته المتميزة(١).

١) التحفة ٣/١٩٧-١٩٩.

سيرة عمرية جديدة:

عاشت المدينة المنورة فترة هدوء طويلة في ظل الأمير الجديد. فقد كان إجماع العائلة عليه وتدينة وزهده وحسن معاملته مع الناس سبب تقديره واحترامه. وينقل السخاوي عن المجد الفيروز آبادي وصفاً لسياسته خلال إمارته بعبارات مسجوعة فيقول:

فلم يزل في ولايته ساعياً في مصالح المسلمين، راعياً للبلاد بالتطمين والتأمين، داعياً إلى الله بما يجب على كل مسلك بالتأمين، سائساً للملك سياسة مقطوعة العيوب، ماشياً بسيرة أحبابها شيئاً من سيرة بني أيوب، شيمته العبادة والصلاح، وطريقته التوجه إلى الله بالغدو والرواح، والأمسيات والصباح، مع الكراهية في النهي والأمر، والنزاهة عن القبض على الجمر، من تنكيد أو تشويش على زيد وعمرو، غير راغب في الدنيا ولا طالب، وهو مع الله بالقلب والقالب، يجلس في النادي، يجتمع عنده الحاضر والبادي، آخذ الصمت والسكوت، وشغل قلبه بما يصلح به منقلبه ومعاده، شيمته خشية الله، مع مراعاة النظر في مصالح الرعية وتدبير الملك بما جبل عليه من الغريزة الألمعية(١).

ويشير السخاوي إلى أثر هذه السيرة الحسنة في أسرته الأميرية، وسائر أهل المدينة، فقد انصلح بصلاحه أقرباؤه، ونعم أهل المدينة بالعدل والخصب والأمن. أسقط الأمير عطية (المكوس) والعشور والجبايات الأخرى التي كانت تؤخذ من الوافدين إلى المدينة ومن أهلها التجار والمزارعين، والتي تشكل الدخل الرئيسي للإمارة. وطلب من السلطان الأشرف إعانة سنوية تغطي

---

١) التحفة ٣/٢٠٠.

نفقات الإمارة فأجابه الأشرف لذلك(١) وقرر دروساً في المذاهب الأربعة في المسجد النبوي، وأعطى المدرسين نفقاتهم، وقرر أرزاقاً للقراء ومدرسة الأيتام، وأحكم القبة على الضريح النبوي وشرفات المسجد النبوي. وكان يعيش حياة زهد وتقشف، وينفق على نفسه وعائلته من ماله الخاص(٢).

استمرت إمارة عطية بن منصور ثلاث عشرة سنة، وكان يكثر الغياب عن المدينة، وينيب عنه من أبنائه واخوته من يراه صالحاً، غير أن زهده قد أثر على عمله لاحقاً وجعل الإدارة بيد نوابه وكبار أعوانه. وقد سعى ابن أخيه هبة بن جماز بن منصور لتولي الإمارة مكانه، ونجح في استصدار مرسوم من السلطان الأشرف في شعبان عام ٧٧٣هـ بعزله وتوليته مكانه، ولم يكن عطية حريصاً على الإمارة فسلمها لابن أخيه راضياً(٣).

إمارة هبة بن جماز:

مكث هبة بن جماز بن منصور تسع سنوات في الامارة، كان في أولها حسن السيرة. ولكنه أساء في آخرها، وأعاد (المكوس) والجبايات، وكثرت الشكاوى منه، فقبض عليه أمير الحج في مكة، وأخذه إلى مصر، حيث سجن مدة من الزمن ثم أطلق سراحه وعاد إلى المدينة ومات فيها.

إمارة عطية الثانية:

عندما شغر منصب الإمارة بالقبض على هبة بن جماز عادت الأسرة إلى ترشيح عطية بن منصور، وألحت عليه حتى قبل الإمارة، وكان قد تقدم في السن فعاد بالحياة في المدينة سيرته الأولى وألغى المكوس التي فرضها هبة من قبل. ولكنه ما لبث أن مات في السنة التالية عام ٧٨٣هـ قبل أن يتم سنة في الإمارة.

---

١) التحفة ٣/١٩٨.

٢) التحفة ٢/٢١٩.

٣) انظر عقود الجمان ٣/٤٣٩.

وفي هذه السنة شحت الأمطار وأصيبت الحجاز بعامة بقحط شديد وارتفعت الأسعار، وبلغت قيمة غرارة الدقيق أربعمائة درهم، وزادت عن ذلك في موسم الحج(١) واشتد الأمر على فقراء أهل المدينة وعلى عربانها والسكانين في ريعها، ومات كثير من الناس جوعاً، وأكلت الجلود(٢) ثم جاء الفرج في السنة التالية فوصلت بعض القوافل من مصر واليمن، ووصلت عطية السلطان برقوق التي يبعثها كل سنة من القمح، وصار يخبز ثمانية آلاف رغيف يومياً وتوزع على المدينة، كما وزعت ألف وخمسمائة أردب من القمح، فانفرجت الفمة وانخفضت الأسعار(٣).

صراع على الإمارة:

وكان عطية ينيب أخاه نعيراً في الإمارة عندما يغيب عنها، وفي أواخر حياته كان نعير يدير شؤون الإمارة، وعندما مات عطية استولى نعير على الإمارة وأرسل إلى السلطان في مصر يطلب تثبيته فيها، غير أن فرداً آخر في العائلة هو جماز بن هبة بن جماز سارع في السفر لمصر، وكانت السلطنة قد تحولت من يد المماليك الأتراك إلى المماليك الشراكسة، واستولى السلطان برقوق الشركسي على السلطنة ولم يكن على دراية بأمور الأسرة في المدينة المنورة، لذا عندما وفد عليه جماز استقبله واستجاب لطلبه وأصدر مرسوماً بتعيينه أميراً على المدينة، وعاد مع الركب القادم لموسم الحج في ذي القعدة ٧٨٣هـ.

علم نعير بخبر المرسوم، فقرر مقاومة جماز والاحتفاظ بالإمارة، وجمع رجاله وخرج لملاقاته خارج المدينة. وكان مع جماز عدد من الرجال، ونشبت معركة بين الطرفين، واستطاع أحد أصحاب جماز أن يصل إلى نعير ويطعنه،

---

١) السلوك ق٢ ج٣ ص ٤٦٠.

٢) إتحاف الورى ٣٣٧/٣.

٣) النجوم الزاهرة ١٠٩/١٢.

فانخذل أصحابه، وحملوه وانسحبوا به إلى داخل المدينة وأغلقوا أبواب السور، فحاصرهم جماز ومن معه، ولما غابت الشمس أمر جماز أصحابه باحراق باب السور، فاشتعلت فيه النار حتى احترق تماماً واقتحمه جماز ورجاله ودخلوا المدينة حيث كان نعير يحتضر وما لبث أن مات في اليوم التالي، فأطلق جماز منادياً في الشوارع والأسواق يعلن الأمان للناس، وقرئ مرسوم تعيينه على المنبر وبدأت إمارته(١).

إمارة جماز ومسلسل الصراع:

عادت المدينة إلى مرحلة الصراع على الإمارة، واتسمت هذه المرة بسمة جديدة هي خروج الأمير الجديد من السلطة ثم عودته ثلاث مرات على الأقل، وهذا ما لم يحدث من قبل. ورغم أن الفترة التي أمسك فيها جماز زمام السلطة طويلة ومتقطعة ومشحونة بالأحداث، فان كتب التاريخ تذكرها بما يشبه الإشارة وبغموض يصعب على الباحث فك طلاسمه أحياناً. فقد عاصر جماز عدداً من الطامعين بالإمارة، وسعي بعضهم إلى استصدار مرسوم بانتزاعها منه أو إشراكه معه، وقاتله بعضهم. وكان للسلطة المركزية في مصر موقف ضعيف أسهم في الصراع بين أفراد الأسرة الواحدة.

فبعد أقل من سنتين من تسلم جماز الإمارة استطاع ابن عم أبيه محمد بن عطية، وهو ابن الأمير السابق عطية بن منصور أن يستصدر من السلطان برقوق مرسوماً بإشراكه في إمارة جماز، فأذعن جماز أول الأمر وأشركه معه في الإمارة، ولكنه أخذ يكيد له، حتى أحاط به وطرده من إمارة المدينة، فذهب محمد بن عطية إلى السلطان برقوق بمصر، وشكا له عصيان جماز وسوء معاملته، فغضب السلطان برقوق وأصدر مرسوماً بعزل جماز بن هبة وتعين محمد بن عطية في ٧٨٧هـ وأرسله مع الركب المصري فاستطاع أن يخرج جمازاً وسلم الإمارة لمحمد بن عطية.

---

١) التحفة ١/٤٢٧-٤٢٨ والعقد الثمين ٣/٤٣٨.

وفي هذه السنة أخصبت الأرض، وأنتجت المزارع غلالا وفيرة، ورخصت الأسعار وأرسل بعض الأمراء قمحاً كثيراً إلى مكة والمدينة(١) وأمر الأمير جركس الخليلي أن يخبز كل يوم في المدينة المنورة خمسمائة رغيف توزع على الفقراء ولا يرد عنها أحد(٢) فنعم الناس بالخير والبركة والأمن.

غير أن الأمير الجديد لم يلبث في الحكم إلا بضعة أشهر اذ توفي في جمادى الأولى في السنة التالية ٧٨٨هـ فحاول أخوه على بن عطية أن يستأثر بالحكم، ولكن جمازاً كان يتحين الفرصة فهاجم المدينة، وقاتل علي بن عطية ورجاله وتغلب عليه وطرده، وأصيب جماز بجراحات وكسرت رجله، ثم أرسل يسترضي السلطان ويستصدر منه مرسوماً بتعينه، وتم له ذلك في العام نفسه(٣).

وكان لهذه الأحداث المتوالية أثر سيء على الأمن والاستقرار، فقد وجد بعضهم فيها فرصة الإغارة على المدينة وضواحيها والنهب والسلب، وكان بعض الأشراف قد سكنوا في ريف المدينة وبنوا حصوناً خاصة بهم وفسدت أخلاق بعضهم وصاروا يغيرون على القوافل والمسافرين وعلى المدينة إن سنحت لهم الفرصة، وكان منهم هيازع بن هبة، شقيق الأمير جماز نفسه، وعلي بن عطية بن منصور شقيق محمد بن عطية الأمير السابق. وقد بلغت الجرأة بهيازع أنه تعرض للركب المصري، فقبض عليه الجنود المرافقون للركب وأخذوه موثوقاً إلى القاهرة، حيث عذب ثم نقل إلى سجن الاسكندرية ومات فيه بعد سنتين عام ٧٨٩هـ. وأما علي بن عطية فقد استطاع أن يستولي على المدينة في ربيع الآخر عام ٧٨٩هـ، وكان جماز غائباً عن

---

١) نزهة النفوس ١٢٤/١.

٢) اتحاف الورى ٣٤٨/٣.

٣) انظر التحفة ٢٤١/٣، العقد ٤٣٩/٣، نزهة النفوس ١٣٨/١.

المدينة، فنهب علي ممتلكاته وقتل بعضهم رجاله وهرب(١).

وجاء الخبر إلى السلطان برقوق، فأدرك أن جمازاً لن يستطيع توفير الأمن في المدينة، وأنه كثير الخصومات لذلك قرر أن يعزله ويعين أميراً آخر هو ثابت بن نعير بن جماز، وكان ثابت قد احتجز في مصر مع بعض الأشراف، فأطلق سراحه وأصدر مرسوماً بتعينه وسيره إلى المدينة(٢).

إمارة ثابت بن نعير: عودة الهدوء:

استطاع ثابت أن يقبض على الأمور ويديرها بحزم، وتتبع عدداً من رجال جماز وسجنهم، واستعان بالأشرف برساي، فأرسل الأشرف قوة مسلحة بقيادة بكتمر السعدي لتقوية أميرها ونصرة أهل السنة فيها. امتدت أيام ثابت في الامارة، فكانت أطول إمارة في هذا القرن، فقد جاوزت خمس عشرة سنة، شهدت فيها المدينة المنورة استقراراً سياسياً عاماً، ولكن هذا الاستقرار لم يخل من اضطرابات متقطعة يحدثها صراع قصير حول الإمارة أو محاولة فاشلة لانتزاعها. وكان المصدر الأكبر لهذه الاضطرابات والمثير الأول لها الأمير السابق جماز الذي خرج إلى عربانه في ريف المدينة وأخذ يتحين الفرص للانقضاض عليها، وكان لجماز حصن بعيد عن المدينة يقيم فيه، وقد حاول غير مرة القضاء على ثابت ابن نعير أو طرده من الامارة، أو انتهاز فرصة غيابه للاستيلاء على المدينة، ولكنه كان يفشل في كل مرة، وكانت أعنف محاولة وأقربها إلى النجاح عام ٧٩٥هـ، حيث حشد جمعاً غفيراً من الأعوان والمناصرين وزحف بهم إلى المدينة وحاصرها، وكاد أن يقتحمها، ولكن ثابت بن نعير خرج له برجاله، وحدث قتال عنيف سقط فيه عدداً من الضحايا من الطرفين، وهزم جماز وارتد إلى حصنه.

كان لجماز أنصار من أهل المدينة يساعدونه بطرق شتى لاستعادة

---

١) السلوك ق٢ ج٣ ص ٥٦٢.

٢) السابق نفسه.

الإمارة، وكان لبعضهم وجاهة وصداقات مع كبار المسؤولين في مصر، يذكر السخاوي منهم محمد بن أحمد، الذي كان يسعى في القاهرة كي يخلع الأمير ثابت ويتولى جماز، وقد علم الأمير ثابت بجهود محمد ووساطته، وخطط للتخلص منه، فانتهز فرصة سفره إلى القاهرة، وبعث وراءه مجموعة من رجاله اعترضوه في الطريق وعذبوه عذاباً فظيعاً، ثم قتلوه(١).

وتوالت سنوات العقد الأخير من القرن الثامن تحمل أحداث الحياة اليومية العادية في معظم أيام السنة، حتى إذا اقترب موسم الحج بدأ موسم الزيارة الأول، إذ يفد الحجاج القادمون من الشام والعراق ليزوروا المدينة قبل أداء نسك الحج، وربما يعود هؤلاء إلى المدينة ثانية بعد موسم الحج في طريقهم إلى بلادهم ويقيمون فترة قصيرة، ويأتي معهم الزائرون الذين جعلوا زيارتهم بعد أداء نسك الحج، ومنهم المصريون أحياناً والقادمون من إفريقيا، فيطول موسم المدينة ويمتد إلى نصف محرم وربما إلى نهايته.

وقبيل انتهاء هذا العقد الأخير من القرن الثامن تكررت هجمات جماز على المدينة، فشكا الأمير ثابت بن نعير ذلك إلى السلطان برقوق، فأمر برقوق أمير الركب المصري بالقبض عليه وإحضاره إلى مصر، واستطاع أمير الركب الإمساك به في موسم ٧٩٨هـ وأخذه موثوقاً إلى القاهرة حيث سجن فيها سبع سنوات متوالية(٢).

---

١) التحفة ٦٧١/٣.

٢) انظر العقد الثمين ٤٩٣/٣.

المدينة في القرن التاسع

دخل القرن التاسع الهجري والحياة في المدينة المنورة هادئة مطمئنة، فبعد القبض على جماز وسجنه في مصر لم يجرؤ أحد من منافسي الأمير ثابت والطامحين في الإمارة على إثارة شيء من القلاقل والفتن، وقد واصل ثابت سياسة أسلافه في حسن معاملة السنيين في المدينة المنورة والتحبب إليهم، وأقام ثابت علاقات حسنة مع آل عجلان أمراء مكة، ولما جاء الشريف حسن بن عجلان -الذي صار أمير مكة فيما بعد- عام ٨٠٣هـ، استقبله وأكرمه وكان الشريف حسن قد جاء في موكب كبير يضم مائة راحلة ومائتي جمل وستين فرساً وثلاثمائة راجل، وكان لهذا الاستقبال أثره في نفس الشريف حسن عندما أسند إليه الإشراف على ينبع والمدينة كما سيمر معنا(١) كما أنه أحسن التعامل مع سلاطين مصر من المماليك، وقد عاصر خلال إمارته هذه ثلاثة سلاطين هم الصالح حاجي والظاهر برقوق والناصر فرج، ولم تحدث أية مشكلات مع وفود السلاطين وقوافل الحجاج، باستثناء مشكلة أثارها جنتر عام ٧٩٥ بسبب محاولته الاعتداء على بعض الشرفاء وسلبهم صقراً وفهداً مدربين للصيد، فتدخل ثابت وفض النزاع، ولكن ثابتا بدأ بالتغير في أواخر أيام حكمه، فقد انحاز إلى الإماميين، وأعاد القضاء إليهم، وكان سلفه عطية قد قصره على القاضي السني الذي يعينه السلطان من مصر، وبدت منه عدة تصرفات تضايق منها معظم أهل المدينة وشكوه إلى السلطان عام ٨٠٥هـ، فعزله السلطان، وأمر بإطلاق سراح أمير المدينة السابق جماز

---

١) انظر إتحاف الورى ٣/٤٢٢.

بن هبة، وأعاده إلى الإمارة(١).

من السجن إلى إمارة قصيرة:

توجه جماز بن هبة إلى المدينة بعد أن أمضى سبع سنوات في السجن، وتسلم الإمارة من ثابت بن نعير، وعمل على مخالفة ثابت، واسترضاء السلطان وأهل المدينة، فتودد إلى السنيين وأحسن معاملتهم ومنع الاعتداء عليهم وعاقب كل من يهددهم أو يسيء إليهم، فسر به أهل السنة، وعاد قضاة المذاهب السنية إلى ممارسة القضاء(٢) ولكن الأمير السابق ثابت بن نعير لم يستسلم لهذه الهزيمة، فسافر إلى مصر لاستعادة الإمارة، وكان خلال مدة إمارته الطويلة قد ارتبط بصداقات وعلاقات حسنة مع عدد من رجال الدولة، فلجأ إلى أصدقائه، واجتهد هؤلاء في التوسط له عند السلطان فرج، ونجحوا بعد شهور قليلة في إقناعه بإعادته إلى الإمارة وعزل جماز، وأصدر مرسوماً بذلك، فرجع به ثابت وتسلم الإمارة من جماز في العام نفسه.

صراع دبلوماسي:

أصبحت المنازلة بين جماز وثابت دبلوماسية تتوقف الغلبة فيها على حسن التوسط لدى السلطان، ولم يلجأ جماز هذه المرة إلى القوة والقتال كما كان يفعل من قبل، وسار في الطريق الذي سار فيه ثابت، فعاد إلى مصر، واجتهد في التوسط ثانية لإقناع السلطان بأنه الأجدر بالإمارة، غير أن أنصار ثابت لدى السلطان كانوا من القوة بحيث مكث جماز يتردد على أبواب السلطان مدة طويلة، دون أن يستجاب له، ونتوقع أن يكون ثابت قد أحسن السيرة مدة ولايته الثانية كي لاتتكرر الشكاوى منه، فلم يذكر أحد أن أهل السنة قد تضايقوا منه بعد عودته إلى الإمارة. غير أن جماز بن هبة نجح في استعادة الإمارة ثانية عام ٨٠٩هـ، ويروي السخاوي خبر عودته في سياق

---

١) نزهة النفوس ١٧٣/٢ وانظر السلوك ق٣ ج٣ ص ١٠٩٧.

٢) العقد الثمين ٤٣٩/٣.

أقرب إلى الأسطورة فيقرر أن السلطان المملوكي فرج أمر كلاً من جماز وثابت بالاقتتال (فمن غلب فهو الأمير) فاقتتلا في ذي القعدة سنة تسع فغلب جماز واستولى على المدينة(١)، ونحن نشك في هذه الرواية ونعدها من خيال القصاصين، فلم يذكرها أحد غير السخاوي، ولا يعقل أن يبلغ العبث بالسلطان فرج هذا الحد، وقد عرف عنه حسن إدارة الأمور بعامة، وأنه قضى على الخلاف في إمارة مكة بتوليته حسن بن عجلان، وأسند إليه الإشراف فيما بعد على أميري المدينة وينبع.. ونعتقد أن الذي حدث هو تغلب أنصار جماز في الصراع (الدبلوماسي) في القاهرة وإقناعهم السلطان بتولية جماز. فأصدر السلطان مرسومه بتولية جماز عام ٨٠٩هـ وربما يكون ثابت قد رفض تسليم جماز الإمارة عندما جاء المدينة بمرسوم الإمارة فوقع صراع مسلح بينه وبين جماز فلكل منهما رجال وعصبة وهزم ثابت وانزوى مدة من الزمن.. وهذا ما نرجحه.

إمارة قلقة:

بعد تسلم جماز الإمارة، جاء حسن بن عجلان أمير مكة إلى المدينة المنورة زائراً، وخشي جماز أن يكون قدومه انتصاراً لخصمه أو لمحاربته، فاستعد لذلك، وخاف أهل المدينة واحتاطوا. غير أن حسن بن عجلان أرسل إلى ثابت يطمئنه إلى سلامة نيته وعدم تفكيره في أية مجابهة وأقام حسن عدة أيام في المدينة وتزوج (موزة بنت عجلان بن نعير) وهي ابنة أخي ثابت، وعاد بها إلى مكة فاطمأن جماز(٢).

تأثر جماز بالصراع المتوالي على الإمارة وخطط لتقوية نفسه ورجاله، ولم تكن الظروف الاقتصادية في المدينة تساعده على ذلك، فدخل الإمارة محدود والمساعدات الواردة من مصر تنفق على المصروفات الإدارية والفقراء،

---

١) التحفة ٣٩٦/١.

٢) التحفة اللطيفة ٤٥١/٣.

لذلك أعاد بعض (المكوس) والجبايات، وصادر بعض الأثرياء(١) وتغيرت نظرة الناس إليه وبدؤوا بالشكوى منه، ووجد خصوم جماز في هذه الحالة فرصة سانحة فعملوا على استصدار مرسوم سلطاني من مصر بعزله. وكان السلطان الناصر فرج قد ملّ من مشكلات إمارتي مكة والمدينة والصراع بين أفراد الأسرة الواحدة.. ففي مكة كان الصراع على أشده بين أبناء عجلان، وتدخل السلطان عدة مرات وسجن عدداً منهم، وأخيراً وثق بأحدهم وهو حسن بن عجلان، الذي كان مسجوناً لديه، فأطلق سراحه وولاه إمارة مكة وكلّفه بإنهاء النزاع بين أفراد الأسرة الواحدة وتأمين الحجاج والمعتمرين، وقد نجح حسن بن عجلان في مهمته نجاحاً كبيراً، دفع السلطان إلى أن يوسع نفوذه ويكلفه بالإشراف العام على إمارتي المدينة وينبع ومتابعة أعمال أميريهما(٢).

وعندما كثرت الشكاوي من جماز بن هبة قرر حسن بن عجلان عزله وإعادة عم زوجته الجديدة ثابت بن نعير، فأرسل إلى السلطان فرج يسأله إصدار مرسوم بذلك. فاستجاب له السلطان لثقته الكبيرة به، وأرسل مع البريد مرسوماً يفوضه فيه بتعيين أمير المدينة وفقاً للصلاحيات التي منحه إياها في المرسوم السابق. وقبل أن يخرج البريد من مكة بأمر تعيين ثابت توفي ثابت، فقرر حسن بن عجلان تعيين شقيق ثابت، عجلان بن نعير أميراً على المدينة، وكان حسن قد تزوج ابنته موزة، وأرسل إليه يستدعيه إلى مكة وقلده الإمارة هناك في آخر ربيع الثاني سنة ٨١١هـ(٣).

علم جماز بما حدث وأدرك أنه لن يستطيع أن يستعيد الإمارة بالطرق الدبلوماسية، فنفوذ حسن بن عجلان عند السلطان الناصر فرج في مصر

---

١) التحفة اللطيفة ١/٢٤٠.

٢) انظر تاريخ مكة ٢٩٠.

٣) العقد الثمين ٣/٤٣٩.

كبيرة ولن يستطيع مزاحمة آل نعير عند حسن بن عجلان لأنهم أرحامه ولكثرة الشكاوى منه، لذلك قرر إعلان التمرد ومقاومة عزله وفرض نفسه على الإمارة بالقوة.

علم الأمير حسن بن عجلان بتمرد جماز ورفضه ترك الإمارة، وبلغه بتجهيز الرجال للمقاومة، فكتب إليه يقول له: أخرج بسلام وإلا فأنا قاصدك(١) وبدأ حسن بن عجلان يجهز جيشه للتوجه إلى المدينة إذا رفض جماز الانصياع، فلما وصلت الرسالة لجماز وعلم باستعدادات الأمير حسن أدرك أنه لاطاقة له بالصدام فأظهر الطاعة، كي لايعجل الجيش بالخروج إليه، واستغل الفرصة وارتكب عملاً شنيعاً يدل على مدى الاضطراب والانحراف الذي وصل إليه(٢).

جريمة جماز: نهب المسجد النبوي:

أراد جماز أن يحصل على أكبر قدر من المال قبل أن يترك الإمارة، ولم يكن في الإمارة أموال كثيرة، لذلك اتجهت أنظاره إلى جهتين تتوافر فيهما الأموال التي ترضي جشعه: الأثرياء والمسجد النبوي.

وفي ضحى العاشر من جمادى الأول عام ٨١١هـ جمع جماز رجاله وبعض أقاربه لهذه المهمة، وأباح لهم نهب بعض البيوت والمتاجر، وأرسل إلى القائمين على المسجد النبوي وكبير خدامه، يستدعيهم إلى الإمارة، فأدرك هؤلاء ماينطوي عليه استدعاؤهم من أخطار ورفضوا الذهاب إلى الإمارة، فاشتد غضب جماز وأخذ مجموعة من رجاله وذهب بهم إلى المسجد النبوي، حيث جمع له رجاله كل من وجدوه في المسجد من الشيوخ والقضاة وخدام المسجد، فأهانهم باللسان، ويروي المقريزي أن جمازا طلب من خدام المسجد

---

١) إتحاف الورى ٣/٤٦٢.

٢) إتحاف الورى ٣/٤٦٢.

أن يدفعوا له تسعة آلاف درهم مقابل عدم فتح القبة ونهبها فرفضوا(١) وطلب مفاتيح مستودع المسجد النبوي من قاضي المدينة زين الدين بن أبي بكر بن الحسين المراغي فرفض القاضي تسليمها، فأهانه وأخذها منه عنوة، وأتى إلى غرفة القبة، وضرب شيخ الخدم بيده وألقاه على الأرض، وكسر بابها ودخلها ومعه جماعة، فأخذ ماوجده فيها(٢) وكان مما أخذه جميع مافيها من قناديل الذهب والفضة التي أهداها بعض السلاطين والموسرين من سائر الآفاق، وزيت المصابيح وشموع التراويح وأكفانا ودراهم، وصندوقين من الذهب وأشياء كثيرة غيرها(٣) وبلغ من شناعة عمله أنه قطّع صكوك العقارات الموقوفة للمسجد النبوي، والمحفوظة في غرفة القبة(٤) كي تضيع الوثائق التي تثبت ملكية المسجد النبوي لبعض العقارات. وفي الوقت نفسه كان بعض أقاربه ورجاله ينهبون عدداً من البيوت والدكاكين(٥).

أشاعت تصرفات الأمير جماز ورجاله الذعر الشديد في المدينة المنورة كما ملأت نفوس الناس بالغضب والألم، فالعدوان على بيوت الناس وأموالهم يأتي من الأمير نفسه، الذي يفترض فيه حمايتهم، ثم الصدمة الكبيرة التي أحدثها العدوان المريع على حرمة المسجد النبوي، ولم يكن في استطاعة أهل المدينة المقاومة أو فعل شيء يوقف الأمير ورجاله عن هذه الأعمال الشنيعة، والمشاعر الثائرة في النفوس لاتجد متنفساً سوى كلمات الغضب والدعاء، ولم تظهر قيادة تحول هذا الغضب الجامح إلى مواجهة عملية تتصدى للأمير

---

١) السلوك قسم ١ ج٤ ص ٧٥.

٢) إتحاف الورى ٣/٤٦٣.

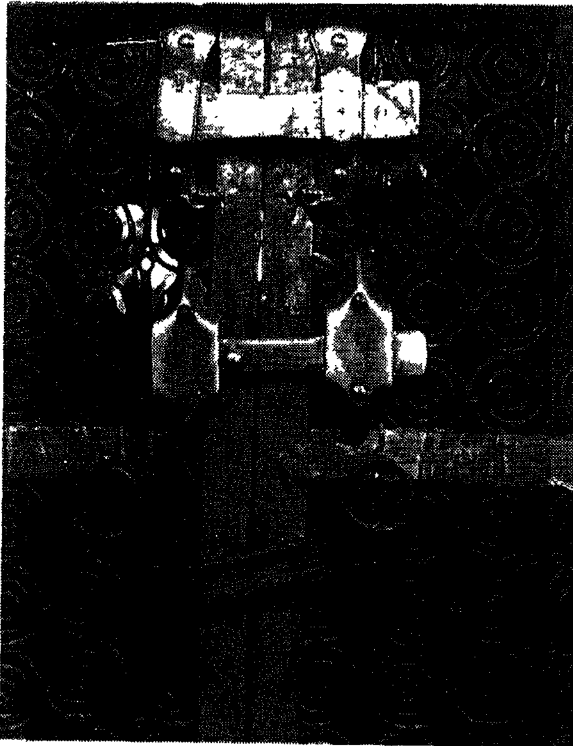
٣) وفاء الوفاء ٢/٥٨٦.

٤) السابق نفسه.

٥) السابق نفسه، وانظر تفصيلات أخرى لهذه الجريمة الشنيعة في: إتحاف الورى ٣/٤٦٢-٤٦٥، السلوك ق١ ج٤ ص ٧٥-٧٦، العقد الثمين ٣/٤٣٩.



الحجرة النبوية من جهتها الجنوبية



أقفال بوابة الحجرة النبوية في المسجد النبوي. وكانت الحاجز الذي يقف أمام مطامع الجشعين

وعصابته، ولم تكن المواجهة مستحيلة، غير أن صدمة المفاجأة والذهول الذي استولى على الناس لانتهاك حرمة المسجد النبوي، وشخصية المعتدي، كل هذه الأمور حالت دون تجمع الغاضبين والمنهوبين ومقاومتهم.

استمر النهب وإثارة الذعر بياض ذلك النهار، واختبأ كثير من الناس في بيوتهم وأحكموا إغلاق الأبواب، ولم يخرج أحد إلى المسجد النبوي، وفر بعضهم بأمواله خارج المدينة، وركب بعضهم إلى مكة ليخبر الأمير حسن بن عجلان بما يحدث في المدينة، فلما جاء الليل خفت حركة الرجال، وملأ السارقون غرارات كثيرة بما نهبوه من مستودع المسجد النبوي ومن غرف القائمين على المسجد والبيوت الأخرى، وعمد بعضهم تحت جنح الظلام إلى دفن بعض المسروقات في أماكن مهجورة، وخبأها بعضهم الآخر في بيوت أقاربه وأصحابه، ومضى الليل ولا حركة في المدينة إلا لرجال جماز، وعطلت الصلاة في المسجد النبوي ولم يحضر أحد لصلاة الصبح ولم يؤذن، فلما طلع النهار سمع الناس جلبة الخيل والمشاة، فقد خرج جماز ورجاله بأثقالهم تاركين المدينة الحزينة وخرج بعض الناس من بيوتهم ينظرون موكب الجريمة المغادرة، وتجرأ بعضهم فقذفهم بالحجارة وهرب، وغاب الموكب مشيعاً بلعنات أهل المدينة ودعائهم إلى الله أن يعجّل لهم العقوبة.

وحاول مجموعة من الأعراب القاطنين في ضواحي المدينة والذين يتحينون الفرص للنهب والسلب الهجوم على المدينة عندما بلغهم الخبر، فتجمعوا إثر خروج جماز ورجاله وقصدوا المدينة فرماهم الناس بالحجارة(١).

ووصل الخبر إلى حسن بن عجلان الذي كان يجهز جيشه، فارتاع للأمر، وسارع بإرسال الأمير الجديد عمه عجلان بن نعير على رأس مجموعة كبيرة من الرجال، وأمرهم أن يسيروا في الطريق الذي يدخل المدينه من شرقها، وأن يستنهضوا في الطريق بعض أنصارهم من القاطنين في الريف، وسيّر

---

١) إتحاف الورى ٤٦٣/٣.

ابنه أحمد على رأس مجموعة أخرى سلكت الطريق الرئيسي المعتاد، فوصل ابن عجلان أولاً في التاسع عشر من جمادى الأولى ومعه آل منصور، ونشر الرجال في أنحاء المدينة ونادى بالأمان، وفي اليوم التالي وصل أحمد بن حسن بن عجلان على رأس المجموعة الثانية، ولم يلتق أحد من الفريقين بجماز. فقد توارى جماز في بعض القرى، وأرسل عجلان بن نعير مجموعة من الجند للبحث عنه، فساروا أياماً ولم يهتدوا إليه وعادوا إلى المدينة(١).

المدينة تستعيد سكينتها:

شرع عجلان بن نعير في ترتيب الإمارة وإعادة الأمن إلى المدينة، وجمع أعيان المدينة وكتبوا محضراً بما فعله جماز وذكروا فيه تفصيل المسروقات، وقد اطلع السمهودي على المحضر ونقل خلاصته(٢) وقرئ على الناس في المسجد النبوي مرسوم السلطان بإسناد الإشراف على المدينة لأمير مكة حسن بن عجلان، ومن ثم تبعية المدينة وأميرها لإمارة مكة، وقرئ أيضا قرار حسن بن عجلان بتعيين عجلان بن نعير أميراً على المدينة(٣) كما قرئ قرار بالقبض على جماز والتحفظ على أمواله وممتلكاته.

استتبت الأمور بعد فترة بسيطة، وأصبحت حادثة جماز ذكرى مؤلمة في ذاكرة الناس، واستطاع رجال عجلان بن نعير أن يتعقبوا بعض أقارب جماز الذين خبأ عندهم السارقون بعض المسروقات، واستعادوها، ويذكر السمهودي أن كثيراً من المسروقات لم يعلم مكانه بعد مقتل جماز وموت من شاركه(٤) وعاد الجيش الذي قدم من مكة بعد أن رتب عجلان ابن نعير رجاله

---

١) المصادر السابقة، العقد الثمين ٤/١٠٥-١٠٦.

٢) انظر: وفاء الوفاء ٢/٥٨٥.

٣) وفي رواية إتحاف الورى أن السلطان فرج أرسل مرسوماً بتعيينه، وربط التعيين بموافقة حسن بن عجلان ٣/٤٦٤.

٤) وفاء الوفاء: ٢/٥٨٦.

وإمارته، وصارت إمارة المدينة تابعة اسمياً لإمارة مكة، حيث يذكر على المنابر اسم السلطان أولاً، ثم الأمير حسن بن عجلان، ثم أمير المدينة عجلان بن نعير، كما يدعى لهم كل يوم بعد صلاة المغرب على سدة المؤذنين. ولم يكن نفوذ حسن بن عجلان يتجاوز ذلك، فأمير المدينة هو والد زوجته، وليس في الإمكان التدخل في تصرفاته الإدارية أو مراجعتها لعدم وجود الاتصالات المناسبة آنئذ، والمناصب العليا تعين من القاهرة، وقد وصل قاضٍ جديد أرسله السلطان، وقرئ مرسوم تعيينه وبدأ عمله(١).

أما جماز بن هبة فلم يجرؤ على العودة إلى المدينة، ولم ينعم بما سرقه، وقتل في جمادى الأخرة من السنة التالية ٨١٢هـ في الفلاة، صادفه بعض خصومه السابقين، وكان في قلة من الرجال، فاشتبك معهم فقتلوه، ويروى أن بعض المطيريين هم الذين قتلوه طمعاً فيما نهبه(٢) وهكذا انتهى الأمير السارق جثة مرمية في الصحراء.

عزل الأمير الجديد:

اشتد عجلان بن نعير على آل جماز أملاً في أن يجد عندهم بقية المسروقات، وغضب آل جماز لذلك، فلم يكونوا جميعهم مشاركين في تلك الجريمة، وخرج بعضهم من المدينة ولحق بجماز قبل قتله، وقصد آخرون أقاربهم في مناطق أخرى، وبدؤوا يعدون العدة للانتقام من عجلان بن نعير، ولم يحسن عجلان تقوية سلطته ورجاله، وبدرت منه بعض الأخطاء، وبعد مصرع جماز عمد أقرباؤه إلى التخلص من عجلان بدهاء ومكر، فقد انتظروا قدوم مواكب الحج، واستطاعوا أن يقنعوا (بيسق) أمير الحج المصري، بأن عجلان بن نعير غير جدير بالإمارة، وأنه ظلمهم ظلماً شديداً، وحصلوا على

---

١) إتحاف الورى ٣/٤٦٤.

٢) انظر السلوك ق١ ج٤ ص ١٢٩-١٣٠ التحفة اللطيفة: ١/٤٢٨، وفاء الوفاء: ٢/٥٨٦-٥٨٧.

موافقته لطرده من الإمارة، وعلى إشارة منه إلى أمير الحج الشامي بمساعدتهم، فلما وصل أمير الحج الشامي في ذي القعدة عام ٨١٢هـ هاجموا -بمساعدة رجاله- إمارة المدينة وقبضوا على عدد من رجال عجلان، وحاصروا عجلان في القلعة، فتنكر في ثياب امرأة وخرج هارباً، ولكن بعضهم تنبه إليه فتبعه وقبض عليه، وسلمه إلى أمير الركب الشامي، فحمله أمير الركب الشامي إلى مكة موثوقاً، وسلمه لأمير الركب المصري، فسجنه، وتشفع فيه صهره أمير مكة حسن عجلان فأطلق سراحه واكتفى بعزله عن الإمارة(١).

وتحت ضغط هذه الأحداث، ومراعاة لسلطة أمير الركب المصري الذي كان وراء عزل عجلان بن نعير، ومراعاة لآل جماز الثائرين، قرر حسن بن عجلان أمير مكة المكرمة تعيين سليمان بن هبة بن جماز، شقيق جماز المقتول، أميراً على المدينة، فعادت الإمارة إلى آل جماز، وكان في نفوسهم آثار قاسية لما لقوه خلال إمارة عجلان بن نعير، لذلك أخذ سليمان بن جماز يسيء معاملة عدد من أهل المدينة ويطارد خصوم آل جماز، ويستولي على أموالهم، فساءت سيرته بين الناس وتوالت الشكاوى منه، وبلغت حسن بن عجلان في مكة وتجاوزته إلى السلطان في مصر، وعندما كثرت الشكاوى وجاءت الأخبار من رجال السلطان في الحجاز بأن سليمان بن هبة قد أساء السيرة فعلاً، أمر السلطان المؤيد -الذي تسلم سدة الحكم عام ٨١٥هـ- أمير الركب المصري (يلبغا) بالقبض على سليمان بن هبة وإحضاره موثوقاً إلى القاهرة، فجاء يلبغا إلى المدينة وقبض على سليمان بن هبة وعلى أخيه ومعاونه محمد بن هبة، وعين مكانه ابن أخيه غُرَيِّر بن هيازع بن هبة بن جماز أميراً على المدينة وذلك بتفويض من السلطان، فكان هذا التعيين نهاية لنفوذ حسن بن عجلان في المدينة، واستعادت المدينة استقلالها عن مكة، وارتبطت بالقاهرة مباشرة. أما سليمان بن هبة وأخوه فقد أُخذا مقيدين إلى مصر حيث سجنا

---

١) العقد الثمين ٤٣٩/٣، التحفة اللطيفة ١٧٧/٣.

ومات سليمان بعد عامين عام ٨١٧هـ وأطلق سراح محمد(١).

إمارة غُرَيِّر بن هيازع:

تسلم غُرَيِّر بن هيازع الإمارة واستطاع أن ينهي اضطرابات آل جماز، فقد تحقق لهم مايريدون، وبدأ يزيل أسباب الشكوى التي ظهرت في المدينة من سلطة سليمان، فيحسن معاملة الناس ويتشدد في حفظ الأمن وتعقب المفسدين، ويتودد إلى أهل السنة ويمنع أي تطاول عليهم، فحسنت سيرته بين الناس، وحسنت علاقاته مع جيرانه أشراف مكة وينبع، وقد تزامنت بداية ولايته مع عودة النفوذ الاسمي للخليفة العباسي إلى الحرمين الشريفين، ويتمثل هذا النفوذ بذكر اسمه في الخطب والدعاء له واعتباره إمام المسلمين الأول، وكانت الخطبة للخلفاء العباسيين قد قطعت منذ سقوط بغداد بيد التتار عام ٦٥٦هـ(٢) وأصبحت مقصورة على سلطان مصر وأمير المنطقة، وقد جاءت إعادة الخطبة للخليفة بعد انتقال الخلافة لمصر وتحولها إلى منصب ليس له أية فعالية سياسية، يتوارثه أبناء الأسرة العباسية السنية، ولاشك أن إقامة الخطبة للخليفة العباسي في الحرمين الشريفين تأكيد على بقاء الخليفة رمزاً للوحدة المعنوية بين المسلمين، وتأكيد لارتباط هذين المكانين المقدسين بالخلافة ولو اسمياً، ويزداد هذا التأكيد أهمية إذا تذكرنا أن أمراء المدينة كانوا من الشيعة الإمامية، ولكن تشيعهم لم يكن متطرفاً في غالب الأحيان، وقد كان غُرَيِّر بن هيازع واحداً من الأمراء غير المتطرفين.

استمرت ولاية غُرَيِّر بن هيازع أربع سنوات متوالية لم تشهد فيها المدينة أحداثاً كبيرة أو اضطرابات تذكر، خلافاً لما هو الحال عليه في مكة المكرمة، حيث قام صراع بين رميث بن محمد بن عجلان وأميرها حسن بن

---

١) العقد الثمين ٣/٤٤٠، التحفة ٢/١٨٤، وقد ضبط مؤلف العقد اسمه (بغين معجمة وراءين بينهما ياء مثناة).

٢) السلوك ق١ ج٤ ص ٢٤٠.

عجلان، وطرد حسن بن عجلان من مكة عام ٨١٨هـ بالقوة، ثم عاد إليها عام ٨١٩هـ بالقوة أيضاً، وبمباركة السلطان المؤيد(١).

وكان لعودة حسن بن عجلان إلى إمارة مكة أثر على إمارة المدينة فقد استطاع أن يقنع الملك المؤيد بإعادة حميه والد زوجته عجلان بن نعير إلى إمارة المدينة وعزل غُرَيِّر بن هيازع. وورد الخبر من مصر بعزل غُرَيِّر قبل وصول ركب الحج المصري، ولما قدم الركب توارى غُرَيِّر خشية أن يقبض عليه أمير الركب، مع أنه كان محمود السيرة في المدينة، وكان لأمير الركب سلطة محاسبة أمراء الحرمين والقبض عليهم وأخذهم إلى مصر سجناء، ولم يكن أمير الركب ليعدم حجة أو سبباً يقبض به على أمير المدينة، وأقل تلك الحجج محاسبته على أموال الإمارة، لذلك آثر غُرَيِّر أن يتوارى عن المدينة ويترك الإمارة لأميرها الأسبق عجلان بن نعير(٢).

مسلسل الإمارة فالسجن:

تسلم عجلان بن نعير إمارة المدينة في ذي الحجة عام ٨١٩هـ، وعاد بعودته الصراع الدبلوماسي على الإمارة، حيث يتنافس الطامحون فيها في استرضاء السلطان المملوكي في مصر كي يستصدروا مرسوماً بتعيين أحدهم أميراً وعزل الأمير المعين، وقد سلك غُرَيِّر هذا الباب لأول مرة، واستطاع بعد سنتين من عزله أن يستصدر مرسوماً من السلطان بتنصيبه أميراً على المدينة المنورة، وبعزل عجلان بن نعير والقبض عليه، وكان موعد تنفيذ هذا المرسوم قدوم الركب المصري الذي يحمله، والذي يقوم بمراسيم التقليد، فيقرأ المرسوم السلطاني على منبر المسجد النبوي، ويلبس الخلعة للأمير الجديد، وقد وصل الركب المصري إلى المدينة المنورة في العشر الأخير من ذي الحجة

---

١) تاريخ مكة ٢٩٦.

٢) العقد الثمين ٤٤٠/٣، التحفة اللطيفة ١٧٧/٣.

عام ٨٢١هـ وقبض على عجلان وقلد غُرَيِّراً الإمارة(١).

ولم يذكر المؤرخون شيئاً عن سيرة عجلان في هاتين السنتين، مع أن له سابقة في الإمارة جعلت آل جماز يثورون عليه، وربما يكون عجلان قد ارتكب بعض الأخطاء واشتكاه بعض أهل المدينة، فاستفاد خصومه من ذلك واستطاعوا إقناع السلطان بعزله، ولكن الأمر بسجنه يدل على أن الأخطاء كثيرة أو مضخّمة للسلطان. ويعني أيضاً أن أمير مكة حسن ابن عجلان لم يستطع هذه المرة أن ينقذ حماه من السجن لضعف نفوذه، أو لحجم الخطأ الذي ارتكبه عجلان، وليس لدينا في المصادر التاريخية مايوضح ذلك. وقد اقتيد عجلان إلى مصر وسجن في القلعة وأطلق سراحه بعد أشهر قليلة بسبب منام رآه أحد جلساء السلطان(٢).

ولاشك أن هذا التحول الهائل من النقيض إلى النقيض في أحوال الأمير سيجعل أي أمير يتولى المنصب يحسب حساباً لعوامل التحول والمؤثرات فيها. فالسلطان الذي يصدر مرسوماً بتعيين الأمير بعد وساطات كثيرة سرعان مايصدر أمراً بالقبض على الأمير نفسه إذا نجح خصومه في تشويه سمعته، وفي أحسن الحالات يصدر مرسوماً بعزله وتولية شخص آخر ينال رضا السلطان ويقنعه بأنه أجدر من غيره وأقدر على إدارة شؤون الإمارة. وكان لبعض هؤلاء الطامحين والمتصارعين على الإمارة شفعاء ووسطاء من جلساء السلطان ومن عليّة القوم. كما أن شخصية أمير مكة حسن بن عجلان قد لعبت دوراً في هذه التعيينات لمدة من الوقت..

ومالبث غُرَيِّر أن وقع فيما وقع فيه بعض أسلافه. فقد دفعه قلة موارد الإمارة إلى التفتيش عن مصادر أخرى تسد حاجته للمال، فاشتد في

---

١) العقد الثمين ٤٤٠/٣ والتحفة اللطيفة ١٧٧/٣.

٢) الضوء اللامع ١٤٥/٥ والسلوك ق ١ ج ٤ ص ٤٧٠، والعقد الثمين ٤٤٠/٣ والتحفة اللطيفة ١٧٧/٣.

الجبايات، وارتفعت الشكاوى ضده، وأخذ شيئاً من حاصل الحرم النبوي لنفسه بالمكر والحيلة(١) فسقط السقطة التي كانت فيها نهايته.. ومع أن طريقة أخذه من الحاصل النبوي لم تكن مشابهة لطريقة جماز بن هبة، بل كانت هادئة، فإن شيوع هذا الخبر قد أسقطه نهائياً عند السلطان المؤيد وجعله يصدر مرسوماً بعزله والقبض عليه.

ومع قدوم الركب المصري عام ٨٢٤هـ إلى المدينة المنورة كانت نهاية إمارة غْرَيِّر بن هيازع وبداية نهايته تماماً. فقد قبض عليه واقتيد إلى مصر حيث سجن ببرج القلعة ومات فيه في أوائل صفر عام ٨٢٥هـ.

وكان المنافس الأول لغُرَيِّر بن هيازع سلفه عجلان بن نعير، الذي تقلبت به الأحوال من الإمارة إلى السجن. وبالعكس(٢) فقد عين أميراً للمدينة مكان غُرَيِّر، وتسلم الإمارة في العشر الأخير من ذي الحجة عام ٨٢٤هـ وشهدت المدينة المنورة في ولايته (الثالثة) هذه الفتن والمحن. إذ ضعفت هيبة الإمارة وتطاول بعض المفسدين حتى قتلوا القاضي عبد الرحمن بن محمد بن صالح الذي كان شديداً في أحكامه عليهم(٣) ونكبت المدينة عام ٨٢٦هـ، -والمنطقة بعامة- بأسراب ضخمة من الجراد الذي أتلف زروعها وأحدث قحطاً ومجاعة شديدتين، ومات عدد من الفقراء جوعاً(٤) وتسلطت الأرضة -دودة تصيب جذور النبات- على مابقي في المزارع فأتلفتها(٥) وقلت السلع وغلت الأسعار غلاء فاحشاً..

استمرت ولاية عجلان إلى موسم عام ٨٢٩هـ.. حيث استطاع قريبه

---

١) العقد الثمين ٣/٤٤٠.

٢) العقد الثمين ٣/٤٤٠ والسلوك ق٢ ج٤ ص ٦٢٧.

٣) السلوك ق ٢ ج ٤ ص ٦٥٠.

٤) السلوك ق٢ ج٤ ص ٦٣٣.

٥) السلوك ق٢ ج٤ ص ٦٥٠.

خشرم بن درغام، الذي أقام في القاهرة مدة طويلة يعمل لتولي الإمارة، أن يستصدر مرسوماً بتوليه الإمارة في الثامن عشر من شوال عام ٨٢٩هـ وتقلدها في القاهرة على أن يقلدها ثانية في المدينة كما جرت عليه العادة. ويذكر المؤرخون أن خشرم بن درغام تعهد بتقديم خمسة آلاف دينار للسلطان لقاء توليته الإمارة(١) وبذلك يكون خشرم قد اشترى الإمارة على نحو ماكان يحدث في المناصب المالية (جباية المكوس والعشور وغيرها) وهذه أول مرة تتحول فيها إمارة المدينة إلى (التزام) ووظيفة تعطى لقاء تعهد بدفع مبلغ من المال. ولاشك أن خشرم بن درغام الذي مكث في القاهرة مدة من الزمن يسعى للإمارة قد اطلع على أحوال المناصب والوظائف العليا آنئذ، ورأى كيف توزع في موعد معين من كل سنة بطريقة تشبه المزاد العلني في عصرنا هذا.. وعرف تقبل المماليك لهذا الأسلوب، فسلكه، وزج إمارة المدينة المنورة في مستنقع الالتزامات المالية، وغالباً ماكان هذا المستنقع يؤذي من يخوضه، وهو ماوقع لخشرم نفسه بعد حين.

وعند قدوم الركب المصري إلى المدينة علم عجلان بأمر المرسوم فخرج من المدينة حانقاً ومضمراً الشر وقبل وصول الأمير الجديد في ذي القعدة من العام نفسه(٢).

ولم يكد خشرم يتسلم الإمارة ويخطب على منبر المسجد النبوي حتى فوجئت المدينة المنورة بعجلان بن نعير وقد جمع جموعاً حاشدة من العربان، ومن أشرار الأشراف الذين اتخذوا حصوناً خارج المدينة(٣) وجعلوها مراكز

---

١) السلوك ق٢ ج٤ ص ٧٢٧ و النجوم الزاهرة ٣/١٢٢-١٢٣.

٢) يروي السخاوي أن عجلان قبض على قضاة المدينة وخدام المسجد النبوي وأطلق يد رجاله في النهب قبل أن يخرج من المدينة ويتركها لخشرم. التحفة اللطيفة: ١/٣٩٧.

٣) التحفة اللطيفة ٢/٤٥٠.

قوتهم ومنطلقهم للإغارة على المدينة والقوافل وبعض القرى، وكان فيهم ذريان الحسيني الطفيلي، وكانت له شهرة في الفتك، وكان الركب الشامي قد غادر المدينة المنورة إلى مكة المكرمة، وخرج معه عدد من أهلها للحج، ولم يبق فيها من يدافع عنها إلا رجال الإمارة، وأغلقت المدينة أبوابها وتحصن الناس داخل السور، ولكن رجال عجلان بدؤوا يفتحون ثغرات في السور ويشعلون النار في أبوابه، واستطاعوا بعد ثلاثة أيام من الحصار والمناوشات أن يقتحموا السور ويدخلوا المدينة ويستولوا على الإمارة ويقبضوا على أميرها الجديد خشرم بن درغام. وقد ارتكب رجال عجلان جرائم كثيرة، فنهبوا بيوت الناس، واستولوا على الودائع التي تركها الركب الشامي إلى حين عودته من مكة، وأحرقوا بعض البيوت والدكاكين، ويذكر السخاوي أن بيوت الشيعة قد سلمت من هجماتهم، ومع أن الغزاة لم يكونوا كلهم من الشيعة، ففيهم العربان والبدو والطامعون في المال.. فإن تشيع عجلان جعلهم يتجنبون ممتلكات الشيعة، وربما يكون لعجلان دخل مباشر في ذلك(١) وهكذا تحول عجلان بن نعير من أمير المدينة الذي يضبط أمورها ويحمي أمنها وممتلكات أهلها إلى غازٍ يستعين بقطاع الطرق لينتقم من أهل المدينة، الذين لم تكن لهم يد في عزله..

ولاشك أن هذا التصرف يظهر الانحطاط الذي وصل إليه عجلان بن نعير وتخلخل القيم الذي مكنه من تكوين قوة شريرة تهاجم المدينة وتنهبها. والمدهش أن عجلان بن نعير أطلق سراح غريمه خشرم بن درغام بعد أن قبض عليه.. ورد شيئاً من المنهوبات التي استولى عليها.

كان أهل المدينة المنورة ضحايا هذا الصراع المر على الإمارة، وضحايا الانحطاط الخلقي الذي تردى فيه عجلان وأمثاله.. ولم تكن لهم قوة تحميهم من عدوان أمرائهم عليهم..

---

١) انظر التحفة اللطيفة ٣٩٧/١ والسلوك ق ٢ ج ٤ ص ٧٢٨.

ويذكر المقريزي أن عدداً من أهل المدينة قد نزحوا عنها وتشتتوا بسبب ماحدث لهم ولخوفهم من أن يتكرر هجوم عجلان وأمثاله، وأن الأحوال قد اضطربت في المدينة اضطراباً كبيراً، وقلَّ الاهتمام بإقامة الشعائر الدينية وساءت أحوال المسجد النبوي(١) ولايستبعد ذلك.. لأن الأمير خشرم الذي استهل إمارته بتلك الصدمة المريعة قد اضطربت أحواله، وربما يكون قد هادن عجلان بن نعير وأعوانه، أوصالحهم لقاء إطلاق سراحه، وإذا أضفنا إلى ذلك أنه التزم بدفع خمسة آلاف دينار لخزينة السلطان في مصر استطعنا أن نتصور الضيق الشديد الذي حل بالمدينة منذ أيامه الأولى. فالمبلغ الذي التزم به لابد أن يجبيه من أهل المدينة وزوارها ومن الحركة التجارية والزراعية فيها. وهذه ستؤثر عليها تأثيراً شديداً وستجعل الجبايات عالية، فتضاف إلى نكبة أهل المدينة بما نهبه عجلان بن نعير ورجاله نكبة المبالغ التي سيجبيها الأمير الجديد، والذي لم يعد قادراً على توفير الأمن للناس.. وطبيعي أن تضطرب الأحوال الاقتصادية بسبب النهب والخوف من تكرره، وأن تعرض القوافل التجارية عن المدينة أو تقل فيها. وقد نتج عن ذلك كله أن الأمير خشرم عجز عن جمع المبلغ الذي تعهد به.

لذا جهز السلطان الأشرف برسباي حملة مع أحد قادته -الأمير بكتمر- وأرسلها في موسم الحج لعام ٨٣٠هـ فجاء إلى المدينة وعزل خشرم عن الإمارة وقبض عليه وعين أميراً جديداً من الأسرة نفسها هو مانع بن على بن عطية، واصطحب خشرم إلى القاهرة سجيناً(٢).

وما لبث مانع أن قصد القاهرة مسلماً على السلطان برسباي، وطالبا

---

١) السلوك ق ٢ ج ٤ ص ٧٣٩.

٢) السلوك ق ٢ ج ٤ ص ٧٥٦ و النجوم الزاهرة ١٢٣/٣.

إصدار مرسوم تعيينه، فظفر بالمرسوم وعاد إلى المدينة(١) ليتولى إمارتها

شيء من الاستقرار:

امتدت إمارة مانع تسع سنوات متوالية لم تخل من صدامات ومعارك مع الطامعين في السلطة، والطامعين في نهب المدينة والمفسدين وقطاع الطرق.. وكان مانع حازماً يحسن تدبير أموره، وقد صرف اهتمامه منذ بداية إمارته إلى ترسيخ الأمن في المدينة. فأصلح سورها وسد الثغرات التي أحدثها هجوم عجلان من قبل، وزاد عدد رجاله ونشرهم في الأسواق ومداخل المدينة لمراقبة الأعراب ومن يشك في أمرهم، ولم يكن عليه التزام مالي للسلطنة لذلك ألغى الجبايات الإضافية التي فرضها سلفه خشرم، وبدأ يتعقب المفسدين الذين اتخذوا حصوناً خارج المدينة يغيرون منها على المدينة والقرى والقوافل. واصطدم مع عدد من الأشراف وقتل بعضهم، فبعد عام من توليه الإمارة أي في سنة ٨٣٢هـ تحرك سلفه خشرم بن درغام الذي أطلق سراحه في القاهرة وجاء إلى المدينة وجمع منها ومن العربان حولها حشداً كبيراً وهاجم المدينة، فتصدى له مانع برجاله، وجرت معركة في مداخل المدينة وساحاتها سقط فيها عدد من الضحايا، واستطاع مانع ورجاله أن يقتلوا خشرم بن درغام، وقتلوا معه بعض الأشراف الذي ناصروه من داخل المدينة ومن أهل الحصون المنتشرة في ريفها، وتشتت جموع خشرم(٢) وأرسل مانع أعوانه لتتبع عجلان بن نعير الأمير الأسبق الذي نهب المدينة وأصبح واحداً من الذين

---

١) التحفة اللطيفة ٨١/٢.

٢) انظر التحفة اللطيفة ١٨/٢ والسلوك ق ٢ ج ٤ ص ٤١١ ونزهة النفوس ١٦٨/٣.

يهددون أمنها، فظفروا به وقتلوه(١) وتخلصت المدينة من أخطر مهدديها واستقر الأمر لمانع مدة من الزمن، وحسنت سيرته بين الناس، وهدأت الحساسية المذهبية بين الإمامية وأهل السنة بسبب حسن سيرته، ونشطت الحركة التجارية في ظروف الاستقرار الجديدة(٢) ومما يذكر به الأمير مانع أنه تصدى لعصابة خطيرة يقودها الشريف زهير بن سلمان بن زيان بن منصور، وكان زهير هذا فاتكاً يقطع هو وجماعته الطريق(٣) وكان معه شريف آخر هو هلمان بن عزير بن هيازع ابن أمير المدينة الأسبق عزير بن هيازع، وقد بلغ عدد رجالهما أكثر من ثلاثمائة فارس فضلاً عن رماة السهام، وامتد نشاطه إلى أطراف نجد والعراق(٤) وقد تجرأت هذه المجموعة مرة على قافلة -رسمية- تابعة للإمارة يقودها سعد بن المرة كانت متوجهة إلى رابغ. وكان مع القافلة قوة مسلحة للحراسة فخرج عليهم زهير بمئة فارس وقاتلهم، وقتل رجال من الفريقين، ثم صالحهم على أن يدفعوا له مبلغاً من المال فدفعوه(٥) وقد تصدى مانع بن علي لزهير وجماعته في شهر رجب سنة ثمان وثلاثين وثمانمائة.. ووقعت معركة حامية بينهما في ضواحي المدينة، وتمكن مانع من قتل زهير بن سلمان وزميله هلمان بن عزير وانتهى أمر هذه العصابة.

وبسبب هذه الانجازات الكبيرة حظي مانع بن علي بمكانة مرموقة عند السلطان المملوكي الأشرف برسباي(٦) فلم يستطع أحد أن يزاحمه على

---

١) التحفة اللطيفة ٣/١٧٧.

٢) الضوء اللامع ٦/٢٣٦ و نزهة النفوس ٣/٣٥٩.

٣) التحفة اللطيفة ٢/٨٥.

٤) نزهة النفوس ٣/٣٢٥.

٥) السابق وانظر في سيرة زهير وجرائمه نزهة النفوس ٣/٣٢٥.

٦) السابق التحفة اللطيفة ٢/٨٥.

الإمارة. واستمرت الإمارة في بيته من بعده فانتقلت إلى ابنه أميان..

كانت نهاية مانع بن علي سنة تسع وثلاثين وثمانمائة غيلة. فقد كان مغرماً بالصيد، وكان يصطاد في نواحي المدينة وفي العاشر من شهر جمادى الآخرة من ذلك العام خرج مع مجموعة قليلة من رجاله للصيد في ضواحي المدينة، فكمن له الشريف حيدر بن درغام، أخو خشرم بن درغام أمير المدينة السابق وتمكن من مفاجأته وقتله. ثأراً لأخيه خشرم الذي قتله مانع بن علي قبل ست سنوات(١).

تنازع على الإمارة بعد مانع بن علي عدد من المتطلعين إليها، منهم علي بن مانع، وأخوه أميان بن مانع، وكان أميان مقرباً من أبيه ينوب عنه في حالات سفره. ومنهم العجل بن عجلان بن مغير وكبش بن جماز، وقد اتهم كبش هذا بالتعاون مع حيدر بن درغام في قتل مانع. وذهب كبش إلى مصر محاولاً استصدار مرسوم بتعيينه أميراً على المدينة، فظفر به بعض أقارب مانع بن علي، وقتلوه ثأراً لقريبهم قبل أن يدخل القاهرة(٢) وذهبت الرسائل إلى القاهرة طالبة تعيين أمير جديد، وجاء مرسوم السلطان الأشرف في أول رمضان عام ٨٣٩هـ يقلد الإمارة لأميان بن مانع فتقلدها، وكف علي وعجل عن المطالبة بها(٣).

---

١) انظر نزهة النفوس ٣/٣٥٩-٣٦٠ والتحفة اللطيفة ٥٤٠/١ والسلوك ق ٢ ج ٤ ص ٩٨٥.

٢) انظر الضوء اللامع ٢٢٦/٦ والسلوك ق ٢ ج ٤ ص ٩٨٥.

٣) انظر الضوء اللامع ١٤٥/٥-١٤٦ ونزهة النفوس ٣٤٨/٣، ويذكر المقريزي أن اسمه دميان؛ انظر السلوك ق٢ ج٣ ص ١١٥٧ والتحفة ٣٣٨/١.

إمارة أميان بن مانع:

استقر أميان في الإمارة مستفيداً من المكانة التي حققها أبوه، وواصل سياسة والده الحازمة في ضبط الأمن وحماية المدينة ومنع المشكلات المذهبية، وظهرت حالة من الرخاء في المدينة، وبخاصة في أواخر عهده، نتيجة لهذا الاستقرار، وتولى السلطنة في مصر الظاهر جقمق فقرر رواتب لعدد كبير من أهل المدينة وأهل مكة بدءاً بالأشراف، وقرر طعاماً يصرف للفقراء كل يوم(١).

ومع تغيير السلطان وجد الطامحون في الإمارة فرصة لمزاحمة أميان، فسعى الشريف سليمان بن غُـرير بن هيازع لدى السلطان الجديد لتولي الإمارة، ونجح في مسعاه، وجاء الركب المصري في ذي الحجة عام ٨٤٣هـ يحمل معه مرسوماً سلطانياً بعزل أميان وتولية سليمان بن غرير بن هيازع إمارة المدينة(٢).

إمارة سليمان بن غُـرير:

اتخذ سليمان بن غُرير موقفاً عدائياً من أميان، وعين حيدر بن درغام قاتل مانع بن علي والد أميان نائباً له في الإمارة، فخرج أميان من المدينة وأقام في بعض ضواحيها حنقاً على سليمان، وجمع حشداً من العربان، وهاجم سليمان عام ٨٤٤هـ محاولا انتزاع الإمارة منه، ولكن سليمان جمع رجاله وخرج إلى ظاهر المدينة وقاتل أميان، ورغم أن عدد رجاله كان أقل من عدد رجال أميان، فقد انتصر على خصمه، واضطره إلى الانسحاب والعودة

---

١) الضوء اللامع ٧١/٣.

٢) التحفة ٣٣٨/١ أو ١٨٤/٢.

إلى معقله(١).

استمر سليمان في الإمارة حتى وفاته عام ٨٤٦هـ، ولم تجر أية محاولة لانتزاع الإمارة منه بعد محاولة أميان السابقة، ولم يتجرأ أحد على مهاجمة المدينة، غير أن الأمن خارج المدينة كان ضعيفا، ولم يسلم الحجاج والمسافرون من هجمات العربان، حتى المماليك وبعض جنود المحمل المصري لم يسلموا من تعرض العربان لهم خارج أسوار المدينة، فقد هاجم العربان بعضهم عندما خرجوا من السور إلى البقيع وقتلوا ثلاثة من المماليك(٢).

وقد تعزز الأمن داخل المدينة وازدادت قوتها المسلحة عندما أرسل السلطان جقمق قوة عسكرية أقامت فيها أكثر من سنتين، وكان السبب المباشر لإرسال القوة جريمة ارتكبها أحد الأشراف وكادت أن تحدث فتنة من الشيعة والسنة، فقد اغتال ذلك الشريف واحداً من أعيان أهل المدينة السنيين هو محمد الكمال أبو الفضل، وينتهي نسبه إلى ابن طولون، كان الفضل يطالب الشريف بدين في ذمته لبعض الورثة، فلما ألح عليه خرج الشريف في جماعة وقتل أبا الفضل سراً وأرهب عدداً من أهل السنة، وكان أمير المدينة سليمان غائباً، فركب نائبه حيدر بن درغام إلى موقع الحادث وحاول القبض على الجاني دون جدوى، فقد فر مع جماعته واختبأ في بعض المزارع، وسافر شقيق المقتول إلى القاهرة فنقل إلى الظاهر ماحدث وأخبره بما يلاقيه أهل السنة من بعض الشرفاء، فأمر جقمق بإرسال مجموعة من الجند بقيادة أحد الأمراء المماليك لتعزيز الأمن في المدينة، وجهز الجند بما يحتاجونه، وقد مكث الجنود أكثر من سنتين في المدينة، وتعقبوا عدداً من المفسدين

---

١) التحفة ٣٨٨/١.

٢) انظر السلوك ق٣ ج٤ ص ١١٥٧.

ولكنهم لم يستطيعوا القبض على الشريف القاتل(١) وقد أمر السلطان الظاهر بعدم إدخال جنائز الشيعة إلى المسجد النبوي باستثناء الأشراف العلويين، وظل هذا الأمر مطبقاً من بعده(٢).

ويبدو أن أمراء الحج بحكم نيابتهم عن السلطان وشعورهم بأنهم أعلى مرتبة من أمراء الحرمين، بدؤوا يأخذون من أمراء الحرمين بعض المال سواء للخزانة أو لأنفسهم، وكان بعضهم يطلب كميات من تمر المدينة، فقد فرض الأمير جرباش الكريمي على قاضي المدينة أن يحضر خمسين صاعاً من تمر، وبعد لأي رضي بثلاثين(٣) واشتكى أهل المدينة إلى السلطان جقمق من هذه التصرفات، فشدد السلطان على أمراء الحج وأمرهم ألا يطلبوا شيئاً ولايأخذوا شيئاً من أهل المدينة ولو قدم لهم(٤) فاستراحت المدينة من ضرائب غير مباشرة كانت تثقلها..

وفي ربيع الآخر عام ٨٤٦هـ توفي الأمير سليمان بن غُرير بن هيازع. وأمسك الأمور نائبه حيدر بن درغام بإجماع أهل المدينة(٥). وذلك لما أبداه من جهود في حفظ الأمن أثناء نيابته عن سليمان، وكتب أعيان المدينة إلى السلطان يطلبون تثبيته وإصدار مرسوم بتوليته الإمارة(٦) واستغل بعض الأعراب فرصة موت الأمير سليمان وهاجموا المدينة في جمادى الآخرة من العام نفسه، فخرج إليهم حيدر برجاله وقاتلهم وهزمهم. ولكنه أصيب بجرح كبير، وحمل إلى المدينة. وظل يعالج فيها مدة شهرين. ثم مات في أوائل

---

١) التحفة ٥٢٥.

٢) التحفة ٢٩٢/٣.

٣) السلوك ق ٣ ج ٤ ص ١٢٠١.

٤) السلوك ق ٣ ج ٤ ص ١٢٢٥.

٥) الضوء اللامع ١٦٨/٣.

٦) السابق.

رمضان من العام نفسه ٨٤٦هـ.

ومن المفارقات أن السلطان جقمق وافق على طلب أهل المدينة وأصدر مرسوماً بتثبيت حيدر في إمارة المدينة. ووصل المرسوم بعد دفن حيدر(١).

بعد حيدر مرت بالمدينة المنورة أربع سنوات سكتت المصادر التاريخية عنها، فلم تذكر أسماء أمرائها ولا الأحداث التي جرت فيها، غير أن السخاوي أشار في ترجمته لحيدر بن درغام -ويسميه حيدرة- أن الذي استقر بعده هو مؤنس بن كبيش يليه ضيغم بن خشرم. ويذكر أن تسلم مؤنس الإمارة جرى بالاتفاق بين أمير الترك وأهل المدينة، ولعل المقصود بأمير الترك أمير الركب المصري أو الشامي.. وهو من المماليك عادة ويعد نائباً عن السلطان، وله صلاحية كبيرة في قضايا إمارة المدينة ومكة، وهنا تواجهنا مشكلتان: الأولى مشكلة مؤنس بن كبيش، حيث لانجد له ترجمة فيما بين أيدينا من مصادر، وربما تكشف المخطوطات التي ستحقق لاحقاً شيئاً عنه وتعرفنا به، وبمدة إمارته على المدينة وأية أحداث جرت خلالها.

والمشكلة الثانية هي مشكلة ضغيم بن خشرم. فالمصادر التي بين أيدينا تتحدث عن شريف اسمه ضغيم بن خشرم بن نجاد بن ثابت بن نعير بن منصور الحسيني(٢) الذي تولى إمارة المدينة لأول مرة سنة تسع وستين وثمانمائة ثم عزل وولي مرات أخرى كما سيمر معنا بعد قليل. وليس في ترجمته مايشير إلى توليه الإمارة في أي سنة من السنوات مابين سنة ٨٤٦ و ٨٦٩هـ لأن المصادر تذكر أن أميان بن مانع قد أعيد للإمارة سنة ٨٥٠هـ(٣) خلفاً لضيغم بن خشرم.. فهل ضيغم بن خشرم هذا هو غير ضيغم بن خشرم بن نجاد والذي سيتولى الإمارة سنة ٨٦٩هـ. إننا نميل إلى هذا الرأي،

---

١) التحفة اللطيفة ١/٥٤٠.

٢) انظر التحفة اللطيفة ٢/٢٥٢.

٣) التحفة اللطيفة ١/٣٣٨.

ويشجعنا عليه أن كثيراً من الأشراف كانت تتشابه أسماؤهم الأولى والثانية. والسخاوي لم يذكر لنا من هو ضيغم بن خشرم الذي تولى بعد مؤنس بن كبيش وقبل إمارة أميان بن مانع الثانية عام ٨٥٠هـ. ولو كان هو ضيغم بن خشرم بن نجاد لذكر السخاوي إمارته هذه في ترجمته.

ولكننا لا نعرف متى تسلم الإمارة وكم مكث فيها بعد مؤنس؟ إن صحت رواية السخاوي(١) والتي لانجد سواها يغطي هذه الفترة. وقد ترجم صاحب الضوء اللامع لضيغم بن خشرم بن نجاد. وجاء في ترجمته أنه عزل سنة ٨٥٠هـ وعين مكانه أميان بن مانع. وأن ضيغم هذا قتل بعد عزله بوقت يسير. فهو ضيغم الذي نبحث عنه والذي نعتقد أنه تولى الإمارة مدة من الزمن قبل عام ٨٥٠هـ(٢) والطريف في سيرته أنه رفض أن يسلم الإمارة لأميان إلا بدراهم بذلها له أميان فأخذها ثم خرج(٣).

على أي حال تبقى هذه المجهولات بانتظار المخطوطات التي ستكشف لنا الحقيقة وتبين صحة الاسم والنسب من جهة والحوادث التي حدثت في هذه السنوات الأربع من جهة أخرى، ثم سبب قتل ضيغم هذا. أهو الصراع على الإمارة أيضاً أم حادثة من الحوادث العادية التي كانت تجري في ذلك العصر؟.

إمارة أميان الثانية:

تسلم أميان إمارة المدينة للمرة الثانية عام ٨٥٠هـ، وإن صح أنه دفع لضيغم بن خشرم مبلغاً من المال ترضية له فهذا أسلوب جديد في انتقال الإمارة يحقن الدماء ويوفر على المدينة فتنة، ولكنه يرتب التزامات مقدمة على الأهالي، تزيد من المكوس والجبايات أو تشدد في استيفائها لتسديد (فاتورة)

---

١) التحفة اللطيفة ١١/٥٤٠.

٢) الضوء اللامع ٤/٢.

٣) السابق.

الإمارة المدفوعة سلفاً .

كانت إمارة أميان الثانية هادئة. ليس فيها صدامات تذكر ولاحوادث لافتة للنظر، فقد حنكته الأيام وجعلته يحافظ على رضا السلطان ورضا الشرفاء ويؤجل صراع المنافسين. وقد استمرت هذه الإمارة ثلاث سنوات وانتهت بوفاته أواخر عام ٨٥٣هـ.

إمارة زبيري وسنوات من الاستقرار:

تسلم الإمارة بعد أميان الشريف زبيري بن قيس بن ثابت بن نعير، ولم يكن له منافسون خطيرون، وقد امتدت إمارته إحدى عشرة سنة وبضعة أشهر، ويبدو من أخباره القليلة أنه اهتم بالأمن اهتماماً شديداً، وطارد الأعراب الذين يهددون المدينة المنورة بغاراتهم الخاطفة، واستعان بالسلطان الظاهر فأرسل له السلطان أحد قادته الشجعان مع مجموعة من الجند لتعزيز قوة الإمارة ومواجهة الأعراب، وهو تورون الحافظي، وأقام تورون عدة سنوات في المدينة المنورة، وقاد حملات مطاردة الأعراب والمفسدين وقطاع الطرق، وحمدت سيرته وشجاعته(١) ونجد في أخبار المدينة آنئذ العقوبة الصارمة التي فرضها الأمير على من يعتدي على المسجد النبوي ويسرق شيئاً من موجوداته، وقد حدثت عام ٨٦١هـ سرقة روعت المدينة(٢) إذ اعتدى برغوث

---

١) الضوء اللامع ٣/٦١.

٢) وردت تفاصيل هذه السرقة في كتاب رسائل في تاريخ المدينة، جاء فيها: عدا على القبة النبوية، في ليلة السابع والعشرين من ذي الحجة سنة ستين وثمانمائة برغوث بن نعير بن جريس الحسيني، فدخل الدار المعروفة (بدار الشباك) بجانب باب الرحمة ليلاً -ولم يكن بها ساكن- وتسور جدار المسجد ودخل بين سقفي المسجد الشريف من شباك هناك، ومشى حتى بلغ مايحاذي سقف الحجرة، فأخذ من تلك القناديل شيئاً كثيراً، وكرر ذلك المرة بعد الأخرى، ولم يشعر أهل المسجد ونظاره بشيء من ذلك، غير أن أمة لبعض جيران الدار رأت من سطح دارهم شخصين في أعلى دار الشباك، يتعاطيان شيئاً له حجم كبير

بن نعير بن جريس الحسيني، وزميله بركات على الحجرة النبوية وسرقا بعض قناديلها الثمينة، وقبض عليهما، ولم يكتف الأمير بتطبيق حد السرقة (قطع اليد) عليهما، بل أمر بشنقهما أمام المسجد النبوي، لأن عملهما من الإفساد في الأرض، وليكونا عبرة لغيرهما، فشنقا في شعبان ٨٦١هـ(١) واستعان الأمير زبيري ببعض أشراف المدينة لتتبع الشرفاء المنحرفين، فقد كان من جملة من سرق الحجرة النبوية دبوس بن سعيد الحسيني الطفيلي، وكان لدبوس رجال كثيرون ولم يستطع زبيري القبض عليه أو أنه خشي من فتنة فتركه يهرب إلى خارج المدينة، ثم دخل دبوس المدينة ثانية واعتدى على أحد وجهاء المدينة، فأرسل الشريف محمد بن أبي ذر بن عجلان بن نعير رجاله لتتبعه، فأدركوه عند جبل عير خارج المدينة وقتلوه(٢) وجاء أحد الشيعة الباطنيين من الشام إلى المدينة، واسمه عبد الوهاب بن جعفر الشامي، فأقام

وصوت صليل، فأخبرت بواب المسجد فلم يعبأ بذلك لخلو تلك الدار، وبعد ذلك الأمر عن الأفكار، ولكن الله أراد هتك المذكور، وحلول النقمة به، فأنهى بعض الناس إلى أمير المدينة أن برغوثاً معه شئ كثير من المال لم يعهد به من قبل، فأمسكه الأمير، وضيق عليه بالسجن، فانخلس ليلاً، ثم شاع بالمدينة بيع شبابيك من الفضة والذهب، فكثر القال والقيل، ثم في شهر ربيع الأول من سنة إحدى وستين، استفاض أن برغوثا في ينبع ومعه قطع من ذهب القناديل، فتفقد النظار الحجرة الشريفة، فرأوا أكثر القناديل مأخوذاً فعلموا الحال ولم يعلموا الكيفية، وكتبوا إلى أمير ينبع بالقبض على برغوث وإرساله، فقبض عليه واعترف أنه فعل ذلك هو ودبوس بن سعد الحسيني الطفيلي، ولم ير أمير الينبع إرساله بل تركه عنده منتظراً الأوامر السلطانية، ثم إن أمير المدينة أمسك دبوساً وبعض أقاربه، فأنكر هو، وأقر عليه بعض جماعته، وأحضروا جانباً من الذهب والفضة، ثم هرب برعوت من ينبع وجاء إلى المدينة فأخبر عنه فقبض عليه وسجن، وبرزت المراسيم بقتل من تجرأ على هذه العظيمة، فقتلوا. ص ١٩٢.

١) انظر التحفة ٦٧٣/١ و٦٩/٢ وانظر الضوء اللامع ١٠/٣.

٢) التحفة ٣٨/٢.

بها وأفسد عقائد كثيرين، وتجمع حوله عدد كبير من بسطاء الشيعة، وتجرأ المتأثرون به فأظهروا سب الصحابة وشنيع الكفريات فأمر بالقبض عليه ومحاكمته، فحكم عليه فقيه المالكية بالقتل إذا رفض التوبة، ونفذ فيه الحكم في نهاية عام ٨٦٥هـ(١).

ورغم أن زبيري ينتمي إلى الشيعة الإمامية، إلا أنه لم يتهاون في أمر هذا الباطني، ومن جهة أخرى كان حريصاً على منع وقوع الفتنة بين الشيعة والسنة، وكان يشتد في عقوبته على من يتصرف أي تصرف يؤدي إلى الفتنة، ويأخذ عليه المؤرخون أنه بالغ في معاقبة أحد وجهاء أهل السنة شمس الدين الأزهري لشتمه أحد الشيعة، فقد كان شمس الدين جالساً في الروضة فداس أحد الشيعة على سجادته، فقال له شمس الدين: يارافضي.. فشكاه الرجل إلى الأمير الزبيري، فأمر زبيري بالقبض عليه ومعاقبته، فأخذ إلى القلعة وضرب إلى أن مات(٢) وذلك في عام ٨٦٢هـ ويبدو أن الأمير زبيري استطاع أن يغطي هذه الحادثة، وكان المتوقع أن تحدث فتنة، فيثور أهل السنة، أو يبلغوا السلطان في مصر، فيعاقبه السلطان أو ربما يعزله، وقد سبق لسلاطين مصر المماليك أن عزلوا بعض أمراء المدينة عندما علموا أنهم يسيئون معاملة أهل السنة.

وعلى أي حال فقد استمر زبيري في الإمارة بعد هذه الحادثة ثلاث سنوات، إلى أن عزل عام ٨٦٥هـ وعين مكانه الأمير زهير بن سليمان بن هبة بن جماز.

زهير بن سليمان والإمارة المضطربة:

طالت إمارة زهير بن سليمان أيضاً، ولكنها لم تخل من أحداث وصدامات، بل ومن انقطاع عن الإمارة وعزل دام أربعة أشهر فقط.

---

١) التحفة ٣/١٨.

٢) التحفة ٢/٨١.

بدأ زهير بالتودد إلى أهل السنة فأزال ماعلق في نفوسهم من أثر زبيري، ونال رضى السلطان الظاهر في مصر، فلم يستطع أحد أن يستصدر مرسوماً باستبداله، وكان أكثر الطامعين في الإمارة جرأة ضيغم بن خشرم بن نجاد بن ثابت، فلما يئس من استمالة سلطان مصر وإقناعه بتوليه الإمارة عزم على أخذها بالقوة، وجمع في عام ٨٦٧هـ جموعاً كبيرةً من أتباعه والعربان المحيطين بالمدينة، وزحف بهم على حين غرة إلى المدينة، فوصلها ليلاً، وتسلق بعض رجاله السور وغلبوا حراس أحد الأبواب، وفتحوه، وتوزع رجاله في شوارع المدينة، وأمرهم ضيغم بالجلوس على أبواب القضاة وأعيان الفقهاء، وكل من خرج منهم لصلاة الصبح يمسكونه(١) فإذا قبض على وجوه أهل المدينة تمكن من فرض نفسه على الإمارة، وكان الأمير زهير غائباً عن المدينة وينوب عنه أخوه إبراهيم بن سليمان، وعندما شعر إبراهيم بالهجوم سارع واستعان بابن عمه وجمع رجاله وأعوانه وأخذ يطارد رجال ضيغم في أحياء المدينة، وشاء الله أن يهطل في هذه الليلة مطر غزير جداً، بحيث امتلأت شوارع المدينة بالمياه، وجرت الأودية فيها وحولها، وهي كثيرة، وكان بعض رجال ضيغم قد اقتحموا عدداً من البيوت والدكاكين ونهبوا ماوصلت إليه أيديهم، فلما هطل المطر الغزير احتبسوا وثقلت حركتهم ولم يستطيعوا الفرار بما يحملونه بسرعة، واستغل إبراهيم بن سليمان هذه الحالة فنشط مع رجاله في مطاردة الغزاة، فأخذ هؤلاء يلقون مايحملونه ويفرون، وانجلى الليل، وتوقف المطر، وأسقط في أيدي ضيغم ورجاله، وفشلت خطته في السيطرة على الإمارة وقبض على عدد من رجاله، وكان أحدهم من الشرفاء، وجد في سوق المدينة فقتل، وانسحب ضيغم وبقية رجاله وهربوا من الباب الذي دخلوا

---

١) التحفة ٢/٢٥٢.

منه(١).

استفاد كل من زهير بن سليمان أمير المدينة، وضيغم بن خشرم خصمه ومنافسه على الإمارة من هذه الحادثة، أما زهير فقد قويت شوكته بعد فشل محاولة ضيغم في الاستيلاء على الإمارة، وتوقف التهديد الذي كان مسلطاً عليه، وأما ضيغم فقد أدرك أن أسلوب الاستيلاء بالقوة لن يؤتي ثماره، لذا عليه أن يسلك الأسلوب الأخر، أسلوب الدبلوماسية والوساطة، وإقناع السلطان بتحويل الإمارة إليه، فأخذ يعمل على ذلك، ورحل إلى مصر ولقي عدداً من أقاربه المقيمين فيها، ووسط الوسطاء، وأخيراً وبعد سنتين استطاع أن يستصدر مرسوماً بعزل زهير بن سليمان وتوليته مكانته، وقد وصل المرسوم إلى المدينة في شهر شوال عام ٨٦٩هـ وتسلم ضيغم الإمارة.

أبدى زهير حكمة وتعقلاً في تصرفه إزاء منافسه ضيغم فقد سلمه الإمارة، ولم يثر عليه أو يقاومه، وتوجه إلى مصر بوساطات كثيرة، وكان له مؤيدون يشفعون له عند السلطان الظاهر خشقدم، ويجرّحون منافسه ضيغم لتاريخه السابق، ووجد في مصر من يصغي إليه ويساعده عند السلطان الظاهر، كما أعانه بعض الفقهاء والقضاة الموجودون في المدينة والقاهرة وشهدوا له، ولا نستبعد أن يكون قائد ركب الحج الذي زار المدينة وعاد منها قد ساعده في إقناع السلطان الظاهر بإعادته إلى الإمارة وإقصاء ضيغم، وما لبث السلطان الظاهر أن أصدر مرسومه أواخر محرم عام ٨٧٠هـ بعزل ضيغم وإعادة زهير بن سليمان وتثبيته في الإمارة.

وطبيعي أن هذا المرسوم يشكل نكسة كبيرة لضيغم الذي لم ينعم بالإمارة سوى أربعة أشهر فقط، وهو الذي قاتل من أجلها من قبل وسعى سعياً حثيثاً للحصول عليها بعد ذلك، وقد سلّم الإمارة لزهير بضغط من القوة المسلحة المصرية التي أرسلها السلطان، ونال زهير ثقة السلطان الظاهر

---

١) التحفة ٢/٢٥٢-٢٥٣.

وثلاثة سلاطين تولوا السلطنة من بعده هم: الظاهر بلباي والظاهر تمربنا والأشرف قايتباي، ومات زهير بعد سنتين من تولي قايتباي، فدامت إمارته الثانية من محرم ٨٧٠هـ إلى أن توفي عام ٨٧٤ هـ، ولم يعزله أحد منهم(١).

ضيغم بن خشرم يعود للإمارة:

استطاع ضيغم بن خشرم أن يفوز بالإمارة بعد وفاة زهير رغم وجود منافس خطير لـ هو قسيطل بن زهير بن سليمان الذي كان يساعد والده وينوب عنه في غيابه، وقد استفاد من الدرس الذي تعلمه في ولايته القصيرة السابقة فسارع إلى توطيد علاقاته بكل من سلطان مصر وأمير مكة، وبعدد من جلساء السلطان، وأحسن التعامل مع الناس، وحمد له أهل السنة وغيرهم معاملته، لذلك طالت إمارته هذه المرة تسع سنوات (من ٨٧٤-٨٨٣هـ)، وكان ضيغم يتألف بعض الشرفاء خارج المدينة ويرسل لهم أعطيات دورية ليأمن شرهم، وقد تأخر مرة عن أحد الشرفاء -شامان بن فارس- فلم يعطه، فجاء الشريف إلى المدينة ومعه خمسمائة فارس ونزل تحت جبل سلع مهدداً، فسارع الأمير ضيغم إلى إرضائه(٢).

إصلاحات في المسجد النبوي:

وفي عهد ضيغم بن خشرم جرت إصلاحات مهمة في المسجد النبوي، فقد بلغ السلطان قايتباي وجود بعض العيوب في سقف المسجد وضرورة تداركها قبل أن تشتد وتهدده بالانهيار، فأرسل أحد رجال حاشيته ((الخوجكي شمس الدين بن الزمان)) سنة ثمانمائة وتسع وسبعين واطلع على حالة السقف والأعمدة التي يستند عليها وسور المسجد وأحضر المهندسين ورتب العمال لبدء العمل وترك لهم مايلزم من المال وعاد إلى مصر، فقام المهندس والعمال بكشف جزء من السقف وهدموا العقود التي يستند إليها

---

١) انظر الضوء للامع ٢/٤، التحفة ٨٥/٢ وتاريخ الاسلام ٦٩/٧.

٢) التحفة ٢٥٣/٢.

وبعض الأساطين، وأعادوا بناءها وصبوا فيها الرصاص، وهدموا أيضاً جزءاً من السور من الجهة الشرقية وحفروا إلى الأساس وأعادوا بناءه، ولاحظوا أن المنارة بجانبه تهتز فصبوا في أساسها مايقويها، وبنوا السقف الذي كشفوه، ثم توقفت العمارة لنفاد المال وعدم وصول أموال جديدة، وكتب بذلك للسلطان، فعاد شمس الدين بن الزمان في سنة إحدى وثمانين وثمانمائة وأقام في المدينة ليشرف بنفسه على إكمال الإصلاحات اللازمة، حيث كشف سقف الروضة وما يلي القبة وبناه من جديد بعد أن رفع الجدار والسواري التي تحمله، كما أبدلت الأخشاب العتيقة وأصلحت رؤوس السواري وارتفع السقف الأعلى عن سقف الحجرة مقدار قامة رجل، فتجدد السقف بعامة(١) ومع أن هذه الإصلاحات تنسب للسلطان قايتباي، فإن حدوثها في إمارة ضيغم جعلت له نصيباً من الذكر والثناء في المدينة على الأقل.

غير أن الأمير ضيغم لم يحافظ على العلاقة الحسنة مع أمير مكة محمد بركات، الذي أصبح مقرباً من السلطان الأشرف قايتباي، فقد زار محمد بن بركات المدينة المنورة عدة مرات، وكان ضيغم يتحاشى لقاءه ويسافر خارج المدينة ويترك نائبه ليقابله ويحتفي به، فأثر ذلك في نفس محمد بركات. وفي سنة ٨٨٢هـ، وقعت حادثة في المدينة المنورة قتل فيها القاضي الزكوري بن صالح، بسبب خلاف حول دار الأشراف العباسيين، ووصل الخبر إلى السلطان قايتباي في مصر، فأمر أمير ركب الحج بالتحقيق في القضية، فلما جاء الركب إلى المدينة خرج ضيغم منها ولم يقابل أمير الحج، فغضب أمير الحج ونقل الخبر إلى السلطان، فكتب السلطان إلى الشريف بركات ليتدخل بنفسه ويحقق في مقتل القاضي، ويعاقب المشاركين في الحادثة، وجاء الشريف محمد بن بركات إلى المدينة ومعه قوة مسلحة فلم يجد الأمير ضيغم، وعلم أنه خرج إلى البادية كيلا يقابله، فأرسل في طلبه، ورفض ضيغم الحضور،

---

١) وفاء الوفاء ٦٠٥/٢-٦٠٨.

فترك الشريف محمد بن بركات قوة مسلحة في المدينة وعاد إلى مكة، وكتب إلى السلطان يخبره بما حدث، ويقترح عليه عزل الأمير ضيغم وتولية الشريف قسيطل بن زهير بن سليمان ابن أمير المدينة الأسبق، فجاءت المراسيم بذلك مع ركب حج عام ٨٨٣هـ، وانتهت إمارة ضيغم الذي لم يعد إلى المدينة، وقد حاول كل من الشريف محمد بن بركات والأمير الجديد قسيطل بن زهير القبض عليه ولكنهما لم يوفقا في ذلك، وظل ضيغم في بادية الحجاز مع أعوانه سنين طويلة لايدخل المدينة إلى أن وليها صديقه حسن بن زبيري فدخلها، وأصبح أحد مشاوريه، ولكنه لم يعد إلى الإمارة مطلقاً(١).

قسيطل في الإمارة:

تسلم قسيطل الإمارة منذ عينه محمد بن بركات عليها، فلما وصلت المراسيم من مصر كانت تثبيتاً له وإقراراً باستمرار نفوذ أمير مكة في المدينة المنورة، وقد استمر في إمارته إلى نهاية عام ٨٨٧هـ وكان يميل إلى أهل السنة(٢) وشهدت المدينة في إمارته حدثين كبيرين، الأول: زيارة السلطان الأشرف قايتباي للمدينة، وآثارها الحميدة. والثاني: حريق المسجد النبوي للمرة الثانية، وإعادة بنائه.

السلطان قايتباي في المدينة:

في السنة التالية لتولي قسيطل الإمارة زار المدينة المنورة السلطان قايتباي، جاء مع ركب الحج، وخرج قسيطل وعدد كبير من الأشراف ووجوه أهل المدينة لاستقباله، ووصلها فجر يوم الجمعة الثاني والعشرين من ذي القعدة عام ٨٨٤هـ، وعندما وصل سور المدينة ترجل عن فرسه ومشى على قدميه تقديراً وإجلالاً، وأظهر التواضع والخشوع، ودخل المسجد النبوي وصلى الصبح في الروضة خلف الإمام، ثم سلم على رسول الله ﷺ ومكث مدة

---

١) انظر التحفة ٢/٢٥٢-٢٥٣. الضوء اللامع ٢٤.

٢) التحفة ٢/٤١٧.

ثم خرج وأمر بضرب خيامه خارج سور المدينة كيلا يزاحم أهلها بعسكره وقافلته الكبيرة، وقد أقام ثلاثة أيام كان يتردد فيها على المسجد للصلاة، فإذا رجع إلى خيامه واستراح استقبل أمير المدينة وأهلها، واطلع على أحوالهم، وفرق فيهم الأموال، وبلغ ماوزعه عليهم أكثر من ستة آلاف دينار، ثم غادر المدينة إلى مكة في الرابع والعشرين من ذي القعدة، حيث كان في استقباله أمير مكة، وأمير الحجاز بعامة محمد بن بركات مع جمع كبير من الأشراف والوجهاء قبل مكة بمسير ليلتين(١).

وكان لزيارة الأشرف قايتباي آثار طيبة على المدينة المنورة، فقد أمر ببناء مدرسة فيها من ماله الخاص، وأمر بشراء عدد من العقارات لتكون وقفاً عليها، وبلغ ماأنفق على المدرسة وتوابعها مائة وعشرين ألف دينار، وكميات كبيرة من التمر والذبائح(٢) وقد أمر بأن يصرف لأهل المدينة والمقيمين فيها والواردين عليها، من كبير وصغير وغني وفقير ورضيع وفطيم وخادم ومخدوم، مايكفيه من البر والدشيشة والخبز، وصار يحمل لذلك سبعة آلاف وخمسمائة إردب كل سنة(٣) وأمر بإلغاء كثير من المكوس والجبايات المفروضة على أهل المدينة والقادمين إليها، ودفع لأمير المدينة مايعوضه عنها، واستمر ذلك طوال حكمه في مصر، أي إلى نهاية القرن التاسع، ويصف السمهودي ماقدمه الأشرف قايتباي للمدينة بأنه بلغ درجة لم يسبقه إليها أحد(٤).

الحريق الثاني في المسجد النبوي:

في عام ٨٨٦هـ شهدت المدينة حادثة مفجعة هي: احتراق المسجد

---

١) التحفة ٤١١/٣، ابن اياس ١٦٠/٣.

٢) التحفة ٤١١/٣.

٣) السابق.

٤) السمهودي ٤١١/٣.

النبوي، وذلك للمرة الثانية في تاريخه، وقد سبق أن احترق عام ٦٥٤هـ كما أسلفنا، وكان مؤرخ المدينة المنورة المشهور السمهودي معاصراً لهذا الحريق، وكان له في المسجد خلوة فيها مكتبته القيمة، فاحترقت، واحترق فيها مسودة كتابه وفاء الوفاء، وكان السمهودي مسافراً في مكة فلم يشهد الحريق، ولكنه عندما رجع تقصى أخباره وسجلها في كتابه عندما كتبه للمرة الثانية.

حدث الحريق هذه المرة بفعل صاعقة أصابت المسجد، وذلك في ليلة الثالث عشر من شهر رمضان من ذلك العام، ويبدو أن المنطقة بعامة كانت تشهد تقلبات في المناخ، فيها رياح وأمطار وصواعق، فيذكر ابن إياس أن مصر شهدت في هذه الفترة نفسها تقلبات جوية غير مألوفة، ثارت رياح من جهة الغرب وكانت عاصفة جداً وأظلم بسببها الجو وأرعد وأبرق ثم أمطرت السماء مطراً غزيراً، وجاء الخبر من دمياط أن الريح قلعت عدة أشجار وهدمت بعض الأماكن وأغرقت بعض المراكب وكانت مهولة جداً(١).

ونفهم من وصف السمهودي أن تلك الليلة كانت كثيرة الغيوم، يدوي فيها الرعد القاصف، فالوقت شتاء، وقبيل الفجر صعد المؤذنون إلى المنارات يهللون (وكانت العادة أن يهلل المؤذنون قبل طلوع الفجر في رمضان ذكراً لله وتنبيهاً إلى قرب وقت الإمساك) وقد صعد رئيس المؤذنين شمس الدين محمد بن الخطيب إلى المنارة الشرقية، وصعد بقية المؤذنين إلى المنارات الثلاث الأخرى، وعندما بدءوا التهليل دوى رعد قاصف، وظهرت صاعقة تهوي من عنان السماء وتتجه إلى الأرض صوب المسجد، فأصابت هلال المنارة الشرقية (والمعروف أن المعادن تجذب الصواعق) وحطمته وتناثرت شظاياه داخل المنارة وخارجها، وسقطت بقية الصاعقة على السقف العلوي للمسجد، فأحدثت فيه ثقباً واسعاً بحجم الترس ونزلت إلى السقف السفلي، وتخللت

---

١) البدائع ١٨٧/٣.

الأخشاب المرصوفة فيه، فاشتعلت الأخشاب بسرعة، ورأى المؤذنون الأخرون النار، وأحسوا أن رئيسهم قد سكت، فنادوه، فلم يجب، فصعد بعض الحاضرين إلى المئذنة فوجدوه قد مات، ووجدوا رأس المنارة قد شق بفعل الصاعقة، وصرخ المؤذنون والحاضرون ينبهون إلى النار التي اشتعلت في السقف، وأسرع الخدم والقيمون على المسجد، ففتحوا أبوابه كلها، وارتفعت الأصوات في أحياء المدينة تخبر بالحريق، وأقبل الناس مسرعين يحملون الدلاء وقُرب الماء، وصعدوا إلى السقف وأخذوا يسفحون الماء على النار المشتعلة، ووصل الأمير ورجاله واشتغل الحاضرون بنقل المياه وصبها، ولكن النار ازدادت اشتعالا وسارت في السقف، فأشار بعضهم بهدم الجزء الذي أمامها كي تنقطع، فسبقتهم النار وامتلأ المسجد بدخان كثيف، ولم يعد أحد يستطيع البقاء فيه، وتراجع الذين على السقف أمام زحف النار، وطلبوا من إخوانهم أن يسرعوا إليهم بملء الدلاء من الميضة والبيوت المجاورة، واشتدت الحركة وتعثر بعضهم على السلالم التي نصبت بسرعة، وسقط بعضهم فمات من فوره، واتجه بعضهم الآخر إلى الدرج الذي ينزل داخل المسجد فسقطت عليهم قطع محترقة وأمسكت النار ببعضهم، وهرب الآخرون إلى صحن المسجد مع من حالت النار بينهم وبين الوصول إلى الأبواب، وبدأ بعضهم يسقط مختنقاً بالدخان، ثم بدأت أجزاء السقف تنهار الواحدة تلو الأخرى، واشتعل البساط على أرض المسجد، وامتدت النار فأمسكت الخزائن الخشبية الموضوعة على أطراف المسجد، وصعدت ألسنتها في الجو، وأثرت في النخلات التي في صحن المسجد، وعلق منها شئ بالمنارة الرئيسية فاحترقت، ومات عدد من الخدام والحاضرين حرقاً أو خنقاً أو تحت الردم المتساقط، ووصلت النار إلى السقف المحاذي للحجرة النبوية، وذاب الرصاص الذي في القبة بالسقف العلوي واحترقت أخشابه وسقط على السقف السفلي (للحجرة سقفان الأول فوق الحجرة مباشرة والثاني أعلى من الأول بقامة) وسقطت

أسطوانات المسجد كلها باستثناء الأسطوانات الملاصقة للحجرة النبوية، واحترقت المقصورة التي تحيط بالحجرة، واحترق المنبر الذي في الروضة ثم سقطت عقود المسجد.

أصيب أهل المدينة بالذهول وهم يرون هول النار، ولم يسبق لهم أن رأوا مثلها في الضخامة والشدة، وفزع كثيرون، وأخلى سكان البيوت المجاورة منازلهم وهرب بعضهم من باب البقيع وبعضهم من باب المصلى، وأجهش الكثيرون بالبكاء وهم يرون ألسنة النار تحيط بالمسجد من كل صوب، ومالبث معظم السقف أن انهار تماماً وملأ الردم أرض المسجد فأطفأ النار الملتهبة بالبسط وغطى الركام كل شئ، ثم بدأت ألسنة النار تتضاءل وتخبو، لتخلفها أعمدة من الدخان تتناقص تدريجياً. ومع انبلاج الفجر لم يبق سوى ألسنة صغيرة متفرقة من اللهب، تنسكب فوقها الدلاء وقرب الماء فتتحول إلى أعمدة صغيرة من الدخان، واكتشف المحيطون بالمسجد أن قبة الحجرة النبوية والسقف السفلي سليمان، رغم أن الدخان وألسنة صغيرة متقطعة من النار تظهر حيناً من الردم الذي سقط عليها ثم تختفي، فأسرعوا إليها بالدلاء وأطفؤوها، وصلى الناس الصبح في الساحة خارج المسجد جماعات متفرقة، ثم عادوا إلى المسجد الذي خمدت فيه النار نهائياً لينقلوا الجثث المحترقة والمختنقة، واشتغل بعضهم بإزالة الركام من الحجرة النبوية، ثم أخذوا ينقلون الردم من مقدمة المسجد إلى مؤخرته، وعمل في ذلك أمير البلدة والقضاة والأشراف وعامة الناس حتى النساء والأطفال تقرباً إلى الله

تعالى (١) واستمر العمل، يتناوب فيه أفواج متوالية من أهل المدينة حتى المساء، وتواصل في اليومين التاليين، حتى أمكن نقل الردم كله وتنظيف موقع الروضة الشريفة والمصلى، وعملوا لبعض أبواب المسجد فتحات يدخل منها المصلون، وسدوا الأبواب الأخرى، ونصب الخدام خياماً في المسجد ليظلل المصلين، وجاء بعض الناس بأسرجة وقناديل فعلقوها على الجدران وأوقدوها لصلوات العتمة، ثم بدءوا بتنظيف ماسقط حول الحجرة وداخلها، فوجدوا الردم قد حمى معظم مقتنياتها، فأخرجوها، وبنوا على الحجرة جداراً من الآجر موضع المقصورة المحترقة، وجعلوا فيها شبابيك وطاقات وأبواباً، بعد ذلك اجتمع القائمون على المسجد النبوي والقاضي وأعيان المدينة عند أميرها، وقر الرأي أن يكتبوا رسالة إلى السلطان قايتباي بماحدث، وكتبت الرسالة في السادس عشر من رمضان تصف الواقعة وآثارها تفصيلاً، وحملها أحد رجال الإمارة إلى القاهرة.

إعادة بناء المسجد النبوي:

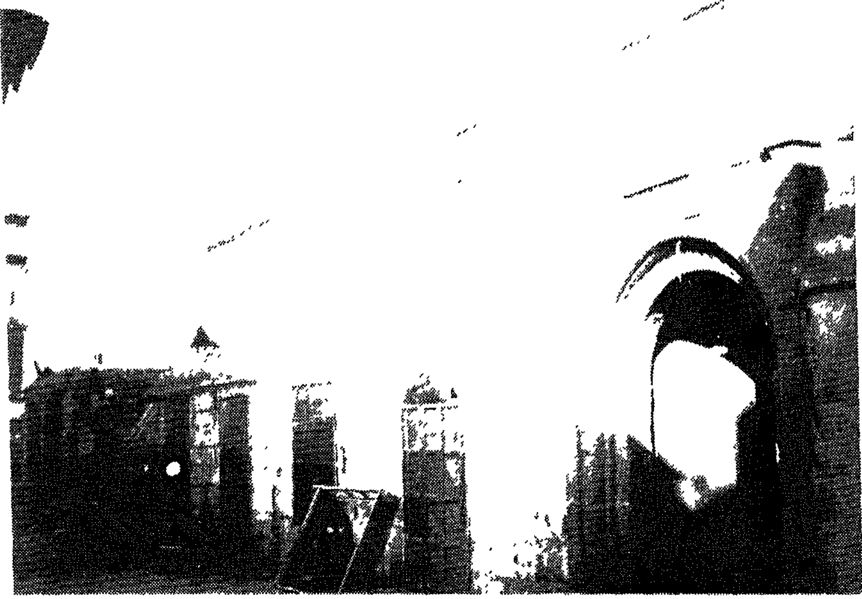
يروي ابن إياس أن السلطان عندما اطلع على الحادثة بكى بكاءاً شديداً وبكى كل من حضر معه(٢) وأمر بتجديد عمارة المسجد النبوي، وأمر الخواجكي شمس الدين محمد بن الزمان بالتوجه فوراً إلى المدينة المنورة وأن يصطحب معه مايلزم من البنائين والنجارين والرخامين(٣) وكان السلطان قد أمر بإنشاء بعض العمارات في مكة فأمر بإيقافها وتحويل الصناع والعمال ومواد البناء إلى المدينة، فحضر أكثر من مائة صانع مابين بنّاء ونجار وحداد وسباك وغير ذلك من أصحاب الحرف، ومعهم معدات البناء، ثم بدأ شحن معدات ومواد أخرى من الطور إلى ينبع فالمدينة، ومالبث الخواجكي شمس

---

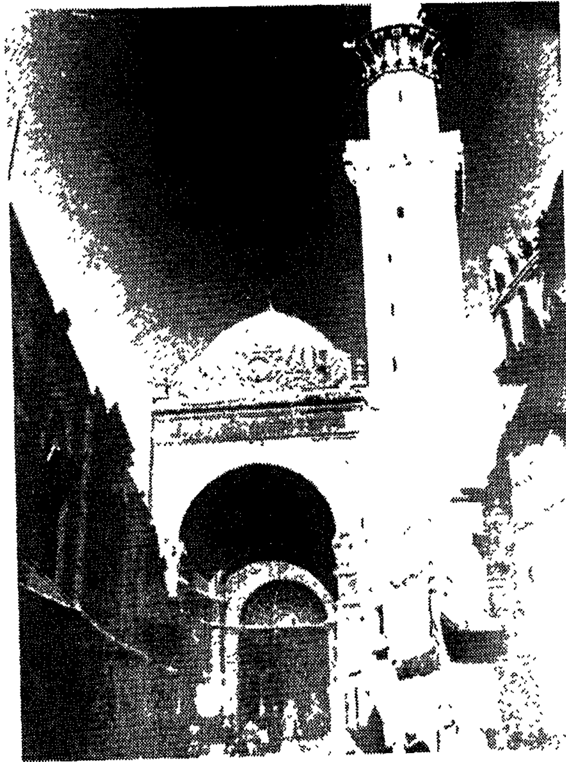
١) وفاء ٦٣٦/٢.

٢) بدائع الزهور ١٨٨/٣.

٣) السابق.



مبنى مكتبة المحمودية



باب السلام ومبنى مكتبة المحمودية على اليسار ومدرسة بشيـر اغا على اليمين وزقاق الخياطين

الدين بن الزمان أن وصل ومعه أكثر من ثلاثمئة صانع، وحمولة مائة جمل، وتوالت بعده قوافل أخرى، وبدأ العمل بهمة ونشاط، فهدمت المنارة الرئيسية التي أصابها الحريق إلى أساسها، وهدمت أجزاء من سور المسجد والأساطين التي تضررت، ثم بدأ البناء من جديد، وقد فصَّل السمهودي، الذي حضر أعمال البناء، مراحل العمل، وبيَّن ماأحدث فيه من تجديد يغاير البناء السابق وما بني على شاكلة البناء السابق، ومافيه من فن عماري متقن(١).

وقبيل إتمام البناء بدأ العمل في عدة أماكن أخرى جانب المسجد النبوي، فبنيت مدرسة في موقع الحصن العتيق ورباط بجانبها ثم رباط آخر، ثم حمام عمومي مقابل الرباط الثاني، ولم يكن بالمدينة حمام عام من قبل، ثم سبيل ماء وفرن وطاحون، ولم يكن بالمدينة طاحون عام من قبل بل كان لكل بيت رحى تدار باليد، ومطبخ لطبخ الدشيشة وتوزيعها على الفقراء يومياً، وأمر السلطان أيضاً بشراء بعض العقارات ووقفها على تلك المنشآت ليوفر لها دخلا ثابتاً.

استمر العمل في المسجد النبوي حتى أواخر شهر رمضان عام ٨٨٨هـ وامتد إلى السنة التالية في المنشآت الأخرى(٢) ونشطت الحركة الاقتصادية خلال هذه المدة.

تغيير الأمير:

غير أن السلطان الأشرف عزل أمير المدينة في نهاية عام ٨٨٧هـ وذلك لأخبار وردته عنه لم يسر بها، وعين زبيري النعيري بناء على توصية أمير مكة محمد بن بركات، ولكن زبيري توفي بعد شهر واحد من توليه الإمارة، فعين ابنه حسن زبيري مكانه وأرسل إلى السلطان قايتباي ليثبته، فأصدر السلطان مرسوماً بتثبيته.

---

١) وفاء ٢/٦٤١-٦٤٤.

٢) وفاء ٢/٦٤٤.

ومنذ أن أسند أمر الأشراف على المدينة المنورة إلى الشريف محمد بن بركات تقلصت سلطة أمير المدينة، وتقلص دخله، ومع أنه المتصرف الحقيقي في الشؤون العامة، ولكنه يخضع لإشراف أمير مكة، فلا يستطيع أن يعين أحداً في المناصب المهمة إلا بعد استئذان أمير مكة أو إجازته، أما كبار موظفي المسجد النبوي والقضاة فيعينون من قبل السلطان في مصر مباشرة ويصدر لهم مرسوم بذلك، وقد أدى تقلص النفوذ هذا إلى وجود مسؤول مالي يحاسبه أمير مكة وليس أمير المدينة، وصار أمير المدينة نائباً لأمير مكة، يذكر اسمه في الخطب بعد السلطان وبعد أمير مكة، وتقلص دخله وصار حصة محددة من الجبايات وصندوق الصدقة، بينما كان من قبل المتصرف الوحيد بدخل الإمارة(١) ويذكر السخاوي أن حسن الزبيري كان محمود السيرة، وأن أهل المدينة فضلوه على سلفيه قسيطل وضيغم بن خشرم وأنه أحسن معاملتهم(٢) ومنذ أن تولى حسن الزبيري الإمارة عام ٨٨٧هـ وإلى نهاية القرن التاسع لانجد له أخبارا تذكر، ويبدو أن تقليص منصبه وتحويله من أمير للمدينة إلى نائب لأمير الحجاز محمد بن بركات قدأبعده عن دائرة الضوء وأدخل المدينة المنورة في تيار الحياة العادية الهادئ، فلم تعد هناك قضايا سياسية. ولاحروب ولاصدامات ولاأعمال كبيرة، كل ماهناك أمن أهل المدينة وممتلكاتهم، والخطر الوحيد الذي بقي يهددهم هو الأعراب الطامعون في بعض المال والمواشي والمتاع، والذين ينتهزون الفرصة للإغارة فيمنعهم سور المدينة وحراسها القلائل.

ولم تعد للمدينة علاقات خارجية مباشرة مع مركز السلطنة في القاهرة. فكل شيءيتم عن طريق الشريف محمد بن بركات في مكة.. وقد أدى ذلك إلى تقلص الحركة الاقتصادية، ووقف النمو السكاني والعمراني. فلا يأتي إلى

---

١) وفاء ٢/٥٩١.

٢) التحفة ١/٤٧٩.

المدينة إلا الزائرون والمجاورون، وهم متحركون غالباً ربما تطول إقامة بعضهم أشهراً عدة. لكنهم يرحلون آخر الأمر. أما التجار والصناع وأصحاب الأموال فليس في المدينة مطمع يغريهم بالإقامة الدائمة فيها. وكان أول من تأثر بهذه الحالة أمير المدينة نفسه، فقد تضاءل دخله إلى حد كبير وصفه السمهوري بأنه ((فقر ثقيل)) الأمر الذي جعله يزهد في الإمارة بعد أربعة عشر عاماً من توليها(١) ويقرر تركها. ولكن بعد أن يرتكب (كائنة شنيعة) ارتبط بها اسمه، وضاع بسببها كل عمل عمله مدة إمارته الطويلة. هذه الكائنة هي هجومه على الحجرة النبوية ونهبه مافيها من أموال وقناديل وأشياء ثمينة أخرى..

وقد صنَّف أحد العلماء رسالة خاصة بهذه الحادثة وجدها الأستاذ حمد الجاسر مخطوطة في الأسكوربال، ويرجح الأستاذ حمد الجاسر أن يكون مصنفها السمهودي نفسه(٢) كما وردت القصة. موجزة في كتابه وفاء الوفاء(٣) وأشار إليها السخاوي في ترجمة حسن الزبيري(٤).

---

١) انظر رسائل في تاريخ المدينة ص ١٨٣.

٢) رسائل ص ٢٧.

٣) انظر وفاء الوفاء ٥٩٠/٢.

٤) التحفة اللطيفة ٤٧٩/١، وابن اياس ٣١٨/٣.

جريمة حسن بن زبيري:

كان من قدر المدينة المنورة أن تستقبل العام الأول بعد التسعمائة -القرن العاشر الهجري- بهذه الحادثة التي اضطربت بها جنباتها ودب الذعر في أهلها، لالعدوان الأمير حسن الزبيري على المسجد النبوي وحسب، بل لما عاشه أهلها من قلق وخوف، فقد شاع بينهم أن رجال حسن بن زبيري سينهبون المدينة: دكاكينها وبيوتها، فشاع القلق والاضطراب بين الناس أياماً عدة..

كان أمير المدينة يستدين من بعض التجار والشرفاء، فكثرت ديونه، وليس له موارد تعينه على سدادها، وكان حوله ثلة من الرجال من عائلته وأقربائه وأصحابه، ولابد أن ينفق عليهم جميعاً..

وتسرب خبر بأن الأمير بدأ يفكر بمصادرة أموال بعض الأثرياء في المدينة وأنه اختار (أربعة عشر نفساً من مياسير البلد للقبض عليهم) وأن زوجته نصحته بالعدول عن ذلك(١) فتحولت أنظاره إلى ذخائر الحرم النبوي والأموال الموجودة في الحجرة النبوية، وكانت تأتيها الأموال من الآفاق للإنفاق على احتياجات المسجد النبوي، وكان فيها قناديل ذهبية وجواهر ثمينة أهداها بعض الموسرين على مر الأيام..

وفي يوم الثلاثاء السادس من ربيع الأول عام ٩٠١هـ توجه الأمير حسن بن زبيري إلى المسجد النبوي في جمع كبير من رجاله، فيهم بعض إخوته وبعض الشرفاء وحرسه، فلما وصلوا إلى المسجد النبوي وجدوا فيه بعض الزوار والمصلين، فأمر ابن زبير بإخراجهم وإغلاق أبواب المسجد كلها. وأغلقت أبواب المسجد وانتشر رجاله المسلحون في أرجائه ووقف بعضهم خارجه عند الخيل والركاب، وأمر بإحضار المسؤول الأول عن المسجد ((الخازندار إيدي الرومي)) فحضر إليه الخازندار، وجلس حسن يحدثه عن

---

١) رسائل من تاريخ المدينة ص ١٨٤.

الأزمة التي يمر فيها وحاجته الشديدة للمال، وطلب منه مفتاح غرفة الذخائر ليأخذ منه مايسد هذه الحاجة، وتعلل بنسبه إلى رسول الله ﷺ وبمنصبه. ولكن الخازندار اعتذر عن إعطائه المفتاح لأنه مؤتمن عليه ولايحق له أخذ شيء من أموال المسجد النبوي.. فاشتد عليه الأمير حسن فأصر على رفضه. وغضب الأمير وأمسك بالخازندار وسحبه إلى صحن المسجد. وقاومه الخازندار وعضه من يده فاشتد غضبه، وأمر رجاله بضربه فضربوه ضرباً شديداً وكادوا أن يقتلوه لولا أن تدخل أحد الشرفاء فأنقذه منهم، وفتشوه فلم يجدوا المفتاح معه، ورفض أن يدلهم عليه أو يحضره لهم. فأمر الأمير حسن بكسر أقفال غرفة الذخائر.. فاتجه بعض الرجال إلى الغرفة وبدءوا بتكسير الأقفال.

وخارج المسجد ارتاب بعض الناس من إغلاق الأبواب ووقوف ركائب الأمير وبعض حرسه عند باب الرحمة، فاتجهوا إلى باب النساء في الجهة المقابلة وتجمعوا عنده ليستطلعوا الأخبار عما يحدث داخل المسجد. وسمع الجنود داخل المسجد الضجة فأبلغوا حسن بن زبيري بتجمع الناس، وظن حسن أن هناك من يقاومه، فأمر بعض جنوده بالصعود إلى المئذنة الشرقية التي تشرف على باب النساء، ورمي المقاومين بالنشاب، فصعد أولئك ولم يجدوا شيئاً من المقاومة أو من المسلحين.

وفتح باب الحجرة النبوية، فدخل حسن بن زبيري ووجد في صندوق المال مبلغاً كبيراً ومجوهرات كثيرة، ووجد في الغرفة قناديل ذهبية، فأمر الجنود بتعبئة المال في أكياس صغيرة والقناديل في غرارات، فملأت القناديل عشر غرائر والدنانير والجواهر بضعة أكياس، ثم اتجه الجنود إلى خزائن المسؤولين عن الحرم فكسروا أقفالها وأخذوا ماوجدوه فيها من أموال ومقتنيات ثمينة. ثم فتحوا باب الرحمة وحملوا المنهوبات على الخيل، وتوترت أعصاب حسن بن زبيري وبعض رجاله وخافوا أن يكون أحد من خارج

المسجد قد درى بما يفعلون فيهاجمونهم فور خروجهم من المسجد النبوي، وكأنما شعروا بفظاعة جريمتهم، فشهروا سيوفهم، وطلب حسن بن زبيري أن يدخلوا حصانه، فأدخلوه إلى قرب الحجرة الشريفة المنهوبة. فركب وخرج به من المسجد، وحملت الخيول الأخرى أكياس المنهوبات.

لم يكن أحد خارج المسجد يدري ماذايحدث داخله، ولكن قافلة الجريمة كانت تنبئ عن الفعلة الشائنة. والغرار على الخيول بادية للعيون، والسيوف المشهورة تتحدث عن شر وبيل، وبهت كل من رأى هذا المنظر وأخذتهم الصدمة ولم يفعل أحد شيئاً..

وخرج بعض الخدم من المسجد يخبر بما كان، وأسرع بعضهم يسعف الخزندار المسكين. وتحولت أحاديث نهب المسجد إلى توقعات وتخمينات عما سيتبع ذلك. وساد الناس اعتقاد بأن الأمير لن يكتفي بما حصل عليه وأنه سيطلق رجاله في الدكاكين والبيوت يسرقون وينهبون. وتحولت الدهشة إلى فزع حقيقي، وتفرق الناس إلى بيوتهم يتحدثون عما جرى وعما يخشونه.

وحان وقت الظهر فلم يأت أحد إلى المسجد النبوي وعطلت صلاة الجماعة. وأحس رجال الأمير بالهلع الذي ركب الناس، ورأوا الدكاكين تغلق والشوارع تفرغ من المارة، فنقلوا ذلك إلى الأمير حسن. فأمر الأمير حسن بأن ينادى في السوق والشوارع بالأمان وأن يرجع الناس إلى بيعهم وشرائهم في حماية رجاله، ولكن الناس لم يطمئنوا، ولم تفتح الدكاكين وظلت الشوارع شبه خالية، وتحرك رجال حسن بن زبيري ثانية فجمعوا الصائغين من بيوتهم وأخذوهم مع معداتهم إلى حصن الأمير عند جبل سلع، حيث أمروهم أن يصهروا المقتنيات الذهبية من قناديل وغيرها ويسكبوها عملة ذهبية، وأبلغوهم أنهم سيظلون محتجزين بالحصن حتى يفرغوا من عملهم، وأغلقت أبواب سور المدينة.

ظل الفزع سائداً بين الناس، وزاد عندما انتشرت أخبار جمع الصائغين

وإقفال أبواب المدينة، واستطاع أحد الشرفاء، واسمه شهوان الحسيني، أن يتسلل خارج المدينة، ويقصد ينبع لإخبار أميرها وطلب النجدة منه، واستمر الأمر على هذا الحال بقية اليوم، وكان بعض فقهاء المدينة وأعيانها خارج السور عندما وقعت الحادثة، فلما رجعوا ورأوا الأبواب مغلقة تسلقوا السور ليلا ودخلوا المدينة، وأخفى الناس أموالهم وحليهم وممتلكاتهم الثمينة، واستغل الأمير حسن بن زبيري خوف الناس واختباءهم في بيوتهم، فوزع على رجاله ومن حضر معه بعض المال، وأرسل بعضه الأخر ليخبأ في بيوت بعض أصحابه ومعارفه أملا في أن يستفيد منه بعد حين، واستمر الحال على ماهو عليه في اليوم التالي، وتعطلت الأعمال طيلة يوم الأربعاء، فلم تفتح الدكاكين ولم يخرج العمال والمزارعون إلى أعمالهم ومزارعهم، واستاء الأمير لذلك، فأرسل رجاله إلى أعيان المدينة يحلفون على لسانه أنه لايريد بأهل المدينة شراً، وأنه قد أمَّن الناس حقاً، وأنه اضطر إلى مافعله ليسد حاجته، ولكن رسله لم تغير من الأمر شيئاً، فالخوف يسيطر على الناس، ويزيده تصورهم لفظاعة انتهاك حرمة المسجد النبوي وسرقة الأموال المخصصة له.

وفي المساء سمع الناس ضجة من جهة حارة الحزام قرب باب البقيع، وفسر بعضهم الضجة بأن بعض الغزاة قد أغاروا على المدينة وسيدخلونها من باب البقيع، وتحول هذا التفسير إلى شائعة تنتشر بسرعة مذهلة، وارتجت البلد وخرج بعض الفقهاء والأعيان بعيالهم إلى المسجد، وتبعهم الناس حتى غص المسجد بالرجال والنساء والأولاد يحتمون به من الغارة المتوقعة وباتوا فيه تلك الليلة، ولم يحدث ماكانوا يخشون منه.

ومضى يوم الأربعاء، وانتهى الصاغة المحتجزون في الحصن من صياغة المنهوبات وسكها دنانير ذهبية، وعادت رسل الأمير إلى وجوه المدينة تؤكد لهم أنهم في أمان، وأرسل الأمير بعض رجاله إلى تجار كانوا قد وصلوا المدينة قبل الحادثة بقليل، واشتروا منهم ستة عشر حملا من القمح، ودفعوا

ثمنها، وانتشر الخبر بين الناس وكان الأمير يقصد انتشاره بينهم ليتأكدوا أنه لن يتعرض لهم بشئ، وعند الظهر فتح باب حصن الأمير، وخرجت منه قافلة تحمل الأمير وعائلته وشركاءه في السطو وعدداً آخر من رجاله، واخترقت شوارع المدينة إلى بابها، وفي الطريق توقف الأمير عند بيوت بعض الفقهاء والأعيان وأخبرهم بعزمه على ترك المدينة، وقال لهم: أي شيء ينقم علي أهل المدينة؟ هل تعرضت لأحد منهم بسوء أوهاجمت بيته أو غصبت ماله؟ وإنما أخذت -حين الغلبة- نذر جدي(١) وأمر بعض الفقهاء أن يقول: إن الأمير اضطر لأن يأخذ الأموال من المسجد النبوي، وإن الشريف محمد بركات أمير مكة والحجاز هو الذي ألجأه لذلك، إذ لم يترك له شيئاً من دخل الإمارة يغطي نفقاته، وشاطره في الميراث (٢) وخرجت القافلة من باب المدينة والناس يشيعونها بنظرات الخوف والغضب والازدراء.

إدارة ذاتية في المدينة:

اجتمع قضاة المدينة وكبار أعيانها في المسجد النبوي يتشاورون فيما يفعلونه فقد غدت المدينة بلا أمير ولا قوة مسلحة تحرسها، ولايخلو سورها من ثغرات صغيرة يستطيع المهاجمون أن يوسعوها وينفذوا منها، ولم يكن لديهم قوة يعتمدون عليها، فاستقر رأيهم على أن يقوم أهل المدينة أنفسهم بحراستها، وأن ينتدب بعض الشجعان لحراسة السور في مناطق ضعفه، وأن تسمر الأبواب، فندبوا الشريف سرداح الحميضي لحراسة السور مع مجموعة من الرجال الأشداء، وسار المنادي في الشوارع ينبه الناس أن يحترسوا ويتحفظوا، وأن يقوم سكان كل حي بحراسة حيهم والتناوب على السهر فيه ليلا، كيلا تأخذهم مفاجأة غادرة، ومع هبوط الليل كان في كل حي عدد من الرجال يتناوبون الحراسة، وكان الشريف سرداح وجماعته يطوفون بالسور،

---

١) السابق ص ١٨٥.

٢) انظر السابق.

وكل يتوجس من أية حركة، ولم تر ليلة أوحش من تلك الليلة لولا أنس النبوة(١).

وفي صباح الجمعة كان الناس يتحدثون عن تلك الليلة المتعبة، وأقيمت صلاة الجمعة في المسجد النبوي وقطع الخطيب اسم الأمير حسن بن زبيري من الخطبة ودعا عليه أن ينتقم الله منه.

النجدة الأولى:

وعند المساء وصل إلى باب المدينة أحد الشرفاء المقيمين في ضواحيها وهو الشريف ضيغم بن خشرم، أمير المدينة السابق، ورجاله، ولم يدخل المدينة، فخرج إليه بعض أعيانها وحدثوه بما فعله حسن بن زبيري ابن عمه فاستفظع ذلك وأخذ يبرأ إلى الله من فعله، ورأى مابهم من خوف، فعرض عليهم أن يتولى حماية المدينة فشكروه على ذلك وجمعوا له مبلغاً من المال(٢) اطمأن الناس شيئاً ما إلى حماية الشريف ضيغم، وكان الشريف ضيغم يأمل أن يكافئه أمير مكة الشريف محمد بركات أو السلطان في مصر على هذه الحماية فيعينه أميراً على المدينة، واجتهد في حمايتها وتوفير الأمن فيها ليلا ونهاراً ووزع رجاله في شوارعها وأسواقها، وبدأ الناس يعودون إلى أعمالهم بحذر شديد، وبعد مرور أسبوع كامل على الحادثة اطمأن الناس إلى أن حسن بن زبيري لن يعود إلى المدينة، فدعا القاضي فقهاء المذاهب الأربعة وكبار الأعيان وكتب الجميع محضراً بما حدث وأرسلوه إلى السلطان في القاهرة.

نجدة من ينبع:

وفي صباح اليوم التالي الأربعاء الرابع عشر من شهر ربيع الأول ٩٠١هـ، وصل أمير ينبع دراج استجابة لاستغاثة الشريف شهوان الحسيني،

---

١) السابق ص ١٨٥.

٢) السابق ص ٤٠.

ومعه خمسة وأربعون فارساً وأكثر من ثلاثمئة راجل، فاستقبلهم أهل المدينة بفرح شديد، وأنزلوهم في أكبر دار في المدينة -دار منصور- وضيفوهم، وانتشر رجال دراج في أنحاء المدينة وحول سورها، وشعر أهل المدينة بالأمان، وفي اليوم التالي وصلت مجموعة أخرى من رجال الأمير دراج، ونادى مناديه بالأمان، فسر الناس بذلك.

مكث الأمير دراج في المدينة يومين والتقى خلالهما بوجهائها، وناقش معهم من يتولى الإمارة، واتفق الجميع على أن تبقى المدينة تابعة لإمارة مكة وأن يقوم الشريف محمد بن بركات بتعيين أحد أولاده أو من يراه نائباً له فيها، وكتبوا محضراً بذلك وأرسلوا نسخة منه للسلطان، وحمل الأمير دراج نسخة أخرى إلى الشريف محمد بن بركات في مكة، وبعد أسبوعين تقريباً وصلت مجموعة أخرى من القوة المسلحة أرسلها الشريف محمد بن بركات لتعزيز أمن المدينة، وانتهت مهمة الشريف ضيغم بن خشرم في حراسة المدينة وتولى الإدارة قائد القوة المسلحة.

أمير جديد:

استمر الأمر على هذه الحال إلى منتصف جمادى الأولى حيث وصل مرسوم من السلطان في مصر يلبي طلب أهل المدينة في المحضر الذي أرسلوه، ويثبت الشريف محمد بركات مسؤولا عن إمارة المدينة ويعهد إليه باختيار من ينوب عنه في إدارة شؤونها، ويكلفه بتعقب حسن بن زبيري ولو كان في رؤوس الجبال لمعاقبته على ماارتكبه، فسارع الشريف محمد بن بركات لتعيين ابن خاله وزوج أخته الشريف فارس بن شامان الحسيني نائباً

عنه في المدينة المنورة(١) وكان الشريف فارس عاقلا حازماً، فتوجه إلى المدينة ووصلها في السادس عشر من شهر رجب في مجموعة كبيرة من الجنود، وتلقاه أعيان المدينة وقضاتها على مداخل البلدة، وسألوه أن ينتقم من حسن زبيري وأعوانه، وأن يتتبع المنهوبات التي أودعت في بعض البيوت، فاهتم الشريف فارس بذلك اهتماماً كبيراً وطلب منهم أسماء من يظنون وجود المنهوبات عندهم.

تتبع الجناة:

وفي اليوم التالي طاف رجال الأمير على بيوت من حام الشك حولهم، فقبضوا عليهم، وضربوهم ضرباً شديداً فأقروا بما لديهم، ودلوا على منهوبات أخرى مودعة عند أشخاص آخرين، وبدأت المنهوبات المودعة تظهر تباعاً، وكان بعضها مما ضرب دنانير وبعضها مما بقي على حاله، وقد أبلغ الخزندار الشريف فارس أن بعض الصاغة استطاعوا أن يهربوا شيئاً من المنهوبات، وكانوا قد ضربوا بعضها قطعاً صغيرة، فأخذت منهم وفرضت عليهم غرامات أخرى تؤخذ من ممتلكاتهم، وقرر الشريف فارس أن يخرج كل من يثبت تواطؤه في هذه الجريمة البشعة من المدينة، فأخرج الصاغة والمتسترون مع ذراريهم ومنعوا من أخذ شيء معهم إلا الزاد، وساروا في موكب ذليل، وصودرت جميع ممتلكاتهم ومنعوا من الذهاب إلى مكة أو ينبع، وفرض عليهم السير شرقاً باتجاه نجد، وقاسوا من الإهانة والمرارة شيئاً كثيراً، فرقت لهم قلوب بعض أهل المدينة، وتشفعوا فيهم لدى الشريف فارس ورجوه السماح لهم بالعودة إلى المدينة ورد ممتلكاتهم والاكتفاء بما لقوه من إهانة، فقبل الشريف شفاعتهم وسمح لهم بالعودة إلى المدينة، وقد بلغ مجموع مااسترد من المنهوبات أكثر من عشرة آلاف دينار فضلا عن القناديل التي لم تصهر، ولكن لم تسترد جميع المنهوبات فقد فرَّ حسن بن زبيري بما

---

١) سمط النجوم ٢٨٢/٤.

حمله، وربما دفن بعضه في الرمال، وظل حسن بن زبيري طريداً لايجرؤ على الاقتراب من المدينة مدة طويلة، وتخلى عنه جميع أصحابه، ولم يؤوه إلا عربان آل نعير.

وطوت المدينة صفحة قاتمة في تاريخها، وبدأت صفحة مشرقة في ظل إدارة الشريف فارس بن شامان نائب الشريف محمد بن بركات، الذي يعد الأمير الرسمي للمدينة (١).

المدينة تسترد استقلالها:

استتب الأمن في ظل الشريف فارس بن شامان، وعادت الحياة في المدينة المنورة إلى مجراها الطبيعي، وسدت الثغرات التي حدثت في السور وأصلحت التصدعات التي ظهرت في بعض نواحيه، ولكن الشريف فارس لم يطل المكث في المدينة إذ استدعي إلى مكة بعد موت الشريف محمد بن بركات عام ٩٠٣هـ، ونشب الصراع العنيف بين أبنائه، وبخاصة ابنه بركات الذي تولى الإمارة بعد أبيه وأخيه هزاع(٢) وشغل أمراء مكة عن أمر المدينة فعاد إليها أمراؤها من أشراف المدينة وعاد لها استقلالها طوال مدة النزاع، وقد تولاها مانع بن زبيري شقيق الأمير الأسبق حسن الذي سمح لشقيقه بالعودة إلى المدينة ليعيش أيامه الأخيرة والقليلة ويموت فيها(٣)، واستطاع مانع أن يتجاوز حادثة أخيه حسن وأن يدير شؤون المدينة المنورة مدة طويلة بسبب النزاع الكبير بين أشراف مكة على إمارتها، وقد شغلهم هذا النزاع عن التدخل في تعيين أمير المدينة أو التدخل في شؤونها، رغم أن هذا الأمر مسند إليهم منذ أيام الأشرف قايتباي، وقد استمر مانع بن زبيري في إمارة المدينة وخلفه

---

١) انظر تفصيلات حادثة حسن بن زبيري في: رسائل في تاريخ المدينة المنورة ١٨٣-١٨٧، ووفاء الوفاء ٥٩٠/٢، والتحفة اللطيفة ٤٧٩/١، ٣٩٢/١.

٢) انظر في هذا النزاع تاريخ مكة للسباعي ٣٠٩.

٣) التحفة اللطيفة ٤٧٩/١.

من بعده أبناؤه، قايتباي، ثم سليمان، ثم إيسان، حتى عام ٩١٨هـ، حيث استتب الأمر في مكة المكرمة للشريف بركات بن محمد بن بركات.

المدينة تعود لإمارة مكة:

في بداية عام ٩١٩هـ، أرسل السلطان المملوكي قانصوه الغوري إلى الشريف بركات مرسوماً يعهد به إليه النظر في تعيين أمير المدينة المنورة، على أن يستشير شيخ الحرم النبوي وقضاة المدينة، غير أن رأي الشريف بركات هو المعول عليه(١) وكان هذا المرسوم بمثابة نهاية حاسمة للنفوذ الحقيقي لأمراء المدينة، حيث تحولت سلطتهم بعد ذلك إلى سلطة اسمية وعاد أمر تعيينهم وعزلهم إلى أمير مكة، الذي أصبح الحاكم الحقيقي لمنطقة الحجاز كلها، لذلك نجد الأمير بركات يتصرف باسم الحجاز كلها، ويراسل السطان سليم الأول العثماني بهذه الصفة، وينقل ولاء المدينة -مع ولاء بقية الحجاز- إلى السلطة العثمانية في عام ٩٢٣هـ، ولا نجد أي ذكر لأمير المدينة أو وجوهها.

نهاية النفوذ المملوكي في المدينة:

وفي عام ٩٢٣هـ، وصلت إلى الحجاز أنباء انتصارات سليم الأول العثماني في مصر، وتغلبه على سلطان المماليك الشراكسة قانصوه الغوري، وإلحاقه مصر بالتبعية العثمانية، وقد وجد السلطان العثماني في سجن الغوري بمصر بعض أشراف الحجاز، فأطلق سراحهم، وعلم هؤلاء برغبة السلطان العثماني في السيطرة على الحجاز، وأنه يعد جيشه لذلك، فكتبوا إلى الشريف بركات ينصحونه أن يرسل وفداً إلى السلطان العثماني ويقيم معه علاقات حسنة، كيلا يقتحم الحجاز وينهي إمارة الشرفاء، فأخذ الشريف بركات بالنصيحة، وأرسل ابنه أبا نمي مع عدد من وجوه مكة إلى مصر،

---

١) انظر كتاب الأحوال السياسية والاقتصادية بمكة في العصر المملوكي، د. ريتشارد مورتيل. ط جامعة الملك سعود ١٤٠٥ ص ١٧٢.

فوصل الوفد إلى القاهرة في منتصف جمادى الآخرة عام ٩٢٣هـ، واستقبله السلطان سليم بحفاوة كبيرة، وقدم أبو نمي الطاعة للسلطان سليم وأعلن دخول الحجاز كله تحت سلطة العثمانيين، وسلمه مفتاح أحد أبواب مكة(١)، فكان هذا نهاية للنفوذ المملوكي في المدينة المنورة، وبداية لسيطرة العثمانيين عليها، وعلى بقية الحجاز، وبداية عهد امتد أكثر من أربعة قرون متوالية، وشهد أحداثاً كثيرة سنقف عليها في الصفحات القادمة.

---

١) نظر بدائع الزهور ١٩٠/٥.

المدينة المنورة في العهد العثماني

كان العثمانيون -كغيرهم من المسلمين- ينظرون إلى الحرمين الشريفين نظرة إكبار وتمجيد، وكان سلاطينهم قبل السلطان سليم مشغولين بالحروب في أوربا، ولم يفكروا في الانسياح جنوباً. وكانوا يرسلون الأموال والصدقات لتوزع على فقراء الحرمين، وقد أوقف السلطان محمد الأول جزءاً من أمواله على فقراء الحرمين، ورتب ابنه بعده مبلغ ٣٥٠٠ دينار لتوزع في المدينة ومكة، وأرسل السلطان محمد الثاني (فاتح القسطنطينية) هدايا كثيرة، وكان السلطان بيازيد والد السلطان سليم الأول يحب أهل الحرمين ويحسن إليهم إحساناً كثيراً، وكان يجهز لفقراء الحرمين في كل سنة أربعة عشر ألف دينار ذهباً يصرف نصفها على فقراء مكة ونصفها على فقراء المدينة، وكان يكرم الوافدين إليه من أهل الحرمين إكراماً بالغاً(١) وعندما وجه البرتغاليون نشاطهم البحري إلى الشواطيء العربية في البحر الأبيض المتوسط والبحر الأحمر وهاجموا ميناء جدة(٢) تنبه العثمانيون لضرورة مد نفوذهم إلى الشام ومصر والحجاز وحمايتها، وشجعهم على ذلك تفكيرهم بتوحيد البلاد الإسلامية تحت سلطان واحد، وضعف دولة المماليك حتى إن بعض المماليك كتب للسلطان سليم الأول يغريه بفتح بلاد العرب(٣) وقد حاول السلطان سليم أن يضم دولة المماليك إلى السلطنة العثمانية سلماً فكتب بذلك للسلطان قانصوه الغوري، ولكن الغوري رفض الاذعان، فحاربه السلطان سليم وانتصر عليه في مرج دابق، ثم زحف إلى مصر فاحتلها عام ٩٢٣هـ وألحقها بالسلطنة العثمانية. وكان يعتزم متابعة زحفه إلى الحجاز وضمها إلى سلطنته لمكانة الحجاز في نفوس المسلمين، فلما جاءه وفد الحجاز وقدم له الطاعة

---

١) الكواكب السائرة ١٢٢/١.

٢) تاريخ مكة ٣١٦.

٣) الوثائق العثمانية دارة الملك عبد العزيز برقم ٥٠٥/٥ تاريخ الوثيقة ١٧ ذي الحجة ٩٠٨هـ.

والولاء فرح فرحاً شديداً، وبالغ في إكرام الوفد، وقبل منه الولاء.

وبدخول الحجاز تحت سلطة العثمانيين بدأت مرحلة جديدة في حياة المدينة المنورة، مرحلة ستؤثر في حياتها الاجتماعية والسكانية والثقافية أكثر بكثير مما تؤثر في حياتها السياسية. ذلك أن الوضع السياسي الذي كانت عليه عند دخولها في حيز العثمانيين قد أثر عليها وحدَّ من نشاطها معظم العهد العثماني، فقد عرف العثمانيون المدينة المنورة منطقة تابعة لإمارة مكة، وعندما أعلن أبو نمي بن بركات الولاء للعثمانيين أعلنه عن منطقة الحجاز كلها، وسلم السلطان العثماني مفتاحاً اعتبر مفتاح الحرمين الشريفين، ولقب السلطان آنئذ ((خاقان البر والبحر وخادم الحرمين الشريفين)).

وقد أصدر السلطان سليم مرسوماً بتثبيت الشريف بركات أميراً على مكة وما تبعها، أي ماكان تحت سلطانه الفعلي آنئذ، فأصبحت ولايته على المدينة المنورة جزءاً من إمارته، بحكم مرسوم السلطان. واستمرت المدينة مجردة من استقلالها السياسي، تابعة لإمارة مكة، وظلت حالة أمرائها على ما كانت عليه من الضعف والعجز عن التصرف، بل وشحّ الموارد الإقتصادية على النحو الذي ذكره حسن بن زبيري من قبل(١) وأصبح ترتيب أمير المدينة في خطبة المسجد النبوي في المرتبة الثالثة، حيث يسبقه ذكر السلطان العثماني -خادم الحرمين الشريفين- ثم أمير مكة، ثم أمير المدينة.

ومما يزيد من ضعف أمير المدينة أن أمير مكة كان يرسل أحياناً بعض أقاربه ليكونوا نوابه في المدينة، وتكون لهم سلطة فعلية في تصريف الأمور رغم وجود الأمير الحسيني العاجز عن فعل شيء، بل إن هذا الأمير معرض للعزل وتعيين شخص آخر من الأسرة الحسينية محله بسهولة. فقد عزل أمير

---

١) انظر الصفحات السابقة ومبحث إمارة حسن بن زبيري.

المدينة مانع بن زبيري لأن والده سطا على تركة أحد خدام الحرم النبوي(١).

وتغيب أخبار أمراء المدينة عن كتب التاريخ، بل وعن كتب التراجم والأعلام لقلة شأنهم وبعدهم عن الأحداث المهمة حتى لانستطيع أن نعرف أسماءهم. وقد أورد المؤرخ التركي أيوب صبري باشا سلسلة من الأسماء يتناقض بعضها مع ما ورد ذكره في كتابات الذين أرخوا للقرن التاسع، ويذكر مجموعة من الأسماء في الفترة الممتدة من ٨٣٩هـ إلى ١٠٩٩هـ. ودون أن يحدد تاريخ إمارة كل منهم. ونعتقد أن مانقلناه عن السخاوي أصح وأدق، ويذهب بعض مؤرخي المدينة إلى أن إمارة الحسينيين قد انتهت بنهاية القرن الحادي عشر حيث ضمت إدارة المدينة بعد وفاة أميرها الأخير حسن بن زبيري إلى مكة وانتهت الإمارة الاسمية للحسينيين. ويذكر العياشي الذي زار المدينة عام ١٠٧٣هـ أن أميرها آنئذ اسمه حسين بن حماد، وأنه أمير صوري ليس له من الإمارة شيء، وأن السلطة موزعة بشكل لم يستطع التعرف عليه أو فهمه بين نائب أمير مكة وصهره وقائد الحملة العسكرية التركية في القلعة وشيخ الحرم(٢).

الآثار الأولى للنفوذ العثماني:

استفادت المدينة المنورة من دخولها في التبعية العثمانية فوائد سريعة. إذ وصلها في السنة التالية (٩٢٤هـ) ألفا إردب من القمح من أصل سبعة آلاف إردب أرسلها السلطان سليم إلى الشريف بركات، وكانت هذه أكبر جراية تصلها في ذلك العهد(٣).

وما لبث عدد الحجاج الزائرين أن ارتفع، وتقاطر رعايا الدولة العثمانية من آسيا الوسطى وبعض الولايات العثمانية في أوربا إلى المدينة ومكة،

---

١) التحفة ٣٥١/١.

٢) انظر الرحلة العياشية ٣٠٩/١ ومقتطفات منها أصدرها حمد الجاسر ص ١٨١.

٣) انظر تاريخ مكة ٤٦١.

وكانوا يأتون مع الركب الشامي. وقد أمر السلطان سليم بإنشاء محمل رومي، وهو بمثابة بعثة حج سنوية تخرج من العاصمة العثمانية، يحمل كسوة للكعبة وأخرى للحجرة النبوية، إضافة إلى ما يأتي به المحمل المصري، وكانت ترد معه أموال كثيرة لتوزع في الحرمين الشريفين وهدايا ثمينة للمسجد النبوي والمسجد الحرام(١). وقد تعرض المحمل لما يتعرض له الحجاج من بعض الأعراب رغم الحماية التي ترافقه.

بناء سور جديد:

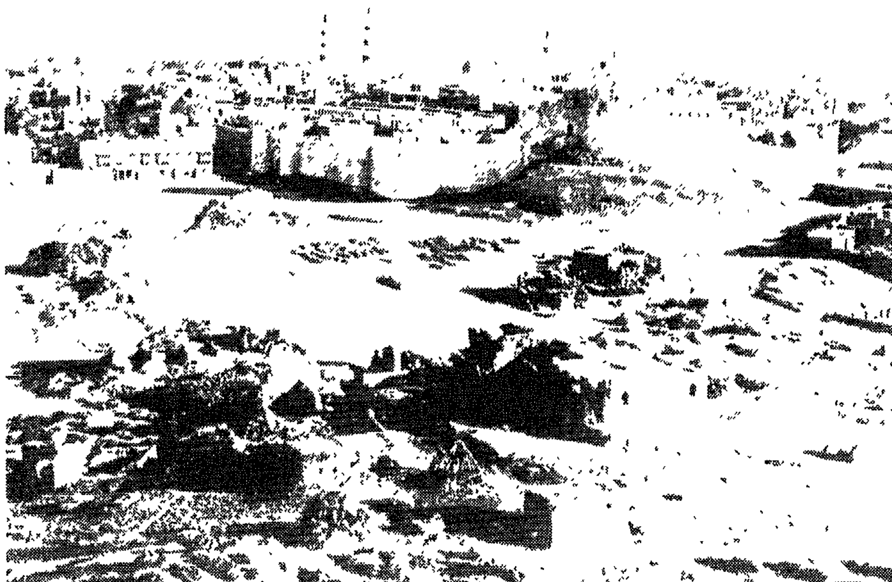
عندما تولى السلطان سليمان القانوني الخلافة شكا إليه بعض أهل المدينة ما يجدونه من العربان المفسدين في أطراف المدينة وبخاصة عربان عنزة وظفير، وقد بلغ بهؤلاء الجرأة أن هاجموا المدينة عدة مرات، ونهبوا من أطرافها ما وصلوا إليه ولم يستطع سورها القديم الذي أحدثوا فيه ثغرات عدة، أن يصد هجومهم، فأمر السلطان سليمان بإنشاء سور حجري عال وقوي يحيط بالمدينة من جميع جهاتها، ويمنع أهل الفساد والأذى من دخولها، وكلف نائبه في مصر، وكان اسمه سليمان باشا بالإنفاق عليه من خزانة القاهرة(٢) فكلف سليمان باشا كاتب جدة محمود جلبي بالإشراف على العمارة وعين شيخ الحرم السيد أحمد الرفاعي ناظراً على العمارة.

وفي ذي القعدة عام ٩٣٨هـ وصل مع الركب المصري أكثر من مائة جمل تحمل الغلال والأرزاق المخصصة لعمال السور، ثم توالت قوافل معدات البناء، ووصل في محرم من أول العام التالي ٩٣٩هـ البناؤون والحجارون والنجارون وغيرهم، وكانوا يزيدون على ثلاثمائة نفر، كما وصلت مجموعة عسكرية قوامها خمسون نفراً من الفرسان والرماة، وهذه أول حامية عسكرية عثمانية تصل إلى المدينة، وقد كانت هذه الحامية نواة للقوة العسكرية الثابتة التي

---

١) انظر تاريخ مكة ٣٤٥.

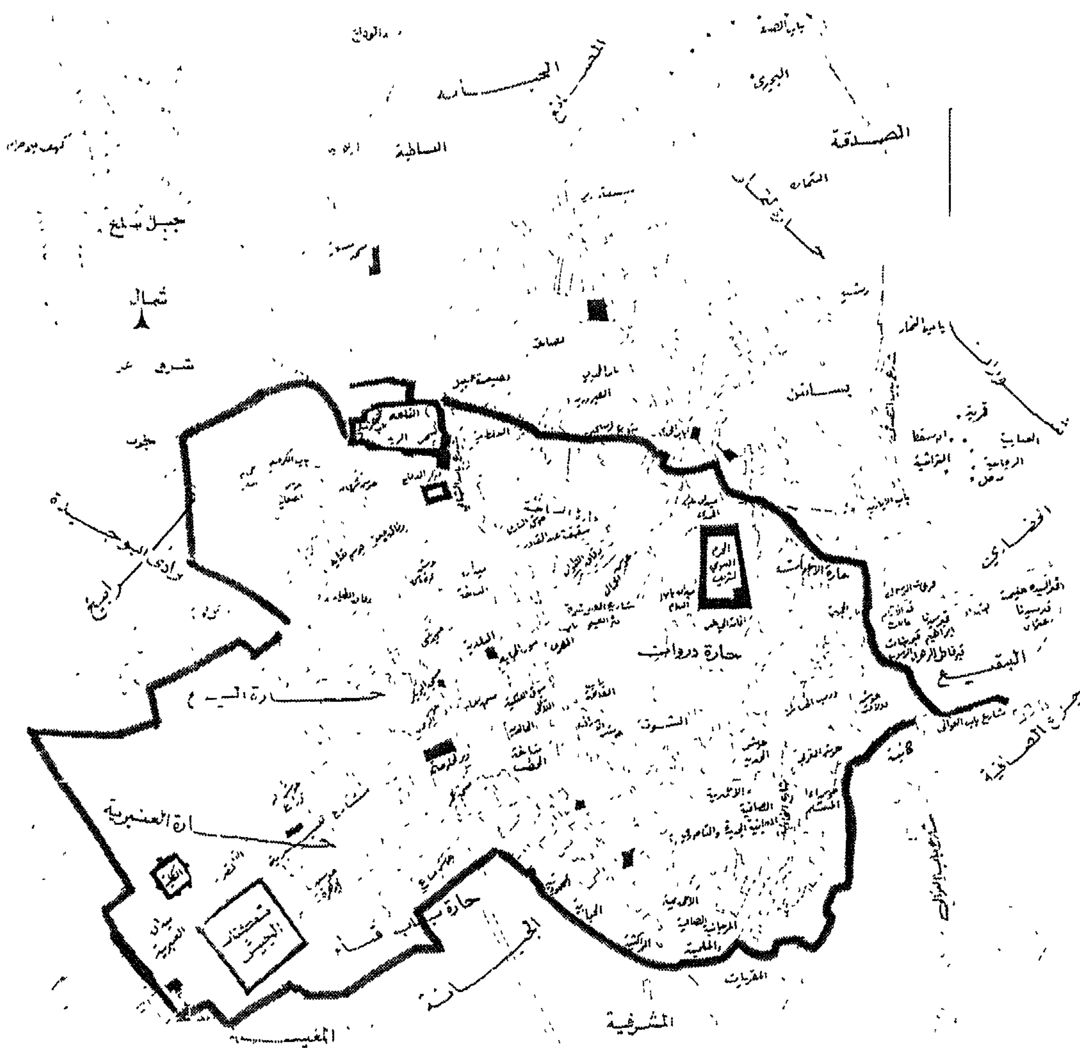
٢) درر الفوائد المنظمة ص ٦٤٠-٦٤١.



١ ـ مبنى القلعة من خارج السور ومتصلاً به.



٢ ـ برج من أبراج السور
للمراقبة والمدافع.



بناء السور والقلعة في مطلع العهد العثماني

ستترابط في قلعة المدينة فيما بعد. وبدأ العمل بإزالة السور القديم جزءاً فجزءاً، وكانت خطة مهندس البناء أن يزيل الأجزاء المضعضعة فيها نهائياً ويبني جداراً حجرياً على الأساس القديم، باستثناء الأجزاء التي بنيت أخيراً في عهد السلطان المملوكي قايتباي، لأنها مبنية إلى نصفها بالحجارة، وبقيتها باللبن الترابي، فاكتفى المهندس بإزالة القسم المبني باللبن الترابي، وأبقى القسم المبني بالحجارة وأكمله بالحجارة المنحوتة القاسية.

استغرق العمل في البناء سبع سنوات ونصف، توقف خلالها بضعة أشهر لوفاة ناظر العمارة واستبداله بناظر آخر، ولوفاة المهندس وتعيين مهندس جديد، وانتهى العمل في منتصف شعبان سنة ست وأربعين وتسعمائة، وبدا السور حصيناً مرتفع الجدران، وله أبواب كبيرة محكمة، وأبراج يتحصن فيها المدافعون وجهزت الأبراج بالمدافع الحديثة آنئذ، وبنيت قلعة عند الباب الشامي متممة للسور من جهته الغربية الشمالية، وتقع على تلة مرتفعة، شيدت فيها أبراج للمراقبة وبني بداخلها مساكن للجند وبيت لقائد الحامية، وجعل لها باب إلى داخل المدينة وآخر إلى خارجها(١) ووصل من تركيا تسعون جندياً من جنود الإنكشارية الأشداء ليكونوا مع أسلافهم الحامية العسكرية للمدينة المنورة، وعينت الدولة ضابطاً كبيراً في منصب قائد القلعة، وأصبح هذا المنصب أحد المناصب الرئيسية في المدينة وأصبح من يفوز به واحداً من شخصيات المدينة والمتنفذين في أمورها فيما بعد.

والجدير بالذكر أن عملية بناء السور قد تمت بتوجيهات مباشرة من والي مصر سليمان باشا، ودون أن يكون لأمير المدينة الحسيني شأن أو تدخل أو إشراف، الأمر الذي يؤكد انحسار نفوذه إلى درجة كبيرة جداً. فليس في المصادر التي تحدثت عن بناء هذا السور أية إشارة إلى الأمير.

---

١) انظر المصور المرافق للقلعة.

ضعف سلطة الحسينيين:

ضعفت سلطة الأمير الحسيني في المدينة، وأُبعد عن تصريف شؤون الإمارة وتحولت السلطة إلى مراكز القوى الجديدة. وكانت متوزعة بين شيخ الحرم ورئيس الحامية العسكرية والقضاة، وهناك أخبار كثيرة تظهر ضعفه، منها: أن أحد الوزراء العثمانيين الأثرياء زار المدينة عام ٩٥٠هـ ورأى أحد الأحياء المحيطة بالحرم غير معبد يضايق المارة، فلما عاد إلى القسطنطينية أرسل أموالاً وافرة لإزالة الحجارة من هذا الزقاق وتعبيده، ووجهها إلى ناظر الحرم (ستدام) وكان يلقب بالأمير أيضاً(١) فقام ستدام بالمهمة خير قيام. والأصل أن هذه الأمور من صلاحيات أمير المدينة أو موظفيه، وعلى أقل تقدير ينبغي أن يحاط الأمير علماً بمثل هذا العمل، ولكن المصادر التاريخية تغفل ذكر أمير المدينة ورجاله، الأمر الذي يجعلنا نعتقد أنه لم تخرج من يده القضايا السياسية وحسب، بل خرجت القضايا الإدارية أيضاً، وغدا منصبه شرفياً ينال لقاءه بعض المال ويكون واسطة بين الإمارة والقبائل المنتشرة في أطراف المدينة والمتسلطة على طريق الحجاج إلى مكة، فيوزع عليها عطاءات الدولة، ويتفق معها على تأمين قوافل الحجاج. وقد تحولت هذه العطايا إلى إتاوات تدفعها الدولة أو الإمارة مرغمة تحت طائلة التهديد، وإذا امتنعت أو تأخرت عن الدفع تعرض الحجيج للقتل والنهب والسلب. ومن مظاهر ضعف أمير المدينة أنه لم يعد يملك قوة يستطيع بها خفر القوافل أو تأديب قطاع الطرق والمفسدين، وقد كثروا على الطريق وتزاحموا وشاطرهم في ذلك بعض الحسينيين الذين تركوا المدينة وبنوا حصوناً وهجرات بين المدينة وينبع واستوطنوا فيها. ويذكر العصامي أنه في سنة ٩٦٢هـ امتنع أمير المدينة عن دفع المبالغ المخصصة للعربان والحسينيين المقيمين على طريق الحج، فتحالف أبناء عمه الحسينيون الذين منع عنهم الأعطيات مع العربان، وجهزوا

---

١) انظر درر الفوائد ٦٩٦.

حملة شارك فيها آل نعير برئاسة منصور بن محمد، وآل الجماز برئاسة أحد مقدميهم، وطوائف من قبائل أخرى مختلفة برئاسة الشيخ أبي ذراع، وكمنوا لموكب الحج المدني عند منطقة الفريش (على بعد ٦٠ كم من المدينة) وكان في الموكب قاضي المدينة المنورة وشيخ الحرم المدني والأمير محمد بن حسن وعدد كبير من الهاشميين وأعيان المدينة الآخرين، ولما وصل الركب المنطقة هاجمه المتحالفون، وحاول حراس الموكب ورجاله المقاومة، فقتل المهاجمون أعداداً منهم وأسروا عدداً آخر وبدؤوا ينهبون الركب، ولم يتوقف القتل والنهب إلا بعد أن تعهد شيخ الحرم وقاضي المدينة بدفع المبالغ المقررة للمتحالفين، وأكمل الركب مسيره إلى مكة بعد أن خسر عدداً من رجاله وممتلكاته. ولم يجرؤ الركب على العودة إلى المدينة إلا بعد أن جهز أمير مكة حسن بن محمد بن أبي نمي سرية من شجعان الفرسان والمقاتلين لترافقهم، واستطاع بذلك الركب العودة إلى المدينة سالماً. وقد نفذ قاضي المدينة وشيخ الحرم تعهدهما فأقنعا الأمير بإرسال الأموال والقمح والثياب إلى المتحالفين(١) وكانت هذه الحادثة آخر محاولة يذكرها المؤرخون لأمراء المدينة لاستعادة سلطانهم ونفوذهم.

وكان من سوء حظ الأمير أن يلجأ إلى الطريق الخطأ، فبدلاً من أن يتألف قلوب جماعته وأقاربه عادى كل من حوله، ولم تكن له قوة قادرة على مواجهة قسم من هؤلاء الخصوم، ويبدو أن الدافع الرئيسي لتصرفه كان البخل والطمع في المال، ولو كان له من السياسة أو الأهداف البعيدة شيء أو كانت لديه حنكة سياسية لما فعل ذلك.

وقد أفل نجم الأمراء الحسينيين بعد ذلك تماماً. وغابت أسماؤهم عن كتب التاريخ، وابتعدوا عن الأحداث، وتحولت إمارتهم إلى منصب شرفي أخذ يفقد قيمته الاسمية شيئاً فشيئاً، مقابل ازدياد نفوذين مختلفين: نفوذ أمير

---

١) المدينة المنورة عبر التاريخ للبرداعي ١٢٦.

مكة، وهو أمير الحجاز كله، والنفوذ التركي الجديد.

آخر الأمراء الحسينيين:

ويذكر صاحب مرآة الحجاز قائمة بأسماء عدد من الأمراء توالوا على الإمارة حتى عام ١١٠٠هـ. وهم من أبناء الأمير مانع وأحفاده، ولكن هذه القائمة مضطربة لايمكن الاعتماد عليها على الإطلاق فقد ورد فيها أسماء أمراء تذكر كتب التاريخ أنهم وجدوا قبل ذلك بكثير. ويبدو أن تشابه أسماء الأمراء الحسينيين هو الذي أدخل اللبس على المؤلف، فسمط النجوم يذكر اسم الأمير مانع ولا يحدد بقية اسمه، ويلتبس الأمر على المؤلف فيجعله مانع بن علي بن عطية، والمؤكد أن مانعاً هذا هو غير مانع بن عطية الذي ولي الإمارة قبل ذلك.

ويذكر أيوب صبري أن مانع بن علي بن عطية تولى الإمارة قبل ٨٣٩هـ. ثم يذكر بعده أربعة أبناء له تولوا الإمارة على التوالي وهم: وثبان ثم قايتباي ثم سليمان ثم إميان. وتنقطع سلسلة أبناء مانع بعد إميان بسليمان بن غُرَيِّر بن هيازع، ثم تعود بعد وفاته إلى السلسلة السابقه فيتولى زهير بن إميان الإمارة وهو حفيد مانع، ويذكر أيوب صبري أنه عزل وتولى بعده أخوه ضغيم بن زهير، ثم قسيطل بن زهير، ثم زهير بن قسيطل بن زهير، ويذكر أن زهيراً هذا توفي عام ١٠٩٩هـ. فتولى ابنه حسن وهو آخر الأمراء الحسينيين نهائياً(١).

وهذه السلسلة تستغرق ٢٤١ سنة من تاريخ المدينة، وتضم عشرة أمراء منهم أربعة إخوة في الجيل الأول الذي تلا مانع بن عطية، والثلاثة في الجيل الثاني زهير وضيغم وقسيطل من أحفاد مانع، وقد امتدت إمارة هذه الأجيال المتوالية من ٨٣٩-١٠٩٩ أي ٢٧٠ سنة.

ونقل البرادعي عن أيوب صبري وأضاف بعد حسن بن زهير اسم الأمير

---

١) مرآة الحجاز ١٢٢.

فارس بن شامان ثم ابنه بازين فارس، وهذا وهم من البرادعي لأن الثابت في المصادر التاريخية أن فارس بن شامان تولى أمر المدينة عام ٩٠١هـ بعد حادثة حسن بن زبيري(١) وقد ورد في إفادة الأنام عن إمارة زيد بن محسن للحجاز في الفترة ما بين ١٠٤١هـ و١٠٧٧هـ ما نصه: ((ولاية الحجاز اليوم بأطرافه كلها للأمير زيد بن محسن ولأسلافه، وليس لبني الحسين في ولاية المدينة في هذا الزمان إلا الإسم فقط وبعض تصرف من، تحت يد الأمير زيد))(٢).

وهناك أحداث كثيرة شهدتها المدينة عام ١٠٨٢هـ ستمر بنا بعد قليل لم يكن فيها وجود لأمير المدينة على الإطلاق، رغم أنها تتعلق بالصراع على إمارة الحجاز بما فيه المدينة. ونعتقد أن الحسينيين الذين ورثوا الإمارة الاسمية قد تركوا المدينة إلى ريفها وأقاموا في القرى والمزارع لعدم جدوى إقامتهم في المدينة سياسياً واقتصادياً.

وقد شهد العياشي في القرن الحادي عشر هذا التغيير ووصفه بقوله ((والآن صار الأمر لبني حسن -أمراء مكة- فجمعوا الولايتين، ولم يبق لبني حسين إلا رسوم قليلة من ولاية المدينة، وصاروا كلهم إلا القليل بادية يرحلون وينزلون بنواحي المدينة))(٣) وذكر أن الدعاء يوم الجمعة على منبر المسجد النبوي يكون للسلطان العثماني ثم لشريف مكة ثم لأمير المدينة، وأنه ليس له من إمرتها إلا الإسم ولأنه من تحت أمير مكة والتصرف لنوابه وأقاربه(٤).

---

١) وفاء الوفاء ١٠٥٩/٢ والتحفة اللطيفة ٣٨٢/١-٤٧٩ ورسائل من تاريخ المدينة ص ١٨٦.

٢) إفادة الأنام بأخبار البلد الحرام. مخطوط مصور في مكتبة السيد حبيب الخاصة بالمدينة ٣١٦/٦.

٣) ماء الموائد ٣١٠/١.

تحولات في المدينة المنورة:

نعود إلى التحول الكبير الذي طرأ على المدينة المنورة منذ أواخر القرن العاشر. فقد استقبلت المدينة أعداداً متوالية من المجاورين الذين تحولوا إلى مقيمين دائمين، وكان معظمهم من أطراف الدولة العثمانية في آسيا الوسطى، وحمل هؤلاء الوافدون كثيراً من عاداتهم وتقاليدهم المحلية معهم، وما لبثوا أن اختلطوا بأهل المدينة والوافدين من الشام ومصر والمغرب وتصاهرت العائلات الجديدة والقديمة.

وكان بعض الوافدين مرسلاً من الدولة العثمانية، فقد بدأت السلطة في الآستانة بتعيين المناصب الكبرى من قبلها مباشرة، وبخاصة مناصب شيخ الحرم، وكبير خدام المسجد النبوي -الأغوات- والقاضي، وقائد الحامية العسكرية في القلعة. وتشكل تدريجياً ثلاثة فرق عسكرية جديدة يعين قائد كل منها من الآستانة مباشرة، وهي (وجاق الإسباهية)، وتعني مجموعة الخيالة أو الفرسان، وهي قوة مسلحة خفيفة تعتمد على الخيل في تحركاتها وقتالها ولها إدارة مستقلة ومهمتها حفظ الأمن، و(وجاق النوبتجاية)، وهي قوة عسكرية من المشاة، و(وجاق الإنكشارية)، وهي جزء من فرقة (الإنكشارية) العثمانية المشهورة، فضلا عن (وجاق القلعة) التي ذكرناها سابقاً.

وفي بداية الأمر كانت كل فرقة تأتي بكاملها من الآستانة، ثم أخذت هذه الفرق تقبل المتطوعين من أهل المدينة والمقيمين فيها، ثم صارت تعتمد عليهم اعتماداً أساسياً ولم يعد يأتي من خارج المدينة إلا الرؤساء وكبار الضباط.

وانتشرت اللغة التركية بين عدد كبير من أهل المدينة بحكم تعاملهم مع الوضع الجديد ودخول بعضهم في الوظائف، ولا سيما الفرق العسكرية الأربعة المذكورة، ولكنها لم تطغ على اللغة العربية ولم تؤثر فيها، بل صارت لغة

---

٤) ماء الموائد ١/٣٠٩.

ثانية تستخدم حين اللزوم. وقد بدأ هذا التغير بسيطاً في أواخر القرن العاشر الهجري، وتسارع في القرن الحادي عشر، وأسهمت المدارس والأربطة والدور التي أنشأها المماليك من قبل، وعدد من المحسنين، وتبعهم في ذلك العثمانيون، أسهمت في زيادة عدد الوافدين إلى المدينة، فقد كانت هذه الأربطة مأوى لهم، وكان لها مخصصات تؤمن لهم الطعام إذا لم يكونوا من أولي الغنى والوفرة، ووفدت عائلات الموظفين والعساكر فصار المظهر العام للمدينة أميل إلى الرفاهية والتوسع في المعيشة، بينما ظلت مكة أقرب إلى شدة العيش والبداوة، وهو ما سنقف عليه بمزيد من التفصيل في دراستنا للمدينة المنورة في القرن الحادي عشر.

المدينة في القرن الحادي عشر

عزلة سياسية:

ليست الأخبار عن المدينة المنورة في القرن الحادي عشر بأفضل من الأخبار عنها في القرن العاشر، فهي قليلة نسبياً، نجد معظمها في كتب الرحالة الذين زاروا المدينة المنورة آنئذ، ونجد نزراً يسيراً في كتب تراجم هذا القرن.

ولعل تحول مركز الثقل السياسي إلى مكة المكرمة، واضطراب الأحداث هناك والصراعات الكبيرة بين الشرفاء، قد استقطب اهتمام المؤرخين فلم يلتفتوا إلى أخبار المدينة إلا عرضاً، أو ما كان فيها ما يمس أخبار مركز الإمارة في مكة. حتى الأمور الاقتصادية التي لها بعض ارتباط بالإمارة والسيادة تحولت عن المدينة إلى مكة، وأظهرها الضرائب (المكوس) التي كان يدفعها زائرو المدينة، وكان ريعها يعود إلى إمارة المدينة ويشكل جزءاً مهماً من دخلها أصبح يستوفى في مكة فيدفع الزائر القادم رسوماً عن زيارته لمكة والمدينة معاً، ويؤول المبلغ المدفوع إلى صندوق الإمارة في مكة، وكان يرسل منه شيء يسير لأمير المدينة، ويذكر العياشي أن إمارة مكة كانت تستوفي اثني عشر ديناراً من كل حاج أعجمي، ستة لدخول مكة وستة لدخول المدينة(١) وإذا بدأ الحاج أو المعتمر دخوله بالمدينة فيُستوفى (المكس) على أبوابها وتحول الحصيلة إلى مكة، أما الضرائب التي تستوفى من التجار والزائرين في الموانيء، كميناء الجار وينبع وجدة، فلم يعد للمدينة نصيب منها على الإطلاق، فقد استقلت ينبع بأمير من آل الحسن، وتحولت السفن عن ميناء الجار إلا ما نزر، وقسمت عائدات ميناء جدة بين إمارة مكة وقائمقام جدة التركي.

---

١) مقتطفات حمد الجاسر ص٩٠.

آثار العزلة السياسية:

كان لهذا الأفول السياسي أثر سلبي على المدينة المنورة، فقد أصبحت تابعة لا متبوعة، وشحت مواردها الاقتصادية غير أن هذه العزلة كان وجها إيجابيا إلى حد ما. فهذا الأفول أبعد عن المدينة أحداثاً دامية كانت تشتعل في مركز الإمارة بمكة، سببها الصراع على الإمارة بين الإخوة الأشقاء وأبناء العم، وكانت مكة تحصد من ذلك القتلى والجرحى والفوضى والنهب مرات ومرات، فقد تعاقب على الإمارة ستة عشر أميراً انتهى عدد منهم بالقتل(١).

وكان من نتائج هذه العزلة الساسية أن كثر القادمون إليها والمجاورون الذين يتحولون إلى مقيمين، وشكلوا ظاهرة واضحة تضاف إلى ظاهرة العائلات التركية التي جاءت بسبب الوظائف المدنية والعسكرية التي كانت تعين من الآستانة. وقد صور محمد كيريت المدني هذه الظاهرة فقال: من محاسن المدينة أنها عون لغريبها، حتى على أهلها، وفيه سر الإيثار، وأنه لايرد إليها أحد من الآفاق إلا ويختارها على وطنه(٢).

ومن أسباب هذا الإقبال ما كان يلاقيه الزهاد والمتعبدون من حسن معاملة من أهل المدينة ورؤسائها الذين كانوا كما يقول ابن فرحون: يوالون المجاورين، ويخدمونهم، ويتقربون إلى خواطرهم بقضاء الحوائج والهدايا والطرف، مع حسن الاعتقاد فيهم والتماس بركتهم وأدعيتهم، وبالمقابل كان هؤلاء يتصفون بحسن السيرة وصفاء السريرة(٣).

وقد أتاحت لها هذه ((العزلة السياسية)) فرصة أكبر للازدهار العلمي، فكان المسجد النبوي مليئاً بحلقات العلم والمتعلمين، وبلغت المدارس درجة عالية من النشاط وظهر عدد من العلماء والشعراء والرحالة، وجاء إلى المدينة

---

١) انظر تاريخ مكة للسباعي: من ص ٣٤٨ إلى ص ٤٠٢.

٢) الجواهر الثمينة ورقة ٢٣.

٣) انظر السابق نفسه ورقه ٨٥.

عدد كبير من العلماء المجاورين والتقوا مع علماء المدينة ومع أمثالهم القادمين من الآفاق البعيدة. وأخذ بعضهم عن بعض.

ومن أشهر الأعلام الذين أسهموا في هذه الحركة العلمية النشطة: إبراهيم الخياري المدني (١٠٣٧- ١٠٨٣هـ) الذي وصفه المحبي بأنه أحد المشاهير بالبراعة في الحديث والمعارف وفنون الأدب والتاريخ وفي الرحلات (١) وقد اشتهر كتابه ((تحفة الأدباء وسلوة الغرباء)) في وصف رحلته إلى الآستانة. ومنهم الشاعر غرس الدين محمد بن أحمد الخليلي ثم المدني (ت ١٠٥٧) وهو محدث فقيه وشاعر تولى منصب الخطابة في المدينة المنورة وأنشأ فيها ديوانه ((الديوان العجيب والأسلوب الغريب))(٢) ومنهم الشاعر المجاور فتح الله بن النحاس الحلبي، ومصطفى بن قاسم الذي قدم المدينة مجاوراً ثم استوطنها وألف عدداً من المؤلفات وديواناً شعرياً(٣)، ومنهم محمد بن عبد الله الحسيني المشهور (كبريت) الذي ألف عدداً من الكتب منها كتاب عن تاريخ المدينة المنورة عنوانه ((الجواهر الثمينة في محاسن المدينة)) وكتاباً في الرحلات سماه ((رحلة الشتاء والصيف)) وكتاب ((نصر من الله وفتح قريب)) وكان شاعراً جيداً، ومنهم ابن معصوم المدني (١٠٥٠- ١١٢٠) وله عشرون مؤلفاً منها: سلافة العصر، وأنوار الربيع في أنواع البديع، وله كتاب في الرحلات بعنوان سلوة الغريب، وله ديوان شعر كبير أيضاً(٤).

ولعبت التوظيفات الرسمية دوراً مهماً في إعادة تشكيل المجتمع المدني. وكان القادمون من أولي المناصب الكبيرة يحتلون مكانة رفيعة في المدينة

---

١) انظر خلاصة الأثر ٢٥/١، وتحفة المحبين ٢٠٥.

٢) خلاصة الأثر ١٤٦/٣.

٣) ابن معصوم: سلافة العصر ٢٢٦.

٤) انظر ترجمته في البدر الطالع ٤٢٨/١ ونفحة الريحانة ١٨٧/٤.

المنورة وبخاصة شيخ الحرم الذي يعين من الآستانة مباشرة. وكانت الدولة العثمانية تنظر إلى هذه الوظيفة على أنها من الوظائف المهمة لمكانتها الدينية، وكان ينتقى لهذا المنصب شخصية ذات مكانة مرموقة تتصف بالعلم والتقوى. وقد ارتقت مكانة شيخ الحرم في حياة المدينة، قبل منتصف القرن الحادي عشر الهجري رقياً كبيراً، فلم يعد هذا المنصب دينياً محضاً أو مقصوراً على شؤون المسجد النبوي، بل صار واحداً من مراكز القوة والنفوذ. ويذكر الأنصاري أنه في عام ١٠٤٥هـ عين الشيخ بشير آغا الحبشي في مشيخة الحرم النبوي وفوضت إليه الدولة العلية جميع أحكام السياسة بالمدينة المنورة. ولا يعني هذا أن شيخ الحرم أخذ يمارس نشاطاً سياسياً محدوداً(١) أو أن المدينة المنورة صار لها كيان سياسي متميز، إطلاقاً فقد ظلت الأمور كما كانت عليه من قبل، ظلت المدينة تابعة لمكة، وكان الأمير آنئذ الشريف زيد بن محسن الذي حكم من (١٠٤١- ١٠٧٧هـ) إنما يعني إيجاد نفوذ رسمي لشيخ الحرم، فيؤخذ برأيه -غالباً- في تعيين قاضي المدينة وفقيهها، وتقبل شكواه فيهم ويعزلون إذا طلب عزلهم، وقد تطور الأمر بعد ذلك بحيث أسند إليه تعيين بعض القادة العسكريين في الفرق المقيمة في المدينة، فيعين (كتخذا القلعة، وكتخذا النوبتجاتية، وكتخذا السباهية)، وسيكون لهذا النفوذ أثر كبير في ظهور بعض الفتن وإطفائها.

استقلال نسبي:

رغم تبعية المدينة لإمارة مكة تبعية سياسية كاملة فإن الأحداث كانت تخرج أحياناً عن يد السلطة في مكة، وتتحول المدينة إلى منطقة شبه مستقلة يأوي إليها المعارضون للأمير المكي، وبعض المتصارعين على الحكم من أبناء العائلة الحاكمة هناك، وذلك بسبب ضعف التماسك الإداري بين مدن الحجاز، وعدم وجود قوة عسكرية تابعة لأمير مكة في المدينة المنورة.

---

١) تحفة المحبين ص ٦٢.

المدينة تساعد أمير مكة المخلوع:

ففي سنة ١٠٤١هـ نشب صراع على الإمارة بين أبناء الأسرة الحاكمة في مكة (آل الحسن) وكان الأمير وقتئذ محمد بن عبد الله بن حسن بن أبي نمي يشاركه الشريف زيد بن محسن، وقد نافسهما على الإمارة الشريف نامي بن عبد المطلب بن حسن بن أبي نمي (وهو ابن عمهما) واستعان بعدد من الجنود الأتراك الذين فروا من قائدهم قانصوة في اليمن(١) ونزلوا في القنفذة، فاتصل بهم الشريف نامي وأقنعهم بمساعدته في الهجوم على مكة فأعانوه، وزحف بهم إلى مكة وحدثت معركة الجلالية بينهم وبين الشريفين محمد بن عبد الله وزيد بن محسن أميري مكة، وقتل محمد بن عبد الله وهرب الشريف زيد بن محسن إلى المدينة، فدخل الشريف نامي والجنود الأتراك مكة وتولى إمارتها. ووجد الشريف زيد بن محسن في المدينة المنورة الأمن والمساعدة من أبناء عمومته، فأمن مطاردة رجال الشريف نامي، وما أن استقر به المقام حتى أخذ يخطط لاستعادة الإمارة من الشريف نامي والقضاء على قوته، ولكن أبناء عمومته لم يكونوا راغبين في خوض حرب ضد الشريف نامي والجنود الأتراك، فلم تكن لديهم العدة والعتاد، لذلك مد الشريف زيد بصره إلى والي مصر الذي يمثل الدولة العثمانية وتتبعه إمارة الحجاز عادة، فأرسل رجلا من أبناء عمومته المدينيين وهو علي بن هزاع ليشرح ما حدث لوالي مصر ويستعديه على الشريف نامي، وفي الوقت نفسه أرسل رسالة مفصلة إلى دار الخلافة، وقد نجح علي بن هزاع في سفارته واستطاع أن يستدر عطف الوالي على الشريف زيد، فكتب إلى مقر الخلافة يستأذنها في مساعدته ضد الشريف نامي، وكانت رسالة الشريف زيد قد سبقت إلى الآستانة، فصدرت موافقة الآستانة على إرسال قوة عسكرية لمساعدة الشريف زيد وتثبيته في الإمارة، وجاءت مع الموافقة خلعة سلطانية تؤكد مباركة دار الخلافة لإمارته، فجهز

---

١) انظر تاريخ مكة ص ٣٦٧.

والي مصر حملة قوامها ثلاثة آلاف جندي وأرسلها إلى ينبع، وأرسل مع علي بن هزاع وفداً برئاسة محمد أرض رومي وعددٍ من خواصه يحملون الخلعة السلطانية والخطابات المؤيدة، فجاءته إلى المدينة، واحتفى بها الشريف زيد مع أقاربه، وذهب إلى المسجد النبوي ولبس الخلعة السلطانية في الروضة الشريفة تيمناً وتفاؤلاً بالنصر، وسار إلى ينبع حيث التقى مع القوة القادمة، وسار بها حتى نزل منطقة الجموم قرب مكة. وبلغ الخبر الشريف نامي فأرسل قوة صغيرة من بعض الفرسان والهجانة لتكشف حقيقة الأمر، فلما وصلوا الجموم أحس بهم جيش الشريف زيد فقتل بعضهم وفر الباقون بالأخبار المروعة إلى مكة، وأخبروا الشريف نامي، وهولوا له الأمر، وحذروه من مواجهة الجيش القادم، فأدرك الشريف نامي ألا طاقة له بمقاتلة هذا الجيش، ولم يكن أهل مكة ليؤيدوه، فجمع رجاله وانسحب بهم شرقاً، ووجدت مكة نفسها دون أمير ودون حامية، وكان أحد رجالات المدينة وصل مع رجاله وعبيده للحج وهو الشريف أحمد بن قتادة، فتطوع بالسهر على حراسة البلد الحرام وحجاجها، ونشر رجاله وعبيده ليقوموا بالمهمة، وأرسل إلى الشريف زيد يخبره بخروج الشريف نامي ورجاله، ويطلب منه المسارعة لدخول مكة وتسلمها وحفظ الأمن فيها. وفي صباح السادس من ذي الحجة عام ١٠٤١هـ دخل الشريف زيد بن محسن مكة في موكب حافل تتقدمه ((صناجق)) الأتراك، ونزل في دار الإمارة وأرسل مناديه بالأمان وأنه منذ اليوم حاكم البلاد(١) ولم ينس الشريف زيد لأهل المدينة ولأبناء عمه ما لقيه لديهم من حماية ومساعدة، فقابل جميلهم بالجميل بعد أن استتب له الأمر، وأرسل بعض الأموال والقمح والثياب إلى المدينة وزاد من حصتها مما يرد من مصر والآستانة إلى الحرمين الشريفين، وأخذ يتردد على المدينة بين الحين والحين، ويشن الغارات على أفخاذ قبيلة حرب التي تقطع الطريق على الحجاج

---

١) تاريخ مكة: للسباعي ص ٣٦٩.

وتهدد المسافرين إلى المدينة المنورة، بل وتهدد المدينة ذاتها أحياناً، فاطمأنت المدينة وانتشرت أخبار الأمن وكثر الوافدون إليها، كما تواترت القوافل التجارية ورخصت الأسعار.

حظر على العجم (الإيرانيين):

وفي موسم الحج عام ١٠٤٢هـ وصل الأمر من الشريف زيد إلى المدينة بإخراج ((العجم)) منها ومنعهم من دخولها بعد ذلك، والتنبيه عليهم ليخبروا من وراءهم كيلا يأتوا للحج أو الزيارة، وخرج المنادي في الأسواق يأمر العجم بالخروج من المدينة، وبإبلاغ مواطنيهم في بلادهم بمنعهم من دخول الحجاز، وكان السبب في ذلك المعارك الطاحنة التي كانت تدور بين الدولة العثمانية والصفويين، فقد استولى الصفويون على العراق، ودخل الشاه مدينة بغداد وقتل واليها العثماني وعدداً كبيراً من جيشه، ثم تواترت الحروب بين العثمانيين والصفويين، فأمر الخليفة العثماني بمنع العجم من الحج والزيارة. وقد استمر هذا المنع طوال مدة الحرب بين الدولتين وانتهى عندما طرد الصفويون من العراق وعقد السلطان مراد معهم الصلح عام ١٠٤٩هـ(١).

جريمة تبعث شبح الحرب:

ظلت العلاقات بين الشريف زيد وأهل المدينة حسنة مدة طويلة، ثم اضطربت وكادت تتحول إلى مصادمة وحرب.

ففي الثامن من شعبان عام ١٠٥٩هـ زار الشريف زيد بن محسن المدينة المنورة وكان قادماً من إحدى حروبه مع أفخاذ قبيلة حرب على الطريق بين مكة والمدينة، ووصل الخبر بقدومه إلى أهل المدينة فخرج رؤساؤها إلى ظاهرها واستقبلوه ونزل بعسكره في السهل الممتد خارج السور وضربت خيامه فيه، كيلا يضيِّق على أهلها، وأخذ يتردد على المسجد النبوي ليصلي فيه ثم يعود ويبيت في معسكره.

---

١) انظر تاريخ الاسلام ١٣٢/٨-١٣٣ وتاريخ مكة ٣٧١.

وبعد وصوله بيومين حدثت حادثة مريعة اهتزت لها المدينة واتهم بها الشريف زيد ورجاله. ففي العاشر من شعبان بينما كان قاضي المدينة المنورة التركي (زفر أفندي المعين من الآستانة) نازلاً إلى صلاة الصبح ومعه ثلاثة من خدمه، فاجأه في أحد المنعطفات رجل مسلح وضربه بخنجره في ظهره فأنفذه إلى صدره وفر في العتمة، وألجمت المفاجأة خدمه فلم يستطيعوا شيئاً، وأكب القاضي على دابته ولكزها فمضت به في طريقها المعتاد حتى دخلت المسجد والخدم يجرون وراءها، وكان إمام الشافعية قد بدأ الصلاة، فقام إليه بعض الموجودين في المسجد وأنزلوه من على دابته وهو ينزف، فأشار إليهم أن يدخلوه إلى قرب الحجرة النبوية، وما كاد يصل ويسلم على رسول الله ﷺ حتى فاضت روحه. وأشاع بعضهم أن للشريف زيد يداً في اغتياله، فهاج الناس، وكان الموقف العاطفي يحول دون التحقق من تلك الإشاعة، وخرج المصلون بجثمان القاضي وهم يفورون من الغضب، وسرعان ما انتشر الخبر في أرجاء المدينة، وتجمع الناس واتجهوا إلى القلعة فهيجوا العساكر المرابطة فيها ورئيسها، وأغلقوا أبواب السور، وعلت الصيحات بالانتقام من الشريف زيد وعسكره.

أخذ العساكر أماكنهم في أبراج السور وسلطت المدافع على معسكر الشريف زيد الممتد غربي السور، وارتقى عدد من أهل المدينة جدار السور وتوجهوا بصيحات الغضب إلى عسكر الشريف زيد، وفوجيء عسكر الشريف زيد بهذا الهياج الشعبي ورأوا المدافع موجهة إليهم، وسرت حالة من الاضطراب فيهم، ما لبثت أصوات أهل المدينة أن بلغتهم وهم ينادون: أخرجوا عنا. وأرسل الشريف زيد بعض رجاله ليستوضح الأمر، فعلموا بما جرى وباتهام أهل المدينة للشريف زيد وعادوا إليه بالخبر، وكان الشريف زيد عاقلاً فأعاد الوفد ومعه أكابر جماعته، وأكابر جماعة عسكر مصر وخاطبوا عقلاء أهل المدينة من وراء السور، وحلفوا لهم أن الشريف لاعلم له

بما حدث، وأنه غاضب لمقتل القاضي وأنه سيبذل كل جهده للقبض على الجاني، وطال الحديث بين الجانبين حتى اقتنع أهل المدينة وهدأت ثورتهم وفتحوا أبواب السور، وما لبث الشريف زيد أن دخل المدينة وذهب إلى مقر الإمارة واستدعى وجوه أهل المدينة ليبحث معهم الأمر، وباشر التحقيق بنفسه، وأمر رجاله بالقبض على جميع المشبوهين والمعروفين بالفساد في المدينة، فقبض على عدد كبير منهم وسجنوا جميعاً وبدأ التحقيق معهم. وطوال مدة إقامة الشريف في المدينة لم يصل التحقيق إلى نتيجة، ولما طال سجن المشبوهين بدأ بعض أهل المدينة يستشفعون لهم فقبل الشفاعة في بعضهم وأطلق سراحهم، وأبقى تسعة أشخاص كانت الشهادات بفسادهم كثيرة في السجن، وعندما رحل من المدينة أمر بنقلهم في قيودهم مع العسكر إلى سجن ينبع، وظلوا فيه حتى وصل ركب الحج الشامي، فسارع أهلوهم إلى أمير الحج الشامي وطلبوا منه الشفاعة فيهم وإطلاقهم، خاصة وأنه لم تثبت عليهم تهمة قتل القاضي، فتشفع فيهم أمير الحج وأطلق سراحهم، ولم يعثر على قاتل القاضي ولا عرف سبب الجريمة.

وقد استفادت المدينة من هذه الحادثة مزيداً من الأمن والطمأنينة باعتقال المشبوهين ومن عرفوا بشيء من الفساد، وظل اسم الشريف زيد يفزعهم كما يفزع قطاع الطريق من قبيلة حرب وغيرها. ونعمت المدينة بالأمن طوال مدة إمارة الشريف زيد التي انتهت بوفاته عام ١٠٧٧هـ وقد تولى الإمارة بعده ابنه الشريف سعد بن زيد، وبدأت في عهده مرحلة اضطرابات أثرت على المدينة المنورة.

قلاقل في ينبع تؤثر على المدينة:

كان الشريف حمود بن عبد الله بن حسن بن أبي نمي منافساً للشريف سعد في الإمارة بمكة، وحدثت مناوشات بين رجالهما، وكادت أن تقع فتنة كبيرة لولا أن تدخل بعض الوجهاء وأصلحوا بينهما على أن يأخذ الشريف

حمود مبلغاً معينا كل سنة، وبعد مدة ثار الشريف حمود لعدم حصوله على المبلغ المقرر وتوجه إلى ينبع وأعلن عصيانه فيها.

وما لبث والي مصر أن بعث حملة من خمسمائة عسكري لإخضاع الشريف حمود، ولكن الشريف حمود جمع أقاربه وأعوانه وأفخاذاً من قبائل مجاورة وهاجم الحملة في الرابع عشر من شهر رجب عام ١٠٧٨هـ فقتل معظم رجالها.

وطار خبر هذه الوقعة في مناطق الحجاز وبلغ أهل المدينة فاضطربوا له اضطراباً شديداً، وخافوا أن يزحف الشريف حمود ورجاله بعد انتصارهم ذاك إلى المدينة فيحتلوها، ولم تكن بها قوة قادرة على المواجهة، غير أن الأثر الأكبر لهذه الوقعة على أهل المدينة كان أثراً اقتصادياً، فقد انقطعت القوافل التجارية خشية تفاقم الأحداث، وقلّت السلع، وارتفعت الأسعار ارتفاعاً فاحشاً بقية ذلك العام، واضطر المسافرون إلى المدينة أن يسلكوا طرقاً قديمة بعيدة عن مواطن رجال الشريف حمود، ولم تنته هذه الشدة إلا بعد أن جرد الشريف سعد حملة لمطاردة الشريف حمود ورجاله، ثم انتهى الأمر إلى الصلح بين الشريفين في أوائل عام ١٠٧٩هـ فعادت القوافل التجارية إلى المدينة ومكة ورخصت الأسعار(١) وفي هذه السنة ازداد نفوذ العسكر في المدينة المنورة وتحدوا سلطة الإمارة وسلطة القضاء، وبخاصة عسكر (الإسباهية) الذين يرأسهم محمد ظافر، واتهموا القاضي بالتحيز والأحكام الجائرة ضدهم، واتهموا نائب الشريف بممالأة القاضي، وثاروا وحاصروا بيت القاضي ورجموه، كما هاجموا بيت نائب الشريف وأسمعوه إهانات كثيرة، وهددوا بعض رجال الإمارة والقضاء، وشهر بعضهم السلاح عليهم في الحرم، وكان أمير مكة الشريف سعد مشغولاً بعصيان الشريف حمود، ولم يكن لدى نائبه في المدينة قوة قادرة على تأديب الجنود العصاة، لذلك طأطئوا رؤوسهم

---

١) انظر سمط النجوم ٤/٤٩٤ و تاريخ مكة ٣٧٦.

لتمر العاصفة. ولم يتعد شغب الجند المهاترات والشتائم، ولم يقتل أحد وظل القاضي مدة متوارياً في بيته لايخرج إلى الناس إلى أن كلم وجهاء المدينة قائد العسكر فهدأهم بعد أيام، وعادت الحياة إلى مجراها الطبيعي.

اضطرابات داخل المدينة: شغب العساكر:

شهدت المدينة منذ الشهور الأولى لولاية الشريف سعد أحداثاً مقلقلة، فقد ضيق الشريف سعد على أهل المدينة، وأخذ نائبه فيها الناس بشيء من الشدة لم يعهدوها من أبيه من قبل، وتدخل في الوظائف والتعيينات التي كانت متروكة لشيخ الحرم وقادة العسكر، ولم يرسل ما كان أبوه يرسله من الصدقات والمعونات لأهل المدينة، فتضايق أهل المدينة وأرسلوا العرائض إلى مصر والآستانة يشكون فيها من سوء معاملته، فلما اقترب موعد الحج انتدبت الآستانة أحد كبار موظفيها ((حسن باشا)) لإمارة موكب الحج وفوضته بالنظر في شكاوى أهل المدينة، فوصل حسن باشا في منتصف ذي القعدة ١٠٧٩هـ إلى المدينة المنورة والتقى بعدد من رجالات المدينة وسمع منهم شكواهم ضد الشريف سعد(١) وكان من بينهم قائد الخيالة محمد ظافر الذي أخذ نجمه يبرز في المدينة المنورة، وكان أبوه ((حسن آغا الرومي البشناقي)) قد وفد إلى المدينة رسولاً من الدولة العثمانية بوظيفة ((آغا الإسباهية)) أي قائد فرقة الخيالة، وكان رجلاً كاملاً عاقلاً صاحب ثروة عظيمة، وقد خلفه ابنه محمد بن ظافر في منصبه، وصار له شأن في المدينة، وعندما حدثت واقعة قتل القاضي واتهام الشريف زيد كان محمد ظافر من بين الذين تأهبوا للقتال ضد الشريف، ولما سكنت الفتنة عادت الأمور إلى مجاريها، وظل محمد بن ظافر في منصبه، (وعندما تولى الشريف سعد

---

١) سمط النجوم ٤/٥٠٦.

الإمارة صار بينه وبين محمد ظافر شنآن عظيم)(١) وقد أغرى محمد ظافر حسن باشا بالقبض على نائب الشريف سعد في المدينة وجميع رجاله وأقنعه بذلك، فأمر حسن باشا بالقبض عليهم وساعده رجال محمد ظافر، وأهانوهم وكادوا أن يفتكوا بهم، وأمر حسن باشا بقطع الخطبة والدعاء للشريف سعد على منبر المدينة، وأخذ بنصيحة خصوم الشريف سعد وبدأ يعد لعزله والقبض عليه.

وانتقلت أخبار ماحدث في المدينة إلى الشريف سعد، فجمع رجاله وأخذ حذره من حسن باشا وقرر ألا يواجهه عند قدومه إلى مكة مدة الحج، وكادت أن تقع الفتنة بين الطرفين لولا شدة حذر الشريف سعد وتجنبه الاحتكاك بحسن باشا ورجاله.

وقد سعى بعض أهل مكة وأمير المحمل الشامي الأمير غسان بن محمد بن فروخ في الصلح بين الشريف سعد وحسن باشا وبذلوا جهوداً كبيرة حتى أزالوا الجفوة بينهما، والتقى حسن باشا والشريف سعد بعد انتهاء موسم الحج وأمر بإطلاق سراح من قبض عليهم في المدينة، واستمر الشريف سعد في إمارته، وانتقل حسن باشا إلى جدة وسكنها مندوباً للسلطة العثمانية(٢).

تركت هذه الحادثة آثاراً متباينة على أهل المدينة، فقد تراجع الشريف سعد عن شدته معهم، وغيَّر بعض رجاله وأمرهم بحسن التعامل مع الناس، وأعاد الأموال والميرة التي كان يرسلها أبوه إلى أهل المدينة. ومن جهة أخرى أوغرت صدر الشريف سعد على الأفراد الذين حرضوا حسن باشا عليه، وفي مقدمتهم محمد ظافر قائد فرقة الفرسان (أغاة الإسباهية) فأمر رجاله في المدينة بتتبع أخباره وجمع مثالبه والشكاوى ضده.

---

١) تحفة المحبين ص ٣٤٧.

٢) سمط النجوم ٤/٥١٠.

معركة بلا سبب:

وفي منتصف عام ١٠٨٠هـ شهدت المدينة المنورة حادثة ضخمة كان السبب فيها سوء التقدير والتعجل غالباً.

فمنذ عهد المماليك اعتادت المدينة أن تستقبل في شهر رجب من كل عام زائرين كثر، حتى صارت الزيارة في هذا الشهر عادة يطلق عليها اسم (الرجبية)، ويأتي الزائرون من أطراف الجزيرة العربية ومن الشام ومصر أيضاً، واعتادت المدينة أيضاً أن يعترض المسافرين منها وإليها في شهر رجب وغيره بعض أفخاذُ قبيلة حرب المنتشرة حول المدينة ليأخذوا منهم إتاوة أو يُغيروا عليهم وينهبوا ويقتلوا. وفي السابع والعشرين من شهر رجب من ذلك العام أراد أحد مشايخ قبيلة حرب واسمه أحمد بن رحمة زيارة المدينة مع عربانه فسار إليها في مجموعة من رجاله، وكانت العادة أن يحمل المسافرون أسلحتهم أو يكون معهم مسلحون يحمونهم. ويبدو أن بعض المسافرين إلى المدينة قد رأوهم وسبقوهم إليها فنقلوا أخبار جماعة حرب القادمة دون تبصرة، ويكفي أن يذكر اسم قبيلة حرب آنئذ ليكون إيذاناً بالحرب، واستعد عسكر المدينة لمواجهتهم، فلما وصل الحربيون عصراً فاجأهم العسكر بالهجوم، وأخذت الحربيين المفاجأة ولم يجدوا فرصة يوضحون فيها الأمر لمقاتليهم، فشرعوا في الدفاع عن أنفسهم، واشتد القتال واستمر إلى المغرب، وتفرق الجمعان، وعاد عسكر المدينة إلى داخل السور، وانسحب الحربيون إلى ذي الحليفة (آبار علي) وما لبث أن وصل إليهم رسول من نائب الأمير في المدينة يسألهم الصلح وعدم مهاجمة المدينة، فشرح لهم الشيخ أحمد بن رحمة أنهم لم يكونوا يقصدون مهاجمة المدينة وأن العسكر هم الذين بدؤوا بالقتال فدافعوا عن أنفسهم، واتفق الطرفان على اللقاء في اليوم التالي، وباتت المدينة في شيء من القلق، وظل العسكر طوال الليل مستيقظين يحرسون بأسلحتهم سور المدينة وأبوابها. وفي الصباح التالي

التقى شيخ الحرم والمفتي وقاضي المدينة وقادة الفرق العسكرية وعدد من وجهائها بالشيخ أحمد بن رحمة وعدد من رجاله، وجعل الفريقان يختصمان ويدعي كل منهما على الآخر البدء بالعدوان، وأخيراً استطاع المشايخ أن يهدئوا المتخاصمين، ويصلحوا بين قادة العسكر والحربيين وأُلبس الشيخ رحمة خلعة نفيسة وأُلبس خواصه جوخاً، على أن ما مضى لايعاد، وبذلك وقع الاتفاق والأمان(١) وأتم الحربيون زيارتهم ورحلوا معززين مكرمين، وقد خسر الحربيون في هذه الواقعة خمسة عشر رجلاً وخسر أهل المدينة أربعة رجال(٢).

كان إكرام أهل المدينة لشيخ حرب وخواصه تألفاً سبق لأهل المدينة أن فعلوه مع الحربيين مراراً لتجنب هجماتهم، ووفى الحربيون بعهودهم فلم يغيروا على المدينة وقوافلها ذلك العام. وظلت المدينة هادئة والحياة فيها تجري باضطرادها العادي إلى ختام عام ١٠٨٢هـ حيث قدر لها أن تشهد طرفاً من الصراع على إمارة الحجاز والخلافات حولها.

المدينة مركز عسكري:

في ذلك العام عين حسن باشا نائباً للدولة العثمانية ((سنجق)) في جدة فأخذ يضايق الشريف سعد أمير مكة والحجاز وكان أقسى مافعله قطع حصته من واردات (المكوس) والجبايات التي تجبى في جدة، وبخاصة التي تجبى من التجار على البضائع الواردة. وبينما كان حسن باشا يؤدي مناسك الحج في منى تعرض للاغتيال، وكادت تقوم فتنة بين عسكره ورجال الشريف سعد، إذ اتهم عسكرُ الباشا الشريفَ سعد بأنه وراء عملية الاغتيال، وأنكر الشريف سعد، ثم سعى بعض الوسطاء في الصلح بين الرجلين فتم الصلح على أن يدفع الباشا الأموال التي احتجزها من حصة الشريف، ودفع الباشا

---

١) سمط النجوم ٤/٥١٢.

٢) السابق ٤/٥١١..

بعض ذلك المال وتوجه إلى جدة ومنها إلى المدينة، وفي المدينة أغراه خصوم الشريف سعد وفي مقدمتهم محمد ظافر قائد الفرسان (أغاة الإسباهية) بعزل الشريف سعد وتولية ابن عمه الشريف أحمد بن محمد بن الحارث بن الحسن بن أبي نمي، فبعث إليه الباشا فجاء إلى المدينة، فأعلن الباشا تولية الشريف أحمد إمارة الحجاز وألبسه خلعة سلطانية في الروضة الشريفة بالمسجد النبوي، وأرسل المنادين يعلنون الخبر في المدينة وما حولها، وأمر بقطع الخطبة عن الشريف سعد وتحويلها إلى الشريف أحمد.

كان الشريف أحمد غير مقتنع بتولي الإمارة مكان ابن عمه، غير أنه كان ضعيفاً عاجزاً عن رفضها أمام الباشا، فكتب له الشريف سعد رسالة في غاية اللطافة والرقة واللين يستوضحه عن حقيقة الأمر، ويخبره أنه إذا رغب في الإمارة فعلا فإنه -الشريف سعد- سيتنازل له عنها وسيكون من أعوانه المخلصين، وأما إن كان توليته مكيدة وانتصاراً للباشا حسن فالأحسن ألا يتورط في ذلك. فأجابه الشريف أحمد بأنه مكره على ماحدث وأن الأمر لم يتم (١) وقد سارع الشريف سعد مع أخيه الشريف أحمد بن زيد بتعبئة قواتهما، واتجه الشريف سعد بهما إلى ينبع فنزلها، وكان أميرها الشريف حمود غائباً عنها، ورغم الخصومات السابقة بينهما كتب إليه يطلب منه العودة إلى ينبع والانضمام إليه ضد حسن باشا، وفي الوقت نفسه كتب حسن باشا إليه رسالة يطلب منه الوقوف معه ضد الشريف سعد، ووصلت رسالته قبل وصول رسالة الشريف سعد بيوم واحد، وعندما تسلم الشريف حمود الرسالتين حزم أمره وقرر أن ينضم إلى ابن عمه الشريف سعد متجاوزاً ما كان بينهما، فعاد إلى ينبع وأعلن مؤازرته له.

الإعداد للمعركة:

شعر حسن باشا أن الشريف سعد قد ازدادت قوته وأدرك أنه سيتحرك

---

١) سمط النجوم ٤/٥١٨.

إليه في المدينة ويثبت إمارته، فعبأ العسكر الموجودين في المدينة، وجهز المدافع وقرر أن يسير بها إلى الشريف سعد لقتاله، ولكن الشريف أحمد بن محمد الذي عينه الباشا أميراً طلب منه التريث وأقنعه بعدم الخروج.

أقام الباشا في المدينة يقوي الجيش، وأمر بصنع قذائف تسمى (قنابر) وهي عبارة عن كرة معدنية تملأ بقطع الرصاص والحديد وتقذف بالمدفعية إلى مسافات بعيدة تنفجر وتصيب عدداً كبيراً في منطقة مرماها، واستقدم الحدادين والصناع وأقام مصنعاً كبيراً بالقلعة لهذا الغرض حتى تم له صنع مائتي قذيفة. ولم يكتف بذلك بل أرسل إلى جدة يطلب من نائبه فيها أن يرسل إليه على وجه السرعة كميات وافية من الذخيرة والعتاد والمؤونة.

وانتشر الخبر بين الناس في المدينة، فأخذوا يستعدون بتخزين الطعام لمواجهة الأيام الصعبة التي تعيشها كل مدينة في فترة الحرب، وجاءت الأخبار أن الشريف سعد وحلفاءه قد تحركوا من ينبع إلى المدينة، واستعد عسكر القلعة والمجندون بمدافعهم وبنادقهم لمواجهة القادمين وبات الجميع يرقبون الصدام الدموي القادم.

نهاية الزوبعة:

ولكن شاء الله أن ينقذ المدينة من هذا الصدام، فقد ورد البريد من دار الخليفة يحمل مرسوماً بعزل حسن باشا وترحيله من الحجاز، ووصل البريد عن طريق مصر إلى جدة، ولما لم يجد الباشا تحرك إلى مقره في المدينة، ولكن الخبر شاع ووصل إلى الشريف سعد وحلفاءه قبل أن يصل البريد إلى المدينة، فتوقفوا عن الزحف وحمدوا الله الذي صرف عنهم ذلك البلاء.

استقبل حسن باشا أمر العزل بغيظ شديد، ولم يكن له بد من تنفيذه، فأخذ يستعد للخروج من المدينة مع رجاله المقربين وأحس أنصاره من أهل المدينة بأنهم في مأزق كبير، فلا بد أن يعاقبهم الشريف سعد الذي ثبت في الإمارة، لذلك قرروا وفي مقدمتهم (أغاة الإسباهية) قائد الفرسان الخروج مع

حسن باشا والذهاب إلى الآستانة لإقناع كبار رجال الدولة بعزل الشريف سعد.

وخرج حسن باشا وأنصاره من المدينة، وتوجهوا شمالاً بالطريق البري إلى مصر، فلما وصلوا غزة كان الضيق والألم قد بلغ بحسن باشا مبلغه، فمرض مرضاً شديداً ثم فارق الحياة(١) فدفنه أصحابه في غزة وواصلوا المسير إلى مصر ومنها إلى الآستانة. أما الشريف سعد فقد عاد إلى مكة منتصراً وأرسل الكتب إلى دار الخلافة بما حدث، وشكا خصومه وفي مقدمتهم محمد ظافر، وعدد جرائرهم، وطلب إنزال العقوبة بهم، وقد أثرت هذه الكتب بما يريده الشريف سعد، فورد جواب دار الخلافة بالموافقة على معاقبة ((الجناة)) وقتل محمد ظافر، وكان محمد ظافر قد عاد من الآستانة إلى مصر، فأرسل الشريف سعد أمر دار الخلافة بقتله إلى والي مصر، فقبض عليه الوالي وقتله(٢).

المدينة تعزل أمير الحجاز:

رغم انتصار الشريف سعد وعودته إلى إمارته، فإن هذه الأحداث قد أثرت فيه تأثيراً كبيراً وما لبثت أن عصفت بإمارته، فقد بذل خصومه جهوداً كبيرة لإقناع كبار المسؤولين في دار الخلافة بضرورة عزل الشريف سعد، وتزعم هذه الجهود شيخ مغربي كان مجاوراً بالمدينة ومكة هو الشيخ محمد

---

١) سمط النجوم ٥١٨/٤-٥٢٠.

٢) وتشير عبارة أوردها الأنصاري عن وفاة محمد ظافر أنه كان خلال رئاسته لفرقة الخيالة في المدينة (آغا الإسباهية) شديداً قاسياً، حتى إن بعضهم أرخ وفاته بعبارة تحمل كثيراً من التشفي وهي ((مات فرعون المدينة)) وكان لأهل المدينة ولع بتأريخ الحوادث على طريقة الجمل -طريقة مقابلة الأرقام بالحروف لتوافق العبارة المشكلة مع رقم السنة التي وقع فيها الحدث وتدل عليه- ولا شك أن تسميته فرعون المدينة فيها مغالاة كبيرة، وربما حقد شخصي، ولكن الأمر لايخلو من دلالة على تصرفات قاسية. انظر تحفة المحبين ٣٤٧.

بن سليمان المغربي، ولا نستبعد أن يكون محمد ظافر قد أثر فيه عند زيارته للآستانة، ونذكر هنا أن أهل المدينة سبق أن اشتكوا من الشريف سعد قبل ثلاثة أعوام، وكاد أن يعزل على يد حسن باشا نفسه لولا أن أصلح بينهما بعض المصلحين، وتكررت شكاوى أهل المدينة، ورافقتها شكاوى أنصار حسن باشا والمتضررين من الشريف سعد، وقبل أن ينتهي عام ١٠٨٣هـ صدر الأمر بعزل الشريف سعد وبإرسال قوة عسكرية من جهتين: ثلاثة آلاف من مصر تسافر إلى مكة مع ركب الحج، وألفان من حلب تسافر مع الركب الشامي، ويصحبه الشيخ محمد بن سليمان المغربي. وذهبت الأوامر السلطانية إلى كل من والي حلب ووالي مصر فأنفذ الواليان الأمر، وتحرك الجنود إلى الحجاز، وجاء الشيخ محمد بن سليمان مع الجنود الحلبيين ومروا بالمدينة ثم واصلوا السير إلى مكة، فوصلوها في بدء الموسم، وعسكروا في الزاهر، وسبقهم الجيش المصري بأيام قليلة وعسكر في جرول. وفطن الشريف سعد للأمر فتهرب من مقابلة أمراء الحج، وما لبث أن فر في أيام منى مع بعض أعوانه إلى الطائف، ومنها إلى المدينة، فوصلها قبل نهاية ذي الحجة مع أخيه الشريف أحمد معزولاً، ونزل منطقة ((الغابة)) خارج المدينة ولم يجرؤ على دخولها خشية أن يفتك به بعض خصومه أو أبناء محمد ظافر المقتول. وكان أمراء الحج عندما علموا بهروب الشريف سعد قد استدعوا الشريف بركات بن محمد وولوه الإمارة بموجب مرسوم الخلافة، وأعلنوا أن للشيخ محمد بن سليمان المغربي حق الإشراف على عدد من شؤون الحجاز. وكان مما جاء في مرسوم عزل الشريف سعد وتولية خلف له أن الشريف سعد (شد الخناق على أهل المدينة البهية، وأذاقهم كأس المنون روية، فلما بلغ هذا الحال السمع

الكريم السلطاني أمر بعزل السيد سعد عن شرافة مكة)(١) وقد أرسل الشريف بركات بن محمد بعد توليته الإمارة من يتعقب الشريف سعد، فاضطر الشريف سعد إلى الخروج من المدينة والتوجه إلى الآستانة(٢).

الشريف بركات بن محمد والمدينة:

عمل الشريف بركات على استرضاء أهل المدينة والإحسان إليهم لتعزيز مكانته بينهم وفي دار الخلافة، وقد عين نائباً له لإدارة شؤونها وأطلق عليه لقب وزير، وهذه أول مرة يذكر فيها المؤرخون وجود وزير لأمير مكة في المدينة يدير شؤونها، وكان أول وزير يعينه فيها هو أبو بكر بن جبريل، فجاء أبو بكر إلى المدينة وباشر تسيير أمورها(٣).

---

١) انظر الدحلان ص ٩١.

٢) انظر تاريخ مكة ص ٣٧٩.

٣) انظر تحفة المحبين ص ١٥٢ وقد أخطأ الأنصاري في تحديد السنة التي تولى فيها عمله في المدينة فذكر أنها ١٠٨٠هـ، والمعروف أن الشريف بركات بن محمد تولى الإمارة بعد عزل الشريف سعد نهاية عام ١٠٨٣هـ وعلى ذلك تكون وزارة أبي بكر ١٠٨٣هـ.

نهاية إمارة الحسينيين في المدينة:

كان المنصب الجديد في إدارة شؤون المدينة النهاية الحقيقة لمنصب أمير المدينة الذي يتولاه الحسينيون، ولئن صح ماذهب إليه أيوب صبري من أن الحسينيين ظلوا أمراء إسميين في المدينة إلى نهاية هذا القرن فإن وصول وزير شريف مكة هو بداية النهاية، وبوفاة آخر الأمراء الحسينيين حسن بن زهير الذي نعتقد أنه كان معاصراً لهذه الوزارة انتهى أمر الحسينيين وألغى منصبهم الأسمي.

معركة في الرجبية:

يشير بعض المؤرخين إلى حادثة وقعت في عهد الوزير أبي بكر بن جبريل دون أن يحددوا السنة التي وقعت فيها، وهي حادثة الفتنة العظيمة في الرجبية بين حرب وأهل المدينة(١) ولابد أن هذه الوقعة قد حدثت قبل نهاية هذا العقد، لأننا سنجد في بداية العقد التالي عام ١٠٩٠هـ وزيراً آخر في إدارة المدينة هو محمد الخلفاني(٢) وسنتحدث عنه بعد قليل.

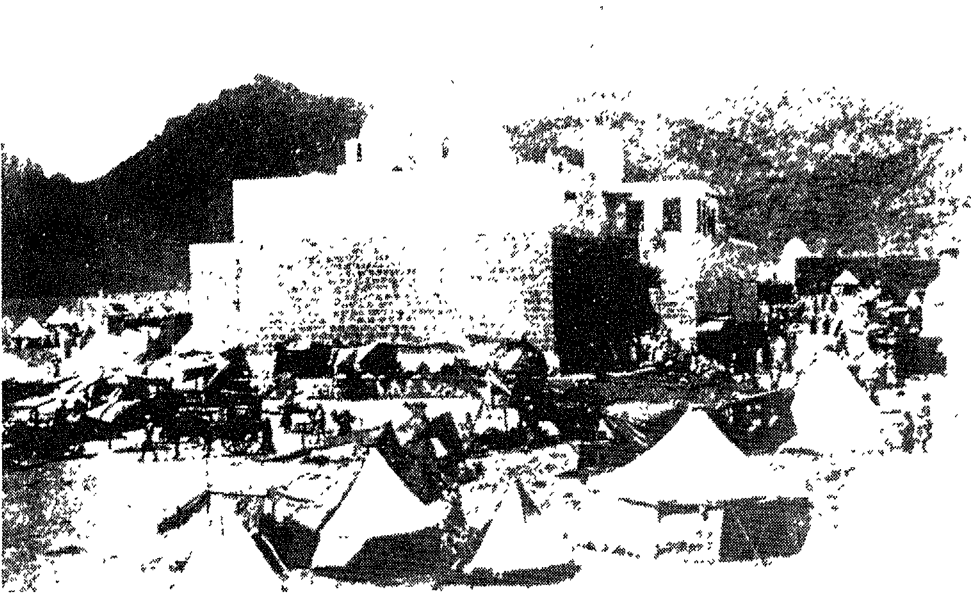
وتدل التفصيلات القليلة المذكورة عن هذه الحادثة أن بعض أفخاذ قبيلة حرب استغلت موسم الرجبية، فتحركت لغزو المدينة ونهب ما يمكن نهبه منها.

وكانت العادة أن يخرج أهل المدينة والزائرون إلى مقبرة سيد الشهداء حمزة بن عبد المطلب في سفح جبل أحد من أوائل شهر رجب، ويخيمون في البساتين حول المقبرة، ويخرجون معهم المضارب والخيام الكبيرة فلا يبقى في المدينة إلا أهل الأعذار، ويبيت الناس طوال ليلهم ويومهم في القراءة حول

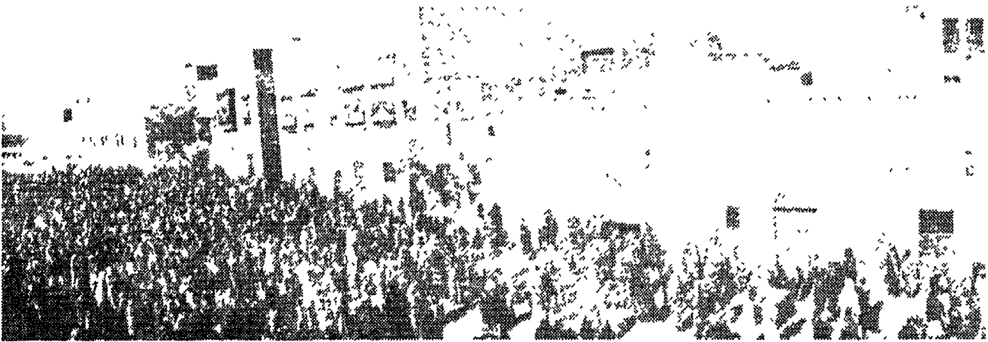
---

١) السابق ص ١٥٢.

٢) السابق ١٦٣.



«الرجبية» في أوائلها وقبل أن يتجمع الزائرون حيث تغص المنطقة بالخيام
حول مسجد سيد الشهداء حمزة بن عبد المطلب



في نهاية الرجبية يعود الزائرون إلى المدينة ليصلّوا في المسجد النبوي
ويحتفلوا باختتام الموسم فتغص بهم شوارع المدينة وساحاتها

قبر سيدنا حمزة(١)، وكانت أفخاذ قبيلة حرب تحصل منذ القديم على أموال من الإمارة ومن الدولة العثمانية لقاء عدم تعرضهم للحجاج والمسافرين، وقد أصبحت هذه الأموال المصدر الرئيسي لدخلها، فإذا تأخرت أو انقطعت عنها ثارت ثائرتها وهاجمت المسافرين أو هاجمت المدينة. ويبدو أن هذه القبيلة لم تستلم حصتها أو طمعت في الزيادة، فانتهزت فرصة موسم الرجبية وهاجمت المدينة، وهب أهل المدينة للدفاع عنها، ووقعت معركة كبيرة انتهت بهزيمة الحربيين مخلفين وراءهم ثمانين قتيلاً(٢)، وقد نبهت هذه الحادثة الوزير أبا بكر لضرورة الاحتياط والحذر، فأمر أن يستنفر جميع العساكر في هذا الموسم وينتشروا على أبواب المدينة وأبراجها، وعلى الطريق بين المدينة وأحد وحول مقبرة سيد الشهداء لحراسة المدينة وحفظ الناس في أيام موسم الرجبية، وأصبح هذا القرار عادة تطبق في كل موسم رجبي فيما بعد.

فيضان يهدد المدينة:

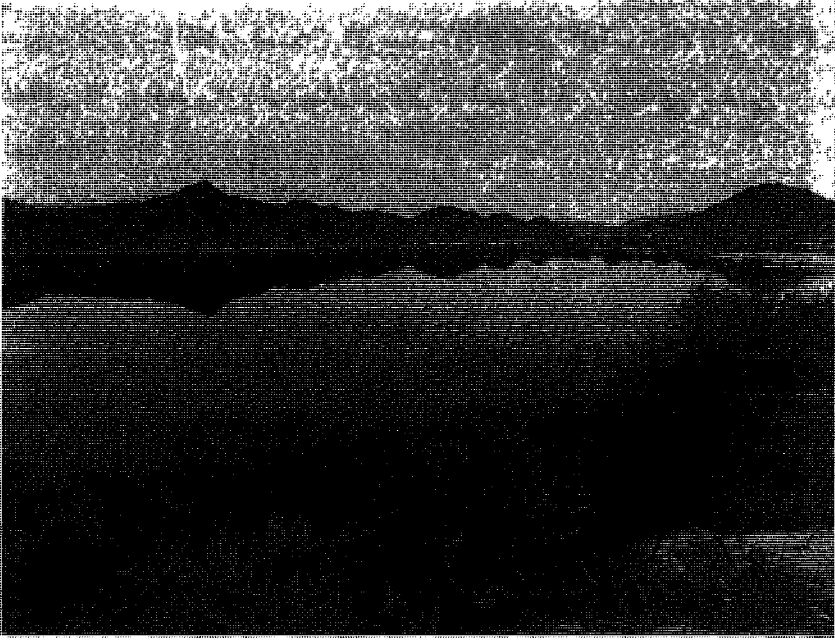
تشهد المدينة على فترات متباعدة أمطاراً غزيرة، فتجري الأودية، وقد تفيض وتتحول إلى سيل يهدد الشوارع والبيوت.

وفي نهاية عام ١٠٨٩هـ هطلت أمطار غزيزة وسالت الأودية، وما لبثت المياه أن ازدادت زيادة كبيرة، وفي الرابع عشر من ذي الحجة فوجيء الناس بسيل هائل يتدفق في وادي بطحان (ويسمى أيضاً وادي أبو جيدة) وتقتحم مياهه البيوت المحيطة به، وتعصف بمعظمها فتسقط جدرانها، وتنطلق إلى الحدائق والبساتين فتغمرها وتخرب الزرع وتقتل بعض الماشية، وفزع الناس فزعاً شديداً وأسرعوا لإنقاذ سكان المنطقة التي يجتاحها، واقترب السيل من المسجد النبوي، فضج الناس بالدعاء والبكاء، ونشط الرجال في عمليات الإنقاذ، وأخيراً صرف الله خطر السيل عن الحرم وبقية البيوت، وأثمرت

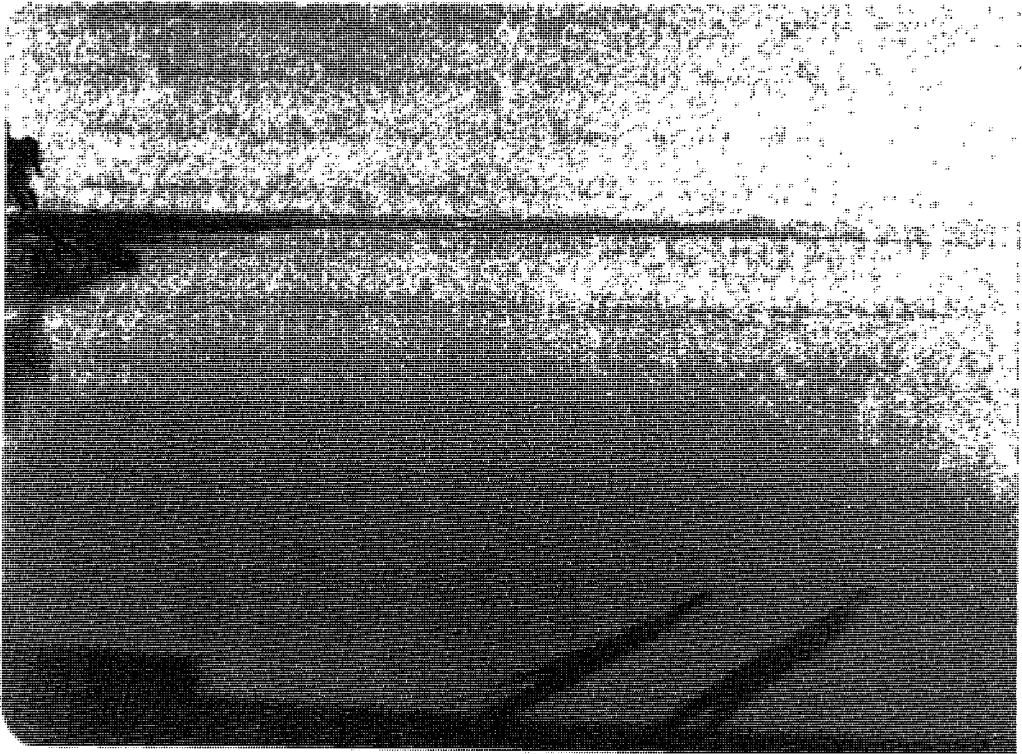
---

١) انظر مختصر رحلة العياشي ص ١٧٠.

٢) تحفة المحبين ١٥٢.



١ ـ وكانت فيضانات الأودية تفرق عدداً من بساتين المدينة وتهدد البيوت والمسجد النبوي.



٢ ـ بحيرة سد العاقول.

جهود الرجال فأنقذت السكان القريبين من الوادي ((ولم يهلك في هذا السيل العظيم إلا شخص أو شخصان، وصارت تحية الناس بعضهم لبعض: نهنيكم السلامة))(١).

حادثة الوزير الخلفاني:

رأينا أنه منذ أواخر القرن العاشر ظهرت في المدينة المنورة مراكز نفوذ متعددة هي: نائب أمير مكة، وشيخ الحرم، وشيخ الأغوات، وقادة الفرق العسكرية، وخاصة قائد حامية القلعة وقائد فرقة الخيالة. وطبيعي أن يؤدي تعدد مراكز القوة إلى احتكاك بينها، ومن ثم إلى صدام ومواجهة.

وقد تأخر هذا الصدام إلى العقد الأخير من القرن الحادي عشر. ففي عام ١٠٩٠هـ كان نائب أمير مكة -الذي سمي بالوزير- هو محمد بن أحمد الخلفاني يدير شؤونها نيابة عن الشريف بركات بن محمد، وقد اختلف هذا الوزير مع القادة العسكريين، وحاول أن يحد من نفوذهم ويضبط تصرفاتهم، فثاروا عليه، واتهموه بأنه سب السلطان العثماني، وكان العسكر هم الذين يمثلون السلطان العثماني في المدينة، فحاصروه في بيته، وطلبوا منه أن يمتثل للمحاكمة أمام القاضي، وخشي الوزير إن خرج للعسكر أن يفتكوا به، فامتنع أول الأمر، ثم طلب منهم أن يفكوا الحصار عن بيته ويتفرقوا، وينتدبوا منهم شخصاً يمثلهم في الخصومة أمام القاضي، فلا يمكن أن يواجههم جميعاً، فرفضوا طلبه وشددوا الحصار وألحوا عليه في الخروج إلى المحاكمة فرفض، واعتبروا رفضه عصياناً وامتناعاً عن الامتثال للشرع وقضائه، وكتبوا محضراً بذلك عند القاضي، ثم اقتحموا عليه البيت، وكان قد دخل معه في منزله عدد من أصحابه ومناصريه فلما اقتحم العسكر البيت فر الوزير الخلفاني إلى بيوت الحريم، وطلب الباقون الأمان فأعطاهم العسكر الأمان على

---

١) سمط النجوم ٤/٥٣٠.

أمان الله وأمان السلطان، فلما خرجوا قتلوهم(١) وفتشوا عن الوزير الخلفاني فلم يجدوه، وبعد ساعات ((دلتهم امرأة على مكانه، فدخلوا عليه عند الحريم وقتلوه ثم سحبوه من أعلى البيت وطرحوه على الطريق إلى آخر النهار))(٢).

واضطربت المدينة لهذا الحادث الشنيع، وغضب الشريف بركات بن محمد لمقتل وزيره، وأرسل بعض رجاله ليحقق في الأمر ويعرف أسماء رؤوس الفتنة، وجمع معلومات كافية عن الحادثة، وكتب بها محضراً مفصلا وأرسله إلى دار الخلافة، وطلب معاقبة الجناة، وكانوا نحو ثلاثين نفراً.

وما لبث البريد أن حمل جواب دار الخلافة يأمر بفصل العساكر المتسببين في الفتنة ومصادرة ممتلكاتهم وطردهم من المدينة(٣)، والمدهش أن الجواب لم يتضمن أمراً بإعدام أي واحد منهم رغم قتلهم الوزير وجميع أصحابه الذين كانوا في البيت وعدداً من عبيده. ويبدو أن العاصمة العثمانية لم ترغب في كسر شوكة عساكرها الذين يمثلون سلطتها في المدينة فاكتفت بتلك العقوبة المخففة وقد نفذ الشريف بركات الأمر فأخرج الجناة من المدينة وصادر أموالهم وعين وزيراً جديداً خلفاً للوزير المقتول، واستطاع بعض المنفيين أن يحصلوا على عفو من دار الخلافة، فعادوا إلى المدينة وطويت صفحة تلك الجريمة.

هدايا لم تصل:

دأب بعض السلاطين والوزراء والموسرين في آفاق العالم الإسلامي على إرسال الأموال والصدقات وبعض الهدايا النفيسة لسكان الحرمين الشريفين المقيمين والمجاورين، وكانوا يرون في ذلك تقرباً إلى الله تعالى. وكانت بعض الهدايا توجه إلى المسجد النبوي وللحجرة النبوية بالذات، وبعضها -وهو

---

١) سمط النجوم ٥٣٠/٤.

٢) السابق نفسه

٣) السابق.

الأنفع والأفضل- توجه للفقراء والسكان وللشرفاء والحسينيين. وفي عام ١٠٩٣هـ أرسل ملك الهند (أورنك زيب) مبلغ مئة ألف روبية، أربعون ألفاً منها إلى الشرفاء وستون ألفاً توزع مناصفة على سكان مكة والمدينة. وتسلم الشرفاء المبلغ كله، وبدؤوا يسجلون أسماء أهل مكة تمهيداً لتوزيع حصتهم عليهم، غير أنهم طمعوا في المبلغ، وطلبوا من أهل مكة أن يوقعوا على أنهم تسلموا حصتهم منه دون أن يعطوهم شيئاً. واستطاعوا أن يحملوا عدداً منهم على التوقيع، وأرسلوا إلى الوزير في المدينة المنورة أن يحصل على توقيعات أهل المدينة بتسلم حصتهم أيضاً لترسل التوقيعات إلى ملك الهند بناء على طلبه. وقد أبدى أهل المدينة شجاعة كبيرة، وتوحدت كلمتهم جميعاً على رفض التوقيعات، وكتب شيخ الحرم رسالة إلى شرفاء مكة وقع عليها وجهاء المدينة وقاضيها وقادة العسكر بالرفض(١)، وعجز الوزير عن حملهم على التوقيع، ولكن متسلمي الأموال لم يعدموا حيلة ينفذون فيها رغباتهم فدبروا تدبيراً آخر(٢) وأرسلوه إلى ملك الهند، وربما يكونوا قد زوروا بعض التوقيعات والأختام، وكلفوا واحداً من أهل المدينة بحمل الرسالة الجوابية إلى أورنك زيب في الهند، وهو السيد محمد البرزنجي، فسافر البرزنجي إلى الهند مع بعض رفاقه، واستطاع بعض أهل المدينة وأهل مكة أن يسربوا الأخبار مع الحجاج العائدين بما حصل، فلما وصل محمد البرزنجي إلى الهند لم يستطع أن يقابل أورنك زيب الذي اطلع على حقيقة الأمر وعاد خائباً إلى مرسليه، فلما رجع إلى المدينة كادوا له ليعاقبوه على تواطئه مع الذين استولوا على الأموال، فادعى عليه أحدهم أنه ضربه وطلب محاكمته أمام القاضي، فلما أرسل إليه القاضي ليحضر المحاكمة أدرك أنه سيتعرض لمكيدة ومحنة فرفض الخروج، فأرسل القاضي من أخرجه بالقوة واجتمع الناس

---

١) السابق ٥٣٩/٤.

٢) سمط النجوم ٥٣٧/٤.

لسماع الدعوى، وحصلت مناقشات حادة في المحاكمة فأمر القاضي بحبسه، وظل محبوساً أكثر من شهرين، وتمكن بعد ذلك من الفرار إلى مكة(١).

وداع هادئ للقرن الحادي عشر الهجري:

كانت الصراعات بين شرفاء مكة على إمارتها شديدة، وكانت آثارها كبيرة على مكة والمدينة. فقرر الخليفة العثماني محمد الرابع إنهاء هذا الصراع بإبعاد المتصارعين جميعهم عن الإمارة وتولية الشريف أحمد بن زيد الذي كان مقيماً في تركيا منذ مدة طويلة، فاستدعاه إلى قصره وقام له وصافحه قائلا: اللهم صلي على سيدنا محمد، ياشريف أحمد الحجاز خراب وأريدك أن تصلحه. وخرج الشريف أحمد من مقابلة الخليفة يحمل مرسوماً بتعيينه أميراً على الحجاز، وسافر مع البريد إلى دمشق فوجد الركب الشامي قد سافر للحج فغذ السير وراءه حتى لحقه في مدينة ((العلا)) ثم دخل المدينة المنورة مع الركب الشامي وتلقاه أعيان البلدة وعساكرها الذين سبق إليهم الخبر، وسار الأمير أحمد بموكبه إلى المسجد النبوي، فدخله وصلى فيه وسلم على رسول الله ﷺ ثم لبس الخلعة السلطانية في الروضة تجاه الحجرة النبوية، كما لبسها أبوه زيد قبل عدة سنوات، وجلس في دار الإمارة واستقبل أهل المدينة ثم توجه إلى مكة وتسلم إمارتها في ٧ من ذي الحجة ١٠٩٥هـ.

اهتم الأمير أحمد بتوطيد الأمن وكسر شوكة القبائل العاصية والتي تهدد القوافل والمدينة المنورة، فشن حملة قوية عليها وسار بعسكره في الطريق بين مكة والمدينة يخضع القبائل المستوطنة فيها إما حرباً وإما سلماً، وطارد عدداً كبيراً من المفسدين وقطاع الطرق وقتلهم. وفي السادس من شوال عام ١٠٩٧هـ انتهى من حملته التأديبية الواسعة ووصل إلى المدينة المنورة زائراً، فاستقبله أهلها بحفاوة، واستمر استقباله إلى العصر، ثم دخل المدينة المنورة

---

١) سمط النجوم ٤/٥٧٢.

وصلى في المسجد النبوي وسلم على رسول الله وزار مشهد سيد الشهداء حمزة وبات في المدينة.

وفي اليوم الثاني وصل البريد إلى المدينة يحمل إليه هدية من دار الخلافة، التي سرت من نجاحه في توطيد الأمن في الحجاز، وكانت الهدية سيفاً مذهباً وخلعة سلطانية، ومعها هدية أخرى لشيخ الحرم المدني قفطان فاخر، فذهب الشريف أحمد إلى المسجد النبوي ولبس الخلعة في الروضة تيمناً وتبركاً. وقد استمرت زيارته للمدينة إلى الثاني عشر من شهر ذي القعدة، وفرق خلال زيارته الأموال وأحسن إلى أهل المدينة(١) وودعت المدينة القرن الحادي عشر بهدوء واستقرار في داخلها وفي الطريق المؤدي إليها.

---

١) انظر خلاصة الكلام ١٠٩.

المدينة المنورة في القرن الثاني عشر

الاضطرابات الخارجية تؤثر على المدينة:

دخل القرن الثاني عشر والحياة في المدينة المنورة في مجراها العادي لايقلق الناس فيها سوى الخوف من عودة القبائل المجاورة من الإغارة على الطرق أو على المدينة نفسها، ومع أن المدينة تحصنت بعدد أكبر من العساكر، ونجح سورها في رد المغيرين غير مرة فإن ظهور أية قلاقل أو أفخاذ قوية متسلطة على القوافل والمسافرين يحدث اضطراباً في الحياة الاقتصادية، فتتحول القوافل التجارية عن المدينة أو تنهب، وتقل السلع وترتفع الأسعار ارتفاعاً فاحشاً.

ومما يسهم في اضطراب الحياة في المدينة أيضاً اضطراب الأحوال السياسية في مكة وتوابعها، فكثيراً مايؤدي الصراع على الإمارة أو الثورة على الأمير القائم إلى مصادرة التجارة والتجار في ميناء جدة، وقد يمتد أثر الثورة إلى ينبع فتختنق الموانئ ويقل الحجاج والزائرون.

وقد شهدت مكة المكرمة في مطلع القرن الثاني عشر صراعاً على إمارة الحجاز عندما توفي أميرها في أواخر ربيع الأول ١٠٩٩هـ، فاتفق أعيان مكة وشرفاؤها والقاضي والمفتي وقادة العسكر على تولية ابن أخيه سعيد بن سعد بن زيد، وكتبوا بذلك لدار الخلافة، وانتهز الفرصة الشريف أحمد بن غالب فكتب إلى والي مصر يطلب تعيينه في الإمارة وبذل له أموالا كثيرة، فأرسل والي مصر إلى والي جدة بموافقته على توليته، ورفض الشريف سعيد التولية، وأعد كل من الشريفين رجاله للقتال وكادت أن تقع معركة كبيرة في شوال ١٠٩٩هـ لولا أن الشريف سعيد قرر في آخر الأمر الانسحاب ومغادرة

البلاد(١) وما لبث الأمر السلطاني أن ورد من دار الخلافة يقر الشريف أحمد بن غالب.

ولكن الشريف أحمد بن غالب دخل في صراعات مع كثير من الأشراف، فأعلن بعضهم العصيان وتوزعوا في ينبع والطائف وجدة وانفصلوا بجماعاتهم وأخذوا يعدون العدة للزحف على مكة وطرد الشريف أحمد بن غالب، فعمت الفوضى واضطرب الأمن في السنة الأولى بعد الألف والمئة للهجرة ١١٠١هـ، وانقسم الشرفاء حسب عائلاتهم القريبة عدة شيع، منهم من يطالب بعودة سعيد بن سعد بن زيد، ومنهم من يطالب بتولية أحد أولاد الشريف مبارك شنبر، ومنهم من يطالب بتولية محسن بن الحسين بن زيد. واستطاع هؤلاء أن يحتلوا جزءاً من مكة ويناجزوا الشريف أحمد بن غالب عشرين يوماً إلى أن غادر مكة، وتسلم الشريف محسن بن الحسين بن زيد الإمارة، وتلقى مرسوم التأييد من السلطة بعد حين، ولكن كثيراً من الشرفاء خرجوا عليه فقطعت الطرق وقلت الأرزاق(٢) ولم تعد تصل إلى جدة إلا إذا أرسل والي جدة من يحرسها، فاشتد غلاء الأسعار وتحرك الشريف سعيد بن سعد بن زيد واستطاع أن ينتزع الإمارة ويدخل برجاله مكة عام ١١٠٣هـ وكتب أعيان مكة إلى دار الخلافة يطلبون مرسوم التأييد فجاء الجواب بتعيين سعد بن زيد والد سعيد أميراً واعتماد ابنه نائباً عنه إلى حين وصوله فقد كان سعد بن زيد منذ خروجه إلى تركيا قبل ٢٠ عاماً مقيماً فيها وكان آخر عهده بالحجاز يوم غادر المدينة المنورة خشية أن يقبض عليه رجال الشريف بركات عام ١٠٨٣هـ، وشاء الله أن يعود سعد بن زيد بعد هذه المدة الطويلة أميراً على الحجاز كله.

وقد تأثرت المدينة المنورة بالاضطرابات التي وقعت في مكة، ولكن

---

١) تاريخ مكة ٣٩١-٣٩٢.

٢) السابق ٣٩٣.

تأثرها كان اقتصادياً وليس سياسياً أو دموياً، فلم يشارك أحد من أهل المدينة في هذا الصراع ولم يحدث في ساحاتها أي ردة فعل لعزل شريف وتولي شريف آخر، فالتغيرات السريعة المتلاحقة لم تمكن شرفاء مكة المتوالين على إمارتها من النظر في أمور المدينة أو إجراء أي تغييرات مهمة في إداراتها، وظل النواب والموظفون في مناصبهم رغم تبدل الأمراء في مكة ولكن اضطراب الأمن وندرة القوافل التجارية القادمة، وقلة المسافرين والزائرين في هذه الفترة أسهم في ارتفاع الأسعار من جهة وفي تحرك بعض أفخاذ قبيلة حرب من جهة أخرى.

ففي حمأة الصراع على الإمارة على مكة لم يهتم أحد بدفع شيء لهذه الأفخاذ، وكانت المبالغ التي تصلها مورداً رئيسياً ومهماً لحياتها، فإذا انقطعت عنها فلا بد أن تفتش عن مورد آخر، ونظراً لقلة القوافل والمسافرين لم يعد أمام تلك الأفخاذ إلا أن تهاجم المدينة نفسها، خاصة وأنه لاتوجد قوة كبيرة تدافع عنها، ولا أمير يجرد حملة تأديبية رادعة. وقد هاجمت أعداداً كبيرة من أفخاذ حرب المدينة المنورة أكثر من مرة، وكان آخرها بعد أن تولى الشريف سعد الإمارة في مكة (وأخذوا ذخائر أهل المدينة من حبوب وزيت وشموع وطعام وتحيزوا في وادي الصفراء ولم يتركوا لأهل المدينة من حصتهم بيضاء ولا صفراء)(١).

تأديب الغزاة:

وعندما استقرت الأمور للشريف سعد بن زيد قرر أن يجرد حملة على الأفخاذ التي آذت المدينة لتأديبها، ولتأمين طريق القوافل والمسافرين أيضاً فجهز قوة كبيرة وزودها بالمدافع والبنادق والذخيرة، وسار على رأسها إلى وادي الصفراء فهاجم القبائل المجتمعة فيها، وقتل عدداً من رجالها وأسر عدداً آخر، وأخذ يطارد الهاربين منهم ويضربهم ضربات شديدة كي يمنع

---

١) الحقيقة والمجاز للنابلسي ٣٢٣.

تجمعهم ويشتت قواهم، وتابع هذه القبائل على طريق المدينة إلى أن اقترب منها وتم له النصر وقتل عدداً من شيوخ حرب، وأرسل الأخبار إلى المدينة المنورة، وأمر نائبه فيها بنصب الزينات ثلاثة أيام وبضرب المدافع في القلعة ليشعر الناس بالنصر ويروحوا عنهم ما أصابهم من قبل. وفي منتصف رمضان وصل الشريف سعد وعساكره إلى مشارف المدينة المنورة وضرب خيامه في ذي الحليفة (أبيار علي) فخرج أعيان المدينة لاستقباله واحتفوا به، ودخل الشريف سعد وابنه سعيد المدينة وأقام فيها عدة أيام، وفرق في أهلها الأموال، ثم عاد إلى مكة. وقد اطمأنت المدينة بعد هذه الحملة وأمنت شرور حرب مدة طويلة.

عودة (الأمير) إلى المدينة:

وما لبث الشريف سعد أن عين أخاه محسن بن زيد نائباً له في المدينة المنورة، فوصل الشريف محسن في مطلع عام ١١٠٧هـ وتولى إدارة الأمور عن أخيه، وأطلق عليه لقب الأمير وكان هذا اللقب قد غاب عن المدينة المنورة وحل محله لقب: الوزير منذ أن عين الشريف بركات أحد وزرائه في إدارة المدينة المنورة، كما أن الأمراء الحسينيين -حكام المدينة سابقاً- تركوها نهائياً وتنازلوا عن الجزء الضئيل من النفوذ الذي بقي لهم، وآثروا أن يعيشوا حياتهم الخاصة بلقب ((السادة)) الذي يطلق على العلويين من أحفاد الحسين بن علي رضي الله عنه.

فتنة بني علي ومحنة المدينة:

بنو علي فخذ من قبيلة حرب يقيم معظمهم قرب المدينة المنورة، ويقيم عدد قليل منهم داخل المدينة، وقد عانى أهل المدينة والمسافرون منها وإليها من بعض أفخاذ قبيلة حرب الذين يتعرضون للقوافل المسافرة، كما عانت المدينة نفسها منهم الكثير، لذلك كان في نفوس أهل المدينة الكثير عليهم.

ومع أن فخذ بني علي لم يرد ذكره في المرات التي هوجمت فيها

المدينة، إلا أن الكثيرين كانوا يعتقدون بتواطئ أبناء هذا الفخذ مع أقاربهم في الهجوم على المدينة ونهبها أو في مناصرة المهاجمين وإيوائهم بعد غاراتهم أو حين مطاردتهم. وقد تطورت مشاعر أهل المدينة بعد الغارات المتوالية في مطلع القرن الثاني عشر، وكان الاحتكاك بهذه الأفخاذ كفيلا بتفجير الضغائن وإحداث المصادمات. ويذكر المؤرخون أنه في سنة ١١١١هـ بلغ ذلك الاحتكاك ذروته مع فخذ بني علي، وكان لشيخ الحرم آنئذ (شاهين أحمد آغا) مشاركة فعالة في هذه الفتنة. ولا نجد سبباً مباشراً للصدام الذي وقع ذلك العام، وربما يكون السبب حادثة احتكاك مع أشخاص معينين من بني علي، مالبث أن تحول إلى نزاع شامل تعاضد فيه عدد كبير من أهل المدينة ضد بني علي، وثمة تقارير بهذه الفتنة رفعت إلى دار الخلافة لابد أنها موجودة ضمن الوثائق العثمانية، ولكنها لم تعرض ولم تترجم بعد، وسيؤدي ظهورها إلى كشف الأسباب المباشرة والحقيقية لها. وإلى أن يتم ذلك لانملك إلا أن نقول: إن المشاعر قد تألبت في المدينة ضد بني علي المقيمين داخل المدينة وخارج سورها وإن شاهين أحمد آغا أسهم في تأجيجها. وقد تفجرت هذه المشاعر، فحمل أهل المدينة السلاح وانضم إليهم عدد من العساكر وهاجموا بني علي وأوقعوا فيهم إصابات شديدة، فانسحب بنو علي شرقاً وتبعهم أهل المدينة حتى بلغوا حرة بني قريظة، وكان الوقت صيفاً والحر شديداً، فقتلوا عدداً منهم وأسروا عدداً آخر، فتابع بنو علي فرارهم شرقاً وجنوباً فأمر شاهين آغا بالكف عنهم والرجوع إلى المدينة، غير أن بعض أهل المدينة أرادوا أن يجهزوا على بني علي ويقضوا على قوتهم نهائياً، فطلبوا أن يتابعوا القتال حتى يستسلم المقاتلون فيأسروهم ويقضوا على شوكتهم نهائياً خاصة وأنهم أحيط بهم، فأبى شاهين أحمد آغا، وأصر على العودة إلى المدينة، ولكي يحملهم على طاعته والرجوع إلى المدينة أمر بإهراق الماء الذي يحمله الناس معهم، ورجع بمن أطاعه، وكانوا

كثيرين، وبقي الآخرون في أرض المعركة، واشتد حر الشمس على الجميع وسقط بعضهم من أذى الشمس وحرها ومن العطش، ثم فوجيء أهل المدينة بجموع من الأعراب تدهمهم وتسلبهم مايحملون من أسلحة وأموال، وكان مع الأعراب قرب من المياه تحملها نساؤهم من خلفهم بينما كان العطش يأخذ من أهل المدينة مأخذه، فضعفت مقاومتهم وتشتتوا في المنطقة لاهثين، وأمسك الأعراب عدداً كبيراً منهم وتبعوهم إلى المدينة، ولم تكن فيها مقاومة تذكر بعد أن تشتت الرجال، فتابعوا النهب والسلب، وعاثوا بالبساتين فساداً وأخذوا ما وجدوه من تمر وحنطة، فخرج العسكر من القلعة وردوا الأعراب بالبنادق، فانسحب الأعراب حاملين معهم غنائمهم، وتقاطر أهل المدينة منهكين منهوبين.

كانت نتائج الموقعة قاسية جداً على بني علي وعلى أهل المدينة أنفسهم، فبعد أن ضرب أهل المدينة بني علي ضربة قاصمة جاء الأعراب ففتكوا بالطرفين ونهبوا ما وصلت إليه أيديهم، وقد حنق الناس على شاهين آغا وعدوه سبب النكبة التي حلت بالناس، لأنه بإهراقه الماء عرضهم للعطش الشديد وأضعف مقاومتهم، ومكن الأعراب من البطش بهم، فكتبت فيه الشكاوى إلى الأمير سعد بن زيد وإلى دار الخلافة، فجاء أمر دار الخلافة بعزل شاهين آغا من مشيخة الحرم(١).

معرض الأموال المنهوبة:

في نهاية عام ١١١٣هـ وبعد أن رحل الحجاج من المدينة، فوجئ الناس بعدد من أعراب قبيلة عنزة يدخلون بجمالهم المدينة وينيخونها في السوق ثم يخرجون منها أحمالا كثيرة ويبسطونها للبيع، وكانت المعروضات تضم أنواعاً شتى من الأقمشة والثياب والأواني والأمتعة الشخصية والبضائع الأخرى منها الجديد ومنها المستعمل، ومنها المألوف ومنها الغريب، وعرض

---

١) انظر الأخبار الغريبة ص ٣، ٤ وتحفة المحبين ٦٣.

الأعراب على الناس شراءها بأسعار رخيصة جداً، وأدرك الناس أن هذه المعروضات لابد أن تكون أموال قافلة نهبها الأعراب، وعرفوا من ثم أنها أموال ركب الحج الشامي، والغريب أن المدينة التي اكتوت بغزوات الأعراب ونهبهم، وكان أقربها وقعة بني علي لم تفعل شيئاً مع أولئك السارقين. واشترى بعض أهلها البضائع المنهوبة، ويذكر الأنصاري أن رجلا من أهل المدينة اشترى أكياساً من البن بمبلغ بخس، فلما فتحها وجد فيها صرراً من المال فاغتنى(١) ولا شك أن الذين اشتروا هذه البضائع المنهوبة كانوا قلة من الناس، لايمثلون الاتجاه الأخلاقي العام في المدينة، لكنهم يمثلون تياراً محدوداً تنشئه ظروف الاضطرابات والقلاقل عادة.

الثائر للمظلومين:

لملمت المدينة المنورة جراحها بعد وقعة بني علي وعاشت حياتها العادية إلى أن تولى إمارة الحجاز الشريف عبد الكريم بن محمد بن علي عام ١١١٦هـ بعد سلسلة من الصراعات مع الشريف سعيد بن سعد وأبيه سعد بن زيد، وثبت بمرسوم من الخليفة العثماني في السادس من شعبان ١١١٧هـ، وأخذ يرتب شؤون إمارته وألغى منصب الأمير في المدينة وأعاد مسمى الوزير وعين وزيراً للمدينة المنورة هو السيد أحمد بن محمد بن دده، وهو ابن أحد المهاجرين الروم إلى المدينة المنورة، ولد ونشأ فيها وتقلب في عدة وظائف كان آخرها وظيفة في القلعة السلطانية، ويذكر الأنصاري أن أحمد هذا عندما تولى وزارة المدينة ظلم وتعدى الحدود(٢) ولقي منه أهل المدينة عنتاً. (وبلغ

---

١) تحفة المحبين ١٧٨.

٢) تحفة المحبين ص ٢٢٥.

به الظلم أنه أمر بقتل رجلين صالحين أحدهما سندي والآخر يماني)(١).

وقد ضج أهل المدينة من تصرفاته، واشتكوه إلى الشريف عبد الكريم فعزله، ولم يتركه أهل المدينة بعد عزله، فرفع عبد الكريم بن يوسف بن عبد الكريم الأنصاري -والد عبد الرحمن الأنصاري مؤلف كتاب تحفة المحبين- دعوى القصاص نيابة عن أولاد الرجل اليماني الذي قتله ابن ددة ظلماً، وكان الأنصاري قد تولى أمرهم وألحقهم بأبنائه، فنظر القاضي بالدعوى وثبت لديه صحتها، فحكم بقتل ابن ددة قصاصاً وقبض عليه وشنق في السجن ثم علقت جثته في المناخة عام ١١٢٠هـ.

المدينة تشهد عزل الشريف:

وكما شهدت المدينة نهاية هذا الوزير الظالم، شهدت الأحداث التي أدت إلى نهاية إمارة الشريف عبد الكريم.

فقد فرض الشريف عبد الكريم على حجاج الأحساء ضريبة يؤدونها كما يؤديها القادمون من البلاد البعيدة، فضج أهل الإحساء من هذه الضريبة، واشتكى أميرهم إلى قائد العسكر التركي نصوح باشا، فأرسل نصوح باشا إلى الشريف عبد الكريم أن يسقط الضريبة، فانزعج الشريف ورأى في لهجة نصوح باشا الآمرة تدخلاً في شؤون الإمارة والحكم وتعدياً على منصبه، وكتب إليه يطلب منه ألا يتدخل في شؤون بلده، فغضب نصوح باشا وكان يؤدي مناسك الحج، ولما فرغ من حجه توجه إلى المدينة المنورة، وفي الطريق هاجم بعض بني حرب قافلته، فظن نصوح باشا أن الشريف عبد الكريم أمرهم بذلك، وكتب محضراً بالحادثة وطلب عزل الشريف عبد الكريم وتعيين الشريف سعيد بن سعد، ومهر المحضر بتوقيعات أعيان الحجاج الذين يرافقونه في القافلة، فلما وصل إلى المدينة أرسل المحضر إلى الآستانة، وبعد عدة أشهر جاء البريد إلى نصوح باشا يحمل موافقة الآستانة على

١) السابق نفسه.

اقتراحه بعزل الشريف عبد الكريم وتعيين الشريف سعيد، فسارع نصوح باشا بإعلان مراسيم دار الخلافة، وأطلق المنادي في شوارع المدينة ينادي أن الأمير الجديد للحجاز هو الشريف سعيد، وأرسل كتاباً بذلك إلى قاضي مكة والقائد العسكري في جدة لإنفاذ الأمر، وأرسل إلى الشريف سعيد يخبره ويهنئه ويحثه على المسارعة إلى مكة وتسلم الإمارة، فأخذ الشريف سعيد برأي نصوح باشا وتوجه بجموعه إلى مكة، واستعد الشريف عبد الكريم برجاله للقتال، وكادت أن تحدث معركة كبيرة لولا أن تدخل بعض المصلحين وأصلحوا بين الشريفين، وانتهى الأمر بخروج الشريف عبد الكريم من مكة ليقيم في وادي فاطمة وتولي الشريف سعيد بن سعد.

صراع العسكر في المدينة:

كانت المدينة منطقة الأحداث التي عصفت بإمارة الشريف عبد الكريم، لكنها لم تكن ميداناً لتلك الأحداث، وظلت محافظة على هدوئها في حياتها اليومية في السنوات العشر التالية، لايعكر هذا الهدوء سوى أخبار قطع الطريق على بعض القوافل والمسافرين، والخلافات التي تنشب بين فرق العساكر في المدينة المنورة. فكان الصراع على النفوذ أو تدخل طرف في أمر من الأمور ومعارضة طرف آخر مدعاة لهذه الخلافات، وكانت هذه الخلافات تحل بالتفاهم بين الرؤساء غالباً أو بمساعي المصلحين كالقاضي وشيخ الحرم وأعيان المدينة الآخرين، وقلما تتفاقم وتتحول إلى صدامات مريعة بين العساكر.

وفي عام ١١٢٧هـ وقعت خلافات شديدة بين عساكر القلعة وعساكر من الفرق الأخرى، فهاجم عساكر الفرق الأخرى القلعة وحاصروها، وكان نائب القاضي متحيزاً لعساكر القلعة فحوصر معهم داخل القلعة، واستمر الحصار ثلاثة عشر يوماً وحدثت مناوشات بين الطرفين وسقط عدد من الجرحى، ثم اقتحم المهاجمون القلعة وأخرجوا العساكر المعتصمين وسجنوهم، وفوجئوا

بنائب القاضي معهم فرفعوا أمره إلى دار الخلافة، فورد الأمر بعزله ومصادرة أمواله وإخراجه من المدينة(١).

وقد تأذى أهل المدينة من هذه الصراعات التي كانت تنشب بين العساكر ولكنها حتى هذا الوقت كانت صراعات محدودة لم يتدخل فيها إلا بعض كبار الموظفين، وكان الأذى الحاصل منها ينحصر في موجة من القلق والاضطراب التي تنتشر مع أخبار الصراع، ولم تكن هناك إصابات بين السكان على نحو ما سيحدث فيما بعد.

ولم تكن مشكلات العساكر مقصورة على السكان داخل المدينة، بل كانت تمتد خارجها أحياناً، فتقع مصادمات بينهم وبين بعض أفخاذ القبائل، كما أن تصديهم للمغيرين من قبائل حرب يترك في نفوس تلك القبائل ثارات عليهم، وينشئ سبباً جديداً لمهاجمتهم المدينة. وقد حدث في عام ١١٣٢هـ أن هاجم جنود من فرقة (الإسباهية) الخيالة مجموعة من العربان ينتمون إلى الحنانية -وهي فرع من فروع قبيلة حرب- وقتلوا أفراداً منهم، فعزم الحنانيون على الثأر من الإسباهية لاعتقادهم أنهم هوجموا دون مسوغ، فباغتوا المدينة المنورة في إحدى ليالي ذلك العام واستطاعوا أن يتسلقوا السور ويفاجئوا الحراس ويصيبوا عدداً من جنود الإسباهية ويأسروا عدداً آخر ممن وجدوه في المنطقة، فحملوهم وخرجوا بهم إلى البر(٢).

جماعة العهد:

إزاء هذه الأحوال المضطربة في المدينة المنورة، وصراعات مراكز القوى المختلفة ومعظمها أصلاً من خارج المدينة، كالفرق العسكرية الأربعة: (القلعجية والنوبتجانية والإسباهية والإنكشارية)، وكشيخ الحرم ونائب الأمير أو وزيره، أحس عدد من أهل المدينة بالضيق الشديد وقرروا أن يفعلوا شيئاً

---

١) السابق ٦٧ـ٦٨.

٢) السابق ٤٥٢.

يجنبون به أهل المدينة آثار الصراعات وضعف الإدارة، فتداعوا إلى الاجتماع ومناقشة الأمور، واجتمعوا في بيت واحد من أعيان المدينة، واتفقوا على أن يكونوا يداً واحدة ضد الانحراف والفساد وأن ينصروا الحق بأيديهم وأموالهم وسيوفهم، وتعاهدوا على ذلك، واختاروا واحداً منهم ليكون رئيساً للمجموعة هو السيد محمد بن علي بن أبي العزم العادلي، وتعاهدوا على الالتزام بما اتفقوا عليه، وقد سمي هؤلاء بجماعة العهد، وكان فيهم رجال ينتمون إلى عدد من عائلات المدينة البارزة، وفيهم من عمل في الفرق العسكرية.

ويمثل هذا التجمع ردة فعل طبيعية لتردي الأحوال والفساد الإداري وضعف قوة الدولة أمام مراكز النفوذ المتعددة. كما أنه يمثل درجة عالية من الوعي في أهل المدينة ومن الإحساس بضرورة تدخلهم في الأحوال التي يصنعها الآخرون ولا يجنون منها إلا القلق. وكان من الممكن أن تتحول هذه الجماعة إلى قوة مراقبة وتصحيح تحجم نفوذ القوى الأخرى أو تستوعبها وتفرض نفسها حتى على الدولة العثمانية، لأن الدولة العثمانية كانت تأخذ في كثير من الأحيان بمنطق الأمر الواقع، وتقر الذين يتغلبون بالقوة في المراكز التي استولوا عليها وكان من الممكن أن تغير هذه الجماعة صفحات كثيرة في تاريخ المدينة لولا أن أجهضت في أول مواجهة لها مع الأحداث، وكان من سوء حظها أن تكون تلك المواجهة في فتنة الأغوات فيبتلعها تيار الصراعات والدسائس.

فتنة الأغوات:

رغم وجود نائب عن أمير الحجاز في المدينة المنورة يحمل لقب وزير، فإن الإدارة فيها كانت ضعيفة أدت إلى ظهور قوى أخرى تصنع الأحداث والفتن، وتؤثر في حياة أهل المدينة في ذلك الوقت، وكانت أول قوة تظهر هي قوة الفرق العسكرية التي قدمت بعد دخول الحجاز في سلطة الدولة العثمانية، وقد ازداد نفوذ هذه الفرق تدريجياً وأدى إلى صراعات بينها وبين نائب الأمير أحياناً، وبينها وبين بعضها بعضاً أحياناً أخرى.

وما لبث أن برز نفوذ آخر لأصحاب الوظائف الكبرى، شيخ الحرم والقاضي والمفتي، وهؤلاء يعينون من قبل دار الخلافة مباشرة، ويعد شيخ الحرم أقوى هؤلاء نفوذاً، يؤخذ برأيه، وتنفذ طلباته في كثير من الحالات.

ويتبع شيخ الحرم جميع العاملين في الحرم وفي مقدمتهم الأغوات. والأغوات هم خدام المسجد النبوي والقائمون على شؤونه، ولهم نظام دقيق وتاريخ طويل يرجع إلى أيام نور الدين زنكي وصلاح الدين الأيوبي، وقد تطور وضع الأغوات بعد دخول الحجاز في سلطة الدولة العثمانية، وصار شيخهم يعين من قبل الدولة العثمانية مباشرة، وبلغ عددهم ثمانين شخصاً منقسمين إلى قسمين: أغوات أصلاء وعددهم أربعون، وأغوات احتياطيون يحلون محل من يتوفى من الأصلاء وعددهم أربعون أيضاً، وكان الناس في المدينة يجلونهم لقيامهم على شؤون المسجد النبوي ولاستغراقهم في العبادة وسلوكهم الحسن. غير أن تدخل الدولة العثمانية في تعيين بعض الأغوات وما تفعله الوساطات والرشوة قد أدخل إلى صفوف الأغوات بعض الأفراد الذين ليسوا في المستوى المطلوب لهذا العمل، فظهرت بعض الانحرافات والتصرفات السيئة ويذكر بعض المؤرخين أنه في عام ١١١٨هـ سرق ثلاثة من الأغوات تحفة ثمينة من التحف المهداة إلى الحجرة النبوية، وهي كرة ذهبية على شكل شمامة مرصعة بالجواهر ومحشوة بالعنبر، أهداها أحد سلاطين العجم

للمسجد النبوي كي توضع في الحجرة النبوية، وقد كسروها وبدؤوا يبيعون أجزاءها الذهبية، فكشف أمرهم وعوقبوا وعزل شيخ الحرم(١).

وتطور وضع الأغوات سلبياً في هذا القرن بسبب ضعف الإدارة واضطراب الأمور في المدينة المنورة ودخول بعض من لاتتوافر فيهم الشروط اللازمة في سلك الأغوات، فخرج بعضهم عن مهمتهم الأصلية، وأخذوا يتدخلون في الشؤون العامة في المدينة المنورة، وصار لهم أتباع ووساطات ومداخلات. وقد أحدث تدخلهم في الشؤون العامة امتعاضاً عند الكثيرين من أهل المدينة، فصورة الأغوات ترتبط في النفوس بالزهد والتقوى والعبادة وسدانة المسجد النبوي، وأدى هذا الشعور إلى وقوف معظم أهل المدينة ضدهم عندما اصطدموا مع عسكر القلعة عام ١١٣٤هـ وحدث ما سمي فيما بعد فتنة الأغوات.

أحداث الفتنة:

تتلخص أحداث فتنة الأغوات في أن رجلا من أتباع الأغوات يدعى علي قنا كان يعمل في حامية القلعة، ففصل من عمله بسبب بعض تصرفاته، وحاول بعض الأغوات التوسط له وإعادته إلى عمله، فرفض قائد حامية القلعة إعادته بحجة أن نظام الحامية يمنع إعادة المفصولين من الخدمة، فغضب الأغوات وعدوا رفض قائد الحامية إهانة لهم واستهتاراً بقيمتهم الاجتماعية، وأغلظوا القول له، فاشتد الخلاف بين الأغوات وعسكر القلعة وتحول إلى خصومة جماعية، وأخذ الأغوات يؤلبون الناس على حامية القلعة ويستنصرونهم عليهم. ورد قائد الحامية وعساكره على تصرفات الأغوات بالمثل فتحدثوا عن أخطاء الأغوات وتدخلاتهم في الشؤون العامة. وبدأت الفتنة تتسع وتتعدى العسكر والأغوات إلى مناصريهما، وأراد قاضي المدينة أن يتوسط للصلح بين الطرفين، فأرسل إليهما للحضور عنده في مجلس القضاء، فرفض الأغوات

---

١) انظر الأخبار الغريبة ص ٥.

حضور المجلس لأنه لاتوجد دعوى ضدهم ولا يرون أنفسهم مخطئين، وكرر القاضي دعوتهم فخافوا أن يقبض عليهم أو يتطاول عليهم العسكر، فعدهم القاضي عصاة خارجين على الشرع، وتحصن الأغوات بالمسجد النبوي وأغلقوا أبوابه وصعدوا إلى مناراته، واستعدوا بالأسلحة لمواجهة من يهاجمهم.

وهنا برز جماعة العهد، فقد رأوا في تصرفات الأغوات خطأ فاحشاً، لأنهم امتنعوا عن الامتثال لأمر القاضي، وعطلوا الصلاة بالمسجد النبوي، ورأوا أن واجبهم أن يصححوا الخطأ ويتصدوا للمخطئين، وازدادت حماستهم لذلك عندما أصدر القاضي أمراً بإنهاء اعتصامهم في المسجد النبوي وإخراجهم منه ولو أدى الأمر إلى قتالهم فيه، فذهبوا مع جماعة من العسكر وحاصروا الأغوات بالمسجد، وتبادل الفريقان إطلاق النار بالبنادق، وحصلت مصادمات بينهم وبين أتباع الأغوات وأنصارهم في أماكن متفرقة من المدينة، وسقط بعض القتلى والجرحى، وقتل رجل من جماعة العهد اسمه أحمد بن سفر بن أمين قتله أنصار الأغوات عند جبل سلع(١) وظل التراشق والقتال إلى مساء ذلك اليوم، وأدرك الأغوات أن الدائرة ستدور عليهم فطلبوا الأمان مقابل إنهاء اعتصامهم، فأبى محاصروهم إعطاءهم الأمان إلا إذا قبلوا المثول للمحاكمة، واتفقوا أخيراً على أن تكون المحاكمة عند الشريف مبارك بن أحمد أمير مكة و الحجاز، وتقدم ستة من الأغوات نيابة عن بقية الأغوات وسلموا أنفسهم للحامية، وكانوا هم رؤساءهم ومحرضيهم على الاعتصام.

وسافر قائد الحامية ومجموعة من ضباطه وجنوده وقاضي المدينة والمفتي وأفراد من جماعة العهد وستة الأغوات المعتقلين إلى مكة، وعقد الشريف مبارك بن أحمد جلسة للقضاء حضرها قاضي مكة ومفتيها وعدد من الشرفاء والأعيان، وأدلى كل فريق من المتخاصمين بأقواله، فأدان المجلس جماعة الأغوات وحكم بعزل رؤساء الفتنة وسجن بعضهم ونفي بعضهم الآخر،

---

١) تحفة المحبين ٢٨٤.

وأمر الشريف مبارك بإنفاذ الحكم، فنفذ على الفور، وأرسل محضر بذلك إلى دار الخلافة.

انتقام الأغوات:

غير أن الفتنة لم تنته فصولها، فقد ذهب المنفيون إلى دار الخلافة وتبعهم بعض الأغوات الذين لهم صلات وصداقات في الآستانة، واتصلوا بكبار المسؤولين وطرحوا القضية من وجهة نظرهم هم، وصب الأغوات جام غضبهم على جماعة العهد، وعدوهم المسؤولين الرئيسيين عما أصابهم من إهانات. واستطاعوا أن يقنعوا المسؤولين بالآستانة بخطورة هذه الجماعة.

وطبيعي أن يتحسس المسؤولون في الآستانة من قيام أي تنظيم يشكل قوة تنافس أو توازي قوة السلطة، غير أن هؤلاء المسؤولين تصرفوا كما كانوا يتصرفون في كثير من أمور الولايات البعيدة، وتقبلوا أقوال الأغوات ووسطاءهم على أنها حقائق مسلمة، ولم يكلفوا أنفسهم التحقيق في الأمر، ورغم وجود رسالة الشريف مبارك بن أحمد بالقضية فإنهم اقتنعوا آخر الأمر بوجهة نظر الأغوات وأصدروا أوامر قاسية ضد جماعة العهد، منها قتل النشيطين فيهم: رئيسهم محمد العادلي وعبد الكريم البرزنجي وابنه حسن ومحمد بن أحمد الدلال، ونفي عدد آخر منهم عبد الكريم حيدر ومحمد تقي البكري ومحمود أحمد السندي، وإلغاء الأحكام الصادرة بحق الأغوات الستة وإعادتهم إلى مناصبهم.

وقد استغرقت جهود الأغوات عدة شهور حتى استصدروا هذه المراسيم، فوصلت الأوامر إلى شريف مكة ثم نائبة في المدينة في أوائل عام ١١٣٦هـ. فقبض على عبد الكريم البرزنجي وعبد الكريم حيدر، وهرب كل من محمد الدلال ومحمود أحمد السندي وحسن بن عبد الكريم البرزنجي، وسبق قدر محمد العادلي رئيس جماعة العهد المراسيم فستره الله عز وجل بالموت، وأرسل عبد الكريم حيدر إلى الآستانة وسيق عبد الكريم البرزنجي إلى جدة

حيث سجنه القائد العسكري التركي باكير باشا مدة من الوقت ثم أخرجه ليشنق قرب سوق جدة وتطرح جثته إلى آخر النهار.

وقد روع أهل جدة بهذا العمل القاسي، وكانت قد انتشرت بينهم أخبار القضية كلها، فذهب بعض أهل جدة إلى باكير باشا ورجوه أن يأذن بدفن الجثة فأذن لهم، وكانت مشاعر أهل جدة متعاطفة معه إلى أبعد حد، فسمي الحي الذي شنق فيه: حارة المظلوم، وما زال يحمل هذا الاسم حتى اليوم.

ولا شك أن المدينة قد تجرعت مرارة كبيرة بهذه النهاية التعيسة لجماعة العهد، ولهذا الخطأ الكبير الذي وقع فيه المسؤولون في الآستانة، والذي يتكرر ويتكرر، وهو إصدار الأحكام بناء على تقارير أو آراء من طرف واحد(١).

فتن متوالية:

لم تتحسن الأحوال في المدينة المنورة بعد القضاء على جماعة العهد، ورغم الإحساس بقوة الدولة وإمكان بطشها من خلال تلك الأحكام التي كانت تصدرها بناء على التقارير التي تصلها دون أن تتثبت من صحتها، فإن القلاقل والفتن مافتئت تظهر بين الحين والآخر وكان في مقدمتها الفتن التي تنشب بين الفرق العسكرية ذاتها، وأحياناً داخل الفرقة الواحدة، بين الجنود والقادة، إما لسوء المعاملة، أو لغبنهم بعض الحقوق، غير أن الفتن التي تنشأ بين الفرق العسكرية هي الأظهر وهي التي ستؤثر على الأحداث في السنوات التالية.

ولم تكن هذه الفتن تؤدي إلى قتلى دائماً، وبخاصة عندما يتدخل كبار الموظفين كالمفتي والقاضي وشيخ الحرم، ولكنها تحدث أزمات واضطراباً في الأمن وخوفاً عند الناس وقد تغلق الدكاكين أبوابها، ويشير الأنصاري إلى أن

---

١) الأخبار الغريبة ص ٦ـ١٠ وتحفة المحبين صفحات ٩١، ١٠٧، ٢٣٧، ٢٨٤، ٣٥٨، ٤٤٩ وتاريخ مكة ٤١٦ـ ٤١٧.

الفتن قد كثرت بين العساكر عام ١١٤٨هـ، وتركت ضغائن في النفوس وثارات نفذت فيما بعد، كما أن بنو علي عادوا للظهور ثانية، واصطدموا مع عساكر القلعة ومع بعض أهل المدينة في منتصف القرن الثاني عشر، وتسببوا في فتنة كبيرة عام ١١٥٤هـ، وقد هاجموا المدينة وتصدى لهم عساكر القلعة، وقاتلوهم عدة مرات وقتلوا عدداً منهم كما قتل بعض العساكر، ولم يحرزوا انتصارات تذكر، وقد تسلل بعضهم داخل المدينة وظفروا بقائد حامية القلعة عبد الرحمن بن عثمان الليبي وهو جالس في بستانه في السيح، وليس معه قوة تحميه فهجموا عليه وقتلوه، وهربوا، وكان بين قائد الحامية ومفتي المدينة عبد الله بن أسعد أفندي شيء من الخصومة، فاتهم عساكر القلعة المفتي بأنه وراء هذه الجريمة، وأنه ساعد بني علي على قتل قائد الحامية، وثار العساكر وتوجهوا إلى دار المفتي بالسلاح، واقتحموها وأطلقوا النار على من وجدوه فيها من الرجال، فقتلوا عدداً من عبيده، وعثروا على المفتي فأطلقوا النار عليه أيضاً وسقط المفتي يتضرج بدمائه، غير أنه لم يمت رغم إصابته بإحدى عشرة ضربة، فجاء أهله وحملوه وخرجوا به من المدينة إلى أبيار علي عند بعض أصدقائه، وظن عساكر القلعة أن المفتي قد مات، وظل المفتي يتعالج من جروحه أربعة أشهر حتى شفاه الله.

والمدهش ألا تحدث ردة فعل مباشرة على الهجوم على دار المفتي، وألا يتدخل نائب الأمير، وألا يحرك الأمير في مكة ساكناً -وكان الأمير هو الشريف مسعود بن سعيد- إزاء هذا الحدث الكبير، وربما أخذوا بما أشاعه العساكر من اتهام للمفتي فعدوا قتله ثورة غضب وانتقام لقتل قائد الحامية لا أكثر ولا أقل.

ظل أمر المفتي مكتوماً حتى تم شفاؤه، فعزم على السفر إلى الآستانة ليعرض أمره على الدولة ويطلب معاقبة عسكر القلعة، وعلم العسكر بذلك فبذلوا جهوداً كبيرة لاسترضائه، ووسطوا كبار الموظفين وأعيان المدينة حتى

أرضوه، وعفا عنهم وعاد إلى وظيفته.

وطبيعي أن هذه الحادثة تظهر غيبة السلطة الفعلية القادرة على ضبط الأمن ومعاقبة الجناة، سواء سلطة أمير مكة أو نوابه أو سلطة الدولة العثمانية ذاتها، وطبيعي أيضاً أن يجد بعض كبار الموظفين في هذه الظروف فرصة لتحقيق مكاسب شخصية، وأن يظهر الفساد والرشوة والاستيلاء على الأموال العامة وحقوق الناس بينهم، وأن يؤدي ذلك كله إلى فتن ومنازعات، وإلى ردة فعل قوية يقوم بها أهل المدينة وقد حدثت ردة الفعل هذه بين عامي ١١٥٥و ١١٥٦هـ وخلفت ضحايا عدة، وكان بدايتها ثورة شعبية عامة قادها رجل اسمه حسن كابوس.

ثورة حسن كابوس:

ينتمي حسن كابوس إلى أسرة مصرية الأصل، هاجرت إلى المدينة قبل أكثر من قرن، وولد حسن كابوس في المدينة ونشأ فيها، ثم انخرط في فرقة النوبتجاية وكانت له شخصية قوية ومؤثرة، فاستطاع أن يكون لنفسه مركزاً مرموقاً في الفرقة، رغم أنه جندي عادي فيها، وكان لحسن كابوس دكان قرب باب المصري يبيع فيها الحبوب خارج أوقات عمله الرسمي، وفي أواخر عام ١١٥٥هـ انتشر خبر في المدينة المنورة بأن كميات من الحبوب قد جاء بها عثمان بك لتوزع على أهل المدينة، فاستولى عليها كبار الموظفين ومنهم القادة العسكريون، وتصرفوا بها، واضطرب الناس وأخذوا يلغطون بالأمر ويوزعون الاتهامات على المفسدين الكبار، وكان حسن كابوس واحداً ممن اشتد بهم الغضب، فاستنهض زملاءه في الفرقة وعدداً من أهل المدينة وقاموا بثورة شعبية عارمة، وبدؤوا بأبواب المدينة فأغلقوها ووضعوا عليها حراساً منهم، ثم توجهت مجموعات صغيرة منهم إلى جهات متفرقة من المدينة، وتوجهت بقية الجموع إلى القلعة، حيث قادة الفرق العسكرية وعدد من كبار الموظفين، الذين لجؤوا إلى القلعة عندما سمعوا الاضطراب، وتزايدت الجموع

المحتشدة على أسوار القلعة، وأخذت تهدد باقتحامها، وظهرت الأسلحة وشرع حسن كابوس ورفاقه يخططون لاقتحام القلعة، ووجد المحصورون في القلعة أنه لاطاقة لهم بهذه الجموع الغاضبة، فبدؤوا يفاوضونهم، وأبدوا استعدادهم للتفاهم والإصلاح، فارتفعت أصوات الجموع المحتشدة تطالب بقتل المفسدين، وظهرت أصوات أقل تشدداً فطالبت بإخراجهم من المدينة، وقامت مجموعة صغيرة من أهل المدينة بالتوسط بين الطرفين وتم الاتفاق أول الأمر على إخراج ستة أشخاص من المدينة بينهم عمر زكي قائد حامية القلعة، ومصطفى (أودة باشي) قائد فرقة (النوبتجية)، ومحمد مراد قائد (الإسباهية) وثلاثة من كبار الموظفين، ولكن الجموع المحتشدة لم تكتف بهذا العدد، وراحت تتذكر أسماء المفسدين من كبار الموظفين وأتباعهم وأصروا على إخراجهم، فارتفع عدد المطرودين من المدينة إلى ثمانية عشر رجلا، وأذعن المحاصرون في القلعة لهذه الطلبات، وطلبوا كتابة حجة شرعية بذلك تضمن سلامتهم، وأخرجوا المبعدين من الباب الخارجي للمدينة، وكتب القاضي الحجة الشرعية وضمنها بناء على طلب الطرفين عهداً على المحافظة على الصلح، وعلى الإصلاح، والإعانة على تقوى الله وعدم الخيانه، وإعطاء كل ذي حق حقه، ووقع على الحجة كل من القاضي والمفتي وشيخ الحرم وجماعة من أهل القلعة والثائرين، وكانت هذه النتيجة أول انتصار لأهل المدينة على فئة كبار الموظفين، وقد أرسل شيخ الحرم صورة من هذه الحجة إلى الآستانة، وصورة أخرى إلى أمير الحجاز في مكة الشريف مسعود بن سعيد، فجاء المرسوم

من الآستانة بالموافقة على ماورد بالحجة(١).

نتائج متضاربة:

وكان من المتوقع لهذه الثورة الشعبية أن تؤتي نتائج كبيرة، منها إصلاح الأمور في الإدارات وفرق العساكر، وانتهاء الفساد والتسلط، واستتباب الأمن، ولكن الثورة مالبثت أن فقدت نتائجها وأدت إلى انتكاسة مريرة، فقد عزم أهل القلعة على الثأر مماحصل لهم والانتقام من رؤوس الثورة واستعادة سلطتهم وهيبتهم في نفوس الناس، فقرروا قتل محرك الثورة ضدهم وقائدها حسن كابوس، فقامت مجموعة من عساكر القلعة في شهر صفر عام ١١٥٦ بمباغتة حسن كابوس في دكانه وقتلوه وهربوا إلى القلعة، وانتشر الخبر في المدينة فاهتاج الناس وتجمعوا، وتنادوا إلى مهاجمة القلعة والانتقام لحسن كابوس، وتحصن أهل القلعة وراء أسوارها، وأشرعوا مدافعهم من فتحات الأبراج، وأطلقوا النار، فتراجع الناس وفكوا الحصار، ودفنوا حسن كابوس، وانصرفوا على مضض، ووقعت بعد ذلك صدامات محدودة بين الأهالي وعساكر القلعة، وسقط بعض الضحايا من الطرفين، فازداد سعار الفتنة.

نجدة خارجية لأهل المدينة:

وفي شهر جمادى الأولى عام ١١٦٥هـ استعان بعض أهالي المدينة بأقاربهم من خارج المدينة، فجاءتهم نجدة من قبيلة الجلوية الحربية بقيادة رجل يسمى الصالحي، وتسلقوا سور المدينة في ليلة الحادي والعشرين من جمادى الأولى في العتمة الأولى بين العشائين، ونزلوا داخل القلعة دون أن يشعر بهم الحراس فأغلقوا باب القلعة، وكان كثير من العساكر مايزالون خارج القلعة، ثم توجهوا إلى بيت القائد ونادوا عليه، فخرج إليهم فقتلوه، وخرج أخوه فقتلوه أيضاً وأحس ابنه بما يجري فخرج شاهراً سيفه وهاجمهم، واستطاع الوصول إلى الصالحي فقتله وتجمع عليه المهاجمون

---

١) انظر الأخبار الغربية ص ٢٥، وتحفة المحبين ص ٤١٢.

فقتلوه، ثم حملوا قائدهم الصالحي وخرجوا من القلعة قبل أن يصل إليهم العساكر.

غضب عساكر القلعة لمقتل القائد ومن معه، وهددوا بالانتقام من أهل المدينة إن لم يسلموهم القتلة، وحددوا أسماء خمسة أشخاص مطلوبين، وتحرك شيخ الحرم بسرعة، وأرسل خطاباً إلى دار الخلافة يعرفها بماحدث في المدينة، وخطاباً آخر إلى كل من الشريف مسعود أمير الحجاز بمكة، ووالي جدة العثماني، يستنجد بهما ورأى الشريف مسعود فيما يحدث في المدينة تمرداً على الدولة، وتهديداً للنظام، فجهز الشريف مسعود حملة عسكرية على وجه السرعة وأمر قائد الحملة أن ينفذ طلبات حامية القلعة، وأن يساعدهم في القبض على قتلة قائد الحامية، وطلب منه أن يستعين بشيخ الحرم في هذا الأمر فإن لم يستجب شيخ الحرم ويتعاون معهم فله سلطة التصرف ولو أدى الأمر إلى القبض على شيخ الحرم نفسه.

تحركت الحملة وكانت خفيفة قليلة العدد، وعندما وصلت إلى رابغ حطت رحالها لتستريح بعض الوقت، وفوجئت بهجوم مباغت شنته إحدى أفخاذ قبائل حرب بقيادة رئيسها الشيخ هزاع، وكان السفر قد أجهد الرجال، وأخذتهم المفاجأة فلم يدروا إلا والخيل تجول بينهم والسيوف تعمل فيهم، فسقط من سقط وهرب من هرب، وتشتت الحملة في سهل رابغ، وعادت إلى مكة واتهم الشريف مسعود شيخ الحرم بأنه وراء ماحدث لها، وأنه أوعز للشيخ هزاع الحربي بمهاجمتها، وأخذ يعد لمعاقبة الشيخ هزاع، ولكنه أدرك أن الأمر ليس سهلاً، فأفخاذ حرب الأخرى تعاضد الشيخ هزاع وستقف إلى جانبه، ومالبث فخذ آخر من حرب بقيادة الشيخ عيد الحربي أن وصل إلى المدينة لمعاضدة أهلها وشيخ الحرم ضد عسكر القلعة، ودخل المدينة، ثم وصل الشيخ هزاع ورجاله، وكان لدخولهم المدينة آثار على عدد من دكاكينها وبيوتها، وغدا رجال حرب على شيخ الحرم يؤيدونه ويهددون عساكر القلعة

إذا مابدرت منهم أية تصرفات، ولم يكن أهل القلعة قادرين على مواجهة هذه الأعداد المتوالية من القبائل والأعراب، وحدثت عدة حالات من النهب والسرقة والصدام مع بعض الأهالي وعساكر القلعة، فأفراد هذه المجموعات غير منضبطين في الغالب، لذلك اضطرب الأمن اضطراباً كبيراً، وخاف الناس على أموالهم وأرواحهم، وبدأت بعض العائلات تنزح عن المدينة.

حاول شريف مكة أن يتدارك الأمر قدر الإمكان، ولم تكن لديه القوة الكافية للتصدي للحربيين، لذلك قرر مصانعهتم والاتفاق معهم على هدنة لكسب الوقت، فأرسل بعض رجاله لشيوخ أفخاذ حرب وفاوضهم على إعطائهم بعض الأموال مقابل أن يكفو عن المدينة، وتم الاتفاق بين الطرفين، فتوقف تدفق الحربيين، ولكن عساكر القلعة لم يجرؤوا على معاودة تهديدهم لأهل المدينة وطلبهم خمسة الأنفار المتهمين بقتل قائد الحامية، واستمرت الهدنة حتى مجيء الركب الشامي، الذي تصحبه قوة عسكرية كبيرة، وكان الشريف مسعود قد كتب بما حدث إلى دار الخلافة وطلب عزل شيخ الحرم عبد الرحمن آغا الكبير، وكتب أهالي المدينة المنورة المتضررين شكاوى وعرائض بالاتفاق مع شيوخ حرب ضد حامية القلعة.

تغيير شيخ الحرم:

وفي ذي القعدة من العام نفسه ١١٥٦هـ وصل الركب الشامي ومعه مرسوم بعزل عبد الرحمن آغا الكبير شيخ الحرم وبإسناد المشيخة إلى نائبه عبد الرحمن آغا الصغير وبوصول الركب الشامي كفت أفخاذ حرب عن القدوم

إلى المدينة ذلك العام، وهدأت الأحوال بعد اضطراب دام أكثر من شهرين(١)، كان مرسوم تولية الشيخ عبد الرحمن آغا الصغير يمنحه سلطات واسعة، تساعده على ضبط الأمور. وحاول أهل القلعة أن يضغطوا على بعض الأهالي، وبخاصة الذين يظنون أنهم يشكلون قوة مواجهة وتحد لسلطتهم، ولكن شيخ الحرم الجديد وقف في وجههم، ورأى أن الأهالي بعد موجات الفتن وتهديد القبائل وماتعرضوا له من نهب وسلب ليست لهم قوة المقاومة، وأنهم الجانب الأضعف، لذلك منع العساكر من التعدي عليهم. وفي الوقت نفسه صادق بعض شيوخ حرب، ومنع الحملة المرافقة للركب الشامي من قتالهم، وكان شديداً حازماً استطاع منع الصدامات بين أهل القلعة والفرق العسكرية الأخرى والأهالي عدة سنين ولكن العساكر وعدداً من الأهالي ضجوا منه وأكثروا فيه الشكاوى فجاء المرسوم بعزله وتولية الشيخ أحمد آغا مكانه(٢).

سنوات من الاضطراب والفوضى:

بعد ذلك تفاقمت الخلافات بين فرق العسكر، وظهر صراع خفي بين أصحاب النفوذ العالي، وكثرت السعايات والشكاوى من بعضهم ضد بعضهم الآخر، وحدثت عدة حوادث اغتيال وقتل. ففي سنة ١١٧٢هـ اغتيل (كتخدا النوبتجياية) (مصطفى أوده باشي)، رماه جماعة برصاصة وهو راكب على ظهر فرسه فسقط ميتاً(٣) ولم يعرف القاتل فالخصوم كثيرون. منهم خصوم من الفرق العسكرية، وبخاصة حامية القلعة، ومنهم من أهل المدينة الذين تأذوا من قادة العسكر لتطاولهم أو لاستيلائهم على شيء من حقوقهم. وكانت آثار هذه الخصومات تمتد إلى دار الخلافة، حيث يسعى كل فريق ليمكن لنفسه عند كبار الموظفين في الآستانة، وليحصل له أو لجماعته على بعض الوظائف

---

١) انظر الأخبار الغربية ٢٥ وما بعد. تحفة المحبين ٤٤و ٤١٢.

٢) انظر تحفة المحبين ص ٥٢.

٣) السابق ٣٨.

أو يسعى بعزل من يتولى تلك الوظائف من خصومه.

ويحدثنا عبد الرحمن الأنصاري أن أخاه الشيخ يوسف الأنصاري رحل إلى استانبول عام ١١٧٧هـ وسعى لدى كبار الموظفين حتى حصل على منصب الإفتاء في المدينة المنورة وحمل مرسوماً بتعيينه وعاد إلى المدينة.. ولكن قبل أن يصلها استطاع خصومه أن يستصدروا مرسوماً بعزله وتعيين شيخ آخر محله.. وعلم بذلك الشيخ يوسف فلم يجرؤ على دخول المدينة وذهب إلى مكة وأقام فيها مدة، ثم عاد إلى المدينة ونزل في العوالي، وأرسل الشريف مساعد بن سعيد أمير الحجاز كتاباً بشأنه ليدخل المدينة وعليه الأمان. وأرسل إليه شيخ الحرم أحمد آغا (وكتخدا) القلعة محمد صالح الطيار كتاباً بهذا الأمان. فنزل الشيخ يوسف إلى المدينة ومعه ابنه محمد أبو الفرح وابن أخيه أحمد، فلما وصلوا إلى باب الصغير -وهو أحد أبواب سور المدينة- قبض عليهم عساكر القلعة واقتادوهم إلى القلعة وسجنوهم فيها، وعذبوهم عذاباً شديداً ثم قتلوهم في ليلة واحدة(١) ولم يذكر عبد الرحمن الأنصاري التهمة التي أخذ بها هؤلاء.. ولكن سياق الحادثة تدل على وجود خصومة شديدة بين محمد صالح الطيار (كتخدا) القلعة والشيخ يوسف الأنصاري فقتله وقتل معه ابنه وابن أخيه، ولم يبال بأوامر الشريف مساعد بمنحه الأمان.. والمدهش أن الشريف مساعد لم يتخذ أي إجراء ضد كتخدا القلعة الذي خرق أوامره وقتل ثلاثة أشخاص.. الأمر الذي يدل على سعة نفوذ (كتخدا) القلعة وعدم وجود سلطة للشريف عليه في المدينة.

وكان (الكتخدا) يتصرف في الشؤون الداخلية للمدينة كأنه الحاكم الفعلي لها.. فقد اشتكى بعض أهالي المدينة من أن رجلين فاسدين يصنعان الخمر في رباط الجوبانية -قرب باب الرحمة- ويتحرشان بالناس في الليل فلا تستطيع امرأة أو صبي أن يمر بذلك الموضع بعد المغرب فقبض عليهما قائد

---

١) السابق: ٢٣-٢٥.

القلعة وحبسهما ثم شنقهما سنة ١١٨١هـ دون أن يرجع إلى الشريف(١).

ولم يطل أمر هذا (الكتخدا)، ففي عام ١١٨٣هـ عينت الدولة العثمانية أحمد شاهين باشا والياً على المدينة، وكان شديداً حازماً، فاشتكى إليه آل الأنصاري وطالبوا القصاص لقتلاهم منه ومن عساكر القلعة، فحول الوالي القضية للقضاء، فحكم عليه القاضي بالقتل قصاصاً وبتغريم عساكر القلعة ديات المقتولين. فقتل (كتخدا) القلعة ودفع العساكر الديات(٢).

وقد استطاع شاهين باشا أن يوقف الصراع بين العساكر، ويوقف تعدياتهم على الآخرين، وضبط الأمن بحزم.. ولكن ولايته لم تطل فقد نقل إلى مدينة أخرى وخلفه وال آخر، وخلفه عثمان باشا، وتوفي بعد مدة وجيزة فعهدت الدولة إلى (كتخدا) القلعة أن يقوم مقام الوالي فعاد الاضطراب وظهرت الفتن من جديد.

ولم تقتصر الفتن هذه المرة على الصدام بين الفرق العسكرية.. بل حدثت فتن داخل الفرقة الواحدة.. الأمر الذي يظهر ضعف الانضباط وعدم وجود (ولي أمر) حازم. وكان من نتيجة الضعف ظهور المفسدين واللصوص ثانية. فكثرت السرقات أواخر عام ١١٨٦هـ وكثرت شكاوى الناس وقامت فرقة (النوبتجية) بمهمة الحراسة ليلاً، وكان الصراع بين بعض أفرادها وأفراد حامية القلعة يؤذن بتفجير فتنة جديدة.. ولكن الفتنة بدأت داخل فرقة (النوبتجية) ذاتها.

---

١) السابق ص ١١٥.

٢) السابق ص ٢٥.

فتنة داخل فرقة (النوبتجاية):

ففي ليلة ٢٤ من جمادى الآخرة عام ١١٨٦هـ(١) بينما كان جنود من فرقة (النوبتجاية) تقوم بالحراسة التقوا بمجموعة من رجال القلعة وكان أحدهم -ويدعى سلطان- في حالة سكر، ووقعت مشاجرة بين الطرفين انتهت إلى القتال. فقتل سلطان، وفر أفراد (النوبتجاية) إلى حارة الأغوات. وفي الصباح أمر شيخ الحرم باعتقال عدد من أفراد دورية (النوبتجاية)، وكتب إلى الشريف أحمد بن سعيد في مكة، وبعد أربعة أيام طلب عدد من فرقة (النوبتجاية) إطلاق سراح زملائهم إذ لم تثبت عليهم التهمة، ولكن شيخ الحرم رفض إطلاق سراحهم قبل أن يأتيه أمر شريف مكة وانقسم (النوبتجاية) قسمين: بعضهم يلح على إطلاق المسجونين وبعضهم الآخر ومنهم (جاويش النوبتجاية) رئيس الدورية يرى التريث.. وثار الفريق الأول واقتحموا السجن وأطلقوا سراح زملائهم.. ثم تحولت ثورتهم إلى عصيان وطلبوا عزل رئيس الدورية وتعيين شخص آخر مكانه، وعجز قائدهم عن تهدئتهم، ورفض شيخ الحرم الإذعان لطلب الثائرين أول الأمر، ثم نزل عند رغبتهم وعزل رئيس الدورية وشخصاً آخر معه.. وعين اثنين آخرين مكانهما.. ورفض الثائرون الشخصين المعينين أيضاً، فغضب شيخ الحرم و(كتخدا النوبتجاية) وقررا عدم تلبية أية مطالب للعصاة.. فتوجه هؤلاء إلى معسكرهم واستنفروا عداً من زملائهم وامتنعوا عن تنفيذ أوامر قادتهم. وغادر بعضهم إلى المدينة حيث انتشر فيها خبر العصيان فاضطرب الناس وخافوا من وقوع صدام بين العساكر يعود وباله على أهل المدينة.. وكتب شيخ الحرم إلى شريف مكة

---

١) وردت في المخطوط ١١٨٧هـ وهذا خطأ لأن المخطوط ذكر اسم الشريف أحمد أميراً على مكة عدة مرات وفي تاريخ مكة أن الشريف أحمد انتهت إمارته باستيلاء ابن أخيه على مكة في ١٣ ذي القعدة لذا فالتاريخ الصحيح هو ١١٨٦هـ.

ثانية.. فجاء الأمر بجمع أعيان أهل المدينة وحكامها في مجلس محلي يتخذ قراراً صارماً يلتزم به الجميع. واجتمع المجلس، وحضره قادة العساكر وكبار الموظفين وقضاة المدينة والمفتي وشيخ الحرم وأعيان أهل المدينة، وقرئ كتاب الشريف أحمد، وكان أهم مافيه أن يلتزم كل بعمله ومسؤولياته ولايتدخل في شؤون غيره، وأن ينضبط العساكر، وأن يقبض على رؤوس الفتنة ويرسلوا إلى مكة. ووافق الحاضرون على ماجاء في كتاب الشريف، باستثناء عساكر القلعة الذين رفضوا تسليم المتهمين بالاعتداء على (النوبتجاية). وكادت أن تقع الفتنة ويحدث صدام دموي لولا تدخل أحد الشرفاء الذي أصلح بين الفريقين، واتفقا على طي ما مضى والعفو عن الجرائم السابقة، وبدء صفحة جديدة وعدم تدخل أحد في شؤون غيره. وكتبت حجة شرعية بذلك وانفض المجلس على أن تعيش المدينة حياة آمنة هادئة.

صراع بين الفرق العسكرية:

نعمت المدينة بالهدوء لبعض الوقت.. إلى أن عادت مشكلات العساكر تقلقها وتصنع حكايات تتناقلها الأفواه بشيء من الضيق والترقب.. فقد عادت المشاحنات بين فرقة حامية القلعة وفرقة (النوبتجاية) وأصبح كل فريق يتربص بالآخر، ولم يسلم المدنيون من تجاوزات بعض الجنود، وأحس قائد القلعة (كتخدا) محمد فلبلي أن الأمور تتطور نحو الأسوأ، وأن الجنود يسيئون إلى الناس وإلى بعضهم بعضاً، وصار (كتخدا النوبتجاية) محمد (قمقمجي) خصمه اللدود، ورأى أنه وراء تحرشات رجاله أنه المسؤول عنها. وأشار عليه بعض الناصحين أن يتوجه إلى أمير مكة الجديد سرور بن مساعد، وهو شاب نشيط وذكي انتزع الإمارة من عمه أحمد بن سعيد واستطاع أن يوطد الأمن في أنحاء مكة، ويضرب على أيدي المفسدين، فكتب فلبلي رسالة مطولة إلى الشريف سرور بن مساعد، وسمى فيها عدداً ممن يعدهم رأس الفساد في المدينة، ومعظمهم من رجال (النوبتجاية). واستجاب

الشريف سرور لخطاب فلبلي، فكتب إلى شيخ الحرم وإلى (كتخدا) محمد قمقمجي أن يقبضا على مسببي الفتن والمفسدين ويرسلاهم إلى مكة ليحقق معهم ويعاقبهم..

وتنبه (كتخدا النوبتجية) محمد (قمقمجي) للأمر وأدرك أن وراء كتاب الشريف سرور خصمه (كتخدا) محمد فلبلي. فقرر أن يقابل كيداً بكيد، وبدلاً من أن يرسل المطلوبين سافر بنفسه إلى الشريف سرور، وحدثه طويلاً عن الأمور من وجهة نظره، واتهم عساكر القلعة وقائدها بالفساد وطلب أن يحاكم الجميع عند الشريف، ووضع نفسه تحت تصرفه..

تأثر الشريف سرور بن مساعد بما عرضه محمد قمقمجي، وأرسل يطلب (كتخدا) القلعة محمد فلبلي وبعض رجاله الذين سماهم القمقمجي للمحاكمة عنده..

وأدرك فلبلي أن خصمه القمقمجي قد شحن الشريف مساعد ضده، ورأى أن ذهابه إلى مكة قد يوقعه فريسة هينة لخصمه.. فأرسل يعتذر عن الحضور ويتعلل بتوعكه، وانتهز خصمه فرصة عدم حضوره واتهم به عند الشريف بأنه لو كان بريئاً لما تهرب من المواجهة. وسنحت فرصة أخرى للقمقمجي كي يتغلب على خصمه.. إذ وقعت مشاحنات بين عدد من جنود القلعة وعساكر (النوبتجاية) في المدينة انتهت بصدام دموي.

فقد قرر بعض عساكر القلعة أن يضربوا رؤوس الفتنة في (النوبتجاية) ليعود الصفاء بين الفريقين، وكانت مجموعة من عساكر القلعة أشبه بعصابة متماسكة يتحركون معاً ويشكلون قوة ترهب العساكر والمدنيين.. وكانوا يسهرون معاً وينزلون الفجر معاً.. فنصبوا لهم كميناً عند الفجر، وظفروا بأربعة منهم، فحملوا عليهم، وقتلوا ثلاثة منهم، وفر الرابع، وفي الصباح اجتمع رؤساء الفرق وشيخ الحرم وحكام المدينة واتفقوا جميعاً على أن المقتولين هم من المفسدين ولن يطالب أحد بدمائهم، وخافوا أن يستغل

(كتخدا النوبتجاية) محمد قمقمجي الحادثة عند الشريف فيطالب بالبطش ببعض العساكر أو الانتقام من أهل المدينة فطلبوا من شيخ الحرم أن يعزل القمقمجي ويعين شخصاً آخر مكانه، فوافق على طلبهم وعين -بناء على اختيارهم- أحمد مكي مكانه(١) وسرعان ماانتقل الخبر إلى مكة، وحدث ماتخوف منه أهل المدينة فقد استغل محمد قمقمجي الحادثة وأقنع الشريف سرور بأنه وفرقته مظلومون، وأن خصومه هم سبب اضطراب الأمن في المدينة.. وعندما بلغه خبر عزله وتعيين أحمد مكي محله استنصر الشريف سرور وطلب منه أن يعينه بقوة مسلحة ليعود إلى المدينة ويجتث (المفسدين) فاستجاب له الشريف سرور، وكلف مجموعة من رجاله على رأسهم وزيره إبراهيم آغا بالسفر مع محمد قمقمجي إلى المدينة لإعادته إلى منصبه والقبض على خصومه. وكتب إلى أحد مشايخ حرب أن يمده ببعض الرجال أيضاً.

القمقمجي يهاجم المدينة:

خرج محمد قمقمجي من مكة بمن معه فوصل إلى ظاهر المدينة في الحادي والعشرين من شعبان عام ١١٨٧هـ وبصحبته عدد كبير من الرجال.. وأنزلهم عند وادي قناة، وانتقل هو إلى العوالي والضواحي المنتشرة حول المدينة يستنصر أهلها ويغريهم بالمال والعطايا إذا أعانوه، فلم يستجب له إلا نفر ضئيل وعلم أهل المدينة بوصول القمقمجي فأرسلوا إليه يمنعونه دخول المدينة كيلا تثور الفتنة، ويهددونه إذا حاول دخولها بالقبض عليه ومعاقبته.. وتسلل أحد مرافقيه (حسين كوافي) إلى المدينة ونزل عند بعض أقاربه، والتقى بعدد من أبناء الحي الشرقي -بين المسجد النبوي والبقيع- وأعطاهم بعض المال مقابل الانحياز إليهم إذا دخلوا المدينة، فوعدوه بذلك، ومكث عندهم ثلاث ليال إلى أن استوثق من مساعدتهم فخرج إلى زملائه، وانطلق عدد آخر من رجال القمقمجي إلى سد بطحان ففتحوا ثغرة كبيرة فيه

---

١) الأخبار الغريبة ص ٥٧.

ليشغلوا أهل المدينة بالمياه المتدفقة عن مواجهتهم، وأشعلوا النار في أحد أبواب السور من جهة البقيع -باب درب الجنائز- ليسهل عيهم اقتحامه فيما بعد، وبعد تسعة أيام قرروا اقتحام المدينة والقبض على (كتخدا فلبلي) وأعوانه، فانطلقوا ليلة التاسع والعشرين من شعبان إلى جهة البقيع، وكمنوا عنده حتى فتح أحد الحراس الباب بعد الفجر، فهجموا عليه، فهرب منهم، وخرج شيخ الحرم خارجاً من المسجد ومعه أحمد مكي، فهاجموا المكي، فهرب مكي إلى شيخ الأغوات واحتمى به، فانطلق القمقجي ورجاله إلى المسجد النبوي واحتلوه وأغلقوا أبوابه إلا باباً يدخلون منه وارتقوا المنارات وأطلقوا منها البنادق، وتوزع عدد منهم في الشوارع المحيطة بالمسجد النبوي والسوق ووصلوا إلى ساحة المناخة وباب المصري قرب القلعة، وفوجئ أهل المدينة بهذا الاحتلال وذعروا بما صاحبه من إطلاق البنادق والأصوات فلاذوا ببيوتهم، وأدرك عساكر القلعة مايجري فاندفعوا ليواجهوا المهاجمين، وحصل قتال في المناخة وعند باب المصري، وهزم القمقجي ورجاله، وعادوا إلى معسكرهم عند وادي قناة(١) انتقل القمقجي ورجاله بعد ذلك إلى ضاحية المدينة الجنوبية عند العوالي وحصلت بينهم وبين عساكر القلعة عدة مناوشات على مدى الأشهر الثلاثة التالية، ولم يستطيعوا أن يظفروا بشيء فقد شدد رجال (فلبلي) الحراسة على أبواب المدينة وراقبوا تحركات خصومهم ولم يمكنوهم من مباغتتهم، وحصدت المدينة خلال الأشهر الثلاثة القلق والضيق، ولكن لم يقع بينهم قتلى فقد آثروا ألا يتدخلوا بين المتصارعين على المنصب.

وفي ذي القعدة من ذلك العام وصل الركب الشامي بقيادة محمد باشا العظم ونزل في منطقة الجرف شمالي المدينة، وخرج أهل المدينة -كالعادة- لاستقباله وشكوا إليه مايلاقونه من صراع العساكر، وسارع محمد قمقمجي

---

١) انظر الأخبار الغريبة ص ٦١.

للقائه وعرض الأمر عليه من وجهة نظره وبين له أنه (الكتخدا) القديم صاحب الحق الشرعي في منصبه وأن عزله غير شرعي وأن الشريف سرور يؤيده، ثم جاء خلفه أحمد مكي وبين له أن شيخ الحرم قد عينه لما ظهر من سلفه من فساد، وكان محمد باشا العظم أمير الركب الشامي مخولاً بحل مشكلات المدينة ومكة ويملك سلطة التعيين والعزل لأي موظف بما في ذلك الأمير نفسه، وعلم الباشا بميل الأمير إلى محمد قمقمجي، فقرر إعادته إلى منصبه وعزل أحمد مكي والتحفظ عليه واصطحابه إلى مكة منعاً من تجدد الفتنة والصدام، ففرح القمقمجي ورجاله ودخلوا المدينة ظافرين، وعندما وصل الركب الشامي إلى مكة صحب معه أحمد مكي فأنزله أمير مكة في بعض دوره ومنعه من مغادرة مكة.

ولم يكن تصرف محمد باشا العظم أمير الركب الشامي حكيماً، إذ أنه لم ينه الفتنة بل وضع عليها شيئاً من الحطب المبلل، ما إن يجف حتى يشتعل، وأدرك شيخ الحرم بفراسته أن الفتنة لابد أن تعود وأن الأمر لايصلح مع وجود القمقمجي في قيادة (النوبتجاية)، فكتب رسالة طويلة إلى دار الخلافة شرح فيها ماحدث في المدينة وطلب من الباب العالي إبطال مافعله محمد باشا العظم وإعادة أحمد مكي إلى منصبه، وأرسل الرسالة مع مفتي المدينة تاج الدين إلياس، فسافر إلياس مع الركب الشامي العائد إلى بلاده في نهاية موسم الحج لعام ١١٨٨هـ.

أما محمد قمقمجي فقد تصرف بذكاء أول الأمر فلم ينتقم من أحد، ولم يتعرض لرجال أحمد مكي، ونعمت المدينة بالهدوء الكامل عدة أشهر، ثم بدأ رجاله يتعرضون لرجال أحمد مكي ويسخرون منهم، ومالبث شريف مكة أن أطلق سراح أحمد مكي وسمح له بالعودة إلى المدينة شريطة أن يلتزم بيته والمسجد ولا يتدخل في شيء من أمور العساكر أو الوظائف، وجاء أحمد مكي إلى المدينة، والتزم بما عاهد الأمير عليه، وفرح أنصاره أول الأمر

بعودته ولكن فرحتهم تحولت إلى مرارة عندما أخذ رجال (القمقمجي) يتحرشون بهم فيمنعهم أحمد مكي من الرد عليهم ويرفض أن يتدخل في شيء أو حتى أن يشكوهم إلى الشريف، وتفاقم الأمر، وتناقل الناس في المدينة أخبار الفريقين، فعادت مشاعر الخوف والترقب إلى الصدور، وجعلت أهل المدينة يتوقعون الصدام بينهما في أية لحظة، ومن المفارقات الكبيرة أن تنمو هذه المشاعر، وتكون السبب المباشر في حادثة مؤلمة تشهدها المدينة، فيتحقق حدس شيخ الحرم بعد سفر المفتي إلى استنبول بأقل من شهرين، فقد حدثت مصادمة محدودة بين الفريقين ليلة السابع عشر من صفر عام ١١٨٩هـ وفض النزاع دون سقوط قتلى، ولكن الصراع تجدد وأصبح أنصار أحمد مكي لايسكتون على إهانات رجال (القمقمجي) ويردون الصاع صاعين، فتهيأت الأمور للانفجار.

تفجر الصراع في المدينة:

ولم يطل موعد الانفجار، فقد حدث بعد شهرين تماماً من تلك المصادمة وكان سببه المباشر كل مايدور في الصدور من ترقب وحذر وتوقع للشر..

كان يوم جمعة.. وتقاطر الناس إلى المسجد النبوي لأداء صلاة الجمعة ولتجنب الصدام والمشاكل كان رجال حامية القلعة وأنصار أحمد مكي يجلسون في الجزء الغربي من المسجد بين باب السلام وباب الرحمة، فيما كان رجال القمقمجي يجلسون في الجزء الشرقي منه، ولما أتم الخطيب خطبته وبدأ الناس يقومون للصلاة صرخ رجل به لوثة صرخة عظيمة أفزعت كل من سمعها.. فظن كل من جماعة أحمد مكي وجماعة القمقمجي أن خصومهم قد هجموا عليهم فسارع أحد رجال القمقمجي واسمه (عذيب قبيطي) إلى سلاحه الناري (الطبنجة) وأطلق حشوتها في الهواء داخل المسجد. فاهتاج الناس وتيقنوا أن الصدام المتوقع قد بدأ واندفع الجميع بحركة عشوائية نحو الأبواب وكان أغوات الحرم أولهم فسارع بعضهم إلى خزاناتهم في دكة الأغوات وأخرجوا منها أسلحة وقام بعضهم الآخر إلى باب السلام فأغلقوه..

واضطربت الصفوف وارتفعت الأصوات بصيحات مبهمة بعضها يكبر وبعضها يستنهض وبعضها يستنجد وبعضها يخوف بالله.. واختلطت الأصوات وازدحمت الأجساد وتلاطمت. وبلغ الزحام ذروته عند باب الرحمة الذي لم يستطع الأغوات إغلاقه وكان إغلاقهم باب السلام خطأ كبيراً. وتعاصر المندفعون عند الباب وسقط بعض الضعفاء على الأرض فداسته الأقدام، وضاعت صرخات الاستغاثة وسط الهيجان المتزايد. وازداد عدد الذين يسقطون على الأرض قرب باب الرحمة. وأحس جماعة أحمد مكي بضيق عظيم. وهجم بعضهم على باب السلام وأبعدوا الأغوات الذين يقفون دونه وكسروا مغاليقه وفتحوه. فاندفع قسم آخر من الناس نحوه. وتكرر ماحدث

في باب الرحمة عند باب السلام، واشتد الزحام وضاقت الأنفاس وسقط آخرون تحت الأقدام.

وانتشرت الأجساد في الجزء الغربي من المسجد النبوي وعلى باب الرحمة وباب السلام وصار بعضها عائقاً يتعثر به المتدافقون فيسقط فوقها عدد آخر. لترتفع قائمة الضحايا. وضاقت الأنفاس وسقط في الزحام من سقط..

حدث ذلك كله بسرعة مذهلة. وداست أقدام المتزاحمين من سقطوا. وخرج من نجا مذعوراً لايصدق ما حدث، حتى إذا خف الزحام. وتمالك من بقي في المسجد رباط جأشه أسرعوا إلى الأجساد الممددة على الأرض يدركون من بقيت فيه أنفاسه. حتى إذا ماانتهوا من رفعهم ونقلهم إلى ساحة المسجد.. عمدوا إلى الأجساد الهامدة. فنقلوها.. وكانوا بضعاً وثلاثين جثة.

لم تنته الحادثة عند هذه النتيجة المأسوية. بل بدأت بصعود هذه الأرواح الطاهرة إلى ربها. ومالبثت أن استجرت ضحايا آخرين. فقد خرج رجال أحمد مكي موقنين بأن خصومهم قد غدروا بهم في البقعة الطاهرة واستغلوا كونهم عزلا من السلاح. فأسرعوا إلى بيوتهم هائجين.. وشهدوا سقوط بعض إخوانهم في الزحام فحملوا أسلحتهم وتقاطروا إلى المسجد النبوي ليكيلوا لخصومهم الصاع صاعين. وانتصر لهم بعض رجال القلعة و(الإسباهية) الذين خسروا عدداً من الضحايا في الزحام أيضاً فحملوا أسلحتهم وجاؤوا يناصرونهم.

وتوقع رجال القمقمجي عودة خصومهم فاستعدوا لهم وصعدوا إلى منائر المسجد النبوي وسطحه وتترسوا به..

وما هو إلا قليل حتى اشتعلت المنطقة المحيطة بالمسجد بالحرب، وأخذت الأسلحة النارية تطلق حشواتها في الاتجاهين المتقابلين. ويسقط البارود المشتعل وقطع الرصاص على سطح المسجد والمنارات والساحة.

وتصيب بعض (البنادق) عدداً من المتراشقين وتعلو الصرخات وتختلط بأصوات التهديد والوعيد. وزحف رجال مكي ومناصروهم نحو المسجد لإسكات نيران المعتصمين على سطحه ومناراته ولطردهم واحتلوا المباني المطلة على المسجد النبوي مبنى المحكمة السلطانية ومبنى المدرسة الكائنة برباط السلطان. وسقط عدد من القتلى والجرحى من المباني والمنائر وسطح المسجد. منهم (الجاويش) علي ملكي أحد قادة (النوبتجاية) وكان في صفوف جماعة أحمد مكي.. وطال التراشق (بالبنادق والطبنجات). وتدخل شيخ الحرم والأغوات. وأخذوا ينادون الفريقين أن يتقوا الله ويراعوا حرمة مسجد رسول الله ﷺ. واستطاعوا بعد جهود مضنية أن يوقفوا التراشق الناري، ويقنعوا الفريقين بالانسحاب. فانسحب كل منهما على حذر وترقب. وأخذوا معهم قتلاهم، وجرحاهم، وباتت المدينة على جرحيها النازفين: ضحايا الزحام. وضحايا التراشق بالنار.. وباتت أيضاً على وجل أن يعود الصدام مرة أخرى. ولئن فعل توقع الصدام مافعله في المسجد إثر صيحة ذلك المجنون فربما يفعل أضعاف ذلك بعد سقوط الضحايا وامتلاء النفوس بالحزن والغضب وتحميل كل فريق الآخر مسؤولية ما وقع(١).

وفي اليوم التالي كادت أن تتكرر المأساة لولا حكمة شيخ الحرم وجهوده الكبيرة، فقد طاف على عدد من أعيان المدينة الذين لاينتمون إلى الفريقين المتخاصمين وعلى قادة العسكر. وكل من أحمد مكي والقمقمجي وأسر الضحايا. واجتهدوا في تهدئة النفوس واستطاعوا. غير أنهم لم يستطيعوا أن ينتزعوا نهائياً آثار تلك الحادثة المريرة، فقد حدثت بعد ذلك حوادث فردية متفرقة. وكان شيخ الحرم والقضاة والعقلاء يسارعون لمنع تفاقمها. ووقع صدام بين أفراد الفريقين المتخاصمين عدة مرات. وأصيب عدد قليل من الطرفين. واستمر التوتر والقلق في المدينة إلى أن وصل مبعوث الشريف

---

١) الأخبار الغريبة ص ٦٩.

سرور السيد حسين العلوي في الخامس والعشرين من شعبان، فجمع رؤساء الطرفين المتخاصمين وشيخ الحرم والقضاة وعدداً من أعيان المدينة وأقنعهم بوقف النزاع وعقد هدنة يحترمها الجميع إلى مجيء الركب الشامي. حيث يحكم أمير الركب النزاع حكماً نهائياً. فتم الاتفاق على ذلك.. وتنفس أهل المدينة الصعداء بعد أربعة أشهر وثمانية أيام..

أمير الركب الشامي يفض النزاع:

ومرت الأيام في هدوء. ووصل الركب الشامي بقيادة محمد باشا العظم، وخيم -كالعادة- في منطقة الجرف. وخرج وجوه أهل المدينة لاستقباله، وخرج أحمد مكي وعدد من رجاله مع المستقبلين. ولم يخرج محمد قمقمجي وأرسل بعض رجاله للاعتذار متعللاً بمرضه، ورحب بهم قائد الركب. وسأل عن محمد قمقمجي فاعتذر بعض أصحابه الحاضرين بتوعكه. وأدرك محمد باشا العظم أن القمقمجي متخوف من لقائه فتعمد أن يحدث جلساءه عن مناصرته للقمقمجي قبل عامين وميله له ولوح بأنه سيناصره هذه المرة، وانتقل الخبر إلى محمد قمقمجي فجاء في اليوم التالي للقاء محمد باشا العظم واعتذر عن تأخره. وفوجئ القمقمجي بأن محمد باشا لايقبل اعتذاره كما فوجئ بوجود مفتي المدينة الشيخ تاج الدين إلياس الذي سافر إلى استانبول قبل شهور في المجلس ومالبث محمد باشا أن أخرج المرسوم الذي اجتهد المفتي في استصداره، وكان السبب الرئيسي في صدوره خطاب شيخ الحرم إلى دار الخلافة، مرسوم عزل محمد قمقمجي والقبض عليه وتعيين أحمد مكي بمنصب (كتخدا النوبتجاية). وانقلبت حالة القمقمجي رأساً على عقب. ووضعت القيود في يديه، بينما ألبس أحمد مكي خلعه سلطانية.

كان المرسوم الذي أصدره الخليفة في الآستانة حازماً ينص على عزل القمقمجي والقبض عليه وإخراجه من المدينة وينص أيضاً -وهذا هو الأهم- على تحرير حكام المدينة من سلطة الشريف سرور بن مساعد أمير الحجاز

بمكة. وإسناد أمورها إلى أصحاب المناصب كل حسب تخصصه، بدءاً بشيخ الحرم ومروراً بالقضاة والمفتي وكان هذا شبه استقلال للمدينة المنورة، فباستثناء القضايا الأمنية الكبيرة -كالحروب مع قبيلة حرب وغيرها- والقضايا الاقتصادية -(المكوس) والجبايات- لم يعد للشريف سرور سلطة على أمور المدينة المنورة. فليس له أن يتدخل في النزاعات بل تحال إلى القضاة ولايتدخل في سلطة شيخ الحرم، الذي أصبحت سلطته واسعة تصل إلى درجة التعيين في بعض المناصب العسكرية والعزل منها. وبخاصة منصب (الكتخدا). وأمور الفرق العسكرية تعود لقادتها. ثم لشيخ الحرم..

وقد ضايق هذا المرسوم الشريف سرور وهو الشاب النشيط والطموح، وكان آنئذ مشغولاً بالحروب المتوالية التي شنها الشريف أحمد بن سعيد بن زيد فآثر الصمت. واكتفى بحماية محمد قمقمجي والحيلولة دون إخراجه إلى الشام -كما أراد محمد باشا العظم- فكتب إلى محمد باشا قبل أن يترك المدينة يطلب منه أن يرسل إليه أو يصطحب معه محمد قمقمجي إلى مكة. وهدده بمنعه من الحج إن رفض. فرأى محمد باشا أن يستجيب له. فاصطحب معه القمقمجي وأسلمه لرجاله. وحج الباشا ولم يلتق بالشريف سرور، الذي كان غاضباً من تقييد سلطته ومشغولاً في الوقت نفسه ببعض الفتن حوله. وكأنه آثر أن ينتظر الفرصة المناسبة لتحدي ذلك المرسوم. بل وإلغائه تماماً.

أربع سنوات هادئة:

أقام محمد قمقمجي عند الشريف سرور مدة من الزمن، وصفت الحياة في المدينة ولم يحدث أنصار القمقمجي أية فتن. وبعد عدة أشهر طلب القمقمجي من الشريف سرور أن يسمح له بالعودة إلى المدينة، فسمح له بذلك وأوصاه بالتزام الهدوء والسكينة وعدم إثارة أية فتنة، ووعده بالمجيء إلى المدينة وإصلاح الأمور بينه وبين أهلها وإعادته إلى منصبه، بعد أن يقضي على قوة الشريف أحمد بن سعيد فجاء القمقمجي إلى المدينة، ونزل في

العوالي، وأرسل إلى شيخ الحرم والمسؤولين يستأذنهم في العودة إلى بيته، فأذنوا له شريطة أن يلتزم الهدوء والسكينة ولايتسبب هو ولاأنصاره بأية فتنة، فتعهد لهم بذلك ودخل المدينة.

وقد وفى القمقمجي بعهوده فلم يحدث أية فتنة، ومنع أنصاره من إحداث أي شغب في المدينة. وساعده على ذلك وفاة خصمه السابق محمد فلبلي الذي كان السبب الأساسي في عزله وتعيين أحمد مكي. فاستمرت الحياة تجري في مجراها العادي بهدوء مدة أربع سنوات متوالية إلى أن قطعت مجراها الهادئ أحداث مفاجئة أعادت المدينة إلى الاضطراب والقلاقل وجعلتها تعيش فترة عصيبة مرة أخرى.

الشريف سرور ينتقم من أهل المدينة:

بدأ هذا الحدث أو سلسلة الأحداث المضطربة بوصول الشريف سرور فجأة إلى ظاهر المدينة في الخامس من رجب عام ١١٩٤هـ وكان في موكبه الضخم ٥٠٠٠ من العربان و٣٥٠٠ جمل و٢٥٠٠ من الرجالة و٢٥٠ من الخيل وفيه عدد من السادة والأشراف والأتباع والعبيد. ومعه أيضاً عدد من الأسرى والرهائن الذين أخذهم من قبيلة حرب على الطريق، بعد أن حاربهم وتغلب عليهم. ونزل هذا الحشد في السهل الممتد خلف باب العنبرية. وخف وجوه أهل المدينة لاستقباله والترحيب به، ولكنهم توجسوا من قدومه المفاجىء على هذه الشاكلة شراً، فلم تفتح الأسواق، وأخذ الجميع يترقبون ماذا سيتصرف الأمير، وأسرع مفتي المدينة الشيخ تاج الدين إلياس فرحل هارباً خشية أن يمسكه رجال الشريف، فقد سبق أن عزله الشريف سرور فعاد إلى عمله بمرسوم سلطاني، كما أنه استصدر مرسوماً بعزل القمقمجي وتعيين أحمد مكي خلاف رغبة الشريف، ومرسوماً آخر هو الذي أثار حنق الشريف عليه

-برفع يد الشريف عن حكام المدينة- (١) ولم يكن الشريف قادراً على مواجهتهم آنئذ لانشغاله بصد الهجمات المتكررة التي يشنها الشريف أحمد بن سعيد بن زيد على مكة. وقد امتدت هجماته حتى عام ١١٩٣هـ فلما فرغ الشريف من أمرها واعتقل خصمه قرر السفر إلى المدينة المنورة.

وتدارس عدد من أعيان المدينة الأمر، وخافوا من انتقام الشريف وقرروا أن يسترضوه. فانتظروا حتى ذهب إلى المسجد النبوي وصلى فيه وسلم على رسول الله ﷺ وجلس في الروضة الشريفة وذهبوا إليه هناك فاعتذروا إليه اعتذاراً شديداً وطلبوا منه أن يصفح عن الجميع ولايعاقب أحداً. فاستجاب لطلبهم وأجابهم بالعفو وأعطاهم الأمان. فخرج الناس مطمئنين، وفتحت الأسواق. ودعا الأمير أعيان المدينة إلى مجلسه ودعا القمقمجي وخصومه وأصلح بينهم فاصطلحوا جميعاً وفرق عليهم الأموال وأمر بتوزيع المزيد على الفقراء والمرابطين والمحاربين. فاستبشر الناس ومكث الشريف في مخيمه يتردد كل يوم على المسجد النبوي ويتناوب رجاله النزول عشرين يوماً.. واعتادت المدينة في هذا الشهر -شهر رجب من كل سنة- أن يفد إليها الزوار بكثرة غير أن الزوار في هذه السنة كانوا قليلين جداً. وقد عوضها عن ذلك وصول هذا العدد الضخم مع الشريف سرور. وجاء الخبر إلى الشريف في المدينة أن أفخاد قبيلة حرب التي وجه إليها ضربة شديدة وهو في طريقة إلى المدينة وأخذ منها الأسرى والرهائن قد قطعت الطريق ومنعت الزوار من التوجه إلى المدينة انتقاماً مما فعله الشريف.. فأمر الشريف بأخذ الحيطة والسهر حول المدينة خوف هجوم مباغت يشنونه عليه. كما أمر أن تقوم مجموعات صغيرة من الخيالة بدوريات في المناطق المجاورة ومراقبة القادمين والمسافرين..

---

١) تحفة المحبين ص ٤١.

المكيدة والغدر:

وفي اليوم التالي -السادس والعشرين من رجب- دعا الشريف حكام المدينة وكبار موظفيها وأعيانها إلى مجلسه، فأجابوه وذهبوا إليه. وما إن استقر بهم المجلس حتى فوجئوا بجنود الأمير يهجمون على الحكام وكبار الموظفين ويكبلونهم بالأغلال. ويأمرون الباقين بالتزام الهدوء والبقاء في أماكنهم. ودهش المدنيون لهذا التصرف وأخذوا يتساءلون بين الاستنكار والاستعطاف فانهالت عليهم الشتائم والإهانات والاتهامات بالخيانة والتآمر..

وفي الوقت نفسه تحركت أعداد كبيرة من رجال الشريف إلى داخل المدينة وأحاطوا بالمسجد النبوي واستولوا على أبواب المدينة وأغلقوها. وهجموا على القلعة. فسارع من كان داخل القلعة فأغلقوا أبوابها وتحصنوا بأسوارها المنيعة. وجهزوا مدافعهم وصوبوها نحو عساكر الشريف..

وأحدث هذا الهجوم الباغت من رجال الشريف فزعاً في المدينة فسارع التجار إلى إغلاق دكاكينهم. وهرع الناس الذين كانوا في الشوارع إلى بيوتهم خائفين. ولم يدر أحد سبب هذا الهجوم بعد.

وخلال فترة قصيرة كانت المدينة تحت سيطرة الشريف، باستثناء القلعة التي تحصن فيها بعض الأهالي وعدد قليل من الجنود.

وفي مخيم الشريف كشف الشريف لأهل المدينة أن دورياته قبضت على أعرابي خارج من المدينة يحمل رسالة إلى بعض شيوخ حرب مكتوبة بخط رجل من آل الكوافي من أهل المدينة تطلب باسم شيخ الحرم وباسم أهل المدينة أن يجمع رجاله ويهاجم الشريف سرور، وتعده أن تشارك في الهجوم من داخل المدينة ومن القلعة. فأقسم الكوافي وشيخ الحرم أن الرسالة مزورة ولاعلم لهما بها. فقال لهم الأمير: إن كنتم صادقين فسلموني القلعة حتى يتضح لي الحال. فاعتذر الحاضرون بأنهم لايملكون ذلك وأن أمر القلعة بيد العساكر الذين هم داخلها.. فأمر الشريف بالتحفظ على من قبض عليهم.

وحاول شيخ الحرم تسوية الأمر والوصول إلى حل وسط فأرسل إلى العساكر المتحصنين أن يسلموا القلعة له فيضع فيها من يختاره من الرجال. فاعتذروا لشيخ الحرم بأنهم يخشون أن يكون الأمر مكيدة، خاصة وأن الشريف مازال يظن بأهل المدينة الغدر. لذلك طلبوا أن يعلن الشريف الأمان للجميع أول الأمر ويطلق سراح المعتقلين. فأعلن الشريف الأمان، وأرسل بعض رجاله لاستلام القلعة ولكن الجنود المتحصنين لم يطمئنوا فرفضوا التسليم وأطلقوا النار على القادمين فأصابوا واحداً من رجال الشريف وفر الباقون عائدون إلى الشريف وأخبروه. فغضب الشريف، وأمر بالقبض على شيخ الحرم وعلى الكوافي وتقييدهم. وبمحاصرة القلعة والرمي عليها.. وعلم أهل المدينة بما يجري ووصل الخبر إلى عساكر القلعة باعتقال شيخ الحرم فصوبوا مدافعهم إلى معسكر الشريف وبدؤوا يقصفونه فقتلت القذائف رجلين وجملين، وانتقل الشريف إلى بيت بعيد عن قذائف القلعة وتوزع رجاله حول القلعة وبدؤوا بالرمي عليها.. وتحولت بذور الفتنة إلى حرب حقيقية تدور في منطقة القلعة وما جاورها، وتنطلق القذائف من الجانبين فتسقط هنا وهناك وتدوي أصوات الانفجارات على فترات متقطعة ثلاثة أيام متوالية تشتد حيناً وتهدأ حيناً.. وقد أصابت قذائف أهل القلعة مخيم الشريف بأضرار كثيرة، فأحرقت عدداً من خيمه وأتلفت متاعه وقتلت عدداً من رجاله وإبله.. كما أصابت طلقات رجال الشريف عدداً قليلاً جداً من المدافعين عن القلعة.

ورأى الشريف تعذر السيطرة على القلعة بالقتال فلجأ إلى الحيلة ونادى أهل القلعة أن يكفوا عن القتال ولهم الأمان وسيستجيب لكل طلباتهم.. فأوقف عساكر القلعة إطلاق النار وطلبوا ابتعاد رجال الشريف من القلعة لينسحبوا منها خلال ثلاثة أيام ويسلموها.

فاستجاب الشريف وأمر رجاله بالابتعاد مسافة كافية عن القلعة وحاول عساكر القلعة خديعة الشريف والاستفادة من وقف القتال لتزويد القلعة

بالمؤونة ولإدخال بقية العساكر الذين بقوا خارجها إلى داخلها. وخرج بعضهم لهذه المهمة فرأوا أن رجال الشريف قد انسحبوا من جوار القلعة لكنهم استولوا على البيوت المجاورة وكمنوا فيها فتوجسوا الشر وعادوا إلى القلعة.

وأمر الشريف رجاله بصنع سلالم طويلة فصنعوها على وجه السرعة، وفي حلكة الليل تسلل عدد من عبيده الأشداء ووضعوا السلالم وبدؤوا بالصعود عليها. ولكن عساكر القلعة تنبهوا لمحاولتهم فرموهم بالحجارة والمشاعل وأسقطوهم وأحرقوا سلالمهم وقتلوا بعضهم فانتقضت الهدنة وعاد إطلاق النار من جديد، وبعد يومين كاد أن ييأس الشريف من الاستيلاء على القلعة ويأمر رجاله بالانسحاب قبض رجاله على شاب نزل من القلعة ليلاً على حبل وعلموا منه سوء حالة المحاصرين لقلة الطعام والماء كما علموا أن عدد العساكر داخل القلعة قليل وأن ذخيرتهم توشك على النفاد. فأمر رجاله بفتح ثغرة في جدار القلعة واقتحامها مهما كان الثمن، فاجتهدوا في ذلك واستطاعوا أن يفتحوا ثغرة بعد أن أطلقوا قذائف متوالية من مدفعهم على بيت آغا القلعة.. وهجم جنوده ونفذوا من الثغرة واندفعوا داخل القلعة، بينما أخذ العساكر القليلون المحاصرون يهربون من أبراجها وينزلقون على حبال مربوطة في أعلاها إلى خارج المدينة ويولون الفرار.

وأرسل الشريف خيلاً لتدرك الهاربين بينما سيطر رجاله على القلعة تماماً وقبضوا على العساكر الذين لم يتمكنوا من الفرار ودخل العربان القلعة وأخذوا ينهبونها. وكان فيها غير قليل من الأثاث والودائع التي يودعها أهل المدينة فيها تحسباً من الهجوم على بيوتهم..

ومع نهاية شهر رجب كتبت السطور الأخيرة في مأساة القلعة، وأمر الشريف بوقف جميع عمليات القتل والنهب وبعدم تعقب الفارين. كما أمر باستبقاء خمسين شخصاً من أهل المدينة. منهم من اتهم بأنه سبب الفتنة،

ومنهم من ينتمي إلى بعض الفرق العسكرية، ومنهم من عرف بالقوة والفتوة، وأن يؤخذوا رهائن وتوضع القيود في أيديهم وأرجلهم كيلا تعود الفتنة. وأطلق سراح الباقين بعد أن أخذ عليهم العهود والمواثيق بالتزام الهدوء والسكينة. وظل الشريف في المدينة يراقب الأحداث وعيَّن وزيره محمد بن العدواني المضايفي قائداً للقلعة وأمر أن يبقى معه أربعمائة من رجاله ليكونوا الحامية الجديدة، ومنع العساكر القدماء من دخول القلعة وأمرهم بالبقاء مع رؤسائهم في مناطق أخرى من المدينة.

مكث الشريف في المدينة إلى الثالث والعشرين من شهر شعبان عام ١١٩٤هـ حيث تحركت قافلته الضخمة التي حملت معها خمسين رجلا من أهل المدينة وعساكرها يرسفون بالقيود وخلفت وراءها حامية تابعة للشريف تعسكر في القلعة. وخلفت أيضاً -وهذا هو الأهم- آلاماً لما حدث ونقمة تنتظر الفرصة السانحة للانتقام.. ولما وصل الشريف إلى مكة سجن بعض رهائنه من أهل المدينة فيها، وأرسل بعضهم الآخر إلى القنفذة أما الذين اتهمهم بأنهم رؤوس ومسببيها فقد أرسلهم إلى الهند(١).

ثورة وانتقام:

كانت القوة العسكرية التي تركها الشريف سرور في المدينة المنورة أشبه بقنبلة موقوتة، لابد أن تنفجر. وقد عجل انفجارها تصرفات بعض جنودها فمنهم من عامل أهل المدينة بخشونة. ومنهم من كان ينظر إليهم نظرة صاحب السلطة، وكان بعضهم يحمل نقوداً غير متداولة في المدينة، ففرضوا على أصحاب الدكاكين قبولها مقابل مايحتاجونه من السلع.. ومن يرفض فلن يحصل على ثمن مايؤخذ من دكانه. ولاأحد يستطيع أن يرفض بيعهم.. وكانت جراحات أهل المدينة جديدة وآلامهم لمن فقدوه -سواء بالقتل أو بالنفي والسجن- تحتاج إلى من يراعيها.. فجاءت هذه التصرفات لتزيد

---

١) الأخبار الغريبة ٩٠/١٠١، خلاصة الكلام ٢١٦/٢١٨.

الآلام وتزيد من النقمة على رجال الشريف سرور، وتدفع الشباب إلى الغليان والثورة. وهذا ماحدث.

فبعد شهر واحد من رحيل الشريف سرور قرر عدد من شباب المدينة المتحمسين التصدي لرجال الشريف، وإخراجهم من المدينة المنورة. وخططوا لذلك بذكاء.. فقرروا أن تقوم مجموعة منهم بإشعال النار في دار الوزير محمد العدواني المضايفي قائد القوة العسكرية، وتقع داره خارج القلعة. فيسرع الجنود إليها وينشغلون بإطفاء النار.. فتهاجم مجموعة من الشباب القلعة وتحتلها وتحول بين الجنود خارج القلعة وبين الأسلحة والمدافع. وتقوم مجموعة أخرى بمهاجمتهم عند الدار المشتعلة وتقاتلهم إن لم يستسلموا..

وفي مساء الرابع والعشرين من شهر رمضان عام ١١٩٤هـ بدأ تنفيذ الخطة واستطاعت مجموعة صغيرة من أهل المدينة أن تشعل النار في عدة جهات من دار الوزير دون أن يفطن لهم أحد.. وفوجئ أهل القلعة بالصريخ يعلن عن احتراق دار الوزير.. فخرج الوزير من القلعة ومعه مجموعة من جنوده وأسرعوا ليطفئوا النار. وتبعتهم مجموعة أخرى.. وكادت الخطة أن تنجح.. لولا أن امرأة رأت مجموعة من الشباب الكامنين فنبهت الوزير وحذرته.. وفطن الوزير للخدعة فانسحب مع رجاله بسرعة إلى القلعة. وأمر جنوده بالتأهب بأقصى سرعة. ثم دفعهم للقبض على المجموعة الكامنة وكل من يرونه مسلحاً في المنطقة.. فخاف الشباب وهربوا. وخلال هربهم وجدوا في أحد الأحياء جنديين يمنيين تعدوا عليهما فقتلوا الأول وأصابوا الثاني وسلبوهما.. وتوزعوا في أحياء المدينة ينادون أهلها للخروج لمواجهة رجال الشريف، فاهتاج الناس وكرر المنادي صريخه في أهل المدينة أن يخرجوا للدفاع عن أنفسهم وأموالهم وإلا فسوف يفتك بهم رجال الشريف فاندفع رجال مسلحون.. وخاف رجال الشريف الذين نزلوا من القلعة إذ كانوا يظنون أنهم سيطاردون عدداً من الشباب ولم يتوقعوا أن يواجهوا جموعاً من أهل

المدينة الغاضبين. فأخذوا بالانسحاب نحو القلعة وتخلفت مجموعة من رجال الشريف عند سبيل الحاكم مقابل الباب المصري وكان عددهم ٢٥ رجلاً فأحاطت بهم الجموع الغاضبة ونفثت فيهم غضبها وقتلتهم جميعاً.. وازدادت حدة الهياج في المدينة وارتفعت الأصوات تنادي بقتل كل من يوجد من رجال الشريف سرور. فسارع الجنود في القلعة وأغلقوا الأبواب ونصبوا المدافع في الأبراج وأطلقوا القذائف صوب المدينة دون تمييز. فأصابوا شاباً عابراً فاشتد الأمر على أهل المدينة. وازداد عدد الثائرين وتوجهوا إلى القلعة وحاصروها وبدؤوا يطلقون عليها النار من (بنادقهم وطبنجاتهم). وما لبث الهياج أن تحول إلى ثورة منظمة انضم إليها أفراد من الفرق العسكرية المذكورة. وعدد كبير ممن سبق لهم العمل في تلك الفرق. وكثير من شباب أهل المدينة ولاسيما الذين فجعت عائلاتهم بقتيل أو جريح أو سجين. وبدت المدينة يداً واحدة في مواجهة رجال الشريف سرور وظهرت قيادات نشطة تتحرك بسرعة، فوزعت المسلحين حول القلعة وأحكمت حصارها ونظمت الرجال ليتناوبوا في الحصار والقتال، وأنذرت الجنود بالتسليم، وتقاطر أهل المدينة من كل صوب. واستنجد بعضهم بأقاربه المقيمين في ضواحي المدينة وببعض العربان من حول المدينة فأنجدوهم وارتفع عدد الثائرين وصاروا قوة قادرة على مواجهة رجال الشريف بكل عدتهم وعتادهم.. وفي الليل استطاع الجنود المحاصرون أن ينزلوا أحد رجالهم من القلعة ليذهب إلى الشريف ويطلب النجدة. وتسلل الرجل من الجهة الخلفية للقلعة من خارج السور ومضى مجداً إلى مكة. واستعصم الجنود مدة طويلة بانتظار وصول النجدة. وأهل المدينة يشددون عليهم الحصار. ويطلقون النار على كل من يبدو من الأبراج. والفتحات العلوية للسور.. ويرد الجنود المعتصمون. ويطلقون بعض قذائف المدفعية. وتوالت الأيام ومر الأسبوع الأول والثاني ونقص مالدى الجنود والمحاصرين من طعام كما نقصت الذخيرة.. ثم بدأ أهل المدينة ينادونهم من

تحت السور ويطلبون منهم الاستسلام والخروج من المدينة مقابل المحافظة على أرواحهم.. وإلا فسوف يقتحمون عليهم القلعة.. والجنود يرفضون التسليم أملا في وصول النجدة. ومضى الأسبوع الثالث ولم تصل النجدة. ورأى الوزير أن رجاله لن يستطيعوا الصمود مدة طويلة فقد بدأ الطعام ينفد وكذلك الذخيرة، فضلاً عن الإصابات التي وقعت بين الجنود، فعزم على التفاوض مع أهل المدينة.

وكان الجندي الذي خرج من القلعة قد سار إلى مكة. فوصلها بعد عدة أيام منهكاً. وأخبر الشريف بما حدث لرجاله.. فغضب الشريف وأمر بتجهيز حملة لنجدة رجاله في المدينة.. فتجهزت حملة يتراوح عددها بين ٨٠٠ و١٠٠٠ رجل يقودها الشريف ناصر بن مستور.. وتوجهت إلى المدينة. واستغرق تجهيز الحملة وسيرها إلى المدينة مدة أطول مما كان يتوقعها رجال الشريف المحصورون في القلعة. لذلك يئسوا من وصول النجدة ووجدوا في مفاوضة أهل المدينة الحل الوحيد، ولكن أهل المدينة لم يعطوهم أية مهلة أو مكاسب وشرطوا عليهم الخروج بأنفسهم فقط وبما يحملونه من زاد وماء ويتركوا كل شيء.. ولم يجد الوزير العدواني بداً من قبول الشروط فوافق أخيراً عليها وأعلن الاستسلام.

انتصار الثورة:

وفى كل طرف بما تعهد به. ففي صباح السابع عشر من شهر شوال خرج رجال الشريف من القلعة في مجموعات صغيرة لايحملون سوى الزاد القليل الذي بقي معهم والماء.. ووقف أهل المدينة يراقبون خروجهم دون أن يتعرضوا لهم بشيء. حتى تم خروجهم من القلعة ومن سور المدينة كلها. وساروا في الطريق المؤدية إلى مكة.

وبينما الجنود المنسحبون من المدينة يسيرون في طريق بدر إلى مكة.

كان الجنود القادمون من مكة يسلكون طريقاً آخر يفضي بهم إلى الجهة الشرقية الشمالية للمدينة. كي يفاجئوها فلم تلتق المجموعتان، وقبل أن يصل القادمون من مكة إلى المدينة علموا باستسلام الوزير العدواني وخروجه مع رجاله.. فأرسل قائدهم الشريف ناصر بن مستور بعض الخيالة لإعادة الوزير ورجاله كي ينضموا إلى الحملة ويعودوا جميعاً إلى المدينة.. وأكمل سيره فوصل ضواحي المدينة في الثالث والعشرين من شوال. ونزل بجنوده قرب جبل أحد بانتظار وصول الوزير ورجاله..

وعلم أهل المدينة بوصول الحملة، فأخذوا يستعدون لمواجهتها، فجمعوا العساكر وكل من سبق له العمل في إحدى الفرق العسكرية. وأعدوا الأسلحة والذخائر والتموين.. وأرسل نائب شيخ الحرم إلى بعض أفخاذ قبيلة حرب النازلين قرب المدينة يستنجدهم، فأنجدوه بأربعمائة رجل نزلوا في الجهة الجنوبية الغربية من المدينة ووصل الوزير العدواني ورجاله عائدين من منتصف الطريق وانضموا إلى الشريف ناصر بن مستور. ولاحت نذر المعركة القادمة. وبات كل طرف يراقب بحذر شديد تحركات الطرف المقابل.

وفي صباح اليوم الأول من ذي القعدة تحرك الشريف ناصر بعد أن نظم رجاله نحو المدينة. وتحرك الخليط المدافع عن المدينة صوب جيش الشريف ناصر. وكان هذا الخليط يضم معظم أفراد الفرق العسكرية الأربعة. وأفراد آخرين متطوعين، وأربعمائة من رجال حرب الذين أنجدوا أهل المدينة.. والتقت الصفوف في البساتين الممتدة شمالي البقيع على طريق أحد. وابتدأت المعركة، وانطلق الرصاص من البنادق المحشوة بغزارة والتحم بعض المقاتلين من الطرفين واستخدمت السيوف والخناجر. وسقط عدد من القتلى من الطرفين.. واشتد أهل المدينة في الدفاع عن مدينتهم، واستبسلوا.. وبدأت كفتهم ترجح. ثم رجحت تماماً عندما أصيب الشريف ناصر بن مستور قائد المهاجمين، وبدأ المهاجمون بالانسحاب فتبعهم المدافعون مسافة قصيرة.. ثم

اكتفوا بإطلاق النار خلفهم وترك الفرصة لهم كي يهربوا فيصيبون منهم من يصيبونه ويسلمون من الطلقات الطائشة، وقبل أن ينتهي النهار كان المهاجمون قد ارتدوا تماماً إلى مكان نزولهم السابق خلف جبل أحد. بعد أن فقدوا عدداً من رجالهم وأصيب عدد آخر كبير بجروح. وحمل أهل المدينة قتلاهم القليلين وجرحاهم وآبوا إلى مدينتهم منتصرين.

انسحاب الحملة:

أقام أهل المدينة في يقظة تامة عدة أيام يراقبون تحرك المهاجمين. أما المهاجمون فقد أرسلوا أخبار هجومهم الفاشل إلى الشريف سرور وطلبوا تزويدهم بمزيد من الرجال والسلاح. فعاد الرسول من مكة يحمل معه أمراً من الشريف سرور أن يتركوا المدينة وشأنها ويعودوا إلى مكة على وجه السرعة، فرحلت الحملة، وسارت مجدة في الطريق الذي جاءت منه فوصلت مكة في الثاني عشر من ذي القعدة. وهناك عدة أسباب جعلت الشريف سرور يأمر رجاله بالانسحاب، منها خشيته من أن تتألب عليه أفخاذ حرب الأخرى التي وترها بهجومه الأخير عليها، فتنضم إلى أهل المدينة كما انضم بعضها في المعركة الأولى فيخسر رجاله مهما كان عددهم. ومنها خشيته أن يستغل خصومه غياب قسم من جيشه، وبخاصة إذا أرسل النجدة التي طلبها قائد الحملة، فيهاجموه في مكة ويخرجوه من الإمارة أو يقتلوه، ومنها: قرب وصول الركب الشامي، الذي تصحبه قوة مهمة عادة. وربما تنتصر هذه القوة لأهل المدينة فينتهي الأمر إلى تبديد جيشه وربما إلى صدور مرسوم سلطاني بعزله.

لذلك كله رأى أن الحكمة تقتضي الانسحاب فأمر به. فلما وصل جيشه إلى مكة أمر بإطلاق سراح عدد من الرهائن والسجناء الذين جلبهم من المدينة

وسمح لهم بالعودة إليها(١) وفيهم شيخ الحرم الذي سبق أن عزله واعتقله..

عودة السكينة والسلام:

وعادت المدينة فخورة بهذا النصر إلى حياتها اليومية الهادئة وكان لسلسلة الصدامات مع الشريف سرور قبل وبعد رحيله عن المدينة أثر عجيب في لم شتات أهل المدينة وفي جمع كلمتهم وإنهاء الخلافات والصراعات بين القادة العسكريين وكبار الموظفين الآخرين ولأول مرة صار الجميع: العساكر والأهالي والمقيمين والزائرين لحمة واحدة.

ولاشك أن هذه الصفحة المضطربة، وإن كانت قد جمعت كلمة أهل المدينة، هي من أخطاء الشريف سرور الكبيرة. فما كان ينبغي له أن يثير القتال في المدينة المنورة، ولا أن يترك رجاله بعد رحيله يتسلطون على الأهالي، ويشعرونهم بسلطانهم عليهم وكأنهم محتلون غالبون.

لقد غطت الفرقة والخصومات وحب السيطرة بصائر الكثيرين آنئذ فشهر المسلم سلاحه في وجه أخيه واستبيحت الدماء والأموال وتذبذب مفهوم الصداقة والعداوة. وغاب أو كاد مفهوم الأخوة الاسلامية وحرمة المدن المقدسة وحرمة النفوس أمام مفهوم البغي والعدوان. ولكن، وبعد أن تهدأ الفتنة سرعان مايعود الناس إلى قيمهم ومفهوماتهم الأصلية. ولايبقى أي أثر لتلك المعارك. ويسافر أهل المدينة إلى مكة في موسم الحج، ويأتي المكيون إلى المدينة زائرين ليس في نفوسهم مما حدث من قبل شيء فكل ما حدث خطأ شنيع لايريد أحد أن يتكرر.

وعادت المدينة المنورة إلى هدوئها وسكينتها وكادت أن تطوي القرن الثاني عشر كله بهذا الهدوء لولا حادثة صغيرة وقعت في السنة الآخيرة من هذا القرن. كادت أن تعيد المدينة إلى عهد الفتن وصراع الفرق العسكرية والمناصب.

---

١) انظر الأخبار الغريبة ١٠٤/١٠٧ وخلاصة الكلام ٢١٨ ٦.

زوبعة صغيرة:

بعد منتصف عام ١١٩٩ للهجرة عُيِّن الشيخ محمد جوهر شيخاً للحرم النبوي وكان هذا الرجل على شيء من البساطة والطيبة. وقد أسر له بعض من حوله أن (كتخدا نوبتجاية) أحمد رجب قوي النفوذ بين العساكر وربما يؤدي به نفوذه إلى الصدام مع الآخرين وإثارة الفتن. ومن الضروري عزله وتعيين عبد الله مدني مكانه لأنه أقل نشاطاً واحتكاكاً بالآخرين. واتبع الشيخ محمد جوهر ما أشير عليه فعزل أحمد رجب وعين عبد الله مدني مكانه. وفوجئ العسكر بهذا التصرف ولم يروا مايسوغه. وغضبوا وبدأوا يلغطون بالأمر، وخشي أحمد رجب أن يتحول اللغط إلى فتنة فخرج من المدينة وأقام في قباء. ولكن عساكره في القلعة لم يرضوا عن ذلك. وظهر فيهم من يحركهم ويشعل الحماسة فيهم، فاهتاجوا. واتجهوا في حشد كبير نحو المسجد النبوي. واحتلوا مبنى المحكمة السلطانية ومبنى مدرسة باب الرحمة المطلة على الحرم. ثم انتشروا في منطقة الحرم كلها وسيطروا على أبواب المسجد النبوي. وبدأوا يطلقون النار في الهواء إعلاناً عن غضبهم ورفضهم لعزل (كتخدا) أحمد رجب..

فزع أهل المدينة لهذه الثورة المفاجئة التي قطعت هدوء عدة سنوات. وأغلقت الأسواق وهرب كثير من الناس إلى بيوتهم. وخرج شيخ الحرم لمواجهة الثائرين. وطلب مفاوضتهم. وأرسل إليهم يطلب منهم أن يقلعوا عما يفعلونه ويحافظوا على سلامة الناس والمسجد النبوي، وهو مستعد لتنفيذ جميع طلباتهم حتى ولو كان طلبهم أن يعتزل مشيخة الحرم أو أن يسلمهم نفسه للقتل. ودهش المتمردون لهذا العرض السخي ولهذه الاستجابة السريعة. فأجابوا الوسطاء بأنهم لايطلبون سوى إعادة كتخدا أحمد رجب وعزل عبد الله مدني. فأعلن شيخ الحرم على الفور عزل عبد الله مدني وإعادة (كتخدا) أحمد رجب وطلب منهم أن يرسلوا أحدهم لإعادته إلى المدينة وإلى

منصبه. فرضي الجميع وأغمدوا أسلحتهم وأخذوا بالعودة إلى القلعة(١)
وطوى القرن الثاني عشر سنواته على المدينة وادعةً وداعةَ شيخِ الحرم هادئة آمنة كما يحب أهلها وزوارها أن تكون.



---

١) الأخبار الغريبة ١١٦.

المدينة في القرن الثالث عشر

كانت السنوات الأولى من القرن الثالث عشر الهجري هادئة في المدينة المنورة ولكنها كانت تنذر بتغييرات قادمة، وقد بدأت هذه التغييرات بعيداً عنها في مكة المكرمة، حيث تولى الشريف غالب بن مساعد إمارة الحجاز بعد وفاة الشريف سرور بن مساعد وتنازل أخوه عبد المعين بن مساعد. وكان غالب -كسلفه سرور- طموحاً ذا حيوية ونشاط كبيرين، يتطلع إلى أن يوطد سلطانه ويمده ماastطاع.. وفي نجد كانت الدولة السعودية الأولى قد وطدت أركانها واستولى رجالها على معظم الجناح الشرقي للجزيرة العربية ودخلوا البصرة.. واتجهوا غرباً إلى مشارف الحجاز. وكان الأمراء السابقون قد أساءوا التعامل معها وتبنوا موقف الدولة العثمانية المعادي لها.. فمنع الأشراف النجديين من أداء فريضة الحج -وهذا خطأ فاحش لاتسوغه الخصومات السياسية- فمنذ ولاية الشريف سعود بن سعيد (المتوفى ١١٦٥هـ) أرسل الأمير محمد بن سعود مؤسس الدولة السعودية الأولى يستأذنه في أن يحج رعاياه فلم يأذن الشريف سعود لهم. وتكرر الطلب أيام الشرفاء اللاحقين وكانوا كلما استأذنوا للحج منعوا أو سجن رسلهم حتى كانت سنة ١٢٠٢هـ حيث تولى الشريف غالب ين مساعد. فلم يكتف بمنعهم بل تهددهم بالركوب إليهم، وأعقب القول بالفعل(١) فجهز في عام ١٢٠٥هـ حملة كبيرة بقيادة أخيه عبد العزيز بن مساعد واستنهض القبائل المجاورة من شمر ومطير فاجتمع له مايزيد على عشرة آلاف مقاتل، وزودهم بعشرين مدفعاً. فسارت الحملة شرقاً إلى القصيم وحاصروا عدداً من القرى والحصون التي تتركز فيها قوات الدولة السعودية وقصفوها بالمدافع وقتلوا عدداً من المدافعين عنها والأهالي ثم لحق الشريف غالب بأخيه بقوة إضافية ومعهم سبعة مدافع وقصفوا بعض القرى في عالية نجد واستمرت الحملة أكثر من

---

١) شبه الجزيرة ٣٢٩/١.

شهر، ثم رجع الشريف غالب ومعظم قواته إلى مكة وتخلفت عنه بعض القبائل المصاحبة، فكر عليها الأمير عبد العزيز بن محمد وهزمها هزيمة منكرة في وقعة (العدوة) قرب حائل وغنم الأموال والعتاد(١).

كانت حملة الشريف غالب بداية لانعطاف كبير في العلاقات بين دولة الشرفاء في الحجاز ودولة السعوديين في نجد، فقد بدأت فصلاً جديداً من المواجهة الحربية بين الطرفين.. بعد أن كانت تقتصر على المراسلات والسفارات.. وقد أكد الشريف غالب رغبته في مواجهة الدولة السعودية في العام التالي عندما وصلته الأخبار بأن بعض القبائل في تربة ورانية وبيشة انضمت إلى دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب، فجهز جيشاً بقيادة أخيه عبد العزيز لقتالها، وغادر الجيش مكة المكرمة في ربيع الثاني عام ١٢٠٦هـ وحمل على القبائل في بيشة وماجاورها، ولم تكن لتلك القبائل القدرة على مواجهة الحملة فأعلنت الطاعة، ورجعت الحملة إلى مكة(٢) وبعد أقل من سنتين بدأت أول حملات السعوديين على الحجاز، وقاد صاحب مدينة شقراء عبد الله بن محمد بن معيقل جموعاً كبيرة نحو الحجاز في مطلع عام ١٢٠٨هـ، وأغار على قبائل بوادي عتيبة ووقع قتال شديد وسقط عدد كبير من القتلى من الطرفين.

وفي شعبان عام ١٢٠٩هـ توجه الأمير سعود بن عبد العزيز بقوة كبيرة إلى الحجاز وحاصر مدينة تربة حصاراً شديداً حتى صالحه أهلها فرجع عنهم(٣) وعادت الحملة دون أن تحقق أهدافها(٤) فرد الشريف غالب عام ١٢١٠هـ بحملة اتجهت إلى عالية نجد والتقت بجموع النجديين على مايعرف

---

١) عنوان المجد في تاريخ نجد ١/١٠٤- ١٠٦.

٢) تاريخ مكة ص ٤٨٩.

٣) عنوان المجد ١/١٢٥.

٤) السابق ١٢٢- ١٢٣.

بـ (الجمانية) وحدثت موقعة ضخمة وقتل عدد كبير من الطرفين وعادت الحملة إلى مكة(١) وتعد هذه الحملة تصعيداً للصراع مع الشريف غالب وتأكيداً على اهتمام السعوديين بالحجاز وتطلعهم إلى نشر دعوة الاصلاح فيها.

غير أن المدينة المنورة كانت حتى هذه السنة بمنأى عن الصراع والمعارك، وكانت مستغرقة في قضاياها الداخلية والصراع الهادئ والخفي غالباً بين مراكز القوى فيها، وتعديات القبائل والأعراب على قوافلها وأسواقها بين الحين والآخر.

ولم يهتم الإمام سعود بن عبد العزيز بإرسال قوة إليها أو إلى ضواحيها رغم أنه وجه قواته وتوجه بنفسه في بعض الأحيان إلى نواحي الطائف وتهامة ودومة الجندل.. ولا نجد في الأخبار مايشير إلى أن أهل نجد قد منعوا من دخول المدينة كما منعوا من دخول مكة. غير أن عدم قدومهم إلى الحج لسنين طويلة، والحالة التي كانت عليها المدينة المنورة وكثرة المزارات والقباب على القبور والظواهر الشركية الأخرى التي تجردت الحركة الإصلاحية لمحاربتها، كل ذلك جعل النجديين لايهتمون بزيارة المدينة، فلم تنشأ أية مشكلة في هذا الصدد على نحو ما نشأت في مكة ولعل هذا من الأسباب التي أخرت توجه السعوديين نحو المدينة والاستيلاء عليها.

غير أن المدينة المنورة بدأت تتأثر بهذا الصراع في بداية العقد الثاني من القرن الثالث عشر. فقد أصدر الأمير عبد العزيز بن محمد بن سعود أوامره إلى قائده أمير مدينة الدواسر ربيع بن زيد أن يقوم ببعض العمليات العسكرية في الحجاز ضد الشريف غالب والقبائل التي تناصره، فبدأت الحملات المتوالية شرقي مكة وجنوبها ثم اتجهت إلى شمالها، وتأثرت بعض القبائل بهذه الحملات، كما تأثر بعضها الآخر بالدعوة الإصلاحية نفسها، وبينما كان رجال ربيع بن زيد يهاجمون مناطق شرق الطائف وشمالها، بدأت بعض القبائل

---

١) تاريخ مكة ص ٤٨٩ وعنوان المجد ١٢٦/١.

تراسل الأمير عبد العزيز بن محمد في الدرعية لتبايعه على الدعوة الإصلاحية الجديدة وتدخل في سلطته، وقد أجابهم الأمير عبد العزيز لذلك ففزع الشريف غالب وجرد حملة قادها بنفسه لإعادتهم إلى طاعته، ونجح في اخضاع بعضهم.. ولكنه مالبث أن اصطدم بجموع من السعوديين في شوال عام ١٢١٢هـ في قرية الخرمة قرب مدينة تربة فهزم هزيمة ساحقة وقتل عدد ضخم من رجاله يقدره بعضهم ألفين وأربعمائة شخص(١) وغنم السعوديون أموالاً وغنائم أخرى هائلة. وقد أقنعت هذه الموقعة الشريف غالب بعدم قدرته على مواجهة السعوديين فقرر تغيير موقفه معهم ومسالمتهم.. وكان مما حمله على ذلك عدم استجابة الدولة العثمانية لطلبه بتعزيز قواته ومده بأسلحة حديثة. فقد أرسل إليهم عدة مرات يطلب المساعدة لمقاومة السعوديين. ولكن الدولة العثمانية لم تستجب له. وربما كانت تفكر في عزله.

كان تأثر المدينة المنورة بهذه الأحداث اقتصادياً أكثر منه حربياً فقد أثرت الحملات السعودية المتوالية على أطراف مكة على قوافل التجارة، وعندما اتجهت الحملات السعودية شمالاً وقطعت الطرق الرئيسة الموصلة إلى مكة والطائف والمدينة من الشرق والجنوب تحولت القوافل التجارية عن هذه المدن، وقلت الميرة وارتفعت الأسعار. ولم تتغير الحال إلا بعد معركة تربة. حيث أرسل الشريف غالب وفداً إلى الأمير عبد العزيز بن سعود يفاوضه على الصلح والمهادنة ووضع حدود بين الطرفين وتعيين القبائل والمناطق التي تتبع كل منهما، فوافق الأمير عبد العزيز على طلب الشريف غالب وبدأت المراسلات بين الطرفين. ثم اجتمع مندوبون واتفقوا على التفاصيل، وكان في مقدمة الاتفاقية ألا يُمْنَع النجديون من الحج وأن يعاملوا معاملة طيبة.

وجاء ركب من نجد فيه اثنان من أبناء الشيخ محمد بن عبد الوهاب وأمير شقراء وعدد من أهل شقراء والقصيم فحجوا وعادوا سالمين. وتبادل

---

١) عنوان المجد ١/١٣٧-١٣٨.

الشريف غالب والأمير عبد العزيز بن سعود الهدايا والرسائل.

كان لاتفاقية الصلح أثر بعيد المدى. فقد وضعت الحرب أوزارها بين الطرفين وتحسنت الأوضاع الاقتصادية في مكة والمدينة ولكن ثمة آثار أكثر أهمية بدأت تظهر بعد حين وهي تسرب الدعوة الاصلاحية إلى بعض قبائل الحجاز ووصولها إلى أطراف المدينة، فتوقف الحرب أعطى فرصة للدعاة النجديين كي يصلوا إلى القبائل ويخاطبوا الناس، وأزال الثغرة التي تنشأ عادة بين المتحاربين وتغلق الآذان والعقول. وبدأ أفراد.. ثم جماعات من الناس ينحازون إلى الدعوة الاصلاحية. وقد تأثرت بعض القبائل القريبة من المدينة بهذه الدعوة، وفي مقدمتهم آل مضيان، فرع من فروع قبيلة حرب، ويذكر ابن بشر أن بادي وبداي ابنا بدوي بن مضيان زعيم القبيلة وعدد من أفراد القبيلة تأثروا بهذه الدعوة وأحبوها، فسافروا إلى الدرعية، والتقوا بالأمير عبد العزيز وبايعوه على السمع والطاعة. فأرسل الأمير عبد العزيز معهم داعية يعلمهم التوحيد وينشر الدعوة في المنطقة وهو عثمان ابن عبد المحسن أبو حسين. ولانعرف السنة التي حدثت فيها هذه الواقعة غير أن عبارة ابن بشر تفيد أنها جرت قبل نهاية العقد الثاني من القرن الثالث عشر بعدة سنين. ونرجح أن يكون ذلك قد تم في منتصف هذا العقد. بعذ أن حج عبد العزيز بن محمد عام ١٢١٤هـ بجمع هائل من أهل نجد (وكانت حجة حافلة بالشوكة وجميع الخيل والجيش والأثقال والنساء)(١) وتكرر ذلك في العام التالي ١٢١٥هـ، ووزع الأمير أموالا طائلة على الناس في مكة. وأمن

---

١) السابق ص ١٤٦/١.

الناس كما أمن طريق الحج[1] وأسقط (المكوس) والجبايات عن الحجاج وانتشرت أخبار ذلك في البلاد فأسهم ذلك كله في تغيير نظرة أهل الحجاز إلى الدعوة الإصلاحية والنجديين..

تحصين المدينة المنورة:

في عام ١٢١٣هـ ١٧٩٨م وردت الأخبار باستيلاء الفرنسين على مصر بقيادة نابليون بونابرت وزحفه إلى الساحل الفلسطيني ووصول قواته إلى عكا.. آنئذ خافت الدولة العثمانية من أن يتجه إلى الحجاز فأمرت بتحصين الحرمين الشريفين، وسارع الشريف غالب (وصنجق) جدة وقادة الفرق العسكرية في المدينة المنورة إلى تنفيذ هذا الأمر..

ولم يزد تحصين المدينة على تفقد سورها وترميم الجوانب الضعيفة فيه وشحن القلعة بالرجال وتوزيع المدافع على الأبراج. ولاشك أن هذه الحركة ستحدث من الاشاعات والآثار النفسية مايفوق حقيقة الموقف أضعافاً مضاعفة.. ومن لطف الله أن الفرنسيين لم يفكروا بالتوجه إلى الحجاز والاستيلاء عليها، إذ لم يكن في الحجاز أية قوة حقيقية تمكنهم من الصمود أمام جيوش نابليون المدربة وأسلحتها المتفوقة..

إرهاصات ونذر:

تواترت الأخبار عن انتشار الدعوة الإصلاحية بين عدد من أفخاذ حرب وازدياد أتباعها، وأنهم يفكرون في الاستيلاء على المدينة.

وما لبثت هذه الأخبار أن تحولت إلى نذر حقيقية عندما نزل عدد من أتباع الدعوة الإصلاحية في عوالي المدينة وشرعوا في بناء حصن طيني كبير بأمر من عبد العزيز بن محمد نفسه، وكان من عادة السعوديين إذا حاصروا مدينة لمدة من الوقت أن يبنوا قصراً طينياً واسعاً على مشارفها، يكون حصناً لهم ومركزاً للتجمع والقيادة. وقد اتبعوا هذه الطريقة في الاستيلاء

---

١) السابق ١/٤.

على عدد من المدن كالطائف وتربة وبيشة وغيرها، فلما ظهر البناء في عوالي المدينة تحولت الشائعات إلى توجس حقيقي من استيلاء أتباع الدعوة الإصلاحية على المدينة. ويشير ابن بشر إلى أن الحربيين الذين بايعوا عبد العزيز بنوا القصر في العوالي وأحكموه واستوطنوه وجعلوه مقراً للدعوة والحركة أيضاً فبدؤوا ينشرون دعوتهم في أهالي قباء وضواحي المدينة الأخرى. فبايعهم عدد من أهلها..

وكانت الدعوة قد أخذت طريقها إلى عدد كبير من القبائل الحجازية مما جعل الشريف غالب ينقض العهد مع الأمير سعود بن محمد ويسير الحملات لإعادة تلك القبائل إلى طاعته. فعاد القتال بين الطرفين وانتقض كثيرون على الشريف غالب. وكان من أخطرهم وزيره عثمان بن المضايفي الذي بايع الأمير عبد العزيز ثم صار واحداً من أكبر قادته واستولى على الطائف وهدد الشريف غالب.

ولاشك أن الهدنة التي قامت بين الشريف غالب والأمير عبد العزيز من ١٢١٣- ١٢١٦هـ قد مكن الدعاة من الانتشار بين القبائل والتأثير فيها. ولم تتوقف الدعوة بعد ذلك رغم وقوع القتال بين الطرفين بعد ذلك مرات متوالية..

حصار المدينة:

شعر أهل المدينة المنورة أن الحربيين المبايعين للسعوديين ومن يبايعهم من الساكنين في ضواحي المدينة يحيطون بالمدينة ويحاصرونها فعلياً. وقد تعزز موقف السعوديين وأتباعهم عندما أرسل الأمير عبد العزيز اليهم الشيخ العالم قرناس بن عبد الرحمن، صاحب مدينة الرس فأقام فيهم معلماً وقاضياً مدة من الزمن وحثهم على تكثيف جهودهم لضم أكبر عدد من الناس إلى الدعوة الإصلاحية. فنشطت الدعوة حول المدينة وصمم الداخلون فيها على تخليص المدينة من مظاهر الشرك والبدع الكثيرة وبدؤوا يضيقون عليها الحصار.

وفي عام ١٢١٨هـ اغتيل الأمير عبد العزيز بن محمد بن سعود في الدرعية وتولى الإمارة ابنه سعود بن عبد العزيز. فواصل جهود أبيه ووجه دعاته وأتباعه في الحجاز إلى تكثيف جهودهم فعاد القتال بينهم وبين الشريف غالب واشتد الحصار على المدينة المنورة وتحولت القوافل التجارية عنها، وقلت الأرزاق وارتفعت الأسعار إرتفاعاً شديداً..

وبينما كان عثمان المضايفي يقود معارك مع الشريف غالب ورجاله في الطائف ثم في أبواب مكة، كان أتباع الدعوة الإصلاحية حول المدينة يكتفون بمحاصرتها. وإنذار أهلها بالتسليم. وكانت الفرق العسكرية في المدينة قد أخذت أهبتها للقتال.. ولكنها لم تغادر سور المدينة لمواجهة المحاصرين ومقاومتهم. واشتد الأمر على أهل المدينة. وانتقلت إليهم الأخبار المتوالية عن انتصارات عثمان مضايفي في الطائف وزحفه إلى مكة. وكذلك انتصارات القادة الآخرين في أماكن أخرى. ورأى أهل المدينة أن من العبث مقاومة هذا التيار وأن المدينة لابد أن تسقط في أيدي محاصريها الذين لم يؤذوها، لذلك آثروا أن يتصرفوا بحكمة وتعقل.

مفاوضات مجدية:

اجتمع أعيان المدينة وقادة الفرق وشيخ الحرم والقضاة.. وبعد مناقشات كثيرة استقر رأي الجميع على مكاتبة الأمير السعودي سعود بن عبد العزيز مباشرة وتجاوز المحاصرين وطلب الأمان للمدينة وأهلها.. وكتب المجتمعون رسالة وقعها شيخ الحرم والقضاة وعدد من الأعيان. منهم أحمد الطيار وحسن قلعي قائدا (النوبتجية) والقلعة، وخرج وفد صغير من المدينة المنورة إلى الدرعية بالأمان وقابل الأمير سعود فرحب بهم الأمير وأكرمهم وقبل مبايعتهم وإعطائهم الأمان واشترط عليهم تطهير المدينة المنورة من مظاهر الشرك والبدع الضالة ولاسيما القباب على القبور.. فقبل الوفد ذلك وعادوا بخطاب الأمان إلى المدينة المنورة. وفي الوقت نفسه جاءت الأوامر إلى أتباع

الحركة الإصلاحية بتأمين أهل المدينة ودخولها سلماً وإزالة القباب ومظاهر الشرك فيها..

بداية العهد السعودي في المدينة المنورة:

في ربيع الأول عام ١٢٢٠هـ بدأ تنفيذ هذا الاتفاق. ففتحت المدينة أبوابها وخرج شيخ الحرم والقضاة والأعيان لاستقبال مشايخ آل مضيان ومن معهم من أتباع الحركة الإصلاحية وكان لقاء السلم والمصالحة. وصلى الجميع في المسجد النبوي وهدمت القباب المقامة في بعض شوارع المدينة وعلى قبور البقيع.

التغييرات الجديدة:

بدأت التغييرات تظهر في حياة المدينة المنورة، فقد اختفت مظاهر السيادة والتسلط التي كانت بارزة في قادة الفرق العسكرية وبعض جنودهم، واختفت مظاهر الصراع بينهم وتغيرت مراكز القوى تغيراً جذرياً.. فقد عين مبارك بن مضيان الظاهري (حربي) أميراً على المدينة وقائداً للمرابطين(١) وكان مبارك قد أسهم في بناء القصر في العوالي وسمي فيما بعد باسمه، واستمرت إمارته إلى نهاية الحكم السعودي أي سبع سنوات وبضعة أشهر، ورابط الإخوان الذين دخلوا المدينة بعد اتفاقية الصلح في بعض أطرافها، والقصر الذي كان مركز نشاطهم مازال يشهد مرابطة المجاهدين فيه والمزارات الكثيرة التي كان يقصدها بعض أهل المدينة والقادمون إليها في عدد من أحياء المدينة -كمشهد محمد النفس الزكية- اختفت ولم تعد تشهد التجمعات السابقة، وأزيلت القباب من قبور البقيع واختفت مظاهر الدروشة واختفى الدراويش والمجذوبون الذين كان بعض البسطاء يعتقدون بولاياتهم وكراماتهم، واختفت حفلات الذكر العلنية والموالد وغيرها من البدع التي وفدت

---

١) المدينة عبر التاريخ ص ١٣٠.

الدولة السعودية

الدور الأول والدور الثاني

بلاد النوبة

مصر

العراق

إيران

عربستان

نجد

الحجاز

مكة

المدينة

ينبع

الطائف

القصيم

الدرعية

الرياض

الأحساء

القطيف

عمان

جبل شمر

تيماء

العلا

الوجه

القصير

قنا

أسوان

الربع الخالي

اليمن

حضرموت

صنعاء

زبيد

نجران

بيشة

جيزان

مأرب

الشحر

سيحوت

خليج

البحر العربي

البحر الأحمر

مع بعض الوافدين إلى المدينة المنورة وصارت جزءاً من تقاليدها.. فالإخوان الذين امتلأت أذهانهم بأفكار الدعوة الإصلاحية كانوا بالمرصاد لكل هذه (البدع) وقد واكب الناس التغييرات الجديدة على اختلاف مافي ضمائرهم. فمنهم من فهم الروح الإصلاحية فيها وتحمس لها وأخذ بها طواعية ورغبة، ومنهم من فهم أنها جزء متمم للتغييرات التي حدثت، فانصاع لها دون أن تتغلغل في قلبه..

ورغم أن المدينة فتحت أبوابها للإخوان سلماً ولم تشهد قتالهم ولم تر بأسهم فقد قر في الصدور شيء كثير من هيبتهم، وكانت مشاعر الهيبة هذه عاملاً مساعداً على اختفاء مظاهر البدع والمخالفة. ورغم أن الإخوان لم يؤذوا أحد فقد حرص المقيمون والمجاورون من أهل المدينة على إخفاء المظاهر التي تحاربها الدعوة الإصلاحية إن لم يقلعوا عنها نهائياً..

وكان أحسن ما جنته المدينة الأمن والسكينة. فقد توقفت تماماً غزوات المقيمين في الأطراف لأن قسماً كبيراً منهم قد تأثروا بالدعوة الإصلاحية وتحولوا من قاطعي طريق الحجاج وغزاة للمدينة إلى أتباع مخلصين وربما دعاة للدعوة الاصلاحية.

وكان لجهودهم أثر لاينكر في دخول المدينة المنورة تحت السلطة السعودية. وهكذا تحولت بعض أفخاذ قبيلة حرب من النقيض إلى النقيض. من غزاة يهددون المدينة وقوافلها إلى حماة لها وللحركة الإصلاحية الجديدة. وكذلك لم يعد في داخل المدينة من يفكر بإثارة شيء من القلاقل.. فلم يعد مجال للصراع على زعامة أو سلطة. وكمن القادة العسكريون في ثكناتهم ومواقعهم ينتظرون مايسفر عنه الوضع الجديد.. وكان من بينهم عدد من الجنود والأتراك الذين لزموا السكينة أيضاً.. أما قادة مراكز القوة الآخرين شيخ الحرم والمفتي والقاضي. فقد استمروا في مناصبهم ولكنهم لم يعودوا يتدخلون في شيء من الأمور العامة. فشيخ الحرم قد ركز اهتمامه على

المسجد النبوي والعاملين فيه. والمفتي في بيته يستقبل من يفد إليه من عامة الناس يسألونه عن قضية وقعت لهم في حياتهم اليومية، والقاضي ينظر في الخصومات القليلة التي تعرض عليه والتي أصبحت نادرة في العهد الجديد.. وكأنما شغل الناس بهذه التغييرات وبالإخوان المرابطين والمترددين على المسجد النبوي والمساجد الأخرى يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويمنعون ظهور شيء من البدع..

وبدت آثار هذه التغييرات للعالم الخارجي في موسم الحج، فقد وصل المحمل الشامي إلى مشارف المدينة بقيادة عبد الله العظم باشا والي الشام، وأرسل يستأذن في الدخول إليها، فسمح له بالدخول شريطة ترك البدع المنافية لشعائر الحج، وأولها ضرب الطبول ونفخ المزامير، كما اشترط عليه ترك السلاح، فرضي بذلك وأودع السلاح في القلعة.

وللوقوف على الحجم الحقيقي لهذه التغييرات نقرأ ماكتبه الجبرتي عنها، يقول الجبرتي: أمر -أي عبد العزيز بن سعود- بمنع المنكرات والتجاهر بها وشرب (الأراجيل بالتنباك) وبالملازمة على الصلوات في الجماعة، ودفع الزكاة وترك لبس الحرير والمقصبات وإبطال (المكوس) والمظالم وكانوا خرجوا عن الحدود في ذلك، حتى إن الميت يأخذون عليه خمسة فرانسة وعشرة بحسب حاله، وإن لم يدفع أهله القدر الذي تقرر عليه، فلا يقدرون على رفعه ودفنه، ولايتقرب إليه الناسك ليغسله حتى يأتيه الإذن.. وغير ذلك من البدع و(المكوس) والمظالم التي أحدثوها -يقصد الحكام قبل السعوديين- على المبيعات والمشتروات على البائع والمشتري، ومصادرات الناس في أموالهم ودورهم، فيكون الشخص من سائر الناس جالساً بداره فما يشعر على حين غفلة منه إلا والأعوان يأمرونه بإخلاء الدار وخروجه منها، ويقولون إن سيد الجميع محتاج لها، فإما أن يخرج منها جملة وتصير من أملاك الشريف، وإما أن يصالح عليها بمقدار ثمنها أو أقل أو أكثر فعاهده على ترك ذلك كله،

واتباع ما أمر الله تعالى به في كتابه العزيز من إخلاص التوحيد لله وحده، واتباع سنة الرسول عليه الصلاة والسلام، وماكان عليه الخلفاء الراشدون والصحابة والتابعون والأئمة المجتهدون إلى آخر القرن الثالث، وترك ما حدث في الناس من الالتجاء لغير الله من المخلوقين الأحياء والأموات في الشدائد والمهمات، وما أحدثوه من بناء القباب على القبور والتصاوير والزخارف وتقبيل الأعتاب والخضوع والتذلل والمناداة والطواف والنذور والذبح والقربان وعمل الأعياد والمواسم لها واجتماع أضعاف الخلائق واختلاط النساء بالرجال وباقي الأشياء التي فيها شركة المخلوقين مع الخالق في توحيد الألوهية التي بعثت الرسل إلى مقاتلة من خالفها ليكون الدين كله لله، فعاهده -أمير المدينة والأمراء الآخرون الذين عينهم- على ذلك وعلى هدم القباب المبنية على القبور والأضرحة لأنها من الأمور المحدثة التي لم تكن في عهده بعد المناظرة مع العلماء، وإقامة الحجة عليهم بالأدلة القطعية التي لاتقبل التأويل من الكتاب والسنة، وإذعانهم لذلك(١).

ويعلق الجبرتي على أثر بسط السلطة السعودية على الحرمين الشريفين فيقول: فعند ذلك أمنت السبل، وسلكت الطرق بين مكة والمدينة، وبين مكة وجدة والطائف، وانحلت الأسعار، وكثر وجود المطعومات، وما يجلبه عربان الشرق إلى الحرمين من الغلال والأغنام والأسمان والأعسال(٢).

مخاوف واحتياطات:

استمر الأمر على هذه الحال بقية سنة عشرين ومائتين وألف وشطر السنة التالية ١٢٢١هـ وبدأت الأخبار تتوارد على المدينة مع الزائرين بأن ركب الحج سيقدم من الشام بقيادة أمير الشام عبد الله العظم باشا وبدأ بعضهم يتوقع مجيء قوة عسكرية معه ربما تصطدم مع القوة المرابطة في المدينة.

---

١) تاريخ الجبرتي ١١٦/١١٧.

٢) السابق نفسه.

وبعد أن انتهى رمضان ودخل شهر شوال بدأت تتوافد على أطراف المدينة المنورة حشود كثيرة قادمة من نجد، وقبل أن ينتهي هذا الشهر كان قد عسكر في منطقة الجرف عدد كبير من أهل القصيم يقودهم حجيلان بن حمد ومثلهم من أهل الوشم والجبل وبعض قبائل شمر بقيادة محمد بن عبد المحسن بن علي ومضى قسم منهم شمالاً على الدرب المؤدية إلى الشام فرابطوا فيها. وكانت الجموع تتحرك وتتمركز بنظام دقيق وكانت مظاهر الجندية واضحة عليهم رغم أنهم لايلبسون الثياب العسكرية التي يلبسها الجنود، وكذلك كانت آثار الدعوة الإصلاحية ظاهرة في سلوكهم وفي تجمعاتهم وخطب خطبائهم وصلاتهم وقيامهم.. وكانت المراسلات متواترة بينهم وبين الأمير سعود بن عبد العزيز في الدرعية.. فقد جاؤوا بناء على أوامره وعسكروا بانتظار قدومه في موسم الحج.

استعدادات كبيرة:

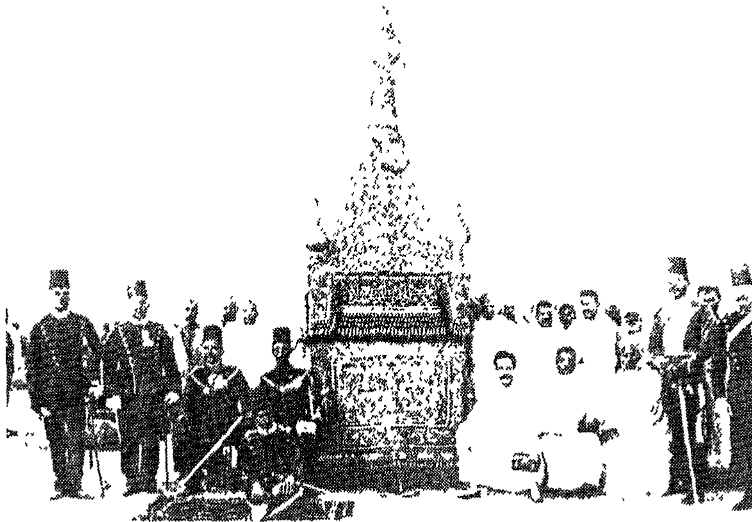
انتقلت بعض الأراجيف والشائعات التي يتداولها بعض الناس في المدينة ومكة إلى رجال الأمير سعود فنقلوها إلى أميرهم. فأصدر توجيهاته باتخاذ الحيطة خشية أن ينتهز الشريف غالب ورجاله في مكة وفي المدينة الفرصة ويحدثوا شغباً أو فتنة وازدادت ريبة السعوديين عندما رأوا تحصين القلعة والمواقع التي فيها الجنود الأتراك.. ورأوا زيادة عددهم وعرفوا أن بعض القادمين مع عبد الله باشا العظم في العام الماضي لم يعودوا بل بقوا مع زملائهم في القلعة، لذلك انتشر القادمون من نجد حول المدينة وراقبوا القلعة وأحكموا مواقعهم حولها أيضاً، وانتشروا في عدد من الأماكن المهمة في المدينة وخارجها ورابطت بعض مجموعاتهم على الطريق القادم من الشام ترقباً وحذراً.

ومالبثت أن وصلت مجموعة أخرى من نجد أصغر من المجموعتين السابقتين على رأسها فراج بن شرعان العتيبي، يحمل أوامر من الأمير سعود

بن عبد العزيز تقتضي باتخاذ أقصى درجات الحيطة ومراقبة المحمل الشامي ومنع دخول أي جنود أو مسلحين وتحذير الحجاج القادمين من إظهار شيء من البدع والمخالفات كدق الطبول أو إنشاد الأهازيج أو إقامة الموالد..

عودة المحمل:

وصلت الأخبار بأن المحمل الشامي قد دخل حدود الحجاز ويغذ السير إلى المدينة، فأرسل قائد القوة السعودية المرابطة في المدينة وما حولها رسولاً إلى أمير المحمل ليبلغه أوامر سعود بن عبد العزيز، وتوقف المحمل قريباً من المدينة.. ودهش أميره عبد الله العظم باشا، وهو والي بلاد الشام من قبل العثمانيين لهذه الأوامر، وكان قد أذعن في العام الماضي لطلبات السعوديين ولكنه استطاع أن يبقي عدداً من الجنود والسلاح في القلعة.. أما الآن فقد طلب منه أن يسلم السلاح للسعوديين ويتخلى عن (الطبول والصنوج) ويدخل المدينة دون أية مظاهر مسلحة، وسيشمل عزل السلاح حرسه الخاص وجميع رجاله.. فرفض هذه التعليمات، وآثر أن يترك الحج ويعود بالمحمل ومن معه إلى الشام..



المحمل الذي كان
يتقدم الحجاج

واستدارت قافلته وعادت دون أن تدخل المدينة(١) وانتقلت أخبار عودة المحمل الشامي إلى المدينة المنورة.. فانتهى القلق الذي سيطر على بعض الناس، وأحس آخرون بالخيبة انـ كانوا ينتظرون وصول عدد من الجنود مع المحمل لينضموا إلى الجنود المرابطين في القلعة. وكانوا يتوقعون معركة قادمة يستعيد فيها أصحاب مراكز القوى السابقين مراكزهم.. وبخاصة قادة الفرق العسكرية وأتباع الشريف غالب.. وأحس السعوديون بأن الله قد دفع عنهم فتنة ومكّن لهم في الحرمين الشريفين..

الأمير سعود بن عبد العزيز في المدينة:

ومع نهاية شهر ذي الحجة بدأت وفود الحجيج تخرج من المدينة المنورة وسافر معظم الإخوان المرابطين والقادمين من نجد إلى مكة المكرمة.. حيث التقوا مع الأمير سعود بن عبد العزيز الذي قدم من نجد في جموع ضخمة. ولأول مرة تشهد مشاعر الحج هذا العدد الهائل من الحجاج القادمين من مناطق العارض والجنوب والوشم وسدير والقصيم وجبل شمر والأحساء وبيشة وتهامة واليمن والحجاز وغيرها من المناطق التي دخلت في ظل الدولة السعودية الأولى.. فيما تشهد غيبة الحجاج (الشوام) والمصريين والعراقيين فلم يحج في تلك السنة أحد من أهل الأقطار الشاسعة لا من الشام ولا من غيره(٢) وقبل نهاية ذي الحجة وصل الأمير سعود بن عبد العزيز إلى المدينة المنورة في حشد كبير من رجاله، ودخلها وأقام في مقر الإمارة، وأحدث تغييرات جوهرية في إدارتها.. فقد عزل القاضي والمفتي الذين أرسلتهما الدولة العثمانية وأمرهما بالخروج من المدينة المنورة، وعين قاضياً من أهل المدينة المنورة الصالحين وممن فتحوا صدورهم للدعوة الإصلاحية الجديدة

---

١) عنوان المجد ١/١٧٠.

٢) عنوان المجد ١/١٧٢.

وهو (الشيخ أحمد إلياس)(١) وهو من كُتَّاب الدولة السعودية الأولى، وأخرج العسكريين الأتراك الذين ظلوا في القلعة طوال السنة السابقة وأمرهم بالرحيل إلى استانبول. فرحلوا عن طريق مصر. وأقام مكانهم مجموعة من المرابطين من أهل نجد وأمر عليهم عبد الله بن مزروع -أمير قرية منفوحة- وعين مسؤولاً آخر على ديوان الخراج وهو حمد بن يحيى بن غيهب أمير مدينة شقراء ووزع بقية المرابطين على ثغور المدينة الأخرى وأضاف إليهم بعض المرابطين من قبائل حرب وضواحي المدينة.. وبذلك انتهت السلطة العثمانية الحقيقية على المدينة المنورة وصار كل شيء فيها سعودياً(٢).

سنوات من الأمن والأمان:

وكان الأمير سعود بن عبد العزيز قد فعل الشيء نفسه في مكة فاغتاظ السلطان العثماني لذلك غيظاً شديداً وأيقن أن السعوديين لن يكونوا مثل محمد علي باشا يستقلون بالسلطة الفعلية ويعلنون الولاء للسلطان العثماني ولو اسماً.. بل يستقلون بالسلطة الفعلية والاسمية وينشرون دعوتهم الإصلاحية فيغيرون كيان المجتمع تغييراً شاملاً.. لذلك قرر مواجهة السعوديين ومحاربتهم وكانت التغيرات في مكة والمدينة (الشعرة التي قصمت ظهر البعير) وأنهت تردد العثمانيين وترقبهم.

غير أن السلطان العثماني كان مشغولاً بأمور كثيرة لاتترك له الفرصة لمواجهة السعوديين.. لذلك كتب إلى محمد علي باشا في مصر يطلب منه أن يجهز قوة كبيرة ويتجه بها إلى الحجاز ليعيد السلطة العثمانية(٣) غير أن محمد علي باشا اعتذر للسلطان العثماني وتعلل بأن الأوضاع الاقتصادية في مصر لاتمكنه من تجهيز الحملة المطلوبة. وكان محمد علي مشغولا بترتيب

---

١) انظر: عبد الرحيم عبد الرحمن، الدولة السعودية الأولى ص ٢٤١.

٢) انظر: السابق نفسه ص ١٤٧-١٤٨.

٣) انظر تاريخ الجبرتي أحداث شوال ١٢٢٢، ٣/٢٢٩.

الأحوال في مصر إدارياً وعسكرياً وتدعيم الجيش والتخطيط للتخلص من المماليك والتفرد بحكم مصر. وقد ظل يكرر اعتذاره إلى أن تمكن له الأمر في مصر وقضى على المماليك في المذبحة المشهورة عام ١٢٢٦هـ حيث قتلهم غدراً، ونهب الجنود أموالهم في عملية بالغة القسوة(١) بعدها أظهر محمد علي رغبته في تجهيز الحملة إلى الحجاز.. وبدأ يعد لها العدة وفرض على تجار مصر وصناعها إتاوات كبيرة لتجهيز الحملة وصادر عدداً كبيراً من السفن في السويس وأمر بصنع سفن كبيرة لنقل الخيل والجمال مع المقاتلين. ووصلت إلى مصر عساكر رومية كثيرة لتكون نواة الحملة(٢) وصودرت الجمال والبغال والحمير (ومن وجدوه راكباً ولو من وجهاء الناس أنزلوه عن دابته)(٣) واستمر الإعداد للحملة ستة أشهر ونصف، عانى فيها أهل القاهرة والإسكندرية وغرب البحيرة والسويس معاناة شديدة(٤). وخلال هذه السنوات من (١٢٢١- ١٢٢٦هـ) نعمت المدينة بالأمن والأمان التامين.. وانتظمت فيها الحياة في ظل الدول السعودية الأولى وكان من تقاليد هذه الدولة أن يأتي ((المرابطون)) من أنحاء نجد والأحساء والجنوب ليقيموا سنة في المدينة ويكونوا قوة حفظ الأمن والدفاع عن المدينة، وكان المرابطون يعيشون حياة تتوافق مع الاسم الذي أطلق عليهم، فيقيمون في القلعة والقصر الطيني الذي بنوه قبل دخول المدينة في سلطان الدولة السعودية، وكانوا يحرسون المدينة ليلاً ويحضون الناس على حضور صلاة الجماعة نهاراً فكانت الأسواق تغلق عند الأذان ويتجه كل من فيها إلى المساجد القريبة ولا تفتح إلا بعد أداء الصلاة، وكانت مجموعات منهم تجوب الأسواق وشوارع المدينة بين الحين

---

١) انظر تفاصيل الحادثة في تاريخ الجبرتي أحداث صفر ١٢٢٦هـ ٣/٣١٩ -٣٢٨.

٢) انظر أحداث ربيع الثاني ١٢٢٦ وجمادى الأولى ٣/ ٣٣٠ -٣٣١.

٣) انظر تاريخ الجبرتي أحداث جمادى الأولى ١٢٢٦، ٣/ ٣٣٢.

٤) تاريخ الجبرتي ٣/٣٣٣.

والآخر فلا يجرؤ المفسدون على الإتيان بشيء..

وخلال هذه السنوات لم يعد للشريف غالب نائب عنه يدير شؤون المدينة أو تكون له أدنى سلطة فيها، وكانت السلطة كلها بيد رئيس المرابطين الذي يرسله الأمير سعود.. وكانت مدة ولايته سنة كاملة أيضاً، تبدأ بوصوله في موسم الحج وتنتهي بوصول بديله في موسم الحج التالي... ولم تكن لهؤلاء القادة سمات الأمراء ومظاهرهم، بل كانوا كسائر المرابطين يعيشون حياة أقرب إلى الزهد والتقشف ويخطبون في الناس يوم الجمعة، ويحكمون فيما يعرض عليهم من قضايا وأمور، فكان المرابطون وأميرهم يقومون بعمل الشرطة والجيش والهيئة الإدارية في وقت واحد.

نذر الخطر القادم:

وفي شهر رجب عام ١٢٢٦هـ بدأ الأمر يتغير، فقد تواترت الأخبار بأن محمد علي باشا في مصر قد استجاب أخيراً لطلب الخليفة العثماني وأعد حملة كبيرة لمهاجمة الحجاز والاستيلاء عليه، ولم تكن هذه الاستجابة خالية من الهوى الشخصي والرغبة في مد النفوذ والسلطان.

وقد وصلت طلائع الحملة بقيادة طوسون بن محمد علي باشا إلى ينبع واستطاعت أن تتغلب على الحامية السعودية الصغيرة فيها وتمهد الطريق لوصول بقية سفن الحملة وإمداداتها، وقبل أن ينقضي شهر رجب كان قد تجمع في ينبع خمسة آلاف من المشاة، تعززهم قوة مدفعية، وثلاثة آلاف من الفرسان.

وكان إعداد محمد علي باشا للحملة قوياً ودقيقاً، ولم يفته أن يصبغ عليها مشروعية دينية ويحيطها بدعاية واسعة، فقد أرسل مع الحملة المفتين من المذاهب الأربعة وعدداً من الشيوخ وأبناء بعض كبار التجار والشخصيات المرموقة في مصر، وكان الجيش خليطاً من الأتراك وأبناء الأقاليم المجاورة لتركية ومن المغاربة والمصريين، وقد وجه محمد علي إبنه طوسون إلى

الاستعانة بالقبائل الحجازية قدر الإمكان ولاسيما بعض أفخاذ قبائل حرب، الذين كانت الدولة تدفع لهم مخصصات سنوية لحماية قوافل الحجاج أو بالأصح مقابل عدم مهاجمتها ونهبها..

أقام محمد علي باشا لابنه طوسون قائد الحملة استعراضاً عسكرياً كبيراً في القاهرة قبل سفره في مستهل شهر ربيع الأول ١٢٢٦ وغادر بعدها طوسون ومعه القائد محمد المحروقي على رأس مجموعة كبيرة من المقاتلين الأتراك والأرناؤوط والروم الآخرين وبعض المصريين، والأكراد والشوام ومعهم الخيول والجمال والخيام والمدافع، وسافر معه من أرباب الصنائع طائفة من كل حرفة، ومن الفقهاء أربعة يمثل كل منهم أحد المذاهب الأربعة، والشيخ أحمد الطنطاوي. وسلكوا الطريق البري إلى الحجاز بينما بدأت أفواج أخرى تنتقل بحراً إلى شاطئ قريب من ينبع بقيادة محمد المحروقي. واستطاعت القوة البحرية أن تستولي على ينبع البحر وانسحبت الحامية السعودية منها، وكاتبهم الشريف غالب يعدهم المساعدة ويشجعهم على القدوم ودخول مكة والمدينة (١) والتقى العسكر البري مع البحري في ٢١ شوال ١٢٢٦هـ وبلغ عددهم قرابة ١٤ ألف مقاتل، وهاجموا قرية السويق و موطن جابر بن جبارة الذي عينه سعود بن عبد العزيز، واضطر ابن جبارة إلى أن ينسحب ويرسل الرسل إلى الأمير سعود وإلى المدينة ينذرهم ببدء زحف الجيش الغازي ليأخذوا أهبتهم ويستعدوا لمواجهته.

وبدأ طوسون عمله في ينبع وفق توجيهات والده، فوسع الرقعة التي استولى عليها أول الأمر، ثم أرسل إلى شيوخ حرب، والقبائل الساكنة في الطريق بين الحرمين وأرسل إليهم الأموال والهدايا والوعود بالعطايا السخية إن التحقوا بهم وأعانوهم على مواجهة السعوديين، وقد أثرت هذه الإغراءات في عدد من القبائل ولا سيما القبائل التي لم تسر فيها الدعوة الإصلاحية

---

١) تاريخ الجبرتي ٣/٣٣٤ أحداث رمضان ١٢٢٦.

فاستجابت لطلب طوسون وحشدت أبناءها لمساعدته في مواجهة السعوديين.

الاستعداد للمعركة:

وطبيعي أن تضطرب المدينة المنورة لهذه الأخبار، وأن يستعد المرابطون لمواجهة الموقف الجديد والدفاع عن المدينة المنورة إن هوجمت، بل والمبادرة إلى مواجهة الحملة القادمة قبل أن تصل المدينة، وبدأت الاستعدادات لذلك فرممت الأجزاء الضعيفة في سور المدينة وفي القلعة، واستحلت الأسلحة والذخائر ووزع قسم منها على المرابطين، وخزن قسم آخر، وأقبل الناس على البر والتمر، ومايمكث من الطعام يخزنونه، وجاءت توجيهات الأمير سعود بن عبد العزيز بالتجهز والمسير إلى الجيش القادم ومقاتلته تحت قيادة عبد الله بن سعود بن عبد العزيز، وتقاطر المتطوعون للقتال من ضواحي المدينة بانتظار وصول أوامر التحرك، وفي الوقت نفسه كان الرجال يتجمعون في نجد والجنوب وتهامة وقرى الحجاز عند أمراء المرابطين للانخراط في حملة المواجهة، وبدأ مسير هذه الحملة من نجد، وكلما مرت على منطقة التحق بها المتطوعون، واتجه الجميع صوب المدينة المنورة.

وصلت الجموع المدينة المنورة فالتحق بها فريق آخر من المتطوعين وواصلت الحملة سيرها حتى نزلت عند وادي الصفراء على بعد ١٢٠ كم جنوب غرب من المدينة المنورة وبدأت تستعد لمواجهة الجيش الغازي الذي تحرك من ينبع، رتب عبد الله بن سعود بن عبد العزيز قواته التي بلغ عددها نحو ثمانية عشر ألف مقاتل وثمانمائة فارس(١) وأنزل مجموعة كبيرة بقيادة مسعود بن

---

١) عنوان المجد ١/١٩١.

مضيان (١) في طرف وادي القصر من جهة الجنوب كي لايباغتهم الجيش الغازي فشرعوا بإقامة المتاريس والخنادق ومراكز المراقبة والتجمع وظل بقية الجيش أعلى الوادي منتشرين في السهل وبين التلال المتناثرة. وشرعوا بإقامة المتاريس ومراكز المراقبة أيضاً واستقرت الجموع في صفوف حصينة قادرة على الاتصال فيما بينها بسهولة..

مقدمات المعركة:

علمت طلائع الجيش الغازي بوصول جيش عبد الله بن سعود ونزوله في الصفراء فنقلت ذلك إلى قيادتها فأمر طوسون باشا الجيش بالزحف ومهاجمة الجيش السعودي. ولم ينتظر عبد الله بن سعود وصول الجيش الزاحف فأمر طليعة من جيشه تتألف من مجموعة من الفرسان والمشاة بالتقدم ومهاجمة طلائع الجيش الغازي ليكشف حجم قوته واستعداداته وليستجره إلى أرض المعركة التي اختارها الجيش السعودي. وتحركت الطليعة وكان عددها بضع مئات (٢) واستعد لهم الجيش الغازي، وجعل في مواجهتهم أبناء المنطقة نفسها الذين التحقوا به فطلب طوسون باشا من شيخ الحويطات، وكان قد حالفه لقاء مبلغ كبير من المال، أن يتصدى للطليعة السعودية القادمة، فتحرك شيخ الحويطات، مع مجموعة كبيرة من رجاله وفاجأ الطليعة السعودية قبل شروق الشمس وهي تستعد لمواصلة تحركها. ودارت معركة قصيرة، استفاد فيها عرب الحويطات من المفاجأة، وملكوا زمام المعركة، وقتلوا عدداً من أفراد الطليعة وزعزعوا صفوفهم.. فقرر قائد الطليعة الانسحاب والنجاة بمن معه خشية أن يطبق عليهم بقية الجيش الغازي.. فانسحب من المعركة مخلفاً

---

١) السابق.

٢) ويقدرها الجبرتي بسبعة آلاف ولكن تقديره غير دقيق ٣/٣٣٦.

وراءه اثنين وثلاثين قتيلاً وسبعين هجيناً(١) ورغم إصابة الطليعة بهذه الخسارة فإنها قد نجحت عسكرياً في تحقيق أهداف مهمة. كان لها أثر كبير في حسم المعركة الكبيرة القادمة..

فقد أوهمت هذه النتيجة الأولية قادة الجيش الغازي بأن القوة السعودية ضعيفة وقليلة الشأن، فأصدروا أوامرهم بالتحرك السريع ومهاجمة بقية القوة السعودية في وادي الصفراء، قبل أن يتأكدوا من عددهم الحقيقي، وقبل أن يعرفوا حجم قدراتهم ومدى تحصنهم.. فتحرك الجيش الغازي في ١٧ ذي القعدة ١٢٢٦هـ ووصل إلى أطراف وادي الصفراء. فواجه أحد المتاريس المتقدمة.. فهاجمه بقوة واستولى عليه، ثم هاجم موقعاً آخر واستولى عليه. ورأى الجيش الغازي المتاريس موزعة في أعلى الوادي فاتجه قسم منه إلى أعلى الوادي بينما بقي القسم الآخر في طرفه السفلي يزحف على المتاريس ومواقع القوة السعودية وتحصيناتها وكانت قليلة ومعظمها أشبه بالشراك الخداعية..

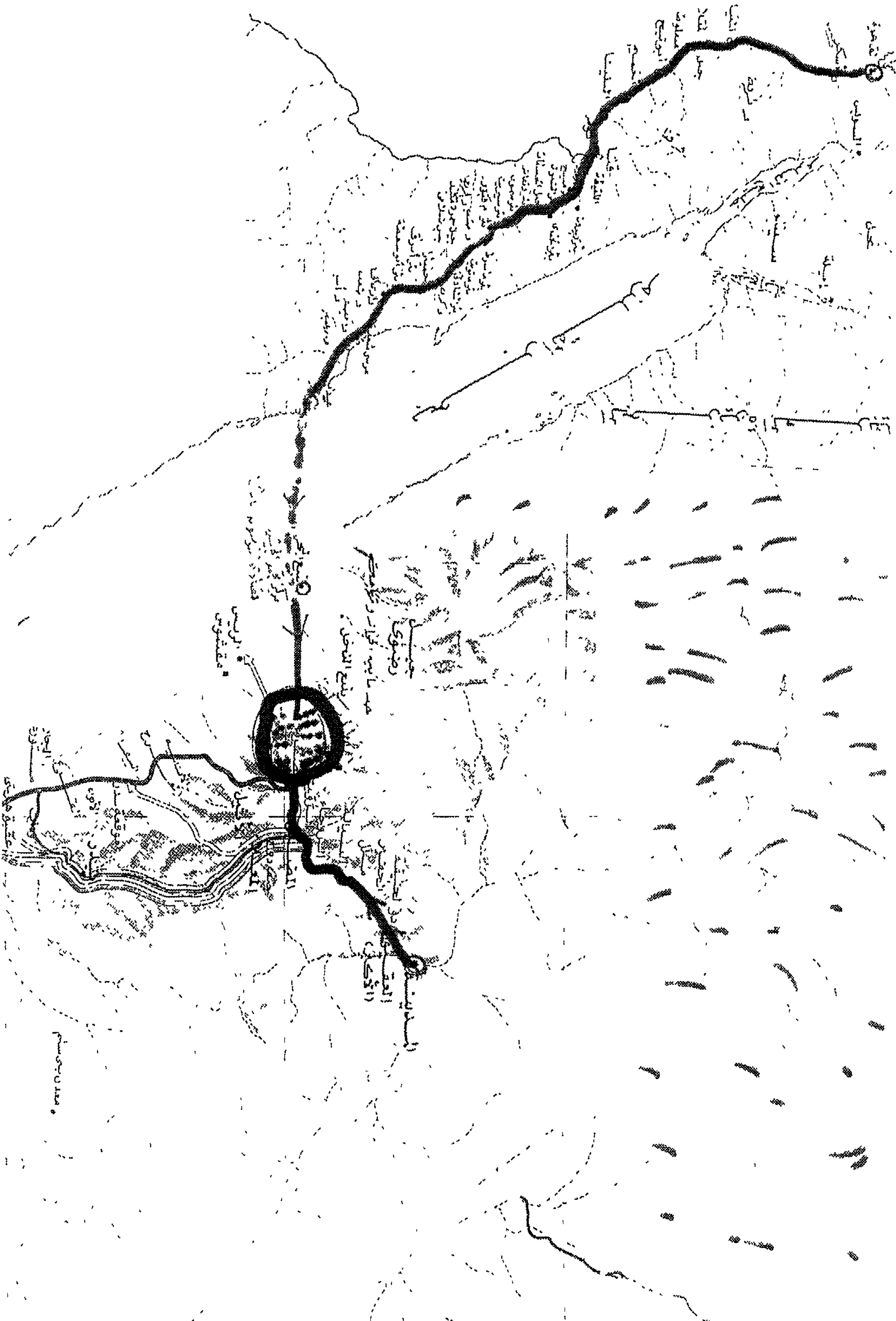
معركة وانتصار:

وعندما وصلت القوة الزاحفة إلى أعلى الوادي فوجئت بالأعداد الكبيرة التي تنتظرها. وفوجئت بتحصيناتها القوية.. وبدأ الصدام عنيفاً. وانطلق رصاص البنادق في حين تعطلت فاعلية المدفعية القوية التي يملكها الجيش الغازي لأنها بقيت في بطن الوادي وسفحه.. وهاجم الجيش السعودي القوات المتسلقة وكان معظمهم من الأتراك وأوقعوا فيهم خسائر كبيرة.. ولكن الأتراك صمدوا، واستنجدوا بإخوانهم فتوجهت إليهم الخيالة من طرق ضيقة إلى الجبل واستمرت الاشتباكات أعلى الوادي عند طرف الجبل والسهل الذي يليه. وكثر القتلى في الطرفين.. وازداد وصول الأتراك والمصريين إلى أعلى الوادي وحملوا حملات عدة على الجيش السعودي وانهزم بعض الأعراب الذين التحقوا

---

١) عنوان المجد ٣/١٩٢ والجبرتي ٣/٣٣٩.

بالجيش السعودي فأحدثوا خلخلة في صفوفه، وسارع عبد الله بن سعود إلى سد الثغرات وأرسل إلى مسعود بن مضيان، وكان يقود مجموعة رجال حرب في طرف الوادي، وطلب منه أن يترك الوادي ويهاجم الأتراك من خلفهم، فتحرك سعود بن مضيان ووصلت طلائعه في اليوم الثاني ونجحت الخطة فانحصر الأتراك بين رجال ابن مضيان ورجال عبد الله بن سعود واشتد القتال وسقط عدد كبير من القتلى.. ومالبث الأتراك أن شعروا بضعف موقفهم فبدؤوا بالهزيمة ولم يكن لهم سوى النزول إلى بطن الوادي حيث ينتشر بقية زملائهم. فهربوا إليهم في حالة كبيرة من الذعر والفوضى.. وقد أحدث نزولهم زلزلة كبيرة في إخوانهم.. فذعروا أيضاً وشاركوهم في الفرار، ويصف الجبرتي حالة الفوضى التي وقعت في الجيش الغازي فيقول: وطلبوا جميعاً الفرار وتركوا خيامهم وأحمالهم وأثقالهم، وطفقوا ينهبون ويخطفون ماخف حمله من أمتعة رؤسائهم، فكان القوي منهم يأخذ متاع رفيقه الضعيف ويأخذ دابته ويركبها وربما قتله وأخذ دابته، وساروا طالبين الوصول إلى السفائن بساحل البر لأنهم كانوا أعدوا عدة مراكب بساحل البر من باب الاحتياط ووقع في قلوبهم الرعب، واعتقدوا أن القوم في أثرهم والحال أنهم لم يتبعهم أحد لأنهم (السعوديين) لايذهبون خلف المدبر ولو تبعوهم مابقي فيهم شخص واحد. فكانوا (المهزومون) يصرخون على القطائر (السفن) فتأتي إليهم القطيرة وهي لاتسع إلا القليل فيتكاثرون ويتزاحمون على النزول فيها، فيصعد منهم الجماعة ويمنعون البواقي من إخوانهم فإن لم يمتنعوا مانعوهم بالبنادق والرصاص، حتى كانوا من شدة حرصهم وخوفهم واستعجالهم على النزول في القطائر يخوضون في البحر إلى رقابهم وكأنما العفاريت في أثرهم تريد خطفهم. وكثير من العسكر والخدم لما شاهدوا الازدحام ذهبوا مشاة إلى ينبع البحر، ووقع التشتيت في الدواب والأحمال والخلائق من الخدم وغيرهم. ورجع طوسون باشا إلى ينبع البحر بعد أن



معركة وادي الصفراء بين قوات محمد علي باشا والقوات السعودية

تغيب يوماً عن معسكره حتى أنهم ظنوا فقده(١).

ولقد أظهرت القوة السعودية مثالية عالية عندما أحجمت عن سحق القوة الغازية المنهزمة وكان ذلك يسيراً عليها.. سواء بتعقب الغازين وقتلهم أو أسرهم.. ولكن الخلق الإسلامي الذي تحلت به، والتي شهد بها الجبرتي جعلتهم (لايذهبون خلف المدبر) ولم يكن في ذهن السعوديين أن الجيش الغازي لن يلتزم في محاربتهم -فيما بعد- بأي من هذه الأخلاق والقيم.. ولو أنهم عاملوا الجيش الغازي بمثل مافعله في ينبع وأطرافها عندما استولى عليها لسحقوه وغيروا مجرى الأحداث.. ولكن -وليقضي الله أمراً كان مفعولاً- اقتصر المنتصرون على طرد الغزاة من الموقعة ولم يستثمروها في إنهاء وجود الحملة كلها والاستيلاء على مركز قيادتها الضعيفة آنئذ في ينبع.

نتائج المعركة وتحليلاتها:

وكانت آثار الهزيمة ضخمة على أفراد الحملة وقادتها.. فقد قتل منهم -كما يقدر ابن بشر- أربعة آلاف رجل، بينما قتل من السعوديين نحو سبعمائة رجل، ورحل عبد الله بن سعود بعدها إلى مكة المكرمة حاجاً والتقى بأبيه وحمل إليه بشائر النصر..

أما آثارها على القائد الأعلى للحملة -محمد علي باشا- فكانت محدودة جداً لأن تمرسه بالحرب وعدم استئصال الحملة -رغم ضخامة عدد القتلى- جعلاه ينظر إلى الأمر على أنه موقعة خسرها ولابد أن يعوضها بموقعة أخرى قادمة، لذلك يذكر الجبرتي أن الباشا لم يتزلزل، واستمر على همته في

---

١) الجبرتي: ٣/٣٣٦-٣٣٧.

تجهيز عساكر أخرى(١) وسمح لقادة الحملة الفاشلة ولعدد كبير من رجالها بالعودة إلى مصر. لأنه أدرك أن الرعب قد ركبهم وأنهم لن يقدروا على مواجهة السعوديين ثانية.. وقد عاد المهزومون وقادتهم في أسوأ حال إلى مصر، ووقع بعضهم في بعض، كل فريق منهم يلقي اللوم والتبعة على الفريق الآخر.

يقول الجبرتي: وطفقوا يتهم بعضهم البعض في الانهزام، فتقول الخيالة: سبب هزيمتنا القرابة والطليقة، وتقول القرابة بالعكس(٢) ويحلل الجبرتي نتائج المعركة ويسأل عدداً من المشاركين في الحملة ويصل من إجاباتهم إلى فهم واع للأسباب الحقيقية للهزيمة، يوردها على لسان (أكابرهم من الذين يدعون الصلاح والتورع) حيث يقولون: أين لنا النصر وأكثر عساكرنا على غير الملة، وفيهم من لايتدين بدين، ولا ينتحل مذهباً، وصحبتنا صناديق المسكرات، ولايسمع في عرضينا أذان، ولاتقام به فريضة، ولايخطر في بالهم ولافي خاطرهم شعائر الدين. والقوم -السعوديون- إذا دخل الوقت أذن المؤذنون، وينتظمون صفوفاً خلف إمام واحد، وبخشوع وخضوع. وإذا حان وقت الصلاة والحرب قائمة أذن المؤذن، وصلوا صلاة الخوف، تتقدم طائفة للحرب، وتتأخر الأخرى للصلاة، وعسكرنا يتعجبون من ذلك لأنهم لم يسمعوا به، فضلاً عن رؤيته، وينادون في معسكرهم: -أي السعوديون- هلموا إلى قتال المشركين، المحلقين الذقون، المستحبين الزنا واللواط، الشاربين الخمور، التاركين للصلاة، الآكلين الربا، القاتلين الأنفس، المستحلين المحرمات، وكشفوا عن كثير من قتلى العسكر غلفاً غير مختونين. ولما وصلوا -أي الغزاة- إلى بدر واستولوا عليها وعلى القرى والخيوف، وبها خيار الناس، وبها أهل العلم والصلحاء، نهبوهم، وأخذوا نساءهم وبناتهم

---

١) الجبرتي ٣/٣٣٨.

٢) الجبرتي ٣/٣٤١.

وأولادهم وكتبهم، فكانوا يفعلون فيهم، ويبيعونهم من بعضهم لبعض(١).

إذا كانت شهادة الجبرتي، وهو ابن ذلك العصر، والرجل الذي كان يستقصي الأخبار ويسمعها ممن شاركوا فيها تصف واقع الطرفين الغزاة والسعوديين، فإنها تكشف أيضاً عن طبيعة الصراع ودوافعه.. فمحمد علي باشا ينفذ رغبة الدولة العثمانية من جهة ويستجيب لطموحه السياسي الكبير في إظهار قوته ومد نفوذه.. ولم يكن لدخوله في المعركة أي دافع عقدي أو قومي أو وطني. لذلك كان جيشه أشبه بالمرتزقة يضم في صفوفه أشتاتاً من العالم الإسلامي من المغرب إلى البلقان.. وكان بعض المجندين من هذه الشعوب -وبخاصة القادمين من البلقان- غير متدينين على الإطلاق وبعضهم مازال متأثراً بالنصرانية المحيطة به في بلده بدليل أنه غير مختون. وبعضهم ينهب ويسرق ويسبي النساء.. ويرتكب الفظائع حيثما حل.. لذلك يعجب المرء من الصفة الدينية التي حاول رجال الدولة في استنبول، ومحمد علي باشا في مصر أن يضفيها على الصراع مع السعوديين، ويدرك مدى تهافتها. وبالمقابل كان الجيش السعودي -كما صوره الجبرتي- نموذجاً للمقاتل المسلم الذي يدفع عنه البغي.. وكان ملتزماً التزاماً دقيقاً بالآداب الإسلامية وأخلاق الحرب..

ورغم مشاعر الإكبار التي يمتلئ بها من يقرأ التاريخ فإن المرء يتمنى لو أن السعوديين واجهوا الحملة الغازية آنئذ بما يكافئ تصرفات رجالها، وقضوا عليها -ولو بالأسر الكامل- ليدخلوا في قلب محمد علي باشا الذعر كما أدخلوا في قلب قادة الحملة ورجالها.. فيوقف تلك الحرب القائمة ويعتذر للدولة العثمانية كما اعتذر لها مدة ست سنوات من قبل.. ولكن التاريخ لاتصنعه أمنيات لاحقة.

مابعد النصر:

تأثرت المدينة المنورة -كما تأثرت سائر مدن الحجاز ونجد آنئذ- بأخبار

---

١) الجبرتي ٣/٣٤١-٣٤٢.

النصر، وأحست أن الخطر الذي كاد أن يدهما قد انحسر عنها، فذهب عدد كبير من أهلها إلى الحج، كما ذهب المشاركون في حملة عبد الله بن سعود، والتقى الجميع بالأمير سعود بن عبد العزيز قائد الدولة السعودية، وكانت فرحة الانتصار تعم الجميع وتسهم في صرفهم عن متابعة العدو وإخراجه من أرض الحجاز كلها. ولم يكن في موسم الحج هذا العام أحد من تركيا أو الشام أو مصر. لذلك كاد الموسم أن يكون مخصصاً لسكان شبه الجزيرة العربية، ومن وفد من الشرق.. لولا أن حضر ركب مغربي، جازف في عمق الأحداث وجاء إلى مصر، وسافر منها إلى أرض الحجاز غير مبال بالمعارك الدائرة في تلك المواقع. وقد التقى الأمير سعود بحجاج الركب المغربي، وأكرمهم إكراماً شديداً نوه به الجبرتي في تاريخه(١).

وبعد انتهاء الموسم رتب الأمير سعود قوة جديدة لتكون في حماية المدينة المنورة وغربي الحجاز، ولتواجه أي هجوم يمكن أن تشنه القوات الباقية في ينبع، فأرسل إلى المدينة قرابة سبعة آلاف مرابط(٢) من أهل نجد واليمن والحجاز وأمرهم أن يتمركزوا في القلعة والحصون المنتشرة في المدينة وحولها لحفظ المدينة المنورة(٣) وعاد الأمير سعود ومعه ابنه عبد الله إلى نجد ومعهم بقية العساكر والأتباع ليقوم بحملات تأديبية على المناطق الشرقية قرب العراق(٤) ولعله كان يستشعر الخطر هناك لذلك سحب معظم الجيش من الحجاز قبل أن يتفاقم خطر الجيش القامع في ينبع..

ووصلت القوة الجديدة إلى المدينة المنورة، وتوزعت بين القلعة والقليعة والحصون المحيطة بأطراف المدينة، وواصل مبارك بن مضيان تصريف شؤون

---

١) الجبرتي ٣/٤٥.
٢) عنوان المجد ٣/١٩٥.
٣) السابق ٣/١٩٣.
٤) السابق ١/١٩٣.

الإمارة وعاشت المدينة المنورة شهوراً قليلة على النهج الذي كانت عليه منذ أن دخلت تحت سلطة الدولة السعودية، وأصيب عدد من الجنود الوافدين بحمى المدينة لأنهم لم يألفوا جوها بعد.

بذور العاصفة:

وفيما كانت المدينة تعيش حياتها العادية، كانت الأمور تطبخ في مصر وينبع لإخراجها من حياتها العادية هذه، بل لإخراجها من السلطة السعودية كلها. فمحمد علي باشا الذي لم يتزلزل لهزيمة حملته الأولى اشتد في تجهيز حملة أخرى قوية.. وجمع لها الأموال الطائلة بكل طريقة، وأقام معسكراً قرب القلعة ليجمع فيه الجنود وأرباب الحرف والصناعات كالخبازين والنجارين والحدادين.. وغيرهم لتسفيرهم إلى الحجاز وكلما تجمع قرابة الخمسمائة نفر أمر بتسفيرهم فوراً بالبحر عن طريق السويس. واختار محمد علي باشا واحداً من قادته المهرة هو -أحمد بونابرته- وكلفه بقيادة الحملة ونفى من استعجل بالهزيمة والرجوع من غير أمره، ومن يخشى صولته لأنه يرى في نفسه أنه أحق بالرياسه وأخرجهم من مصر واستراح منهم(١) ورسم بنفسه سياسة ماكرة لقائده الجديد.. فأمره أن يصرف كل جهده حالما يصل إلى ينبع في تأليف القبائل المنتشرة بين الحرمين، ويستعين بشيخ الحويطات الذي كان منحازاً إليهم، وأفهمه أن سبب الهزيمة في الموقعة السابقة هو مشاركة بعض قبائل حرب ومنطقة وادي الصفراء -الذين انتشرت فيهم الدعوة الإصلاحية- في القتال إلى جانب القادمين من نجد، وأنهم الآن مجهدون (الوهابية) لايعطونهم شيئاً، ويقولون لهم قاتلوا عن دينكم وبلادكم.. فإذا بذلتم لهم الأموال، وأغدقتم عليهم بالإنعام والعطاء إرتدوا، ورجعوا، وصاروا

---

١) الجبرتي ٣/٣٩٦.

معكم، وملكوكم البلاد)(١) واجتهد الباشا في جمع الأموال بأي وجه كان، واستأنف الطلب ورتب الأمور، وأشاع الخروج بنفسه، ونصب العرضي -معسكر التجمع- وجلس بالصيوان.. وقرر بالسفر إلى المقدمة بونابارته الخازندار، وأعطاه صناديق الأموال والكساوي.. واستمر العرض منصوباً، والطلب كذلك مطلوباً والعساكر واردة..(٢) وقد نفذ بونابارته سياسه محمد علي باشا بدقة وبدأ بمراسلة كل من الشريف غالب في مكة ورؤساء العشائر حول المدينة. وركز جهوده على شيخ قبيلة حرب واستعان بشيخ الحويطات الموالي لهم (وذهب إليه ابن شديد الحويطي ومن معه، وتقابلوا مع شيخ حرب، ولم يزالوا به حتى وافقهم وحضروا به إلى بونابرته فأكرمه وخلع عليه الخلع، وكذلك على من حضر من أكابر العربان، فألبسهم الكساوي والغراوى السمور والشالات الكشميري، ففرق عليهم من الكشمير ملء أربع (صناديق)، وصب عليهم الأموال، وأعطى لشيخ حرب مائة ألف فرانسة وحضر باقي المشايخ، فخلع عليهم، وفرق فيهم، فخص شيخ حرب للمرة الثانية بمفرده ثمانية عشر ألف فرانسة، ثم رتب لهم علائف تصرف لهم في كل شهر، لكل شخص خمسة فرانسة (وغرارة بقسماط وغرارة عدس). فعند ذلك ملكوهم الأرض(٣).

وقد أسهم الشريف غالب بجهود كبيرة في استمالة مشايخ القبائل وتأليبهم ضد السعوديين، وأظهر ولاءه لمحمد علي باشا بعد أن كان يكتمه وحرك بعض رجاله في مكة وجدة.. وسارع الأمير سعود بن عبد العزيز إلى إرسال ولده عبد الله وقائده عثمان المضايفي إلى المنطقة وأمرهم أن يعسكروا في وادي فاطمة قرب مكة تحسباً للأمر..

---

١) الجبرتي ٣/٣٩٦.

٢) الجبرتي ٣/٣٩٦.

٣) الجبرتي ٣/٣٩٧.

وبدأت الأخبار تتوارد إلى المدينة المنورة بما يجري.. وكان بعض الحربيين المترددين على المدينة يقومون بمهمات عدة.. منها نقل الأخبار ومنها استمالة أقاربهم المقيمين بالمدينة والمشاركين مع المرابطين في الدفاع عنها والإرجاف بالقوة الهائلة التي تتجمع يوماً بعد يوم في ينبع وإغراء الحربيين قادة وجنوداً بالتوجه إلى بونابرته وأخذ عطاياه والتخلي عن المرابطة والدعوة الإصلاحية.. وقد نجحوا في استمالة عدد قليل من أقاربهم ومعارفهم، فمنهم من ترك المدينة، ومنهم من بقي فيها ليكون له دور آخر في الأحداث القادمة..

كان عبد الله بن سعود يتوقع أن يبدأ زحف بونابرته نحو مكة، بعد أن أظهر الشريف غالب ولاءه لمحمد علي باشا، ودعا بونابرته إلى التوجه بجيوشه نحوها وتملكها.. لذلك رابط في وادي فاطمة استعداداً لملاقاة هذه الجيوش.. غير أن بونابرته عندما نجح في استمالة عدد كبير من مشايخ حرب وجهينة وقبائل أخرى مقيمة بين ينبع والمدينة قرر أن يتوجه إلى المدينة المنورة ويحتلها بمساعدة الذين والوه. فسافر في أوائل شوال وسارت معه القبائل الموالية. ونزلوا حول المدينة في منتصف شوال عام ١٢٢٦هـ..

حصار المدينة:

كانت القوة المرابطة في المدينة لاتتعدى سبعة آلاف مقاتل وقد أصيب عدد منهم بالأمراض والأوبئة. وتوفي بعضهم، وعندما فاجأهم الزحف أغلقوا أبواب المدينة وتحصنوا بقلعتها وحصونها وجهزوا مدافعهم وأسلحتهم للقتال. ولم يكن بمقدورهم أن يخرجوا إلى الأعداد الضخمة التي حاصرت المدينة من كل صوب وبدأت تقترب من أسوارها..

وهكذا عادت المدينة إلى أجواء الحرب التي نسيتها منذ سنوات عدة. ودوت أصوات القذائف في سمائها وتوالت الانفجارات هنا وهناك، وانطلقت من المدافع المركزة في أطراف القلعة قذائف مضادة تنصب على الأعداد الهائلة

المحيطة بسور المدينة.. وانطلقت أصوات البنادق بالرصاص المنهمر وتترس المرابطون خلف فتحات السور العلوية وأطلقوا رصاص بنادقهم. وتساقط عدد كبير من المهاجمين وعدد أقل من المرابطين، ومضى اليوم في إطلاق الرصاص وقذائف المدفعية بكثافة شديدة، وانقطعت حركة المصلين المترددين إلى المسجد النبوي أول الأمر ولم يؤذن في المنارات خشية سقوط القذائف على القادمين إلى المسجد ولكن عندما رأى أهل المدينة أن النار مركزة على القلعة وأطراف السور وتجمعات المقاتلين جاءت أعداد منهم لتقيم الصلاة في المسجد النبوي.

وجاء اليوم الثاني ليتجدد القتال وتشتد ظروفه وحاول بعض الجنود الأتراك والأرناؤوط وضع السلالم على السور وتسلقه. ولكن المرابطين أفشلوا المحاولة وقتلوا المهاجمين.. ووجهت قذائف المدفعية إلى الباب وأخذت تقصفه بشدة لتهدم أطرافه وتصنع ثغرة ينفذ منها المهاجمون فسلط المرابطون نيرانهم على المدفعية نفسها وقللوا خطرها، ومع ذلك بدأت ثغرات صغيرة تظهر في أطراف السور قرب الباب. ومضى اليوم الثاني في قصف شديد ومحاولات فاشلة لاقتحام السور، واستمر القتال في اليوم الثالث وسقطت قذائف كثيرة على الأحياء الداخلية وقرب المسجد النبوي وبدأت تصيب السكان الذين هرعوا إلى بيوتهم واختفى الناس من الشوارع والطرقات، فلم يعد بها إلا بعض المرابطين بين أطرافها والذين ينقلون الذخيرة أويحملون مصاباً أو يأتون بالطعام إلى إخوانهم..

واستمر الأمر على هذه الحال أياماً أخرى.. اشتد فيها الحصار واشتدت المقاومة، وكان المرابطون في غاية اليقظة والنشاط، يتناوبون الحراسة أعلى السور وفي أبراج القلعة ويطلقون الرصاص وقنابل المدافع القليلة على خصومهم ويدققون في الرمي ماستطاعوا كيلا تطيش ذخيرتهم المحدودة..

وتوالت الأيام والحصار يشتد والقصف مستمر وفي كل يوم يسقط عدد

من الشهداء والجرحى. وبينما كانت الذخيرة والمؤن تتواصل إلى جيش المهاجمين كانت تشح في المدينة، وكان المرابطون يأملون أن يصلهم مدد من إخوانهم المرابطين في وادي فاطمة، أو من نجد أو من بوادي الحجاز.. ولكن طوسون باشا ورجاله كانوا متيقظين لكل محاولة تسلل من المدينة أو إليها فاستطاعوا قطع الاتصال بينها وبين الأرجاء الأخرى قطعاً كاملاً..

محاولات الاقتحام:

وبعد عشرة أيام من الحصار الشديد والقصف المتبادل أدرك طوسون باشا وقادة جيشه أنه قد لايتمكن من القضاء على مقاومة المحاصرين واحتلال المدينة.. وقد تصل إليهم نجدة تأخذهم من خلفهم، لذلك قرر أن يقتحم المدينة بأي شكل. وبعد مشاورات مطولة استقر الرأي على أن يبدأ العمل في اتجاهين. اتجاه عسكري يعمل على نسف جزء من السور وإدخال الجيش منه وقطع جميع موارد المياه عن المدينة بما فيها أقنية عين الزرقاء. واتجاه سياسي يعمل على استمالة بعض سكان المدينة وإغرائهم بإحداث فتحة داخل السور وفتح أحد الأبواب.. وانتدب للعمل الأول مجموعة من الجنود الأتراك والخبيرين في شؤون القنابل والبارود، وانتدب للعمل الثاني عدداً من مشايخ القبائل المرافقين للحملة، وبالذات الذين لهم معارف أو أقارب داخل المدينة ليتصلوا بهم عبر السور أو من جوانب هادئة ويرمون إليهم أكياس المال ويمنونهم الأماني ليفتحوا لهم أحد الأبواب، وقامت فئة من الجنود والمهندسين بالبحث عن أقنية المياه الواردة إلى المدينة وساعدهم في ذلك بعض أبناء القبائل، وعثروا على فتحة قريبة فسدوها وردموها بالتراب، وشرع العسكريون يحفرون حفرة غير بعيد عن السور واستتروا بتلة ترابية قديمة تحميهم من رصاص الجاثمين خلف السور. حتى إذا ما بلغوا في الحفرة مقدار مايغيب الرجل وجهوا فؤوسهم ومعاولهم باتجاه السور وبدءوا بحفر سرداب طولي وكانت أرض المدينة الطينية تساعدهم على سرعة الإنجاز

فليس ثمة صخور تعوقهم.. ولكيلا يفشل المشروع بدءوا الحفر في أكثر من جهة حتى إذا عوقهم معوق في جهة عوضوا عنها في الجهة الأخرى. وتناوب الرجال على الحفر وامتدت السراديب حتى وصلت إلى أسفل السور.. ثم حشيت بالبارود استعداداً لإحداث انفجار شديد يهدم مافوقها من السور..

وفي الوقت نفسه نجح بعض مشايخ القبائل ورجالهم في الاتصال بعدد من معارفهم وأقاربهم في المدينة وألقوا إليهم أكياس الطعام الذي بدأ ينفد في المدينة وأكياساً من المال وواطؤوهم على أن يفتحوا لهم الباب الشرقي الذي لم يشتد عليه الحصار..

ودخل شهر ذي القعدة منهياً خمسة عشر يوماً من الحصار الشديد والقصف المتبادل. وسقط عدد من القتلى في الجانبين وتهدمت بعض الدور في المدينة المنورة وأصيبت الأسوار إصابات كثيرة ولكنها لم تصل إلى درجة الثغرة..

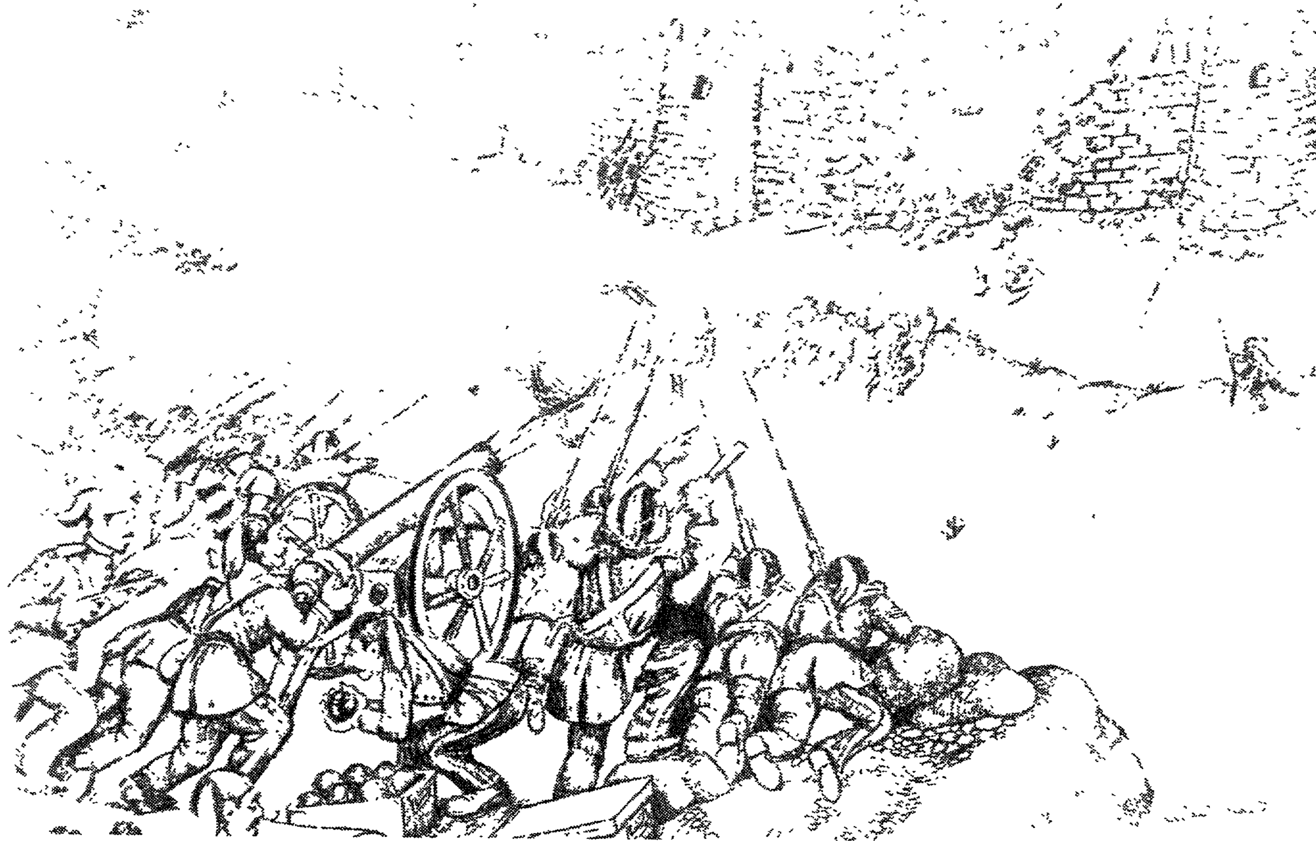
المعركة الأخيرة:

وفي صباح اليوم الأول من ذي القعدة اشتد القصف على السور من جهة الباب الشامي وسقطت قنابل كثيرة على الجدار الذي يحمل الباب ولكنه لم يسقط في ذلك اليوم.. وفي الوقت نفسه اشتد الضرب على باب المصري وباب قباء بينما قصف باب البقيع قصفاً بسيطاً ثم توقف القصف عنه لتحويل الأنظار إلى الأبواب الأخرى وترك المجال للمتواطئين داخل المدينة لفتحه. وتحدد موعد فتحه صباح اليوم الثاني فتسلل تحت جنح الليل عدد كبير من الجنود الأشداء ورابطوا على مقربة منه وأعدت المدافع لقصف الأبواب الأخرى وبخاصة الباب الشامي..

وقبيل شروق شمس اليوم الثاني من ذي القعدة تحولت المنطقة إلى جحيم ملتهب، فقد بدأ القصف بشدة لم تحدث من قبل وسقط الجزء العلوي من السور فوق الباب وبدت ثغرات صغيرة عدة على جانبيه.. ثم دوى انفجار

رهيب اهتزت له دور المدينة كلها وتساقط الزجاج في بعضها وارتجت شبابيك الحرم.. فقد فجر الجنود شحنة البارود التي وضعوها في السرداب وتهاوى جزء من السور وتراكمت أحجاره حول الحفرة التي صنعها الانفجار، وتحطم الباب وتناثرت بعض أخشابه، وسقط عدد كبير من المرابطين فوق السور وطار بعضهم في الهواء ثم سقط صريعاً، وفتحت ثغرة واسعة تتسع لعدد من الرجال والخيول والمدافع، وقبل أن ينجلي غبار الإنفجار كانت مجموعات من الجنود تندفع بسرعة من الثغرة متسترة بالغبار والدخان، تطلق النار بغزارة، فاستطاعت أن تتجاوز السور وتدخل داخل المدينة وتصلي بنيران بنادقها المرابطين الذين أذهلهم الانفجار، فسقط من سقط وجرح الآخرون وتراجع من بقي لديه شيء من الوعي.

اشتد الأمر على المرابطين، وفوجئوا بالقذائف تتساقط عليهم، وتساقط الشهداء هنا وهناك، وثبتوا، وطلبوا النجدة من زملائهم في أطراف السور فاتجهت إليهم مجموعات كبيرة منهم وتركت حاميات صغيرة عند الأبواب، ولكنهم استبسلوا في القتال والمقاومة والتحموا مع المقتحمين بالسيوف والخناجر (والبواريد) وأوقفوهم عن التقدم، ثم أخذوا يدفعونهم إلى خارج السور وأوقعوا فيهم خسائر جسيمة، وكان طوسون باشا يشرف بنفسه على عملية الاقتحام وحوله عدد من قادته، فأمر بالإسراع في اقتحام باب آخر لتخفيف الضغط عن رجاله الذين بدؤوا بالتراجع، واستغل القائد المسؤول عن تسريب الجنود عند الباب الشرقي -باب البقيع- الفرصة ووجه مشايخ القبائل إلى الاتصال بأصحابهم والاستفادة من فرصة انشغال عدد كبير من المرابطين في مواجهة الجنود الذين اقتحموا الثغرة، ومهاجمة الحامية الصغيرة الباقية عند الباب الشرقي وفتحه، ونفذ المتواطئون مع الجيش الغازي ماائتمروا عليه وطلبوا من المرابطين اللحاق بزملائهم عند الثغرة مدعين أنهم سيقومون بحماية الباب وما حوله، وما أن ذهب المرابطون لنجدة زملائهم حتى فتحوا



وتمّ تفجير السور لإحداث ثغرة فيه.

الباب فاندفع إليه الجنود المختبئون من الليل بأسلحتهم وسيطروا على الباب والزقاق الذي يمتد فيه، وجاءت وراءهم مجموعة أخرى فاندفعت داخل المدينة وتبعهم عدد كبير من الرجال يجرون ثلاثة مدافع ويحملون صناديق القنابل، وانطلق الجميع مخترقين الجهة الشمالية للمدينة يطلقون النار بغزارة، وركز الجنود الذين يجرون المدافع مدافعهم في ساحة السوق القديم قرب مسجد أبي ذر، وأخذوا يطلقون القذائف على القلعة والمرابطين المتجمعين قربها والصفوف الخلفية للذين يقاتلون عند الباب الشامي، إشتدت الوطأة على المرابطين والمدافعين وتناثرت جثث الشهداء بأعداد كبيرة، وحاصرت قذائف المدافع البنادق والمرابطين من ثلاث جهات، ولم يبق لهم إلا أن ينسحبوا إلى القليعة، وصدرت الأوامر من قائد المرابطين الذي كان قرب الثغرة بالانسحاب إلى القليعة والتترس بها لشن هجوم آخر، وبدأ تراجع المرابطين وازدادت أعداد الشهداء، وبالمقابل سقط عدد كبير من الجنود المهاجمين، واشتعلت النيران في بعض البيوت التي أصابتها القذائف، وانفجر مخزن صغير للبارود داخل القلعة وأحدث انفجاره دوياً هائلاً زاد من محنة المدافعين، وضري المهاجمون في القتال وهم يرون تراجع المرابطين، ولم ينتهِ النهار إلا وقد سيطر المهاجمون على معظم أنحاء المدينة، وحاصروا الأعداد الكبيرة من المرابطين داخل القليعة.

وكان الأمر داخل القليعة أشد سوءاً فقد انحشر فيها حوالي ثلاثة آلاف رجل ولا تتسع في العادة لنصف هذا العدد، وصار فيها -كما يقول ابن بشر- خلق كثير يرتكم بعضهم على بعض، ونصب الترك عليهم (القنابر) والمدافع،

فكانت (القنبرة) إذا وقعت وسط القليعة أهلكت عدداً من الرجال، فكثر فيها المرضى والجرحى(١) ومع ذلك فقد صمدوا عدة أيام.

المفاوضة والانسحاب:

وأدرك طوسون باشا أنه قد كسب المعركة وأنه ينبغي التوقف عند هذا الحد خشية حدوث مفاجآت أو خروج المحاصرين من القليعة في هجوم يائس يوقع في جيشه خسائر فادحة إن لم يغير موازين المعركة.. فأمر بتخفيف القصف وإعطاء المحاصرين فرصة للحوار، وكان الأمر قد بلغ غاية السوء في القليعة، وكثرت جثث الموتى ولم يعد بالإمكان دفنهم، ومات عدد من الجرحى وأشرف الآخرون على الموت، فطلبوا المفاوضة والصلح.. وخرج بعض الرجال من القليعة ليفاوضوا في الصلح وبعد حوار قصير أعطاهم طوسون باشا الأمان على أن ينزلوا بأنفسهم ويتركوا كل ممتلكاتهم وأسلحتهم وذخائرهم.. إلا الأسلحة الخفيفة لحماية النفس. ولم يكن أمام المرابطين سوى القبول فقبلوا الشرط.. وأوقف إطلاق النار ورفعت الرايات البيضاء وأمر طوسون باشا بعدم التعرض لهم في خروجهم.. فبدؤوا يخرجون في مجموعات صغيرة متوالية ويتجهون شرقاً صوب نجد.

ويذكر ابن بشر أن عدد الذين استشهدوا في هذه الوقعة من المرابطين بلغ أربعة آلاف رجل من عسير وأهل بيشة والحجاز وأهل الجنوب وأهل نجد..

وقبض الجنود الأتراك على عدد من أعيان المدينة الذين شاركوا في الدفاع عنها، وعلى رأسهم حسن قلعي الذي قاد حامية القلعة ببراعة واستبسل في القتال، فعذبوه ثم أرسلوه مقيداً إلى مصر ليقضي في

---

١) عنوان المجد ١٩٥/١.

سجونها (١) كما قبضوا على أمير المدينة من قبل السعوديين مبارك بن مضيان، ولم يقبلوا فيه شفاعة الحربيين من أعوانهم، فأرسل مقيداً إلى مصر.. ومنها أرسل إلى استنبول حيث قتله العثمانيون وعلقوا جثته على باب السراية (دار الحكمة)(٢).

وطوت المدينة صفحة من صفحات ملاحمها الدامية، وراح الجنود في اليوم التالي يحملون الجثث إلى حفر جماعية كبيرة، ودفنوها فيها، بينما توجه طوسون باشا إلى مقر الإمارة ليعلن نهاية الحقبة السعودية الأولى في المدينة المنورة.. وبداية سنوات جديدة من العهد الانتقالي الذي يحكم فيه أبناء محمد علي باشا المنطقة قبل أن تعود إلى الحكم التركي المباشر.

كانت فرحة محمد علي باشا بدخول قواته المدينة المنورة كبيرة.. فما إن وصلته البشائر حتى أطلقت المدفعية قذائف كثيرة ارتجت لها القاهرة.. وصدرت الأوامر بأن تزين البلدة مدة خمسة أيام، وأقيمت احتفالات عسكرية كبيرة طوال الأيام الخمسة في ميدان الاحتفالات بالقاهرة، وأطلقت البنادق والمدافع الأسهم النارية وقرعت الطبول، وأرسل محمد علي باشا أحد كبار موظفيه إلى دار السلطة يحمل الخبر وبلغ من سروره أنه أنعم بالمناصب والألقاب على عدد من خواصه(٣) وعندما بلغ السلطان العثماني محمود خان خبر دخول محمد علي باشا المدينة المنورة أصدر مرسوماً وزع بعد ذلك على الولايات العثمانية كلها بإضافة لقب ((خادم الحرمين الشريفين)) إلى اسمه(٤).

---

١) السابق ٣/١٩٥.

٢) الجبرتي ٣/٤١١.

٣) الجبرتي ج٣ ص ٣٩٨.

٤) الجبرتي ج٣ ص ٤٠٦، وذكر عبد الرحيم عبد الرحمن في كتابه الدولة السعودية الأولى ص ٢٣٧ أن حسن قلعي كان أمير المدينة والصحيح أنه كان قائد الحامية السعودية التي تصدت لقوات طوسون باشا والأمير هو مبارك بن مضيان كما يفهم من ابن بشر والجبرتي.

المدينة في عهد محمد علي باشا:

بدأت المدينة المنورة تمسح عنها آثار المعركة الكبيرة.. وانسحب الجيش إلى خارجها وعسكر عند الجرف، كما انسحب رجال سعود بن مضيان وكل من يواليه إلى جهات نجد. وبدأ طوسون باشا يدير أمر المدينة بنفسه أول الأمر ويعيد تنظيم الإدارات التي كانت موجودة.. ويأمر بإعادة ترميم القلعة والأبنية المجاورة التي أصابتها قذائف المدفعية.. ثم بدأت الحياة تعود إلى ماكانت عليه قبل ثماني سنوات وظهرت أسماء جديدة تحتل مراكز القوة وكانت معظمها من الأسر القادمة من تركيا والبلاد العثمانية الأخرى..

غير أن طوسون باشا مالبث أن تلقى أمراً من والده بالتحرك إلى مكة المكرمة والاستيلاء عليها، فأمر الجيش بالتجهيز ومالبث أن جاءت الأخبار بقدوم الأمير سعود بن عبد العزيز إلى مكة المكرمة حاجاً ومعه جمع غفير من نجد والأحساء وعمان وتهامة.. فآثر طوسون أن يتجنب لقاءه خشية أن يجتمع عليه رجال الأمير سعود وعساكر ابنه عبد الله، وراسل الشريف غالب ليعينه على احتلال، مكة وكان الشريف غالب قد التقى بالأمير سعود وأهداه هدايا قيمة وبايعه وهو يضمر الغدر به، فكتب إلى طوسون باشا أن يتحرك بجيشه إلى مكة وسيبذل الجهود الكبيرة لمساعدته في دخولها..

تحركت قوات طوسون باشا من معسكرها على أبواب المدينة واتجهت جنوباً في طريق مكة. وخرج طوسون باشا بنفسه بعد أن ترك حامية كافية في المدينة، وقد نجحت الخطة التي دبرها الشريف غالب مع طوسون.. فما أن انتهت أيام الحج وسافر الأمير سعود إلى نجد حتى وزع الشريف غالب رجاله في مكة وبدأ يعد العدة للغدر بعبد الله بن سعود ورجاله.. وأحس عبد الله بن سعود بحركة الشريف غالب فأمر رجاله بالخروج من مكة إلى الربيعان ثم العبيلا وسارع طوسون إلى دخول مكة فاحتلها دون مقاومة. ونقل إليها مركز قيادته فخلت المدينة من المظاهر العسكرية لفترة من الزمن وبدأت

مظاهر الحياة التي كانت سائدة قبل مجيء السعوديين إليها تعود تدريجياً.. في الحرم النبوي، وفي الأربطة، وفي المدارس، وفي الأسواق.. بل وبدأت القباب التي غابت عن الأعين طوال سنوات السعوديين الأولى وبدأت تعود شيئاً فشيئاً على قبور الصحابة في البقيع، وعلى قبر محمد النفس الزكية خارج البقيع.. وعاد الأغوات إلى المسجد النبوي ليشكلوا من جديد فئة لها مميزات خاصة..

المدينة مركز تجمع عسكري:

ولكن أحداث الحرب المتوالية بين جيش محمد علي باشا والسعوديين جعلت المدينة المنورة مركز تجمع وانطلاق إلى القصيم وسائر نجد. وشغل أهل نجد بالدفاع عن منطقتهم ضد الهجمات المتوالية..

شهدت المدينة بعد ذلك فترات عصيبة ففي عام ١٢٢٩هـ حضر محمد علي باشا إلى مكة وقبض على الشريف غالب وعين مكانه الشريف يحيى بن سرور، وشدد الحملات على السعوديين وطلب المال والمؤونة والأخشاب من مصر فتواردت عليه تباعاً، ثم طلب مزيداً الرجال وأمر بتجنيد عدد كبير من الشباب وإغراء العاطلين بالدخول في الجيش ومصادرة بعض أصحاب المهن اللازمة لحملته وإرسالهم إلى الحجاز.. فتواردت عليه إمدادات المال والذخيرة والرجال.. ورغم تركز الحملات العسكرية المتوالية على تربة وشرقي المدينة المنورة فقد تأثرت المدينة المنورة بالأحداث تأثراً كبيراً، إذ اضطربت التجارة وقبض محمد علي باشا على تجارة الحبوب، واحتكر الغلال القادمة من مصر، وصادر ماكان بصحبة الحجاج من الحب والدقيق وكان رجاله يفتشون أمتعة

الحجاج(١) فارتفعت الأسعار ارتفاعاً فاحشاً. وزاد الطين بلة أن بعض تجار المدينة كانوا شركاء للشريف غالب فقدموا مع تجار آخرين من اليمن إلى جدة ومعهم بضائع وبن وأقمشة وأشياء أخرى فصادرهم رجال الباشا وأرسلوهم وأموالهم إلى مصر(٢).

ظل طوسون باشا في المدينة حاكماً لها ومهتماً بأمر الإمدادات القادمة من مصر ليسيرها إلى نجد(٣) وأرسل أول مجموعة من رجاله إلى الحناكية فاستولوا عليها، ثم أرسل مجموعة تالية إلى القصيم فاشتبكت مع رجال عبد الله بن سعود.. وغدت المدينة مركز قيادة طوسون تخرج منها الأوامر والرسل والإمدادات العسكرية وتصل إليها من مصر إمدادات المال والذخيرة والسلاح والرجال ليعسكروا ظاهرها حيناً من الوقت ثم يتابعوا سيرهم إلى الحملات التي تشتبك مع السعوديين في القصيم، وقلما كان طوسون يخرج بنفسه.. ولكن في عام ١٢٣٠هـ خرج بنفسه إلى الرس واشتبكت قواته مع السعوديين في عدة مواقع، ثم بدأت مفاوضات الصلح وتم الاتفاق بين عبد الله بن سعود وطوسون على وقف الحرب وانسحاب جيش طوسون من نجد، وتعهد بعدم التدخل بشؤونها والمرابطة في الحجاز وعلى أن يسود الأمن المنطقة كلها وتفتح الطرقات الآمنة للمسافرين والحجاج وقوافل التجارة، وكتبت معاهدة الصلح في الرس في نهاية رجب ١٢٣٠هـ وخرج بنسخة منها رجلان من وجوه نجد هما عبد الله بن محمد بن بنيان صاحب الدرعية والقاضي عبد العزيز بن أحمد بن إبراهيم ليعرضوه على محمد علي باشا وقد نجحت مفاوضتهما

---

١) الجبرتي ٣/٤٥٤.

٢) الجبرتي ٣/٤٥٥.

٣) الجبرتي ٣/٤٧٣.

وحظي الوافدان بإعجاب كل من لقيهما وخاصة المؤرخ عبد الرحمن الجبرتي(١) ورجع طوسون باشا ورجاله في أول شعبان إلى المدينة المنورة ونزل فيها(٢) وقد استفادت المدينة المنورة من الصلح المؤقت الذي عقد بين طوسون باشا وعبد الله بن سعود إذ عادت إليها القوافل التجارية وازدادت أعداد الزائرين..

التنظيم الإداري الجديد في المدينة (محافظة):

ومالبث طوسون باشا أن أدخل التنظيمات الإدارية الجديدة التي أحدثها محمد علي باشا في مناطق نفوذه، فألغى تسمية الإمارة واستعاض عنها باسم المحافظة، وأنشأ مجلس شورى للمحافظة يضم شيخ الحرم والقاضي والمفتي وعدداً من كبار الموظفين وأعيان المدينة المؤيدين للنظام الجديد(٣) وأعاد الأغوات إلى عملهم في المسجد النبوي وجعل شيخهم عضواً في مجلس إدارة المحافظة. وصارت المدينة المنورة محافظة في ولاية الحجاز، تتبع والي الحجاز الذي يعينه محمد علي باشا، والذي يقوم بوظيفة محافظ مكة أيضاً. ولانعرف اسم محافظ للمدينة المنورة ولكننا نجد وثيقة مؤرخة بعام ١٢٣٥هـ تذكر اسم علي ولا تذكر بقية اسمه، ولا ندري أهو أول محافظ أم سبقه محافظ آخر.. ثم تلاه حسن باشا الذي ورد اسمه في وثيقة مؤرخة بعام ١٢٣٧هـ.

وكان المحافظ هو المسؤول عن القوة العسكرية وشؤون الأمن، وقد يسند إليه منصب مشيخة الحرم النبوي. وكانت سلطة محافظ المدينة أكبر من سلطة محافظ مكة لعدم وجود تعددية في رئاسة السلطة في المدينة، فمنذ أوائل العهد العثماني لم يعد للأشراف الحسينيين شأن في إدارة أمور المدينة، وعندما دخلها السعوديون أداروها -كما رأينا- بأمير يعينه صاحب

---

١) الجبرتي ٣/٤٩٣.

٢) ابن بشر ١/٢٢٤.

٣) من وثائق شبه الجزيرة العربية ص ١٦.

الدرعية مباشرة، وعندما انسحب السعوديون من المدينة قبض رجال طوسون باشا على الأمير ابن مضيان وعلى قائد الحامية حسن قلعي وأرسلوهما إلى مصر ليقتلا هناك، وقام طوسون باشا بإدارة الأمور بنفسه.. ثم عين قائد الحامية التي تركها في المدينة نائباً عنه، وقبيل سفره إلى مصر جعل قائد الحامية محافظاً للمدينة وبيده السلطات كلها، بينما كانت السلطة في مكة مقسمة بين الشريف يحيى بن سرور والشريف شنبر في حين أسندت شؤون الدفاع إلى حامية تركية مصرية يرأسها موظف من الجيش، وأضيفت إليه شؤون الأمن، ومنح لقب المحافظ(١) ثم عين محمد بن عبد المعين بن عون أميراً فاختلف مع المحافظ، وطلب إبداله فأبدل بمحافظ آخر له سلطة الأمن والدفاع، ولم يخل الأمر من خلافات واحتكاكات بين أتباع كل منهما.. وقد ظل هذا التنظيم الإداري إلى نهاية الحكم العثماني وكانت من المميزات التي تمتعت بها المدينة توحد السلطة التنفيذية بيد المحافظ الذي كانت تسند إليه مشيخة الحرم في بعض الحالات..

وعلى أية حال فقد استتب الأمن في المدينة المنورة في ظل الإدارة الجديدة وصارت مركز قيادة للعمليات العسكرية التي توجه إلى منطقة نجد، ومركز تجمع للجنود القادمين من مصر عن طريق ينبع، وظل طوسون باشا مقيماً فيها بعد عودته من الرس إلى ذي القعدة عام ١٢٣٠هـ حيث غادرها عائداً إلى مصر(٢) تاركاً فيها قيادة الجيش وحامية كبيرة. وسارت الحياة هادئة في ظل المحافظ ووفد شيوخ القبائل من المناطق المجاورة لينالوا أعطياتها المقررة وليؤكدوا ولاء القبائل للسلطة، وتأمينها طريق الحجاج وتوجه موظفو الزكاة لجبايتها من القبائل والمزارع، وكان إصرار الحكام على

---

١) انظر تاريخ مكة للسباعي ص ٥١١.

٢) الجبرتي ٤٩٥/٣.

جباية الزكاة مهما قل مقدارها مظهراً من مظاهر توطيد السلطة(١) وكانت وصية محمد علي للحكام والمحافظين عدم التهاون مع العربان وأخذهم بالشدة، وفي الوقت نفسه توزيع الهبات على شيوخهم(٢) وقد نجحت هذه السياسة في حفظ المدينة المنورة من الفتن واعتداءات العربان، كما وطدت الأمن في المناطق المحيطة.

إبراهيم باشا في المدينة:

وبعد سنة من مغادرة طوسون باشا المدينة المنورة وصل أخوه إبراهيم باشا على رأس قوة عسكرية كبيرة، وعندما نزل في ينبع في أول ذي القعدة عام ١٢٣١هـ أقام مناورة عسكرية ضخمة في المنطقة ليرهب كل من تسول له نفسه الخروج على الطاعة، وليظهر الاستعداد الضخم الذي أعده لمهاجمة الدولة السعودية والقضاء عليها، فقد قرر محمد علي باشا نقض الصلح الذي عقد في الرس، وكلف ابنه إبراهيم باشا بقيادة الحملة، وجهزه بتجهيزات ضخمة كان من بينها مستشارون عسكريون فرنسيون ومدافع حديثة وذخيرة كثيرة وأموال فائضة. وتحرك إبراهيم باشا من ينبع بعد انتهاء المناورة واتجه إلى المدينة واستقبله المحافظ وأعيان البلدة، ويروي بعض المؤرخين أنه دخل المسجد النبوي وزار قبر الرسول ﷺ ووضع عليه عقداً ثميناً أهدته أمه للحجرة النبوية وأقسم أمام القبر أنه لن يغمد سيفه في جرابه حتى يفرق شمل أعدائه(٣) وبدأت المدينة المنورة تشهد الاستعدادات الكبيرة للهجوم على نجد والقضاء على الدولة السعودية الأولى، فقد وصلها آلاف الجنود وأكياس ضخمة من المؤن والذخيرة، خزنت فيها لبعض الوقت، واستفادت المنطقة

---

١) من وثائق شبه الجزيرة العربية في عهد محمد علي: عبد الرحيم عبد الله عبد الرحيم ص ١٥.

٢) السابق.

٣) الدولة السعودية ص ٣٣٠.

الممتدة بين ينبع والمدينة من هذه الحركة، فقد أجرت الجمال والأدلاء لنقل الجيش والمؤن بين البلدين، وأعطى إبراهيم باشا لمشايخ القبائل المقيمة على الطريق أموالاً وهدايا سخية(١).

ظل إبراهيم باشا في المدينة إلى مطلع سنة ١٢٣٢هـ وكان مشغولا بأمور عساكره ومتابعة تدريباتهم اليومية العنيفة، ولم يتدخل في القضايا الإدارية المحلية، ولكنه اهتم بمراسلة مشايخ القبائل واستقبالهم والتأكد من ولائهم، وتجنيد بعض أفراد القبائل في جيشه ليكونوا فئة مقاتلة ضمن جيشه الكبير. وقد نجحت سياسته في استمالة عدد من قبائل حرب ومطير وعتيبة، وانخرط في جيشه عدد من أبنائها واستعمل بعضهم في المراسلات وفي التجسس وفي فرق الخيالة الخفيفة.. ومالبث أن تحرك بالجيش إلى الحناكية مبتدئاً الحرب مع السعوديين.. فاحتلها وأقام فيها بعض الوقت ثم تابع سيره شرقاً إلى مدن القصيم..

وظلت المدينة مركز المؤنة والإشراف على نقل الذخيرة والجنود القادمين من مصر، وظل المحافظ مسؤولاً عن تأمين الجمال والأدلاء وإرسالهم إلى ينبع، وكان محافظ ينبع يدفع نصف الأجرة ويدفع محافظ المدينة نصفها الآخر.. واستفاد أصحاب الجمال من أهل المدينة وضواحيها والمقيمين في الطريق بين ينبع والمدينة من ذلك مبالغ كثيرة فقد بلغت أجرة الجمل الواحد في بعض السفرات مائة وأربعين ريالاً، وهو مبلغ ضخم في ذلك الوقت(٢). وعندما تصل الذخيرة والمؤن تحفظ في مخازن المحافظة ويرسل منها للجيش المقاتل في نجد ما يحتاجه الجيش دفعة بعد دفعة.

وعندما انتهت الحرب واستسلم عبد الله بن سعود في جمادى الأولى ١٢٣٣هـ أرسله إبراهيم باشا مع عدد من أفراد عائلته إلى المدينة ومنها إلى

---

١) الدولة السعودية ص ٣٣٢.

٢) الجبرتي ٣٠.

ينبع ثم مصر فاستنبول حيث قتل فيها.. وبعد أشهر قليلة قضاها إبراهيم باشا في توطيد الأحوال حول الدرعية عاد إلى المدينة المنورة ليقيم فيها بعض الوقت. وليجعلها مركز مراقبة الأحوال في نجد بعد احتلال الدرعية وتهدمها.

إصلاحات في المسجد النبوي:

حرص إبراهيم باشا أثناء إقامته الثانية في المدينة على زيارة المسجد النبوي والصلاة فيه، ولحظ أثناء زيارته للحجرة النبوية وجود صدع كبير وتشققات في القبة الخضراء التي تعلو الحجرة المطهرة فأرسل يستأذن الخليفة العثماني محمود الثاني في إصلاح القبة، وجاء الإذن مع التوجيه بإعادة بناء قباب البقيع التي هدمها السعوديون، فبدأ البناء وكان أول مافعله البناؤون إقامة سقف خشبي تحت القبة وتغطيتها باللباد كي لاينزل شيء من التراب على الحجرة، ثم شرع البناؤون بنقض القبة بأناة حتى أنزلوها، وبدأوا بناء قبة أخرى بديلة من الطوب الكبير المربع وأُلبست بصفائح من رصاص، وعندما تمت وكُتب على السطح الداخلي للقبة إسم إبراهيم باشا واسم أبيه واسم الخليفة محمود الثاني، ووردت من السلطان محمود كسوة جديدة للحجرة وجدرانها(١).

آثار أخرى لإبراهيم باشا في المدينة:

اهتم إبراهيم باشا بناءً على توجيه من السلطان العثماني بإعادة بناء القباب فوق عدد من القبور في البقيع، أهمها قبر عثمان بن عفان رضي الله

---

١) رسائل من تاريخ المدينة ص٦٦.

عنه، واهتم بإعادة بناء مسجد الغمامة ((المصلى)) على الطراز العثماني(١)، وأمر بانشاء ((تكية)) كبيرة لتكون مركزاً دائماً لتوزيع الأموال والطعام على الفقراء في المدينة وما حولها ومحل إقامة ((المحمل)) المصري كل عام. ووضع لها نظاماً محدداً لطبخ كميات من الطعام يومياً توزع على كل من يأتي للتكية، وأمر بتخصيص ميزانية كبيرة لها وأوقافاً دائمة في مصر لتستمر في مهمتها. وما لبث أن غادر إلى مكة حيث بقي فيها إلى آخر ذي القعدة عام ١٢٣٤هـ ثم غادرها إلى مصر(٢).

المدينة بعد إبراهيم باشا:

استمرت الحياه في المدينة المنورة بعد سفر إبراهيم باشا على وتيرتها السابقة، يدير شؤونها محافظ عينه محمد علي باشا إسمه حسن بك والأمن مستتب داخلها وفي المناطق القريبة وما حولها، والوفود تتوالى من القبائل المحيطة بها، ورسائل ديوان محمد علي باشا في مصر ترد إلى رؤساء القبائل مع الهدايا والأعطيات والمخصصات، وتحثهم على التعاون مع محافظي المدينة. ففي رسالة بعثها محمد علي باشا إلى شيخ عربان حرب قال: والمأمول منك مطاوعة فخر الأماثل والأقران حسن بك محافظ المدينة المنورة لأنه مربى في يدنا ومجرب ومعتمد عندنا.. فأوفوا بالخدمة والصداقة(٣) ويكتب بعض مشايخ القبائل إلى الديوان في مصر، وكان محافظ المدينة يرسل بعض المجموعات العسكرية للطواف على القبائل المحيطة بالمدينة المنورة، ولتأديب بعض الأفراد والمجموعات التي ترتكب بعض الجرائم أو تمتنع عن دفع الزكاة. كما كان يرسل بعض القوات للمشاركة في الغزوات التي تقوم بها الفرق العسكرية الموجودة في أطراف نجد، وكانت معظم القوات من الجنود

---

١) السابق نفسه.

٢) الجبرتي ٣/٦٠٤.

٣) من وثائق ص٦٢.

المصريين والمغاربة والأتراك الذين قدموا مع الحملة، وكان يشارك معهم أحياناً المتطوعون من أطراف المدينة رغبة في الرواتب التي تدفع لهم والغنائم التي توزع نسبة منها عليهم.

وقد بلغت قوة جيش المحافظة في المدينة المنورة أن بعض القبائل كانت تستعين بها لترد عنها غزو قبائل أخرى معادية. ففي إحدى الرسائل الصادرة من محافظ المدينة المنورة واسمه (علي) عام ١٢٣٥هـ يبيِّن أن شيخ قبيلة حرب ((غانم بن مضيان)) استنجد بالمحافظ ضد قبائل من عنزة تحالفوا عليه. يقول المحافظ في رسالته: إن الشيخ غانم بن مضيان، كان مقيماً في المكان الذي يسمى (معاوية) مع قبيلته، فسار عليهم من أعراب العنزة ابن خلف وابن سودان والمشايخ الذين في معيتهم، فأرسل إلينا الشيخ غانم رسالة يستنجد، وعندما وصل هو وقبيلته إلى الحناكية، رقبنا نحن من الأدلاء ومن العساكر ثلاثمائة فارس على أن يكونوا في معية الشيخ غانم، ولما علم بذلك هؤلاء رجع كل من ابن خلف وابن سودان إلى الوراء على بعد مرحلتين أو ثلاثة مراحل، تاركين في ذلك المحل كمية كبيرة من النعاج وبضعة أشخاص من المشايخ، وعندما بلغ ذلك الشيخ غانم، استعجل الجنود من الحناكية فتعقبوهم يوماً أو يومين حتى أدركوهم، فدارت بين الطرفين معركة شديدة بالبنادق، فَقَتَلُوا منهم عدداً يربو على مئتي نفر واغتنموا الغنائم، وقد قتل من عساكرنا ستة أنفار كما جرح بضعة أشخاص أيضاً(١).

سنوات من الأمن في ظل العسكر:

ولاشك أن اهتمام محمد علي باشا بالجانب العسكري ورغبته في إبقاء الحجاز تحت سلطته الفعلية قد جعله يشدد على الجانب الأمني، وينشئ للمدينة المنورة حامية دائمة كبيرة أو لِنَقُل جيشاً مقيماً، ولم تعرف المدينة هذا التجييش من قبل، فالحامية التي أقامها العثمانيون في القلعة لم تتعد

١) من وثائق ص ١٨٦.

مئات قليلة، بينما نجد المحافظ في عام ١٢٣٥هـ يرسل ثلاثمائة فارس لينجدوا شيخ قبيلة حرب، وهذا يعني أن الجيش الذي كان مقيماً في المدينة أضاف هذا العدد، وقد استمر الأمر على هذا الحال إلى انسحاب جيش محمد علي من الحجاز. وتبين وثيقة من وثائق ميزانيات المدينة المنورة ضخامة هذا الجيش بالنسبة لحجم المدينة المنورة آنئذ فقد بلغت رواتب الجنود المقيمين في المدينة المنورة ٢٥٠ ألف قرش، ورواتب فرقة المدفعية ١٦١٥١٢ قرشاً وقيمة الذخائر المشتراة في عام واحد ١٤٠٥٤٦ قرشاً، فإذا علمنا أن متوسط راتب الجندي آنئذ هو مائتي قرش أدركنا حجم القوة التي بقيت في المدينة وماحولها. وقد قامت هذه القوة العسكرية بحملات تأديبية متوالية على الأفراد والقبائل الذين يخرجون على الطاعة أو يثيرون الفتن أو يعتدون على الموالين للسلطة، ونجحت في فرض الأمن في المنطقة، وسارت قوافل الحجاج بين المدينة ومكة بطمأنينة كاملة، وحاول بعض مشايخ حرب فرض إتاوة على الحجاج في موسم عام ١٢٣٩هـ فتصدى لهم محافظ المدينة وهددهم بعقاب شديد، فتراجعوا عن عزمهم ولم يدفع الحجاج شيئاً(١)، ومقابل ذلك كانت السلطة تدفع مخصصات سنوية لمشايخ حرب وتشير رسالة من شيخ مشايخ حرب سعد بن مرة إلى الديوان الأميري بمصر أنه تسلم في موسم عام ١٢٤٩هـ مبلغ ١٥٨ ريالا.

ويبدو أن بعض المشايخ لم تقنعهم تلك المخصصات فحاولوا رفعها أو العودة إلى فرض الإتاوة على الحجاج، ووقعت عمليات نهب قليلة(٢) ولكن هيبة الدولة وقوة الرد وسرعته جعلت القبائل والمشايخ يذعنون لما تفرضه السلطة ويقتنعون بما يأخذونه منها. كما أن استفادتهم من نقل المؤن والذخائر بين ينبع والمدينة ونجد كانت تفرض عليهم إطاعة السلطة، وقد

---

١) انظر من وثائق ص ١٨٧.

٢) من وثائق ص ٥٣٤.

ظلت هذه الطريق الممول للفرق المتحركة في نجد طوال عهد محمد علي باشا، واشتدت عندما ظهر تركي بن عبد الله بن سعود الذي حاول أن يعيد الدولة السعودية، واصطدم مع القوات المصرية وحلفائها عدة مرات، وحاربته الدولة المصرية بلا هوادة من عام ١٢٣٧هـ إلى إن قتل عام ١٢٤٩هـ، ثم حاربت ابنه فيصلاً الذي تسلم الإمارة بعد أبيه، وحاولت أن تضرب الأسرة السعودية بعضها بعضاً فعينت خالد بن سعود أميراً على نجد وجهزت له حملة ضخمة بقيادة خورشيد باشا، وقد اتخذ خورشيد باشا المدينة المنورة مركزاً ثابتاً لقيادته وكان يخزن فيها الذخائر والمؤن واحتياطي الجنود، ويتحرك منها إلى مناطق القصيم والوشم لمواجهة فيصل بن تركي والقبائل الموالية له، وظل خط المواصلات مابين ينبع -المدينة- القصيم الطريق الرئيسي لتموين هذه الحملات، حتى بعد استسلام فيصل بن تركي عام ١٢٥٤هـ وتسلم خالد بن سعود السلطة في نجد. وتشير وثائق تلك الفترة إلى أن خورشيد باشا كان يقيم في المدينة فترات طويلة(١) كما كان يجتهد في تألف القبائل حول المدينة لتقوم بمهمة نقل المؤن والجنود، ويستعمل أسلوب الإغراء حيناً والتهديد حيناً آخر. ويتبين لنا من إحدى رسائله المرسلة إلى الديوان الأميري في مصر أن بعض القبائل حاولت الاستعصاء مرة والامتناع عن نقل الجنود والمؤن فخرج إليهم خورشيد باشا على رأس قوة كبيرة فتفرقوا واعتذروا إليه وعادوا إلى نقل المؤن والجنود(٢). كما أنه استعان ببعض قبائل شمر وعفا عن أحد الثائرين عليه الشيخ عبد الله بن رشيد شيخ جبل شمر مقابل تأمينه

---

١) انظر من وثائق ص ٥٧٦.

٢) من وثائق ص ٥٨٠.

ألف جمل لنقل المؤن والذخائر من المدينة إلى نجد(١)، كما أن المحافظين عملوا على تجنيد عدد من أبناء الحجاز، وقد دفع القحط وسوء الأحوال المعيشية في الريف وقلة الموارد عدداً من الشباب إلى الانخراط في جيش خورشيد باشا، ويتبين لنا من رسالة القائد العسكري للجيش المصري في جنوب الجزيرة العربية أحمد شكري إلى الديوان الأميري في القاهرة أن الدولة حاولت أن تستخدم المجندين الحجازيين في حروبها في عسير واليمن، ولكنهم لم يبدوا حماسة لذلك، فقد كانت بغيتهم (أن يأخذوا مرتباتهم ويخلدوا إلى الراحة في بلادهم)(٢) حيث الهدوء والاستقرار، وقد نصح ذلك القائد بعدم استخدامهم في الحروب خارج الحجاز(٣) وهكذا نعمت المدينة بالأمن في فترة تحولها إلى مركز عسكري.

اضطرابات محدودة:

غير أن الأمن الذي نعمت به المدينة المنورة بدأ يضطرب في أواخر العهد المصري ففي جمادى الأولى عام ١٢٥٤هـ عادت قبائل حرب إلى العصيان، ونزل رجالها إلى طريق مكة -المدينة وطريق ينبع- المدينة، ووصلوا أطراف ينبع ومشارف المدينة، فاحتلوا العوالي، وكتب محافظ المدينة محرم بك يستنجد بمحافظ ينبع درويش بك، وكانت قد وصلته من مصر إمدادات عسكرية كبيرة. وأعد محافظ ينبع المدافع والأسلحة والمهمات والعسكر، (فلما علم أولئك المخالفون بذلك، جزموا بأنهم ستدور عليهم الدوائر وقعوا على حضرة صاحب الدولة عثمان باشا شيخ الحرم النبوي طالبين الأمان، فكتب الباشا المشار إليه إلينا يطلب الأمان، فأعطيناهم الأمان رعاية للوقت والحال،

---

١) السابق نفسه.

٢) من وثائق ص ٢٠٧.

٣) السابق نفسه.

إلا أن هؤلاء لايمكن الاعتماد على خضوعهم)(١) وقد صح ماتوقعه محافظ ينبع فما لبث رجال حرب أن ثاروا بعد شهرين. فخرج إليهم قائد المدفعية في المدينة المنورة في رجب من العام نفسه وطاردهم في الجبال حول المدينة، ووصل إلى منطقة الفقرة وذهب إلى قراهم الأصلية في وادي الصفراء وقتل عدداً منهم، ولكنهم نصبوا كميناً لقافلة المؤونة القادمة خلفهم وقتلوا عدداً من حراسها، فطاردهم الجيش ثانية وقتل عدداً منهم وخلص القافلة ثم قام بعمليات انتقامية، فقطع النخيل في مناطقهم، واستعان بقبيلة الحوازم ضدهم(٢)، ومالبثت قبائل من حرب أن تجمعت ثانية عند بدر وهاجمت القوة المصرية وأصابتها بخسائر مهمة وانسحبت إلى الجبال فاستنجد محافظ المدينة المنورة بمصر فأرسل الباشا حملة كبيرة بقيادة (سليم باشا اطزيير). فسارت الحملة في المناطق المحيطة في المدينة المنورة وهاجمت تجمعات قبائل حرب وأوقعت فيها خسائر جسيمة. ولكن الحربيين كانوا يفرون من وجه الحملة ثم يستنصرون إخوانهم ويغيرون ثانية على القوافل العسكرية والمدفعية المارة. وتعود الحملة لمطاردتهم ثانية وتنزل مناطق إقامتهم الأصلية وتقطع النخيل وتحرق القرى وتنهب الماشية، فيتحصن الحربيون في رؤوس الجبال وينتهزون الفرصة للإغارة على قوافل الحملة وغيرها(٣)، وقد ظلت الحملة بقية عام ١٢٥٥هـ وجزءاً من عام ١٢٥٦هـ تنتقل في مناطق المدينة المنورة، وقاست المدينة المنورة من جراء انقطاع الطريق في هذه الأثناء ضيقاً شديداً، وارتفعت الأسعار حتى بلغت قيمة الأردب من القمح ثلاثين ريالاً.. وهو مبلغ ضخم بمعيار ذلك الزمن وكادت القبائل في بعض المرات أن تقضي على الحملة واستولت على ذخائر ضخمة وهرب قائدها سليم باشا ووصل إلى

---

١) من وثائق ص ٢٠٨.

٢) من وثائق ص ٢١٣ - ٢١٥.

٣) من وثائق ص ٧٠٤ - ٧٠٥ وإفادة الأنام ١٢٧/٦ وتاريخ مكة ص ٥٢٢.

المدينة مع بعض رجاله بشق الأنفس(١) وقد أثرت هذه الاضطرابات على الحياة داخل المدينة المنورة تأثيراً محدوداً.. إذ قلت المؤن والذخائر ونشطت حركة الجند لمطاردة القبائل.. ولكن التهديد لم يبلغ أسوارها قط..

ضغوط على محمد علي باشا:

وفي هذا الوقت كان محمد علي باشا يواجه ضغطاً شديداً من الدول الأوربية لتحجيم قوته وحصرها في مصر، وقد وقعت انكلترا وبروسيا والنمسا وروسيا والدولة العثمانية اتفاقية لندن عام ١٢٥٦هـ، وتنص على حصر سيادة محمد علي باشا في مصر ومنحه ولايتها بصورة وراثية، وعندما رفض محمد علي الاتفاقية أصدرت إنكلترا أوامرها إلى أسطولها بضرب الموانئ التي تسيطر عليها قوات محمد علي ومحاصرتها، فاضطر محمد علي إلى الموافقة على الاتفاقية.

وانسحب محمد علي باشا من الشام، وأخذ يعد الأمور لسحب قواته من شبه الجزيرة العربية وتسليمها للقوات العثمانية(٢) وكانت الأمور مضطربة في معظم أنحاء شبه الجزيرة العربية.. ففي نجد كانت بعض القبائل تقاوم خالد بن سعود وخورشيد باشا، وفي عسير كانت ثورات كثيرة لقبائل غامد وزهران، وفي الحجاز تحركت قبائل حرب وهاجمت القوات المصرية أكثر من مرة ووصلت إلى مشارف المدينة وينبع..

نهاية عهد محمد علي باشا في المدينة:

قرر محمد علي باشا أن يسحب قواته بسلام دون أن تحطمها الثورات الكثيرة، فاستعان بالشريف ابن عون -وكان قد ولاه أمر الحجاز ثم احتجزه في مصر عندما اختلف مع قائد الجيش المصري و محافظ مكة أحمد باشا- فاستدعاه إلى قصره وأفهمه أنه سيعيده إلى مكة المكرمة والياً على الحجاز

---

١) السابق نفسه.

٢) انظر التاريخ الاسلامي لمحمود شاكر ٤٩٣/٨.

كله وبموافقة الخليفة العثماني، وعليه أن يؤمن إعادة القوات المصرية بسلام، وسوف تترك هذه القوات خزينها الضخم من المؤن والعتاد والسلاح لقوات الشريف والدولة العثمانية، وكان محمد علي قد اتفق على ذلك مع الدولة العثمانية على أن تخصم قيمة مايتركه من المبالغ التي تدفعها خزينة مصر للدولة العثمانية..

التمهيد للانسحاب:

أوصى محمد علي الشريف محمد بن عون أن يبدأ بمنطقة المدينة المنورة ويضرب قبائل حرب المتمردة ضربة موجعة، ليرسخ الأمن في المنطقة، وليضمن الطريق التي ستسحب منها القوات الكبيرة الموجودة في المدينة المنورة وفي نجد. وفي رسالة بعثها إليه مؤرخة بـ٢ جمادى الآخرة ١٢٥٦هـ عهد له بتدبير جميع الأقطار الحجازية ويبين أنه استدعى القائدين الكبيرين أحمد يكن -وكان يقود جبهة عسير- وخورشيد باشا -وكان يقود جبهة نجد- ليرجعا إلى مصر، وجاء في الرسالة توصية خاصة بالمدينة المنورة حيث قال: المأمول أن تعينوا قائداً كفؤاً على عساكر المرتزقة الموجودين لديكم الآن وتتركوه في جهات المدينة المنورة، وعند تشريفكم منها إلى مكة المكرمة تستخدمون عساكر المرتزقة الذين يتركهم ولدانا أحمد باشا وخورشيد باشا فيما يقتضيه الوقت والحال(١)، وهذا يعني أن محمد علي قد حرص على المحافظة على القوات المجندة من الحجاز وغيرها وجعلها قوة للإدارة الجديدة وبخاصة في المدينة المنورة.

في أوائل ذي القعدة عام ١٢٥٥هـ نفذ الشريف محمد بن عون ماطلبه محمد علي باشا بدقة. فسافر مع قوة كبيرة إلى ينبع، حيث انضمت إليه القوات الموجودة فيها واشتغل بتأمين طريق الحجاج بين مكة والمدينة إلى نهاية موسم الحج

---

١) من وثائق ص ١٣٢-١٣٣.

ومع مطلع عام ١٢٥٦هـ بدأ حملته الواسعة ضد قبائل حرب، وضربها ضربة موجعة أوقع فيها عدداً من القتلى، وقبض على عدد من مشايخهما وأعيانهما ونشر أعداداً ضخمة من الجيش لتمشيط المنطقة والقبض على الفارين من وجه الحملة، واستعان بأنصاره من الحوازم وبالجنود الأكراد للوصول إلى رؤوس الجبال والمعاقل الوعرة، فلم يجد الحربيون بداً من الاستسلام، وطلب الأمان، وجاء عمد جبل الفقرة ومشايخه وترامو على الشريف، وأقسموا أنهم لن يرتكبوا أية غلطة بعد ذلك، وأنهم سينضمون إلى جيش الشريف لمعاقبة أية قبيلة يقع منها نهب أو تعد. فلما رأى الشريف حالهم، وتيقن صدقهم في أقوالهم واستسلامهم وأنهم (لايقع منهم بعدئذ شيء يخشى منه قبل استسلامهم ومنحهم الأمان ولكنه كان أكثر تحرزاً فبث العيون والجواسيس بينهم، كما بثها بين القبائل التي يحتمل أن تناصرهم(١).

وسكنت قبائل حرب تضمد جرحها الكبير، ودخلت في الطاعة، وتوجه الشريف محمد بن عون إلى المدينة المنورة ليمكث فيها بعض الوقت وليتأكد من استتباب الأمن وركون الحربيين إلى السلام.

انتعشت الأحوال في المدينة المنورة بعد هذه الأحداث وعادت قوافل التجارة والمؤن تسير إليها، وبدأت قوافل الجيش المنسحب من نجد تفد إليها شيئاً فشيئاً. ومنها تنتقل إلى ينبع فمصر. ومكث الشريف عون في المدينة عدة أشهر -من صفر إلى ذي القعدة ١٢٥٦هـ- وكانت مهمته الكبرى تأمين رحيل قوات محمد علي باشا من نجد ومن مناطق الحربيين، والمهمة الثانية إعادة ترتيب الأمور العسكرية والإدارية وفق النظام العثماني وتسليم الإدارات للقادة والموظفين. العثمانيين الذين بدؤوا يفدون إلى المدينة المنورة، وبدأت لجان من المصريين والعثمانيين والحجازيين إحصاء الأسلحة والذخائر والمؤن التي يتركها الجيش المغادر وتقدير قيمتها وإبقائها في أماكنها ليتسلمها

---

١) من وثائق ٢١٧- ٢١٨.

انسحاب جيش محمد علي:

تشير وثائق شبه الجزيرة العربية في زمن محمد علي باشا إلى أن الشريف محمد بن عون اجتهد في تنسيق رحيل القوات المنسحبة إلى مصر، وعمل بالتنسيق مع محافظ ينبع على إعداد السفن اللازمة وإرسال القوات على دفعات حسب توفر السفن، وتأمين المناطق التي يمر بها الجنود والتي يقطنها الحربيون، رفع أعطياتهم من القمح(١) لحاجتهم الشديدة إليه بناء على نصيحة أحمد باشا، وقد أنفقت الدولة بسخاء على تغطية عملية الانسحاب من نجد والمدينة، وبلغ ماأنفق فيها ثلاثة آلاف كيس أي مليون ونصف قرش(٢) وطبيعي أن يحدث هذا الانفاق السخي انتعاشاً في المنطقة بعامة.

المدينة تعود إلى السلطة العثمانية:

لم يحدث الشريف محمد بن عون تغييرات إدارية كبيرة وأبقى محافظها محرم بك في منصبه ريثما تصل الفرق العسكرية العثمانية. وقد وصلت أوائل هذه الفرق قبل أن يغادر الشريف المدينة، ووصلت أوامر بنقل شيخ الحرم عثمان باشا إلى مكة وجعله والياً عليها وتعيين نائبه شريف باشا شيخاً للحرم المدني.

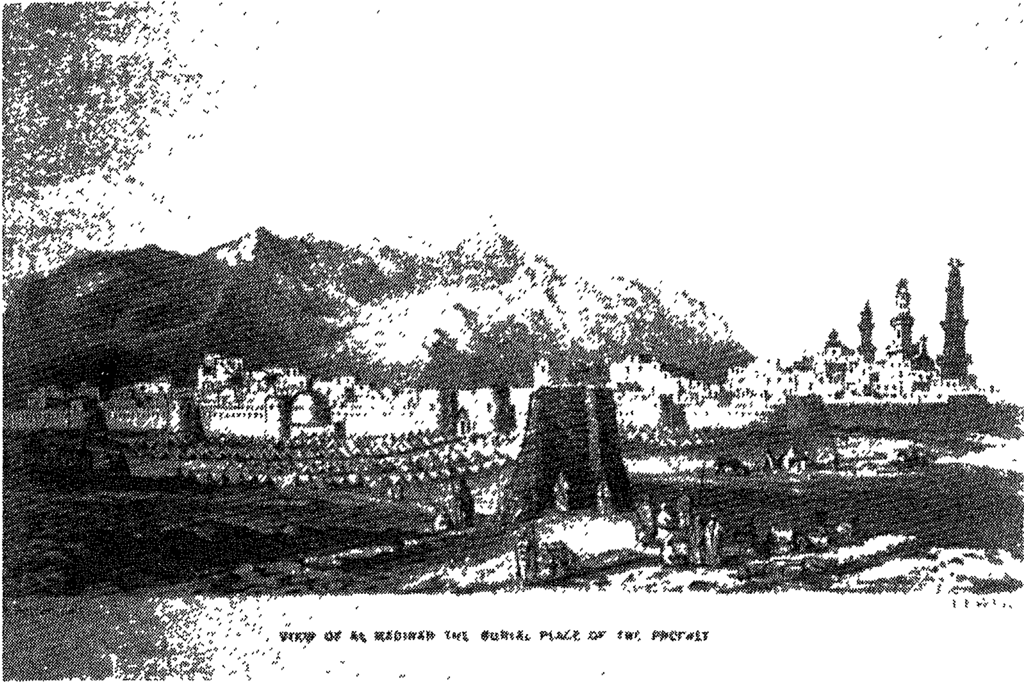
ومالبثت المدينة أن استكملت قوتها العسكرية الجديدة(٣) وهي كما وصفها أحد الكتاب (تتألف من ثلاثة (طوابير)، كل طابور عبارة عن ٣٥٠ نفراً بضباطهم وآلاتهم ومهماتهم، ولهم (قائمقام) وأمير (آلاي) (بمزيكتهم) وفي القلعة نحو المائة نفر (طوبجية) بمدافعهم (وجبه خانتهم) (ذخيرتهم) وحيوانات المدافع وحدادهم ومايلزم لهم، و(طابورين) (ضابطية) أحدهم

---

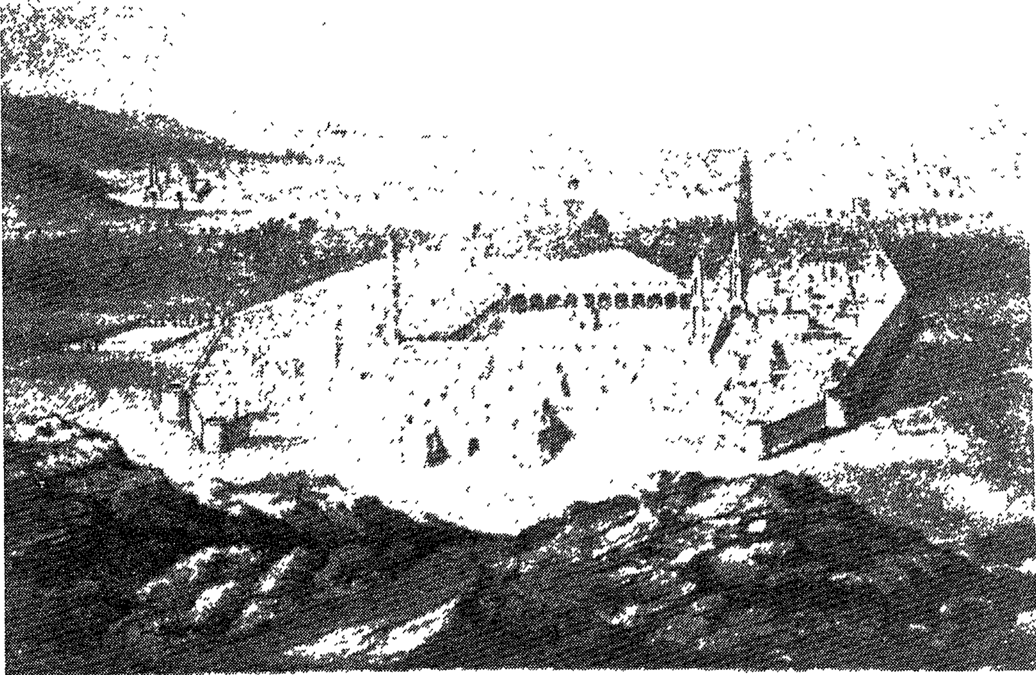
١) من وثائق ص ١٤٠.

٢) من وثائق ص ١٧٥-١٧٧.

٣) رسائل في وصف المدينة ص ٥٦.



المـدينة داخـل السور في القـرن الثالث عشـر الهجـري صـورة رسمهـا المستشرق الإنكليزي الرحالة برايتون



المدينة كما تبدو للقادم إليها من خارج السور. صورة رسمها المستشرق الرحالة برايتون في منتصف القرن الثالث عشر الهجري عندما زارها باسم «الحاج عبدالله»

سواري وعقيل والثاني بيادة ضابطية. وكل طابور موجود دون المائتين)(١).

محافظ جديد وإنجازات جديدة:

وفي عام ١٢٦٠هـ عين داود باشا الكرجي محافظاً للمدينة(٢) ولداود باشا تاريخ عريق، فقد تدرج من مملوك مستعرب إلى قائد للجيش في بغداد، ثم أصبح والياً عليها، وحاول أن ينفرد بالحكم بها ويستقل عن الدولة العثمانية، وبدأ -على طريقة محمد علي باشا- حركة نهضة علمية وصناعية وعسكرية كبيرة، وأسس جيشاً ضخماً، ولكن انتشار الطاعون في بغداد جعله يعجز عن مقاومة الدولة العثمانية، فتنازل عن الولاية وسافر إلى الآستانة، فأكرمه السلطان عبد المجيد ثم عينه محافظاً للمدينة المنورة وشيخاً للحرم النبوي.

كان داود باشا محباً للعلم، يتقن عدة لغات، وقد قدَّم للمدينة المنورة إنجازات علمية وعمرانية كثيرة.. من أهمها: إعادة تجديد الحرم النبوي وتوسعته. ويروي بعضهم أن داود باشا رأى تصدعاً في بعض جدران الحرم فكتب بذلك إلى السلطان عبد المجيد فصدر أمر السلطان ببناء المسجد من جديد (٣)، ويقرر بعضهم الآخر أن قبة من القباب المواجهة للحجرة النبوية سقطت على بعض الواقفين للزيارة فقضت عليهم فرفع الأمر للسلطان فأخذ في أسباب تجديده(٤).

تجديد المسجد النبوي وتوسعته:

بدأ العمل في تجديد المسجد النبوي وتوسعته عام ١٢٦٥هـ، واستمر اثني عشر عاماً حيث انتهى عام ١٢٧٧هـ وكان هذا البناء من أضخم العمارات

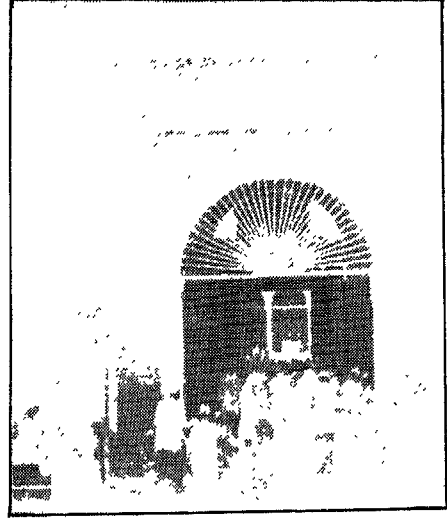
---

١) انظر: السابق نفسه.

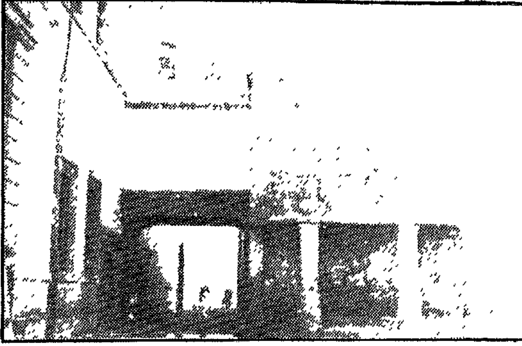
٢) الأعلام ٣٣١/٢.

٣) فصول من تاريخ المدينة ص ٧٨.

٤) انظر رسائل ص ٥٧-٥٨.



١ ـ باب المجيدي نسبة إلى السلطان عبد المجيد الـذي أمر بـالتوسعـة.



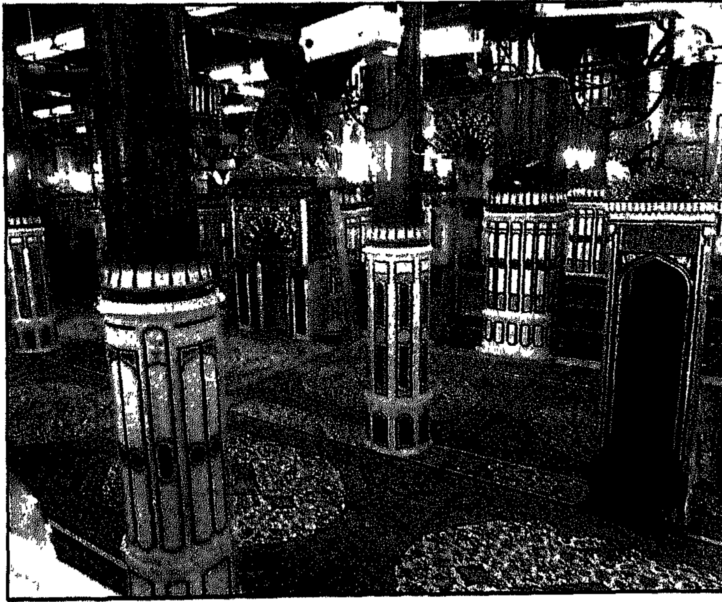
٢ ـ جـزء من باب المجيـدي ويتصل بـه مبنى مخزن الـزيت الذي يمـر من تحته الشارع ثم مبنى «الشرشورة» مكان تغسيل الموتى وتجهيزهم للدفن.



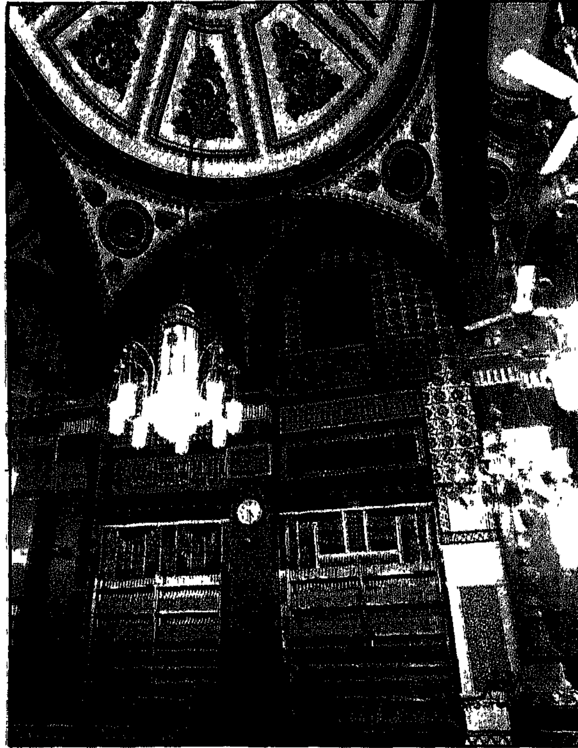
٣ ـ باب الرحمة بعد انتهاء التوسعة المجيدية وتلاحظ الزخارف الحجرية في أعلاه.



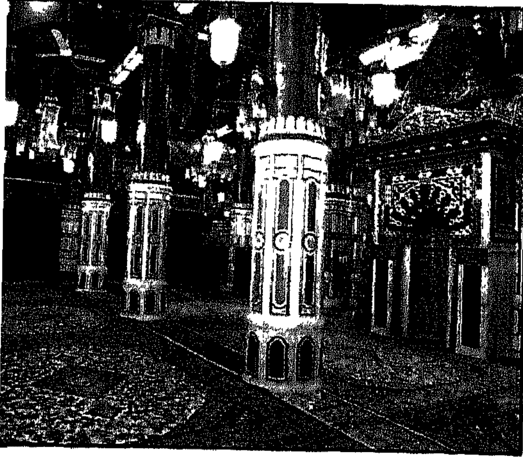
٤ ـ ساحة المسجد النبوى وقد غرست فيها بعض الأشجار وسماها بعضهم جنة فاطمة لقربها من بيت فاطمة رضي الله عنها.



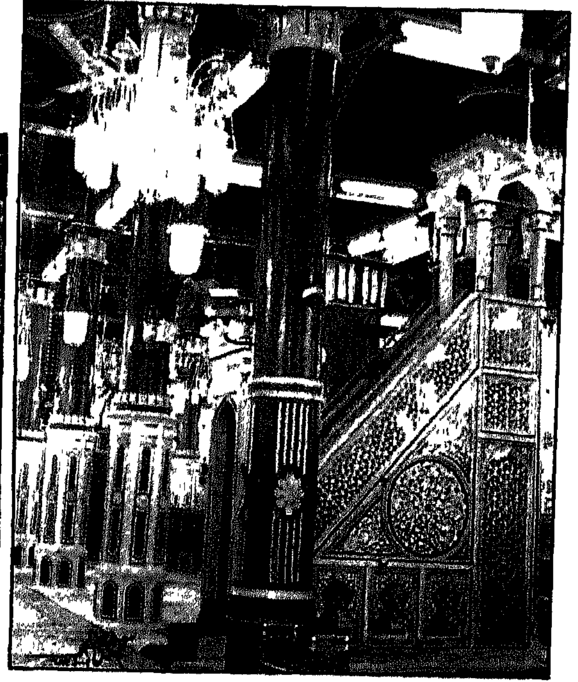
محراب رسول الله ﷺ والمنبر في الروضة في المسجد النبوي



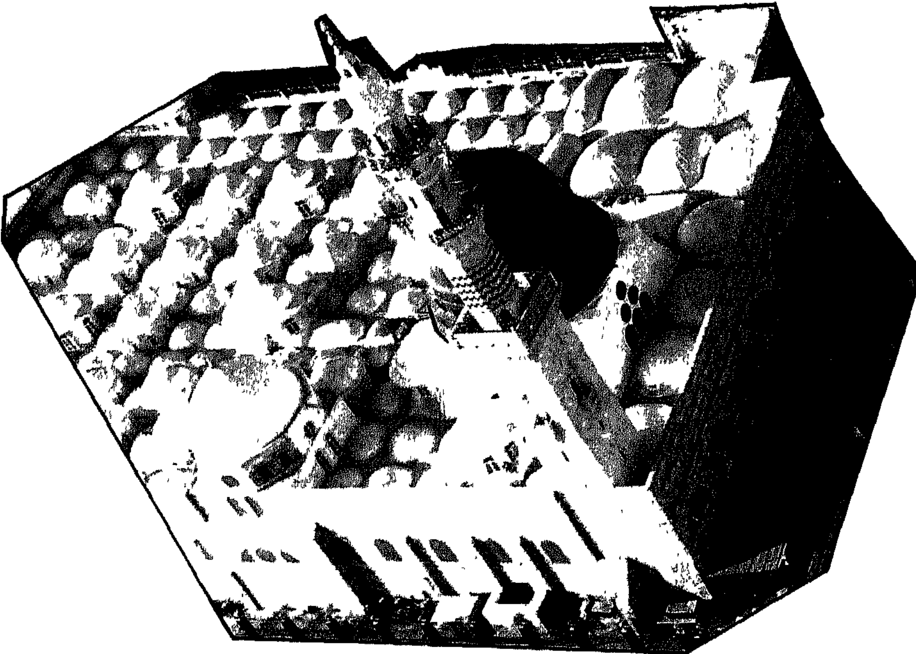
الفسيفساء والزخارف والآيات القرآنية والنقوش تزين جدران المسجد وقبابه في التوسعة العثمانية الأخيرة



المحراب القديم في المسجد النبوي وهو في موضع المحراب الـذي كان يصلي فيه رسول الله ﷺ..... صنع في التوسعة المجيدية



منبر المسجد النبوي



منظر علوي للمبنى الـرئيسي في البناء العثمـاني الأخير. وتبـذل الجهود الكبيرة لصيانته والمحافظة على شكله الأثري في أحسن حال

التي جرت في مسجد رسول الله ﷺ وأتقنها وأجملها إلى ذلك الوقت(١)، وقد أرسل السلطان عبد المجيد المهندسين والمأمورين والمعلمين والحجارين، وبعث معهم المهمات اللازمة والنقود الكافية(٢) وأقيمت (ورشة) بناء كبيرة حول المسجد. فيما تخير المهندسون والحجارون أحد الجبال في الحرة لقطع الأحجار السوداء منها، كما تخيروا جبلا أحمر قريباً من الجماوات في منطقة وادي العقيق على مسافة أربع ساعات غربي المدينة لعمل الإسطوانات من صخوره (٣)، وأشرف داود باشا على مرحلة مهمة من العمل ثم توفي قبل إنجازه. وقد وسع المسجد النبوي من جهتيه الشرقية الشمالية والجنوبية، وأحدثت بعض التعديلات في داخله، فهدمت قبة الزيت التي كانت في صحن المسجد وبني بدلاً منها مخزن جوار المئذنة الشمالية الغربية وأضيف باب بالجهة الشمالية سمي باب عبد المجيد، وأضيفت صالتان من الجهة الشمالية(٤).

عقود من الصمت:

كانت توسعة المسجد النبوي آخر حدث مهم في المدينة المنورة في القرن الثالث عشر الهجري، كما كانت شخصية داود باشا الكرجي أبرز شخصية رسمية تظهر في المدينة في النصف الثاني من هذا القرن، فبعد وفاته توالى عدد من المحافظين لانجد لهم أي أثر يذكر، ولا نجد في سجلات تلك الفترة أخباراً تلفت النظر، بل إننا لانجد أسماءهم كاملة ومدة تولي كل منهم منصبه على وجه التحديد.

وأغلب الظن أن الحياة في العقود الثلاثة من القرن الثالث عشر الهجري،

---

١) فصول من تاريخ المدينة ص ٨٨.

٢) المسجد النبوي عبر التاريخ ص ١٥٩.

٣) السابق ص ١٦٠.

٤) انظر تفصيلات هذه الزيادة في المصدر السابق ص ١٥٨-١٧٤

أي بعد وفاة داود باشا الكرجي عام ١٢٦٧هـ، وبعد الفراغ من إعادة بناء المسجد النبوي وتوسعته عام ١٢٧٤هـ لم تشهد المدينة أحداثاً مهمة، وجرت الحياة فيها هادئة وادعة، واستمرت كذلك كذلك عقداً آخر من مطالع القرن الرابع عشر، فقد أعادت الدولة العثمانية تنظيم الفرق العسكرية الموجودة في المدينة، وأصبحت ترسلها بكاملها من فرق الجيش المنظم، وخلافاً لما كانت عليه الفرق العسكرية قبل قرن من الزمان، لم يعد قادتها يتدخلون في شؤون المدينة، ولم تعد لهم السلطة والنفوذ خارج ثكناتهم، وأصبحت شخصية المحافظ هي القوة الإدارية الضابطة، ولم تعاود القبائل غاراتها على المدينة وإن كانت قد عاودت تعرضها لقوافل الحجاج وعاودت فرض الإتاوات عليها، بحجة حمايتها من المغيرين، واضطرت القوافل لدفع الإتاوات وتحدد الطريق الذي تسلكه قافلة المحمل الشامي الذي يبدأ من (استامبول) على شكل مجموعات متوالية، ثم يتجمع في دمشق وينطلق منها في وقت محدد ومعه حماية عسكرية كبيرة، وقد سمي الطريق الذي يسلكه الطريق السلطاني وكذلك تحدد طريق المحمل المصري، وتوالى قدومه إلى المدينة كل سنة، ومعه قوة عسكرية وبضعة مدافع لإرهاب الذين يتعرضون القافلة في الطريق ولقتالهم أحياناً، ولكن لم يعد لأمير المحمل سلطة التدخل في شؤون المدينة أو مكة، وعزل الأمير أو نائبه أو المحافظ أو أي من الموظفين، وبالعكس أصبح المحمل يعد نفسه منذ دخوله في منطقة المدينة أو منطقة مكة في حماية أميرها أو محافظها.

وتمر السنوات الهادئة، ولا جديد يذكر في حياة المدينة، إلى نهاية القرن الثالث عشر الهجري.

فهرس الجزء الثاني

المدينة المنورة في عهد العباسيين

المدينة في القرن الثالث الهجري

المدينة في القرن السابع الهجري

المدينة في القرن الثامن

